الدكتور عبد المنعم ماجد

العلاقات بين الشرق والغرب

في العصور الوسطى

الناشر
مكتبة الجامعة العربية
بيروت



العلاقات بين الشرق والغرب
في العصور الوسطى

العلاقات بين الشرق والغرب

في العصور الوسطى

تأليف
الدكتور عبد المنعم ماجد
الأستاذ المساعد بكلية الآداب بجامعة عين شمس بالقاهرة ،
والأستاذ بجامعة بيروت العربية

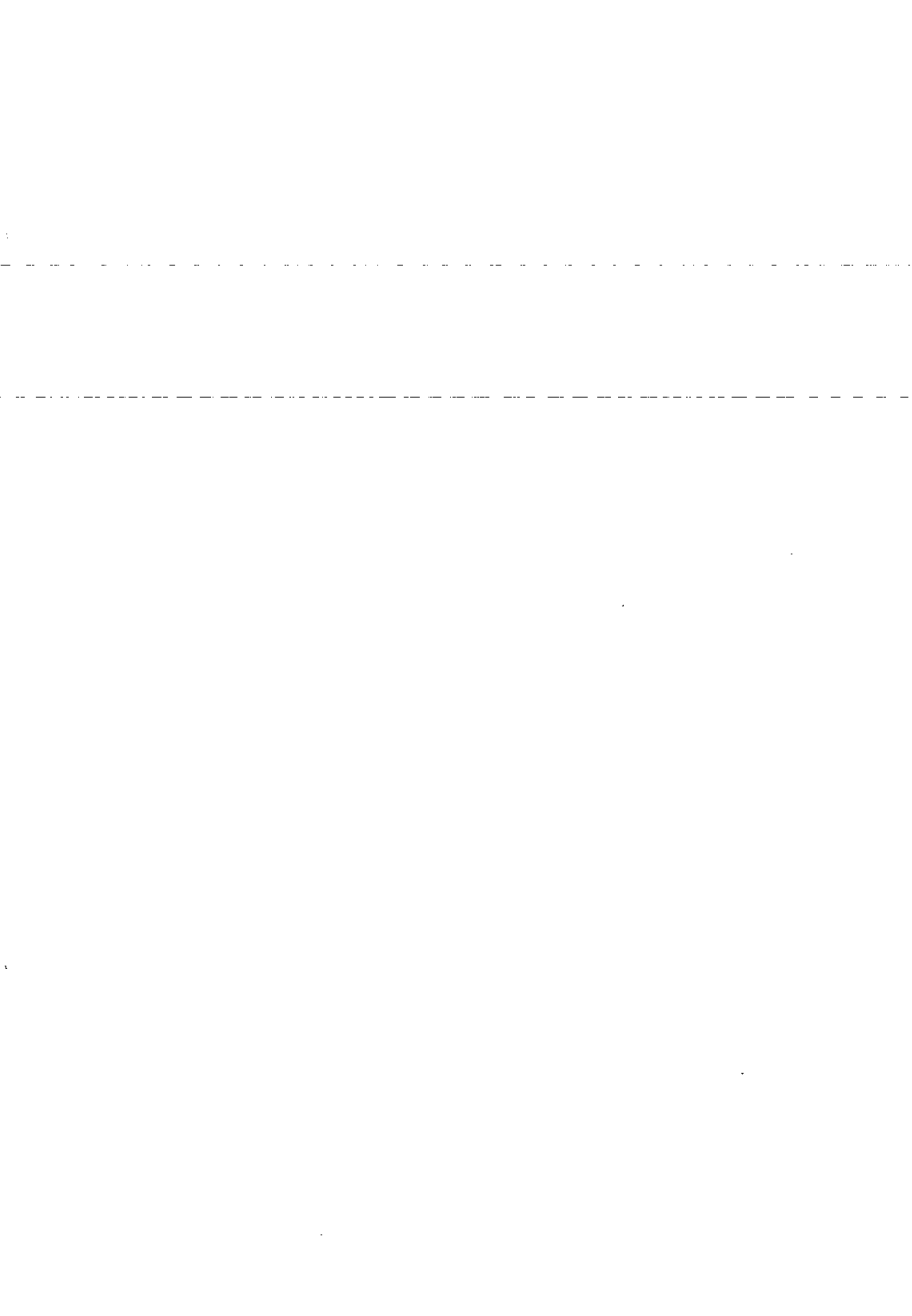
١٩٦٦

ملتزمة الطبع والنشر
مكتبة الجامعة العربية
بيروت



« يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَىٰ ،
وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ... »

القرآن الكريم



فهرست البحث

الفصل الثالث : الحروب الصليبية أو ما سُمي بحركة الإفرنج : الحملات الصليبية على الشام ومصر ، ورد الفعل الإسلامي – طرد المماليك للصليبيين من الشام نهائياً – تعقب فلولهم في قبرس ورودس – غزو العثمانيين للبلقان وجزر البحر الأبيض – أثر الإسلام الحضاري .

الفصل الرابع : حركة الإسترداد المسيحية في الأندلس أو ما سُمي بالركونكوستا : مبدأ الركونكوستا – سقوط دولة بني أمية ، وظهور ملوك الطوائف – تزعم قشتالة حركة الركونكوستا – رد فعل المسلمين بظهور دولتي المرابطين والموحدين –إزدياد حركة الركونكوستا بقيام دولتي : البرتغال وأرغون – دولة بني نصر ومقاومتها ، ثم سقوطها – أثر الإسلام الحضاري .

الخاتمة :

الجداول :

بسم الله الرحمن الرحيم

تمهيد

يتناول هذا المبحث تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى، ونقصد بالشرق بلاد المسلمين، أو ما سُمي بدار الإسلام، وبالغرب أوربا، أو ما سُمي أيضاً بلاد أفرنجة، نسبة إلى شعوب عُرفت بهذا الاسم، وهم غير الروم، الذين عرفهم المسلمون في الشرق على أنهم ورثة للرومان، وحاربوهم ونفوهم في آسية الصغرى.

والذي جر إلى وجود هذه العلاقات، هو قيام المسلمين بغزوات في بلاد الفرنجة، ولا سيما في أسبانيا وفرنسا، الواقعتين في غرب أوربا، وفي صقلّيّة وكالبريا الواقعتين في جنوب أوربا، وفي قبرس ورودس وكريت وسردينيا وكورسيكا وجزائر البليار ومالطة وغيرها من الجزائر المبعثرة في البحر الأبيض.

وتتميّز هذه العلاقات بثلاثة أدوار: الدور الأول غزو المسلمين للفرنجة في أوربا والإنتصار عليهم، والثاني تحول النصر إلى الفرنجة وغزوهم المسلمين في عقر دارهم في دار الإسلام؛ وهي الحروب التي عُرفت بالحروب الصليبية أو ما سماه المسلمون بحركة الإفرنج، والثالث طرد المسلمين للفرنجة من بلاد الإسلام، والعودة إلى غزوهم في أوربا، والإستيلاء على أجزاء من بلادهم، بقيت في أيدي العرب حتى العصر الحديث.

ومع ذلك، فإن هذه العلاقات في العصور الوسطى لم يكن يسودها العداء

والبغضاء دائماً ، بحكم التعصب الديني الذي سيطر عليها ؛ وإنما كانت توجد علاقات سلمية أيضاً ، على اعتبار أن الشعوب تتآخى بطبيعتها الإنسانية ، وتسعى في سبيل منافعها ، كما أن الأثر الحضاري كان قوياً ، نتيجة لتداخل حياة الشرق في الغرب وبالعكس ، بحكم الإتصال .

إن العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، هي استمرار للعلاقات التي قامت بينهما منذ الزمن القديم ، وكأنها أمر طبيعي ؛ لإتصال البشرية في أجزاء المعمورة . ولكنها ازدادت توثقاً في العصور الوسطى عمّا كانت في العصور القديمة ؛ بظهور الإسلام ، الذي كان يطمح للفتح ، وحاملاً لواء حضارة متفوقة باهرة .

فنحن – في هذا المبحث – نعرض ، أول مرة ، تاريخ علاقات العصور الوسطى ، من وجهة النظر الشرقية ، التي لم تظهر بوضوح في كتاب سابق . يُضاف إلى ذلك ، أننا وضعنا في المقام الأول الإعتماد على أوثق مصادرها التاريخية الشرقية والغربية ، وعرضها على أساس منهجي حديث . والله أسأل أن يوفقنا إلى سد الثغرات في تاريخنا، وإبراز صفحات مجدنا ونضالنا المشرّفين.

* المؤلف

---

* كل نسخة مباعة تكون ممضاة من المؤلف .

مقدّمة

حالة أوربا عند ظهور الإسلام

جغرافية أوربا – سكانها – ديانتها – الأحوال السياسية .

يجب أن نعرف أحوال أوربا عند ظهور الإسلام ؛ فهذا يسهّل علينا إدراك موضوع العلاقات بين الشرق والغرب .

*

فعلى حسب قول الجغرافيين المسلمين ؛ فإن أوربا هي : أوْرَفّى [١] ، وهي تسمية يونانية محرّفة Εὐρώπη (Europa) ؛ وذلك لعدم وجود الپاء في لغة الضاد . كذلك غلبت تسمية أخرى على أوربا سماها إياها الجغرافيون المسلمون أيضاً ، وهي : الأرض الكبيرة [٢] ، ربما لأنها في نظرهم أرض لا حدود لها ؛ مجاورة لأرض الروم .

ولقد كان جغرافيو الإسلام كاليونان والمصريين القدماء ، يقسّمون المعمور من الأرض إلى ثلاث قارات؛ إذ لم تكن الأمريكتان وإستراليا ونيوزلندا قد أكتشفت بعد . فبجانب أوربا ، توجد :لُوبِيَةَ [٣] ، التي بها مصر – مجمع

---

(١) ياقوت ، معجم البلدان ، مصر ١٣٢٣/١٩٠٦ ، ١ ص ٣٧١ .

(٢) أبو الفدا، تقويم البلدان، تحقيق Reinaud و de Slane ، ط. Paris ، ١٨٤٠ ، ص ١٦٦ و ١٦٩ ؛ ابن صاعد ، طبقات الأمم ، تحقيق شيخو ، بيروت ١٩١٢ ، ص ٦٤ .

(٣) معجم البلدان ، ٧ ص ٣٤١ .

القارات – حيث أطلقوا هذا الاسم على قارة : أفريقيا ؛ وإن كتبوا هذه الأخيرة بالتاء المربوطة : إفْرِيقِيّة [١] ؛ وقصدوا بها البلاد التي تقع قِبالة جزيرة صِقِلّيّة ؛ وربما تكون هذه التسمية مأخوذة من الاسم اللاتيني : Africa ، الذي أطلقه الرومان من قبل على هذه البلاد ، ثم عمّموه على القارة كلها ، كما توجد : آسيا [٢] ، ووصفوها بالكبرى ، لأن رقعتها أضعاف الأخريين في السعة .

وتُحد أوربا في نظر المسلمين غرباً [٣] بالبحر المحيط أو أوقيانوس أو الأطلسي أو الظلمة أو الظلمات أو المظلم أو الأخضر أو البحر الغربي أو الأعظم ، وهو الأتلانتيك، وشرقاً بخليج أو بحر القسطنطينية وهو بحر إيجه، وبحر بُنْطُس المحرّف أيضاً باسم نيطش ، وهو البحر الاسود ، وجنوباً ببحر الروم أو الإفرنج أو الشام أو المغرب أو الإسكندرية أو الأندلس أو الشرقي أو الأبيض ، وهو البحر المتوسط ، أما الشمال فلم يعرفوا تحديده ، وسموا بعضه الأرض المخسوفة [٤]– بمعنى غير المعروفة – وإن كانوا قد جعلوا البحر المحيط يطوف به أيضاً . ولقد أُعتبرت جزيرة رُودس أول المأهول من أوربا في الجنوب [٥] ، كما وُضعت القارة كلها بين الإقليمين الرابع والسابع ؛ فقد كان جغرافيو المسلمين يقسّمون شمال خط وسط الأرض – خط الأستواء – إلى سبعة أقاليم ، مقلّدين في ذلك اليونان والمصريين القدماء [٦] .

*

(١) نفسه ، ١ ص ٣٠٠ فما بعدها ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Ifrîkiya) t 2, p. 481 sqq.

(٢) نفسه ، ١ ص ٥٨ .

(٣) عن هذه البحار : معجم البلدان ، ٢ ص ٦٦ ، ٧٠ - ٧١ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Bahr al - Maghrib) t 1, p. 595.

(٤) الإدريسي ، نزهة المشتاق (في مكتبة جامعة القاهرة) ، من غير تاريخ ، الجزء الثامن من الاقليم السابع .

(٥) معجم البلدان ، ٤ ص ٣٠٠ .

(٦) المسعودي ، كتاب التنبيه والإشراف ، تحقيق de Gœje ، ١٨٩٤ ، ص ٣١ ؛ انظر . ماجد والبنا ، الأطلس التاريخي ، القاهرة ١٩٦٠ .

وعند ظهور الإسلام ، كان أغلب سكان أوربا المأهولة من جنس البحر الأبيض . نذكر منهم على الخصوص : العنصر اللاتيني Latini ، وهم الذين شملتهم الحضارة الرومانية ،أو ما عُرف بالإصطلاح : Pax Romana ،أي السلام الروماني . ولكن عرفت أوربا هجرات متعددة منذ أواخر القرن الثالث الميلادي – تُعتبر أحدث الهجرات – وهي الهجرات المعروفة باسم: المتبربرين Barbari [١] – مفردها Barbarus –تعني الهمج غير المتحضرين ، أي الذين لم تشملهم الحضارة الرومانية وربما يكون العرب من ناحيتهم ، قد اقتبسوا هذه الكلمة اللاتينية ، وحوروها إلى كلمة البربر[٢] ، وأطلقوها على المغاربة في شمال أفريقيا ، لأن بعض المتبربرين من أوربا كانوا انتقلوا إلى أفريقيا ، أو لكون غالبية المغاربة من قبائل البتر ، أي البدو غير المتحضرين .

وكانت أغلب هذه الهجرات إلى أوربا تنتسب إلى الجنس الآري – وهي من أصل أوربي، ثم انساحت في آسيا –يمثلها عنصر عُرف باسم :تيتون Teutones، أو دويتش Deutsch؛ وإن غلب عليه اسم :چرمان Germani [٣].وكانوا من أمم متعددة،حتى عُرفت هجراتهم بالغزوات الكبرى[٤] ، ووُصفوا للعرب بأن لهم ألسناً كثيرة[٥] ، وأن أممهم تميّزت بتقاليد وعادات متنافرة. وكانت هذه الجماعات الچرمانية تجول ، في أول الأمر ، خلال الأقاليم الأوربية، على حدود الدولة الرومانية Limes ، وبعد ذلك استقرت في المحيط اللاتيني في خدمة الرومان ، أو على حدودهم .

---

(١) أنظر مثلا : Lot : Les invasions barbares et le peuplement, de l'Europe. Paris, 1937.

(٢) عن هؤلاء : معجم البلدان ، ٢ ص ١٠٤ – ١٠٦ ؛ انظر. Ency. de l'Isl, art Berbères) t 1, p. 716 sqq.) . أو أن هذه التسمية عربية، لرطانة المغاربة بلغة غير مفهومة . ابن خلدون ، العبر ، ٦ ص ٨٩ .

(٣) عنهم بالتفصيل ، انظر . Hubert : Les Germains, 1952.

(٤) أنظر. Halphen: Les Barbares, des grandes invasions... 5éd.Paris.

(٥) صبح الأعشى ، ٥ ص ٤١٢ .

وفجأة جاءت إلى أوربا هجرات جديدة من أصل أسيوي – وإن لم تكن من الجنس الآري – عُرفت للأوربيين باسم : الهون Hunni [١] ، وللصينيين باسم : الهيونغ نو [٢] ، وسماها العرب في كتبهم : الهَياطلة[٣] . وقد ذكر أن أول ظهور هؤلاء على حدود الصين ، التي استولوا على شمالها ، ثم انتقلوا إلى بلاد ما وراء النهرين – أي جيحون – واستولوا عليها ، بحيث عُرفت بلاد ما وراء النهر أيضاً في كتب العرب باسمهم : هَيطل[٤] ، ثم انتقلوا إلى نواحي بحري: قزوين والأسود ، وهزموا عناصر إيرانية الأصل اسمها: أللاّن Alains – حيث ذكرهم العرب [٥]– ولأسباب مجهولة انتقل الهون إلى شرق أوربا ، وأخذوا يدمرون كل ما يقف أمامهم .

ولذلك اتفق اللاتين مع الجرمان ضد الهون ، وحدثت حرب حاسمة بين الطرفين ، وكان الهون بقيادة ملكهم أتيلا Attila ، واللاتين والجرمان بقيادة أيتيوس Aetius . فهُزم الهون هزيمة ساحقة قرب أعالي نهر السين في سنة ٤٥١م[٦] ، ولم تقم لهم بعدها قائمة في كل أوربا . وقد ترتبت على هزيمة الهون أن أمم الجرمان ، بعد أن كانت على حدود الدولة الرومانية ، انتشرت في ربوع هذه الدولة ، وزاد نفوذها في أوربا .

---

(١) عنهم ، انظر . Barthold : Histoire des Turcs d'Asie centrale, adap, Franc, par Mme Donskis — Paris, 1945, p. 18.
Gaud - Demombynes et Platonov : Le monde musulman et byzantin, jusqu'aux croisades. Paris, 1931, p. 1 sqq. ; سعد زغلول، الترك والمجتمعات التركية ، الإسكندرية ١٩٥٦ ، ص ٦٢ . يسميهم الهنود Huna .

(٢) أنظر . Cahun : Introduction à l'Histoire de l'Asie : Turcs, et Mongols, des origines à 1405. Paris, 1896, p. 87.

(٣) البلاذري ، فتوح البلدان ، ط . Leyden ، ص ٤٠٣ .

(٤) معجم البلدان ، ٨ ص ٤٨٨ .

(٥) عنهم: نفسه ١ ص ٣٢٤ – ٣٢٥ ؛ المسعودي، مروج الذهب ، ط . Paris، ٢ ص ٤٣ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Allân) t 1, p. 315.

(٦) أنظر . Camb. Med. Hist. 1, p. 280 - 1

وعلى عكس ما حدث للهون من عدم استقرار في أوربا ؛ فقد تمكنت من الاستقرار في شرقيّها أجناس أسيوية أخرى،أشهرها: عنصر السلاف Slavi ، وهذه ربما تكون كلمة كان يطلقها المحاربون أثناء الحرب ، فعُرفوا بها ، وهم الذين سماهم العرب : الصقالبة أو سقالب [1] ؛ ولعلها كلمة فرنسية الأصل : Esclave ، بمعنى الرقيق ؛ لأن الجرمان كانوا يسبونهم. وقد امتد العنصر السلافي، الذي سكن أولاً في بـلاد امتدت إلى نهر الفُلجا Volga — سماه العرب إتل [2] — مجاوراً لشعوب قوقازية ، من آسيا ، بالتدريج نحو أوربا .

أما مناطق شمال أوربا؛ فقد سكنتها عناصر شمالية Norsmen ، مجهولة الأصل ، أطلق العرب على بعضها اسم:المجوس[3]؛ذلك لأنهم في أثناء غاراتهم، كانوا يشعلون النار مثل الفرس المجوس ، الذين اتخذوا النار رمزاً لعبادتهم ؛ حتى أن العرب سموا أجزاء من البلاد الشمالية أرض المجوس . ومن الغريب أن جغرافيي العرب سموهم أيضاً: الروس ، ربمـــا لأن الروس [4] — وهم من العنصر السلافي — كانوا قد امتدوا إلى المناطق الشمالية.

*

وكان أغلب سكان أوربا وثنيين يعبدون آلهة متعددة ؛ ولكنهم تحولوا إلى المسيحية ، التي بشّر بها ، منذ عهد مبكر ، ولا سيما بين اللاتين ، القديسان بطرس وبولس في روما Roma ، عاصمـة الدولة الرومانية . وقد

---

(١) ابن رستة ، الأعلاق النفيسة ، ط . Leyden ، ١٨٩١ ، ص ١٤١ س ٩ ؛ معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Sakâliba) t 4, p. 79-88, ؛ (art Slaves) t4, p. 487 sqq. ؛ انظر . بعده .

(٢) معجم البلدان ، ١ ص ١٠٣ — ١٠٤ .

(٣) الإدريسي ، نزهة المشتاق ، الجزء الرابع من الإقليم السابع .

(٤) اليعقوبي ، البلدان ، B.G.A. ، ١٨٩٢ ، ص ٣٥٤ س ١٣ — ١٤ ؛ انظـــر . Ency . de l'Isl, (art Rûs) t 3 , p. 1262 .

(٥) معجم البلدان ، ٤ ص ٣٣١ فما بعدها ؛ ابن صاعد ، طبقات الأمم ، ص ٣٤ .

كان المسيحيون الأوائــل في أوربا يستميتون في سبيل عقيدتهم ؛ ولدينا قصص كثيرة عن تعذيبهم في الكلوزيم Colisium، ساحة الرياضة في روما. ولكن المسيحية أصبحت ديانة معترفاً بهـا منذ عام ٣١٣ م ، على يد الإمبراطور قنسطنطين الأكبر Constantinus (٣٠٦ – ٣٣٧ م) ، الذي جعلها إحدى الشرائع المصرّح باعتناقها Religio licitia [١] . ثم تنصر هذا الإمبراطور ، وجعل المسيحية الديانة الرسمية في الإمبراطورية : In hoc signo vinces ، وترك روما عاصمة الوثنية القديمة ، وانتقل إلى بيزنطة Byzantium ، وهي المدينة اليونانية القديمة ، الواقعة على خليج بحر القسطنطينية - وهو بحر مرمرا – التي أصبحت تُعرف باسمه : قُنسطَنْطينيّة Constantinople [٢] ؛ فكان ذلك مشجعاً لكثير من اللاتين الوثنيين على التحول إلى المسيحية ، كما بدأت الأمم الجرمانية أيضاً تتحول إلى المسيحية ، ولا سيما تلك التي دخلت المحيط اللاتيني . أما العناصر الأخرى السلافية والشمالية ؛ فقد تأخر تحولهـــا إلى المسيحية ، بل تحولت بعض العناصر السلافية إلى الإسلام [٣] .

وكان اعتناق الأوربيين للمسيحية ، وخصوصاً اللاتين والجرمان – في أول الأمر – على أساس المذهب الأريوسي ، نسبة إلى أريوس Arius (م ٣٣٦م) ، الذي أعلن البيزنطيون – وهم ورثة الرومان في الشرق – على بطلان عقيدته ، في مجمع نيقية Nicaea عام ٣٢٥ م ؛ ولدينا وصف لما حدث ، من رجل ديني معاصر اسمه : يوسيبيوس Eusebius [٤] (م ٣٤٠ م) ؛ وعلى ذلك ؛ أصبح اعتقاد الأوربيين منذ زمن مبكر يختلف عن اعتقاد البيزنطيين . فكان أريوس ، وهو كاهن مصري مثقف من الإسكندرية ، ينكر صفة الشبه بين

---

(١) أنظر . عاشور ، أوربا العصور الوسطى ، ط ٢ ، ص ٣٣ .

(٢) معجم البلدان ، ٧ ص ٨٦ - ٨٧ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Constantinople) t 1, p. 888 sqq.

(٣) معجم البلدان ، ٢ ص ٢٧٢ . « رسالة أحمد بن فضلان » . أنظر . بعده .

(٤) نص وترجمة انجليزية من Kinsop dlak بعنوان :
Eusèbius. The Ecclesiatical History. 2 vols. London, 1949 .

الأب والابن ، ويرى أن المنطق يقتضي الإعتراف بألوهيـة الأب وحـده ، وأن الابن مخلوق . وبهذا أنكر أريوس ألوهيـة المسيح . ولكن أثناسيوس Athanasius (م ٣٧٣ م)، وهو مصري أيضاً ، عرفه القبط باسم الأنباطناش؛ لم يقبل رأي أريوس ، وأيّد بيزنطة في عقيدتها . ومع أن عقيدة أثناسيوس سادت بعد ذلك في أوربا وبيزنطة ومصر؛إلا أنها تطورت في أوربا وبيزنطة، واختلفت عن عقيدة أثناسيوس الأصلية ، التي بقيت مصر محـافظة عليها ؛ ولا مراء ، فإن المسيحية انتشرت في مصر قبل أوربا وبيزنطة .

وقد كان انتقال قنسطنطين الأكبر إلى بيزنطة وتركه روما؛ مما أبرز قيمة روما المسيحية، التي أخذت الأهمية بسبب مجيء القديسين بطرس وبولس إليها[1]. وقوّى من شأنها تحول المتبربرين إلى المسيحية، عن طريق الرهبان الذين انتشروا في الأديرة البعيدة هرباً من الرومان الوثنيين. فكان من جراء ذلك أن ارتفع شأن أسقف روما ، واتخذ لكنيسته كرسياً يقف نـــداً للكرسي البيزنطي والمصري ، وما لبث أن اختص دون الكنائس الأخرى بلقب البابا (الحـــبر الأعظم)، بعد أن كان هذا اللقب لكرسي الإسكندرية وحده[2] . وحينما ضعفت سيطرة بيزنطـــة في أوربا ، وانعزلت في الشرق في آسية الصغرى ، وأصبحت يونانية أكثر مما هي لاتينية — حتى أطلق العرب عليها بالإضافة إلى اسم : بوزنطيا أو بيزنطية[3] ، نسبة إلى Byzantium ، اسم : الرومُ وليس الرومان —كانت روما تسيطر بسلطتها الروحية المطلقة على معظم المتبربرين في أوربا، واعترفت بالبابا ليو الأكبر Leo I (٤٤٠ — ٤٦١م) ، خليفة للقديس بطرس أول المبشرين فيها .

---

(١) أنظر . Rebillon : l'Eglise au moyen - âge. Papes, moines et conciles. Paris, 1904, p.19.

(٢) صبح ، ٥ ص ٤٧٢ .

(٣) معجم البلدان ، ٤ ص ٣٢٦ ومابعدها؛ انظر. Ency. de l'Isl, (art Rûm) t3 p. 1255. عن بوزنطيا ، انظر . أبو الفدا ، تقويم البلدان ، ط . Paris ، ص ٢١٢ ؛ معجم البلدان ، ٧ ص ٨٦ .

ويظهر نفوذ روما الروحي في وصف الجغرافيين العرب لها برومية العظمى، وأنها قاعدة الأرض الكبيرة، أي أوربا [1]؛ وبأنها ركن من أركان النصرانية، ومدينة عظيمة فيهـــا آلاف الكنائس والصوامع للرجال والنساء ، وأن البابا نفسه في مرتبة الخليفة في المسلمين وأكثر[2]. ويبدو نفوذ البابا قوياً ، في أن من كان يخالفه ، يعتبر عاصياً خاطئاً ، يستحق القتل والنفي، ويحرم من حقوق المسيحي وأكله وشربه ، والزواج من النصرانيات[3] . وهذا يعني أن أوربا التي نشأت بينها وبين المسلمين علاقات ؛ قد أصبحت غالبيتها في وقت المسلمين مسيحية ، وأن روما تسيطر عليها بنفوذها الروحي.

*

على كل حال، كان إنتقال الإمبراطور قنسطنطين الأكبر إلى الشرق في بيزنطة، سبباً في إنهيار الإمبراطورية الرومانية نهائياً ، وظهور ممالك قوية من عناصر المتبربرين في جميع أجزاء أوربا ، وأبرزها في غرب أوربا :

القوط Gothoi [4]، وهم من الجرمان، ظهروا في شمال أوربا ثم في شرقها، في حوالي القرن الثاني الميلادي ، ثم انتقلوا أمام ضغط الهون وقسوتهم ، إلى حدود الدولة الرومانية . وكانوا منقسمين إلى قسمين : Wisigoths من Wisi أو Weise أي عاقل ، و Ostrogoths من Austra أي لامع؛ كما أن المؤرخين

(١) ابن صاعد ، ص ٣٤ ، ٦٤ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٣٣١ فما بعدها .

(٢) قال أحد البابوات – وهو أنوسنت الثالث – إنه أقل من الله وأكبر من الإنسان : «Medius constitutus inter Deum et hominem. »؛ أنظر : Ullmann ، Principles of Government and Politics in the middle Ages. London, 1961, p. 5. ؛ هارتمان وبار اكلاف ، الدولة والإمبراطورية ، ترجمة وتعليق ، ص ٤٨ .

(٣) معجم البلدان ، ٤ ص ٣٣٢ .

(٤) لدينا عنهم مرجـــع قـــديم من تأليف إيزودور الإشبيلي Isidoro de Sevilla في «Historia de Regibus Ghothorum». أنظر: Pérez Pujol, Historia de las instituciones socialess de la Espana visigoda, t 3, Valencia , 1896 .

المحدثين يقسمونهم إلى غربيين وشرقيين ، وهو تقسيم لا يبدو أنه مأخوذ من اسميهما ، ولكن تم على أساس اتجاه كل منهما .

أما القوط الغربيون Wisigoths ؛ فقد طمعوا بسبب ضعف الرومان ، في إيطاليا بقيادة زعيمهم أليريك Alaric ، الذي غزا روما ونهبها في ٤١٠ م. ولكن الإمبراطور الروماني تخلص منهم بأن أعطاهم إقليماً في غرب أوربا يمتد حتى جبال البرتات Pyrenaei ، حيث أخذوا يتوسعون شيئاً فشيئاً في جنوبها، في البلاد التي عُرفت باسم: أسبانيا Spania أو Hispania ؛فاستولوا عليها من أمم الوندال Vandalos ، الذين على اسمهم ُسميت أسبانيا للعرب : الأنـُدلـُس [١] Vandalicia ؛ مما أدى إلى انتقال الوندال إلى شمال افريقيا بقيادة زعيمهم جَيْنسيرك Genséric سنة ٤٢٩ م . وقد تكونت مملكة موحدة للقوط الغربيين في أسبانيا على يــد ملكهم إيوريكو Eurico سنة ٤٦٧ م ، واتخذت ُطليْطلة [٢] Toletum (Toledo) ، عاصمة لها أو مدينة ملكية Cuidad Regi ، في عهــد الملك أتاناخيلدو Atanagildo في حوالي ٥٥٤ م ، ثم إن القوط الغربيين تحولوا رسمياً إلى الكاثوليكية ، بعد أن كانوا على المذهب الأريوسي في عهد ريكاريدو Recaredo سنة ٥٨٧ م [٣] . وقد أُعتبرت مملكة القوط الغربيين من أكبر ممالك النصارى في أوربا ، وهي التي بقيت حتى مجيء العرب .

وأما القوط الشرقيون [٤] Ostrogoths ، فحينما هاجمهم الهون في أوربا ،

---

(١) معجم البلدان ، ١ ص ٣٤٧ ، انظر . بعده .

(٢) نفسه ، ٦ ص ٥٦ - ٥٧ ، انظر . بعده .

(٣) انتشرت المسيحية الأريوسية بين القوط منذ عهد مبكر في حوالي ٣٤١م ، حينما ترجم أولفيلاس Ulphilas - أحد رسل البابا - الإنجيل إلى القوطية . أنظر . Bradley : The Goths. London. 5ed, p. 61 ؛ طرخان، دولة القوط الغربيين ، القاهره ١٩٥٨، ص ١٦٢ ؛ Rebillon : L'Eglise au moyen-âge, p. 15.

(٤) عنهم ، انظر . ما أورده Procopius : History of the Wars. Transl, by Dewing. London, 1886. vol 2.

لم يستطيعوا الفرار أمامهم ، وظلوا وقتاً خاضعين لهم . ولكن بعد إنكسار الهون ؛ طمعوا في إيطاليا كالقوط الغربيين ، واستولوا عليها بقيادة زعيمهم ثيودريك Theodoric سنة٤٨٨م. وبذلك تأسست دولة چرمانية في إيطاليا ، اتخذت رافنـّا Ravenna الواقعة في شمالها عاصمة لها ؛ واعتبر ثيودريك نفسه نائباً للإمبراطور البيزنطي. ولكن دولة القوط الشرقيين ما لبثت أن انهارت،حينما استعادت بيزنطة—بعد موت ثيودريك-بعض أجزاء من جنوب إيطاليا،وهجمت عناصر چرمانية فتية في شمال إيطاليا،وهي عناصر سماها العرب اللنبرديه [1] Longobards (Lombards) ، حيث عُرف السهل باسمهم ، الذي سماه العرب أيضاً بالأنكـَبُرْدة ، وأسسوا فيه مملكة على يد ألبوان Alboin .

الفرنجة Francs ، فهؤلاء أيضاً من الچرمان ، ظهروا في أوربا في وقت متأخر حوالي القرن الثالث الميلادي ، ولدينا نصوص تشير إلى أنها على معرفة بأصلهم في المرجع القديم المسمى أعمال الفرنجة : Gesta Francorum ، من مؤلف مجهول [2] . وقد أطلق العرب عليهم عدة تسميات ، هي : أفرنجـة أو الفرنج أو الإفرنج... [3]حيث ينسبونهم إلى جدهم الأول فـَرَنك Franc. ولكن هذه الكلمة من الناحية اللغوية تعني عند الأوربيين الصريح ؛ كما تبدو كلمة فرنسة أو أفرانسة Francia مشتقة منهـا ، التي ظهرت بمجـيء الفرنجة. وكان الفرنجة أمماً عديدة ؛ حتى أصبح اسمهم عند العرب يعني سكان أوربا عموماً . وقـد وحّدهم كلوفيس Clovis (٤٨٦ – ٥١١ م) ، الذي حارب معهم الرومان في بلاد الغال Gallia ، وهزمهم في موقعة سواسون Soissons ، كما حارب القوط وجعلهم يقتصرون على حدود أسبانيا ، وحارب الألمان Alamani ، الذين هم أيضاً من الچرمان،وأعلن نفسه ملكاً على الفرنجة

---

(١) صبح ، ٥ ص ٤١٥ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٣٦٣ . اسمهم مأخوذ من اسم حرابهم المسماة : Bardi .

(٢) له ترجمة عربية من حسن حبشي ، القاهرة ١٩٥٨ .

(٣) معجم البلدان ، ١ ص ٢٩٩ – ٣٠٠ ؛ صبح ، ٥ ص ٤١٢ ، ٤٨٥ ؛ ابن خلدون، العبر ، ص ٣٥٩ .

Rex Francorum ، أو ما كان يُعبّر عنه باللغة الدارجة Roi de France ، حيث اتخذ پاريس Paris (Lutetia) ، عاصمة له ، وقد كانت وقتئذ جزيرة صغيرة في نهر السين Sequana (Seine) . وقد عُرفت أسرة كلوڤيس بالدولة الميروڤنچيه Mérovingiens ، نسبة إلى جده Mérovée . وكان الفرنجة وثنيين ، فلما تزوج كلوڤيس من إمرأة مسيحية اسمها كلوتلدا Clotilda ، تحولت الفرنجة إلى المسيحية . وقد اعتبر العرب الفرنجة أمة عظيمة من أهم أمم المسيحيين في أوربا .

وبجانب هذه الممالك الجرمانية الكبرى ، قامت مراكز كثيرة لجماعات أخرى من الجرمان سماها العرب : الألمان أو الملانيين Alamani أو Alemanni ، حيث عُرفت بلادهم باسم : ألمانية[1] Alemania . وكان الألمان يحاربون مع الرومان ضد الهون . وبعد ضعف الرومان ، أصبح أغلبهم أمراء إقطاعيين مستقلين ، يعيشون في حصون Burgs ، يحاربون ضد الفرنجة المجاورين لهم ، حتى أنهم امتدوا إلى نهر الرون Rodanus (Rhône) — أو ما سماه العرب ردُونة — بحيث قسّم العرب برغنديا Burgundia ، الممتدة إلى هذا النهر قسمين[2] ، وسموهما : برغونية الملانيين ، وبرغونية الإفرنجيين . فكانت أشهر جماعات الألمان ، هي[3] : السكسون Saxons ، التي امتدت من الألب Alpes إلى الشمال في مقاطعاتها سكسونيا Saxonia ، والباڤاريون Baivarii في باڤاريا Bavaria (Bayern) ، على الدانوب الأعلى Danubius — أو ما سماه العرب دنو[4] — والأنجلي Angli (Angles) ، الذين أغاروا على إنجلترا England — سماها العرب أيضاً لنقطارة[5] — حيث أعطوها اسمهم .

---

(١) ابن صاعد ، طبقات الأمم ، ص ٣٤ س ٨ ؛ صبح ، ٥ ص ٤٠٣

(٢) نزهة المشتاق (جامعة القاهرة) ، الجزء الثاني من الإقليم الخامس . أنظر . ماجد والبنا ، أطلس ، خريطة رقم ١٥ .

(٣) من المؤرخين القدامى الذين تكلموا عنهم : Tacitus (حوالي ٥٥ - ١٢٠ م) ، في كتابه : [De origine, Situ, morbus, et Populis Germanie] .

(٤) أنظر . ماجد والبنا ، أطلس ، خريطة رقم ١٥ .

(٥) أنظر . نفسه .

وكذلك تكونت ممالك في شرق أوربا ، معظمهـــا من عنصر السلاف ، وأشهرها البُلغار [1] ، الذين ظهروا في القرن السادس الميلادي حول نهر الفلجا – إتل – ثم بدأوا يوطدون أقدامهم حول الدانوب – نهر دنو – منذ سنة ٦٠/٧٦٩ [2] ، وشاركوا الروم في البلقان ، حتى أن العرب لمـــا حاصروا القسطنطينية في عهد الخليفة الأموي سليمان بن عبد الملك في ٧١٦/٩٨ ، نزلوا في أراضيهم في البلقان ، التي سموها بُرجان [3] ؛ إذ قدّر البُلغار أنـــه إذا سقطت بيزنطة تحول العرب نحوهم . ويظهر أن مملكة البُلغار كانت كبيرة ، حتى أن عنصراً سلافياً آخر اسمه السِّرْب (الصرب) ، أُعتبر من مملكتهم . وكان البُلغار والسِّرب وثنيين ؛ وإن أسلم ملك البُلغار وشعبه في أيام العباسيين ؛ كما يظهر من رسالة أحمـد بن فضلان [4] ، الذي جال في بلادهم . ولكن البُلغار الذين تركوا آسيا إلى أوربا تحولوا إلى النصرانيـة ، وأصبحوا بالتدريج عضداً لدولة الروم فيها فيما بعد .

ثم نذكر مملكة **الروس** أو الرس [5] ، الذين عاشوا في آسيا متاخمـــين للبُلغار في أعالي الفلجا ، وامتدوا إلى البحر الأسود ، الذي يسميه المسعودي بحر الروس [6] أيضاً . وربما هم الذين أجبروا البُلغار وغيرهم من السلاف على

---

(١) معجم البلدان ، ٢ ص ٣٧٢ وما بعدها ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Bulghâr) t1, p. 805, sqq.

(٢) أنظر . O'hsson. : Des Peuples du Caucase. Paris, 1828 ,p, 23 sqq. ; Gaud - Plat : Monde Musulman et Byzantin, p. 454.

(٣) ابن الأثير ، الكامـــل ، طبعة القاهرة ١٣٥٧ هـ ، ٣ ص ١٤٧ ؛ انظر . مـــاجد ، التـــاريخ السياسي للدولة العربية ، ط ٣ ، ص ٢٤٨ . عن هـــذه البلاد ، انظر . صبح ، ٥ ص ٤٠٤ ، ٤٢١ . لا يعرف القلقشندي حقيقتهم .

(٤) صبح ، ٥ ص ٤١٧ – ٤١٨ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ٢٧٢ وما بعدها .

(٥) معجم البـــلدان ، ٤ ص ٣٠١ – ٣٠٦ ؛ الأصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق الحيني ، ص ١٣٢ ؛ انظر . Gaud-Plat. : Op. cit, p. 469 sqq ; Ency. de l'Isl, (art Rûs) t3, p. 1262 sqq.

(٦) المسعودي ، مروج الذهب، ط Paris ، ٢ ص ١٥ .

ترك أراضيهم في آسيا ، حيث يُكـــثر العرب من التحدث عن شجاعتهم وفروسيتهم . وبفضل زعيم اسمه رُورك Rurik ، توحّد الروس، وأنشأ عاصمة كييف Kiev . وتوسعوا في غرب أوربا ، فغزوا پولندا — ويسميها العرب بولونية - ووصلوا حتى هنغاريا عند نهر الدانوب « دنو » . وكان الروس مثل البُلغار وثنيين يعبدون الصور ، ولما انتشر الإسلام أرادوا التحول إليه، لولا أنه لم يعجبهم فيه تحريمه للخمر ، التي يشربونها بكثرة . ثم انتشرت بينهم المسيحيـــة على أساس المذهب البيزنطي ، خصوصاً لما تزوج ملكهم ڤلاديمير Vladimir ، من أخت إمبراطور بيزنطة بازيليوس الثاني Basilios II في عام ٩٨٥/٣٧٥ ، ومنذ ذلك الحين أصبحوا سنداً للروم [١] .

ونذكر مملكـــة في وسط أوربا وشرقيّها ، كان سكانها من عنصر الآڤاريين[٢] Avars (Abaroi) ، أجداد المجيار Magyars ، وهم من أصل تركي أو مغولي سكنوا الدانوب في هنغاريا الحاضرة ، فلعل هؤلاء هم من عناهم العرب بمملكة الهُنكر أو باشـغرد[٣] . ولقد تحول هؤلاء إلى المسيحية ؛ وإن وجد منهم بعض المسلمين .

وأخيراً في شمال أوربا ، كان يوجد من سماهم العرب : المجوس كما ذكرنا ، يمثلهم عنصر النورمان Normands (Northmans) ، الذين أنشأوا لهم ممالك شمالية[٤]، أخذت تتوسع في أنحاء القارة ووصلت إلى جنوبها . وكان النورمان مثل بقية المتبربرين في أول أمرهم من الوثنيين .

* *

---

(١) ابن الأثير ، الكامل ، ٧ ص ١٢٧ .
(٢) أنظر . Barthold : Op. cit, p. 19
(٣) معجم البلدان ، ٢ ص ٣٧ — ٣٨ .
(٤) أنظر . بعده .

هذه هي أجناس أوربا وممالكها ، التي كانت لها علاقة ببلاد المسلمين .

الفصل الأول

ناحية غرب أوربا

فتح المسلمين للأندلس – فتحهم لبلاد أفرانسة – الفتنة في الأندلس – مصرع الدولة الأموية وقيام العباسية – غزو الفرنجة لشمال الأندلس – الصلات الديبلوماسية بين الشرق والغرب .

والواقع أن العرب عرفوا الفرنجة أثناء توسعهم في المغرب ، وذلك لأن الوندال Vandalos [١] – وهم فرنجة – كانوا قد استقروا في شمال افريقيا ، بعد أن طردهم القوط الغربيون من أسبانيا . ولعل هؤلاء الوندال ، هم الذين سماهم العرب بالأفارق أو الأفارقة [٢] ، ووُصفوا بأنهم أخلاط من سلالة أجنبية ، وأصبحوا ضمن رعايا الروم، عندما استرد هؤلاء شمال افريقيا منهم؛ بحكم أن الروم ورثة الرومان . وعلى حسب قول ابن خلدون [٣] ، فإن دولة

(١) يسميهم Procopius أيضاً : Bandilois . أنظر .
Hist . of the Wars 2 : 2 ; 8 - 9 (p . 266 - 267) .

(٢) ابن عبد الحكم، فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق Torrey، ط New-Haven، ١٩٢٠ ، ص ١٧٠ س ١٠ – ١١ ؛ الكامل ، ٣ ص ١٣ س ٩ ؛ انظر . ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ٢ ص ٥٣ .

(٣) العبر ، ٦ ص ١٠٧ .

الروم في شمال افريقيا كانت من الفرنج في أغلبها ؛ وليست من الروم ، حتى أنه يعتبر ملكها جريجوريوس Gregorius ، الذي يسميه العرب جُرْجير من الفرنج ، وهو الذي حاربه العرب وقتله عبدالله بن الزبير في أيام الخليفة عثمان [1] ؛ وإن كانت نصوص أخرى تبيّن أن جُرجير هو عم هرقل Heraclius إمبراطور الروم [2] ، وأنه حقد على ابن أخيه لتوليته عرش الروم ، فاستقل بشمال افريقيا .

كذلك عرف العرب الفرنجة حينما استولى حسان بن النعمان الغساني على قرطاجنّة في ٦٩/٦٨٩ ، وهو الفاتح الحقيقي للمغرب، في عهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان . فقد قدّرت عناصر أوربية من قوط أسبانيا ،وعناصر لاتينية من إيطاليا ، أن سقوط قرطاجنّة فيه خطر على الدين المسيحي ؛ فجاءوا مع الروم ومعهم علامة الصليب لاستردادها [3] ، ولا سيما أن الروم في المغرب منذ انفصالهم عن روم الشرق ، قاموا في هذه النواحي بتشجيع بابوية روما [4] ، حامية الفرنجة وقتذاك . ثم إنه كان للقوط الغربيين أنفسهم عمال عديدون في بعض مدن على ساحل المغرب ، المقابل لأسبانيا ، ولا سيما في مدينة مشهورة عرفها العرب باسم : سَبْتَة Septa (Ceuta) [5] ، وهي مدينة حصينة داخلة في البحر كالكف ، صالحت عقبة بن نافع من قبل ، لما

---

(١) الأصفهاني ، الأغاني ، بولاق ١٢٨٥ هـ ، ٦ ص ٥٩ ؛ أنظر . ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ٢ ص ٥٦ - ٥٧ .

(٢) عن هذه القرابة ، انظر .Tauxier: Grégoire d'Afrique. Rev. Afr. 1885.

(٣) أنظر . Gibbon : The decline and fall of the Roman Empire, éd, Smeaton. London, 1950, 5, p. 360 .
يعتمد على كتاب ليون الإفريقي. وأيضاً . ماجد ، الدولة العربية ، ٢ ص ١٨٢ ، ٢٠٢ .

(٤) أنظر . Diehl et Marçais : Le Monde Oriental de 305 à 1081, dans Hist. Gen, t 3, p. 238 .

(٥) أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، تحقيق La Fuente y Alcantara، طبعة Madrid ، ١٨٦٧ ، ص ٤ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٢٦ - ٢٧ ؛ Ency . de l'Isl, (art Ceuta) t I, p. 857 sqq.

غزا هذه النواحي [١] . وعلى الرغم من أن طارق بن زياد ، مولى موسى ابن نصير ، الذي تولى حكم المغرب بعد حسان، قد استولى على طَنْجة[٢] Tingis المجاورة لسبتة ، والواقعة على المضيق الذي قبلهـا ، وهو يفصل بين ساحل المغرب والأندلس ؛ إلا أنه لم يستطيع أن يفتح سبتة ، وكان عليهـا وقتئذ رجل من القوط هو يُليان Julianus (Juliàn) .

★

ولكن الإصطدام العربي الكبير بالفرنجة ، كان في البلاد التي عُرفت قديماً باسم : إبارية Iberus 'Iberia [٣] ، أو باطقة [٤] Baetica ، وهذه الأخيرة أُطلقت فقط على جنوبها ، ثم عمّمت عليها، وعرفت للنصارى باسم : أشبانية أو أسبانيا [٥] Spania'Hispania ؛ وإن عرفها العرب بالاسم الأعجمي : الأنْدُلُش [٦] Vandalicia ، نسبة إلى قبائـــل الأندُلش Vandalos — وهم الونـدال — الذين سكنوهـا قبل القوط في أوائل القرن الخامس الميلادي ؛

---

(١) ليفي بروڤنسال ، نص جديد عن فتح العرب للمغرب لعبيد الله ، صحيفة المعهد المصري في مدريد ، المجلد ٢ ، ١٩٥٤ ، العدد ١ — ٢ ، ص ٢١٩ . يقول النص طنجة ، بدل سبتة .

(٢) فتوح البلدان ، ص ٢٣٠ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٦١ — ٦٢ ؛
Ency . de l'Isl, (art Tanger) t 4, p. 683.

(٣) ابن عبد المنعم الحميري، صفة جزيرة الأندلس، تصحيح وتعليق Lévi - Provençal، القاهرة ١٩٣٧ ص ٢ .

(٤) صبح ، ٥ ص ٢١١ — ٢١٢ .

(٥) صفة جزيرة الأندلس ، ص ١ ؛ انظر . Ency. (art al-Andalus) t I,p.354 قول ابن الأثير إنه اسم أحد ملوكها . أنظر . الكامل ، ٤ ص ١١٩ .

(٦) معجم البلدان ، ١ ص ٣٤٧ ؛ صبح ، ٥ ص ٢١١ — ٢١٣ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art al - Andalus) 1 t, p. 354 sqq. ; 2 éd t 1, p. 486 sqq .
L'Espagne musul . La conquête et l'Emirat, : Lévi - Prov.
Hispano - umaiyade (710 - 912) t1. Nouv. éd . Paris - Leiden, 1950 , pp. 18 - 39. ؛حسين مؤنس ، فجر الأندلس، ص ٤ .

وعرفوها أيضاً باسم: جزيرة الأندلس[1]، لإحاطة البحر بها من ثلاث جهات؛ كجزيرة العرب .

وهي بلاد واسعة على صورة مثلث تقع في جنوب غربي أوربا ، مقابل ساحل بلاد المغرب ، وتنفصل عنه بضيق: « خليج » ، عُرف قديماً باسم: Calpe ، وعرفه العرب باسم : بحر الزقاق أو مجاز الأندلس [2] ، وتمتد شمالاً إلى جبال البرتات أو البرينوه [3] Pyrenaei ، التي تفصلها عن أفرانسة أو ما يُسمى أيضاً بلاد أفرنجة العظمى [4] ، من بلاد الأرض الكبيرة الممتدة حتى روما (روميّة) [5] . ولقرب الأندلس من بلاد المغرب اعتبرها بعض الجغرافيين قسماً منها [6] .

ومن وصف هذه البلاد الجغرافي ، نعلم أنه تعترضها سلاسل جبلية متوازية أشهرها جبل الشارات أو الشاره [7] Sierras ، وهو يقع في وسطها،ويمتد من الشرق إلى الغرب ، ويقسّمها إلى نصفين . فكانت تسير في محاذاة الجبال وديان Guad أو Guadi عديدة ، تصل بين الساحل والداخل ، تجري فيها أنهار أشهرها : الوادي الكبير أو النهر الأعظم Guadalquivir ، وآنَه Guadiana ، وتاجُه Tagus (Tago) ،ودُويْرُه Duero ، وإبْرُه Ebro.

---

(١) معجم البلدان ، ١ ص ٣٥٠ .

(٢) نفسه ، ٤ ص٣٩٥ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٣٠؛ المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، تحقيق العريان والعربي ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٩ ؛ انظر .

Ency. de l'Isl, (art Bahr al - Maghrib) t I, p. 595

يقول ابن خلدون إن الأندلس كانت متصلة بالمغرب إلى أن ركبها البحر . العبر ، ٦ ص ٩٨ .

(٣) ابن غالب البلنسي ، قطعة من كتاب فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ، تحقيق لطفي عبد البديع ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٣٨ .

(٤) معجم البلدان ، ١ ص ٣٥٠ س ٥ .

(٥) تقويم البلدان ،ص ١٦٦ ، ١٦٩ ؛ ابن صاعد ، ص ٦٤ . قاعدتها رومية .

(٦) معجم البلدان ، ٨ ص ١٠٣ .

(٧) صبح ، ٥ ص ٢١٣ .

كذلك توجد فيها مناطق صخرية وعرة جداً، ولا سيا في الركن الشمالي الغربي منها ، المسمى : صخرة جِلّيقّية Gallaccia (Galicia) .

ويبدو أن أصول سكان شبه الجزيرة الأندلسية قريبة من أصول سكان البلاد الأوربية الجنوبية، تتمثل في عناصر أصيلة مثل: الأيبيرين Iberus [١] ، والبشكنس، أوالبشكنيس، أو البسقاوية[٢] أو البسكونس، وهم البنطو أو الباسك Basque (Escualdunac) ، الذين يعتبرون أنفسهم من أقدم الأصول. كذلك دخلتها عناصر أجنبية سكنت سواحلها مثل الفينيقيين ، الذين احتلوها إلى عهد هانيبال ، كما سكنتها عناصر يونانية . ولكن منذ الوقت ، الذي احتل فيه الرومان – الرمانيين [٣] – أسبانيا في ١٣٣ م ، وأصبحت فيه إقليماً Provincia رومانياً ؛ غلب على هذه البلاد العنصر اللاتيني ، حتى أن الهجرات التي أتتها بعدهم ، لم تستطع أن تغيّر الطابع اللاتيني ، كما أن اللغة اللاتينية أُستعملت إلى وقت مجيء العرب ، وهي التي سماها العرب العجمية أو الأعجمية أو اللطينية [٤] . وفي ظل حكم الرومان ، جاءت الأندلس أعداد كبيرة من اليهود، الذين كونوا قسماً مهماً فيها، ولا سيا في المدن[٥]. وفي القرن الخامس الميلادي ، جاءتها هجرات المتبربرين من عناصر چرمانية آرية ، انبثقت من وسط أوربا ، أهمها قبائل الأندلش [٦] أو الوندال ، الذين استولوا عليها من الرومان ، ثم جاءها القوط الغربيون ، حيث أخلوها أيضاً من الوندال ، الذين انتقلوا إلى شمال افريقيا . وقد تمكن

---

(١) أنظر . Brémond : Op. cit, p. 222.

(٢) الأصطخري ، مسالك ، تحقيق الحيني ، ص ٣٦ .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ١٦ س ٩ .

(٤) أنظر . Pidal : Origines del Espagnôl. 3 éd. Madrid, 1950, c.f. ; مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤١٧ .

(٥) أنظر . بعده .

(٦) الكامل، ٤ ص ١٧٩ ؛ انظر. قبله. يقول المراكشي من قبائل الإفرنج. المعجب، ص٧.

القوط من توطيد أقدامهم في جزيرة الأندلس ، حتى غلبوا عليها من كل مكان، وهم الذين يسميهم العرب بالتسمية العامة لكل سكان أوربا : الفرنجة ، وأيضاً العجم (١) .

ولكن وجود هذا الخليط من السكان، جعل هذه البلاد تعاني اضطرابات داخليـــة شديدة . فالعداوة بين القوط واللاتين أو بين العناصر الأولى من سكانها مثل البشكنس لم تهـــدأ (٢) . ومن ناحية أخرى ، كان من تحول القوط إلى المسيحية على أساس المذهب الأريوسي ، وتمسكهم به مدة طويلة قبل تحولهم إلى الأثناسيوسية– وهي التي تطورت في أوربا إلى الكاثوليكية – أن أوجدت المذهبين في أسبانيا ؛ وكان ذلك عـــاملاً من عوامل الاضطراب فيها ، وجعلها في عـــداء مع دولة أفرنجة العظمى المجاورة ، التي سارعت إلى إتخاذ الكاثوليكية مذهباً لها . كذلك كان تحول القوط إلى دين النصارى نفسه ، سببـــاً في ظهور عداء صليبي ضد اليهود من سكان الأندلس ؛ فكانوا يرغمونهم على التنصر (٣) ، وكل ملك من القوط يتخذ تعذيب اليهود أساساً لسياسته. فنحن لا ندهش إذا وجدنا اليهود في الأندلس، يئنون تحت ضغط حكم القوط ، ويُقبلون على المكايدة (٤) .

ثم إن المجتمع الأسباني كان مبنياً على أساس نظام الطبقات ؛ ممـــا أوجد الحزازات بينهـــا . فتأتي في طليعته طبقة رجال الدين ، الذين كانوا عدداً وفيراً ، يخضعون للبابا في روما ، ولا سيما بعد تحول القوط إلى مذهب روما الكاثوليكي ؛ فهم بذلك يكون خضوعهم لسلطة روحية أجنبية . يُضاف إلى ذلك غنى رجال الدين الفاحش؛ فكانوا يمتلكون الأراضي والأموال الكثيرة، حتى أن المؤرخ جيبون Gibbon قال عنهم : إن أسبانيا القوطيـــة « دولة

(١) نفسه ، ٤ ص ١٢٠ س ١٦ .

(٢) أنظر . Camb. Med. Hist. I, p. 291.

(٣) أنظر . Church and State in Wisigothic, Spain, : Zieyler. Washington, 1930, p. 121 , 165 - 196.

(٤) أنظر . l'Islam et les Races. Paris, 1922,t2, p.117.: Pierre André

يركبها القساوسة A priest ridden State . ثم يليهم طبقة النبلاء ومعظمهم من العنصر القوطي ؛ حيث قُسّمت البلاد إقطاعات بينهم[1]، بما فيها الأقاليم Provinciae والمدن Civitates ؛ فكان يحكم كل إقليم دوق Dux ، وكل مدينة قومس (كونت) Comes . فكان هؤلاء يتحكمون في السلطة التنفيذية ، فهم يقيمون المحاكم والجيوش ، ولهم ألقاب يتوارثونها . وأخيراً طبقة الرقيق Servi أو Esclavi ؛ وهي كبيرة جداً لأن العصور الوسطى لا تعرف غير طبقة متوسطة صغيرة ، وأغلبهم من الفلاحين أهالي البلاد الأصليين ؛ قبل مجيء القوط. فكان على الفلاحين أن يتنازلوا عن ثلث أراضيهم لمن يريد الأرض من القوط[2] ؛ وإن كانوا في الحقيقة يعملون لديهم كعبيد . بمعنى آخر أن المجتمع الأسباني مجتمع مختل ، قد بُني على أساس أن يكون هناك سادة منتفعون ، وهم رجال الدين والنبلاء ، وعبيد معدمون ، وهم أهالي البلاد الأصليون .

أما الدولة نفسها ؛ فكانت تعاني الإضطرابات من وجود النزاع على مبدأ الحكم : فقد كان نظام الحكم التقليدي هو النظام الملكي الإنتخابي ، عن طريق مجلس نبلاء القوط ، وأشراف البلاد ، وكبار رجال الدين، وأفراده يسمون: Seniores و Majores [3] . وقد كان إذا تولى الملك ؛ فإن الأشراف تبعث بأولادها الذكور والإناث إلى بلاط ملكهم ، دلالة على الولاء[4] . وكان ملوك القوط يقربون رجال الكنيسة ، لكي تساعدهم على إقامة دولة وراثية؛ مما جعل الكنيسة تتدخل في السياسة . ولكن النبلاء والأشراف

---

(١) Torres y Bances :
Instituciones ... de la Poninsula Hispanica durante los Siglos V-VII, en Historia de Espana, III , Madrid, 1940, cf .

(٢) أنظر ما أورد من تفصيل : العدوى ، المسلمون والجرمان ، ١٩٦٠ ، ص ١٠٣ .

(٣) أنظر . Legendre : Nouvelle Histoire d'Espagne. Paris, Op.cit, p. 223 : Brémond: 1928, p. 69-70 .

(٤) الكامل ، ٤ ص ١٢١ .

كانوا يريدون الإبقاء على مبدأ الإنتخاب . وقبل غزو العرب للأندلس ، حدث نزاع على تولي العرش : فيبدو أن الملك Witiza ، الذي يسميه العرب «غيطشة» ، أراد أن يورّث ابنه وقلة أو أخيلا Achila العرش ؛ فأغضب ذلك النبلاء وعلى رأسهم Rodrigo ، الذي يسميه العرب روذريق. كذلك كان غيطشة — كما يظهر من النصوص — يعارض قرارات البابوية ، ويحابي اليهود [1] ؛ مما أغضب رجال الدين أيضاً . وربما يكون روذريق قد قتل غيطشة ، وارتضى النبلاء به ملكاً [2] ؛ مما جعل أولاد غيطشة ، وعلى رأسهم أخيلا ، يفرون إلى المغرب الذي فيه العرب .

ومع ذلك ، لم تبيّن النصوص أسباب غزو العرب للأندلس ، بل تقدم أسطورة شاعرية ، وتجعلها السبب المباشر للغزو . فالكونت Julianus (Juliàn) ، ويسميه العرب يليان ، الذي كان يحكم سبتة على ساحل المغرب ، من قبل ملك القوط ، كان يريد أن يثأر لشرف ابنته فلورندا Florinda — وهي التي اشتهرت في الحكايات الشعبية الأندلسية باسم : كابا Cava [4] (لعلها القحبة) — التي كانت على قدر من الجمال ، تعمل كوصيفة في بلاط الملك ، الذي لحبها

---

(١) أنظر . Menéndez Pelayo : Historia de los Heterodoxos, Espanoles. Madrid, 1946, p. 367 - 368 ؛ مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٤٨٢ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٢١ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٥ . لدينا أسماء مختلفة ، منها : الأذريق (العيون والحدائق ، تحقيق Anspach, Juynboll طبعة Brill ، ١٨٧١ ، ص ٣) ، وهو يقول إنه لقب ملوك الأندلس ، كما هو لقب الأكاسرة ، أو لذريق (عبيد الله ، نص جديد ، ص ٢٢٤) ، أو أذرينوق . الكامل ، ٤ ص ١١٩ .

(٣) أنظر من مصادر عديدة : Alfonso el Sabio : Cronica General, (Neuve Biblioteca de Autores Españoles) . Madrid, 1906 ؛ الكامل ، ٤ ص ١٢١ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٥ — ٦ ؛ المراكشي ، المعجب ، ص ١٠ ؛ وغير ذلك .

(٤) أنظر . Le Romancero, trad. franc. par M . Pomès Paris, 1947, p. 30 - 31 .

وهي تستحم Banios de la Cava ؛ فاعتدى على عفافها ؛ لذلك سلم يليان سبتة إلى والي العرب بالمغرب ، وهو موسى بن نصـــير ، وحرضه على غزو الأندلس .

ولكن لا يمكن أن نمـــد هذا سبباً مباشراً لغزو الأندلس ، لتضارب الأقوال بخصوص هذه الأسطورة ؛ فيرى ، مثلاً ابن القوطية صاحب كتاب تاريخ إفتتاح الأندلس ، أن يليان تاجر من الروم ، كان يدخل قصر الملك ليتاجر [١] ، ولم يكن حاكماً لسبتة . بل إن المفكر ڤولتيرVoltaire، يشك في أن الملك يكون إنتهك عرض فلورندا[٢]. ونرى[٣]: أن غزو هذه البلاد قد يرجع إلى أن العرب المتوثبين للجهاد شعروا بضعف دولة القوط لإضطراب أحوالها الداخلية ، ولأن المجاعات والطواعين كانت قد إنتابتها سنوات عدة ، منذ سنة ٦٩٧/٧٨ ؛ مما أفقدها أكثر من نصف أهلها [٤] . ولقد كان لا بد لإتساع الفتح العربي الطبيعي أن يتجه نحو الشمال ، إذ أن المحيط يمنـــع من إنسياحهم في الغرب ، وصحراء نيسر تمنعهم في الجنوب ، ولعل العرب أيضاً أرادوا أن يُشغلوا البربر عن حربهم ؛ بتوجيههم نحو الفتوح ، بعد أن أسلموا وحَسُن إسلامهم . كذلك يبيّن المؤرخ المستشرق الأسباني سابدرا Saavedra [٥]، في أواخر القرن ١٩ م ، أن السبب الرئيسي في غزو العرب للأندلس ، هو تنازع حزب وقلة مع حزب روذريق ، وأن يليان كان من أنصار حزب وقلة ؛ ففي رأيه أن النزاع السياسي كان السبب المباشر لتدخل العرب . وعلى كل حال ، لا يمكن أن تكون قصة فلورندا

---

(١) ابن القوطية ، تاريخ افتتاح الأندلس ، تحقيق Ribera ، طبعة Madrid ، ١٨٦٨ ص ٧ - ٨ .

(٢) أنظر التعليق في Gibbon : .(1) Decline , 5 , p. 364 ; n

(٣) أنظر . ماجد ، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ٢ ص ٢٠١ .

(٤) أخبار مجموعة ، ص ٨ س ٨ - ٩ .

(٥) أنظر . Estudio Sobre la invasion de los Arabes en Espana. Madrid, 1882.

هي الباعث الأول للغزو ، حتى ولو كانت صحيحة ، بسبب هذه التحولات الجذرية في تاريخ الأندلس .

أضف إلى ذلك ، أن علاقة العرب بالقوط لم تكن حسنة إطلاقاً ؛ منذ أن توسع العرب في المغرب ، فكان الأسطول العربي منذ أيام عثمان يغزو شواطىء أسبانيا [١] . وربما كانوا يرون أن القسطنطينية تفتح من قبل الأندلس . كذلك اشترك القوط في الحملة التي أرسلها الروم لإسترداد قرطاجنة ؛ بحيث عد اشتراكهم فيها أشبه بحرب صليبية ضد المسلمين كما ذكرنا ؛ إذ جاؤوها ومعهم علامة الصليب [٢]. ويذكر صاحب أخبار مجموعة في فتح الأندلس [٣] ، أن طارقاً لما حاول الإستيلاء على سبتة ؛ التي كان يحكمها القوط في ساحل المغرب ، قاومته حتى أضطر إلى الرجوع عنها إلى طنجة ، وكانت المراكب تأتيها بالأمداد من الأندلس . ويكفي أن يكون الدين سبباً للعداء بين العرب والقوط ، كما كان هناك عداء بين العرب والروم ؛ سواء في شمال افريقيا أو في آسية الصغرى [٤] .

وقد عمل موسى بن نصير ، على إختبار الأندلس بالسرايا البحرية في أول الأمر — حرصاً على تنفيذ مشروع الغزو البري — بتوجيه من الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك [٥] . وتذكر الرواية العربية أن يليان هو الذي قدم المراكب إلى العرب ، ولكننا نشك في ذلك لأن العرب أصبحوا أمة بحرية منذ عهد عثمان ، ثم عظمت صولتهم في غرب البحر الأبيض ؛ باحتلال شواطىء المغرب الطويلة المقابلة للأندلس ، وبإنشاء دار صناعة للسفن في

---

(١) البيان ، ط . بيروت ، ٢ ص ٥ ؛ انظر . شكيب أرسلان ، الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية ، الجزء الأول ، مصر ١٣٥٥ هـ / ١٩٣٦ م ، ص ٢٣٦ وهامش .

(٢) أنظر . قبله .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٤ (أسفل الصفحة) .

(٤) أنظر . Gibbon Decline, 5, p. 363.

(٥) الكامل ، ٤ ص ١٢٢ س ١ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٥ – ٦ .

تونس ، على يد حسان بن النعمان ، وذلك بإيعاز من الخليفة عبد الملك [١] ؛ بعد أن استولى الروم على قرطاجنّة نهائياً ؛ إذ أن تونس قامت على أنقاض قرطاجنّة [٢] . فهاجم العرب في البحر جزيرتي :منورقة Palma minorca (Ménorca) ، وميورقة Palma majorca (Mallorca) ، قبالة ساحل الأندلس الشرقي ، أو ما عُرف بالجزائر الشرقية أو البحرية ، وهي جزائر البليار Baleares (Balearica) [٣] ؛ وغنموا من ميورقة ما لا يحصى [٤] ، ويبدو أنهما لم تكونا ضمن أملاك القوط . وفي سنة ٩١/٧١٠، غزا طريف ابن مالك ، وهو مولى لموسى ، مدينة في جنوب الأندلس ذاتها ، فعرفت فيما بعد باسمه : جزيرة طريف [٥] Tarifa . وفي سنة ٩٢/٧١٠-٧١١ ، ملك موسى جزيرة سَرْدَانِيَة في بحر المغرب [٦]، التي تُعتبر من أكبر الجزائر بعدالأندلس وصقلّيّة وكريت «أقْرِيطِش»؛ وإن كنّا لا نعرف ؛إن كانت هي الأخرى تابعة للقوط .

وبعد ذلك ، أرسل موسى في رجب سنة ٩٢/٧١١ [٧] ، جيشاً عدده حوالي سبعة آلاف ؛ جلهم من البربر والموالي ، الذين سماهم الأوربيون بالمور

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٠ س ١٣ .

(٢) معجم البلدان ، ٢ ص ٤٣٢ . يبدو أن اسم تونس مستحدث ، وأنه أطلق عليها فيما بعد .

(٣) الذهبي ، دول الإسلام ، حيدر آباد ١٣٦٥ هـ ، ط ٢ ، ١ ص ٤٢ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ١٠٤ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Baléares) t 1, p. 630 - 631.

(٤) الكامل ، ٤ ص ١١٢ .

(٥) نفسه ، ٤ ص ١٢٢ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Tarîf) ; (art Tarîfa) t 4, p. 699.

(٦) الكامل ، ٤ ص ١٢٢ ؛ معجم البلدان ، ٥ ص ٦٦ .

(٧) الكامل ، ٤ ص ١١٩ ؛ البيان (بيروت) ٢ ص ١٣ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٦ ؛ وغير ذلك من المصادر .

Moros (Moriscos) [1] ، وليس فيهم عرب إلا قليل ، بقيادة طارق ابن زياد . وقد أعد لهم موسى سفناً لتنقلهم ومعهم خيلهم [2] . ويبدو أنـــه لم تكن نساؤهم معهم في هذه المرة ، على عادة العرب في الفتوح ؛ إذ كان معظم الجمـــلة من البربر كما ذكرنا فاستولى طارق على جبل منيف ببحر الزقاق ، وهو ذو موقع استراتيجي ، يُعتبر مفتاح البحر الأبيض؛ فسُمي هذا الجبل : جبل طارق[3] إلى اليوم Gibraltar ، أو باسم : جبل الفتح [4]. وبعد ذلك نزل في مرسى جيد قبـــالة سبتة ، واقع على نهر بَرْباط في أرض الأندلس ذاتها ؛ سماه العرب بالجزيرة الخضراء [5] Algesiras (Algeciras) . وتقول الرواية إن طارقاً أحرق سفنه ؛ لكي يُعلي همم المقاتلة ، وقال كلمتـــه المشهورة : « البحر من ورائكم ، والعدو أمامكم [6] » . ولكنّنا نشك في رواية حرق السفن ؛ لأن موسى لم يلبث أن أرسل إليـــه مدداً من سفن كثيرة ، قبل الإشتباك في المعركة الحاسمة مع القوط ؛ بحيث أصبح عدد من وصله اثنا عشر ألفاً [7]. وكذلك مصدر آخر يذكر أن الإمدادات جاءته بمراكب جديدة . حتى أقبلوا نحوه من كل وجه ، وخرقوا البحر على كل ما قدروا عليه من مركب وقشر ؛ فلحقوا بطارق .. [8]

فلما سمع القوط بغزو العرب لبلادهم أسرع روذريق على رأس جيش كبير

---

(١) أنظر . Ency. de l'Isl, (art Maures) t3, p. 470; (art Moriscos) t 3 , p. 646-7.

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٧ .

(٣) المقري ، نفح الطيب ، طبعة الأزهر ١٣٠٢ هـ ، ١ ص ١٠٧ . وهي قديماً : Calpe أنظر . Ency. de l'Isl , (art Gibraltar) t2 , p. 179-180.

(٤) يقول ابن الأثـــير إن تسمية جبل الفتح ظهرت في عهـــد دولة الموحدين . الكامل ، ٤ ص ١٢٢ .

(٥) صفـــة ، ص ٨ ؛ انظر Lévi-Provençal : Hist de l'Espagne, p.20. عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٩٩ . وعن برباط ، انظر.المصدر الأخير ، ٢ ص ١٠٣ .

(٦) نفح الطيب، ١ص١١٢ ؛ ابن.قتيبة، الإمامة والسياسة، ١٣٢٢هـ، ٢ ص ١١٧-١١٨.

(٧) أخبار مجموعة ، ص ٧ س ١٠ .

(٨) ابن قتيبة ، الإمامة ، ٢ ص ١١٨ .

عدده نحو مائة ألف [١] ، وعليه تاجه وجميع حليّه [٢] ، للقضاء على جيش العرب ؛ الصاعد من الجزيرة الخضراء . فتقابل الجيشان في معركة حاسمة قرب نهر بَرْبَاط في وادي بكّة[٣] أو الكّة [٤] ، الذي كان يحيط بالبحيرة المعروفة باسم : بحيرة لاخاندا Lago de Janda ؛ ولذلك عُرفت الموقعة بالبحيرة . فانهزم روذريق أمام تصميم العرب وشجاعتهم ، وخروج أولاد الملك السابق وأتباعهم من المعركة [٥] ؛ مما كان سبباً لتعجيل الفتح . ولعل سبب خيانة هؤلاء على حد قول ابن الأثير ، بُغضهم لروذريق كما ذكرنا ، وظنهم أن العرب سيعودون إلى بلادهم إذا املأت أيديهم بالمال ، وعندئذ يبقى المُلك لهم [٦] ؛ فضلاً عمَّا أشاعه العرب عن أنفسهم من قسوة لإخافة عدوهم؛ حتى قيل إنهم طبخوا من قتلوه من الأسرى في القدور [٧] . ولم تُعرف نهاية روذريق ، فلعل طارق قتله [٨] ، أو أن روذريق غرق في النهر [٩] ، أو أنه قتل نفسه بعد هزيمته ، وهروبه إلى شمال الأندلس ، حيث أراد الاستمرار في المقاومة . وقد وجُدت لوحة ورد فيها : « هنا يرقد

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ٨ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١١٩ .

(٣) ابن القوطية ، ص ٧ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ١٢٢ ؛ انظر . Lévi-Provençal : Hist. de l'Esp, p. 21 et n (1).

(٥) أخبار مجموعة ، ص ٧ - ٨ ؛ ابن القوطية ، ص ٣ .

(٦) الكامل ، ٤ ص ١٢٢ .

(٧) ابن القوطية ، ص ٩ .

(٨) أخبار مجموعة ، ص ٩ . يقول المراكشي وغيره : قتل لذريق على يد طارق . المعجب ص ١١ ؛ الإمامة والسياسة ، ٢ ص ١١٨ .

(٩) الكامل ، ٤ ص ١٢٢. لم يعثر له إلا على خف مفضض. أنظر . البيان ،ط. بيروت، ٢ ص ١٢ ؛ انظر . حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٧٤ .

لُذريق ملـــك القوط »[1] : Hic requiescit Rudericus rex gothorum ؛ وإن كانت هزيمتــه الحاسمة على كل حال في ٢٨ رمضـــان سنة ٩٢ هـ / ١٩ يوليو ٧١١[2].

وبعد هذه الموقعة الحاسمة قوبل طارق بمقاومة أخرى جديـة من القوط أثناء تعقبه فلولهم في إسْتِجَة Astigi (Ecija) ، وهي بلاد ذات جبـــال شامخة ومعاقل ، ولم يلق بعدها حرباً مثلها[3] ؛ فلمـــا تغلب عليهم فرّق جيوشه إلى بلدان عـدة ؛ فتحت ما قصدت إليه[4] ، مثل قُرْطُـبَة[5] Cordûba (Cordoba) ، المدينة القديمة التي تقع في وسط البلاد، فاستولى المسلمون عليها في يوم بارد مطير، وجعلوها مركزاً ثابتاً لهم؛ وغَرْناطَـة أو إغرْناطــــة[6] Cranata (Granada) ، الواقعـــة على نهر سِنجِل[7] Singlis(Genil) ، ثم تقـــدم نحو طُلَيْطُلَة[8] Toletum (Toledo) ، العاصمة السياسية الحافـــلة بالمباني والآثار ، والواقعة على شاطـــىء نهر

---

(١) أنظر . Saavedra . Op. cit , p. 102-3. ؛حسين مؤنس، فجر، ص ٩٩ .

(٢) عبد الواحد المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبـار المغرب ، حققه العريان والعربي ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ٩ .

(٣) الكامـــل ، ٤ ص ١٢٢ س ٢٦ - ٢٧ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٩ - ١٠ . عنهـــا ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ٢٢٤ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ١٢٢ (آخر الصفحة) ، ١٢٣ .

(٥) أخبار مجموعة ، ص ١٠ - ١٢ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٥٣ - ٥٥ ؛ ابن غالب البلنسي ، ص ٣٩ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Cordoba) t 1, p. 899-900.

(٦) أخبار مجموعة ، ص ١٢ . عنها ، انظر . معجم البـــلدان ، ٦ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ ؛ انظر . Ency. de l'Isl , (art Grenade) t 2 , p. 186-187.

(٧) عنه ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ١٤٨ ؛ والمصادر السابقة .

(٨) الكامـل ، ٤ ص ١٢٢ (آخر سطر) و ١٢٣ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص٥٦ - ٥٧ ؛ Ency. de l'Isl , (art Tolède) t 4 , p. 852 sqq ; قبله ؛ (art Tage) t 4 , p. 637.

تاجُه Tagus (Tago) ؛ فهرب منها معظم سكانها ما عدا اليهود ، واستشهد فيها بعض المسلمين .

وكان طارق قد ابتعد عن قواعده ؛ مما هدد المسلمين بكارثة ؛ لأنه ترك في مؤخرته بلداناً كثيرة لم يتم فتحها ، فأسرع موسى إلى إنجـــاده في سنة ٩٣/٧١١ – ٧١٢ ، [١] بأن سار على رأس حملة جديدة عددها حوالى ثمانيـة آلاف ، معظمها من قبائل عرب الحجاز واليمن ، وترك طريق طارق ، وسار في طريق مخالف[٢] ؛ وبذلك احتل موسى البلاد الكثيرة التي تركهـا طارق وراءه، منها : إشبيـليـَة [٣] Hispalis (Sevilla) ، المدينة العظيمة القديمة ، التي تقـــع على نهر – مثـل دجـــلة والفرات – لا يُخـــاض ، هو وادي الكبـــير Guadalquivir ، ثم التقى بطـارق في طليطـــلة . وتذكر الرواية العربية قصة لا تكـــاد تقف على قدميها ؛ هي أن موسى فعل ذلك حسداً لطارق على نجاحه، ولم يتخذ طريقه إباءً . ولما خرج طارق لاستقباله ضربه موسى بالسوط على رأسه ووبخه [٤] ؛ إذ كان أصـدر الأمر إليه بألا يغرّر بالمسلمين ، أو يجاوز قرطبة. ولكنّنا نرى أن مجيء موسى كان لحفظ أعقاب طارق ؛ وخصوصاً أن طارقاً كان قـد استنجد به من قبل، وأرسل إليه بالمدد [٥] ؛ كما أنهما يسيران للفتح معاً . ويؤيد ذلك قول ابن قتيبة في كتابه الإمامة والسياسة[٦] : «إن موسى عبر بناء على إستغاثة وجهها إليه طارق»؛ فهو لم يكن بطبيعة الحال جاهلاً لما يفعله طارق، الذي وصل طليطلة .

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ١٥ .
(٢) الكامل ، ٤ ص ١٢٣ س ١٣
(٣) نفسه ؛ أخبار مجموعة ، ص ١٦ وما بعدها . عنها، انظر.معجم البلدان ، ١ ص٢٥٤؛ Ency. de l'Isl, (art Séville) t 4, p. 243 sqq; (art Guadalquivir) t2, p. 188-189.
(٤) الكامل ، ٤ ص ١٢٣ ؛ المعجب ، ص ١١
(٥) أخبار مجموعة ، ص ٧ ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربية، ٢ ص ٢٠٦ .
(٦) الإمامة، ٢ ص ١١٨.

ترك القائدان طليطلة إلى الشمال [١] ، وفتحا مدناً كثيرة ، مثل المدينة الكبيرة سَرَقُسْطَة [٢] Caesarea Augusta (Zaragoza) – على اسم الإمبراطور الروماني أغسطس Augustus – حتى وصلا إلى أطراف بلاد الأندلس الشمالية ؛ فقد كان للقضاء على دولة القوط في الجنوب ، أثره في جعل مدن الشمال تسقط واحدة بعد أخرى . ولكن المسلمين أهملوا فتح ناحية جِلِّقيّة [٣] Gallaccia (Galicia) ، وهي منطقة جبلية صخرية ، تقع قرب ساحل المحيط في أقصى شمال الأندلس من جهـــة الغرب ؛ فبقيت بأيدي الأعـــداء ، حتى أن بقايا القوط التجأوا إليها ؛ والسبب في هذا هو أن العرب لا يسيرون إلا في السهول . والواقع أن هذه الناحية ، التي لم تفتح بقيت مدخراً للقومية الأسبانية ، فخرجت منها فيما بعد الحركة المعروفة بالإنتقام من المسلمين Reconquista [٤] ؛ لتطرد المسلمين من الأندلس ، بعد بقائهم فيها حوالي ثمانية قرون .

ويبدو أنه كان في نية موسى أن يربط بين العرب في الأندلس ، والعرب المحاربين في آسية الصغرى ، بفتح بلاد الأرض الكبيرة الممتدة من الأندلس حتى القسطنطينية [٥] ، التي كانت بيد الفرنج ، والوصول إلى القسطنطينية من هـــذا الطريق [٦] . ولكن الوليد أرسل إلى موسى رسولاً في سنـــة ٩٥/٧١٣ ، يدعوه إلى ترك ذلك [٧] ؛ إذ كان ينتظر وصول موسى بفروغ صبر ، بعد

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ١٩ .

(٢) نفح ، ١ ص ١٢٨ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٧١ - ٧٣ ؛ Ency. de, l'Isl, (art Saragosse) t4, p. 161 sqq.

(٣) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ١٣١ ؛ وبعده .

(٤) أنظر . بعده بتفصيل .

(٥) أنظر . قبله .

(٦) نفح الطيب ، ١ ص ١٠٨ .

(٧) نفسه ، ١ ص ١٢٩ .

أن تحقق على يديه هذا الفتح العظيم ؛ وإن كان موسى لم يكن يريد العودة قبل أن ينفّذ على الأقل إحتياطات حفظ البلاد التي فتحها ، حتى أُضطر الخليفة إلى إرسال رسول آخر .

فعاد موسى وطارق ، ومعهما من طرائف الذخائر والجوهر والأمتعة ما لا يحصى ، والأسرى الكثيرين ، منهم ثلاثون ألف بكر من بنات ملوك القوط وأعيانهم . كذلك كان قد ورد على الوليد أبناء ملك القوط السابق ، الذين خرجوا على روذريق ، فأعطاهم الخليفة ما وعدهم به طارق [1]، ورجع معظمهم إلى الأندلس بعد ذلك ، ليعيشوا حياة مستقرة ، مثل وقلة الذي عاش آمناً في طليطلة ؛ كما يذكر المؤرخ الأسباني سابدرا أن يليان أسلم وأسلم أولاده [2] .

وبذلك قضى العرب على دولة كبرى من دول الفرنجة ، كما كانوا أيضاً قد قضوا على الفرس في الشرق ، وحاربوا الروم وأخذوا مستعمراتهم ، ونفوهم إلى آسية الصغرى . وهذا الفتح العظيم في أوربا ، لم يأخذ من العرب أكثر من ثلاث سنوات، وهو الفتح الذي جعلهم يستقرون في الأندلس ثمانية قرون، ويعتبرون الأندلس مثل : الكم في ثوب الإسلام [3] .

*

والواقع أن العرب منذ أن فتحوا الأندلس ، تطلعوا أيضاً إلى الغارة في الأراضي الواسعة المجاورة لها ، الواقعة في شمال جبال البرتات أو البرت أو البرنيوه[4] Pyrenaei ، وهي التي عرفها العرب أيضاً باسم : الجبل الحاجز

---

(١) ابن القوطية ، ص ٤ .

(٢) Saavedra : Op. cit, p. 104 - 105 .

(٣) الأصطخري ، مسالك، تحقيق الحيني ، ص ١٩ .

(٤) أنظر . قبله

أو الفاصل [١] ؛ لأنها تفصل بلاد الأندلس عنها . فكان هدف العرب التالي هو فتح البلاد المجاورة للأندلس ، التي عرفوهـا باسم : بلاد أفرنجة العظمى [٢] ، على اسم أمة كما ذكرنا ، وقد اشتق منه اسم : أفرانسة [٣] Francia ، الدال عليها أيضاً في العصور الوسطى ، ثم أصبح فرنسا الحالية France . فكانت هذه البلاد جزءاً من بلاد أفرنجة – وهو اسم عام لأوربا– التي امتدت جنوباً إلى رودس [٤] ، أو جزءاً من الأرض الكبيرة ، الممتدة من المحيط إلى القسطنطينية ، وقاعدتها روميّة مقر البابا [٥] .

وهي بلاد واسعة ، على صورة مربع ، مقفولة بالجبال والبحار : فجبال البرتات والبحر الأبيض في الجنوب ، وجبال الألب في الشرق ، ويسميهـا العرب نيت جون [٦] ، والمحيط أو أوقيانوس في الغرب والشمال. ومع ذلك، فكانت تفصلها في مناطق الجبال من ناحية الأندلس دروب ، سماها العرب الأبواب[٧] Puertos – مفردها Puerta – ثم عمموا التسمية على الجبال ذاتها ، فسميت البرتات كما ذكرنا ، أو أيضاً الثنايا لوجود هذه الممرات فيها . فكان أشهر ممراتها ممر رُنشفالة [٨] Roncesvalles ، المجاور لأوقيانوس ، يسميه العرب باب الشذري أو باب شيزروا ، ترجمـة للاسم الروماني : Portus Sizarae .

ومن وصف هذه البلاد الجغرافي ، فإنه يُوجد في الداخل مناطق سهول ، تخترقها عدة أنهار ، وردت لنا بعض أسمائها العربية في خرائط الجغرافيين

---

(١) تقويم البلدان ، ص ١٦٩ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٣٥٠ ؛ انظر . قبله

(٢) معجم البلدان ، ١ ص ٣٥٠ س ٥

(٣) ابن صاعد ، ص ٣٤ ؛ صبح ، ٥ ص ٤١٢ ؛ المراكش، المعجب ، ص ٦ .

(٤) معجم البلدان ، ٤ ص ٣٠٠ س ١١ – ١٢ .

(٥) ابن صاعد ، ص ٦٤ .

(٦) أنظر . ماجد والبنا ، الأطلس التاريخي ، خريطة رقم ١٥ .

(٧) معجم البلدان ، ١ ص ٣٥٠ س ١٠ ؛ المقري ، نفح الطيب ، ١ ص ١٠٩ س ١١

(٨) أنظر . أرسلان ، الحلل السندسية ، ٢ ص ١٠٩ ، ١١٠.

العرب ، أو أنها ُخطت في خرائطهم دون ذكر أسمائها ، أُشهرها عندهم نهر الرون Rhône ، الذي يصب في البحر الأبيض ، ويسميـــه العرب ردُونة ، لعله مشتق من اسمه اللاتيني Rodanus[1] .

ويبدو أن أصول سكانها الأوائل ، تشبه إلى حد ما أصول سكان الأندلس وأجزاء أخرى أوربيـــة ؛ وإن تمثلت في عناصر عدة ، مثل: الليجيريون Ligures[2] ، وهم خليط من سكانها الأصليين،والكلتيون[3] Celtae ، الذين انتشروا في كل أنحاء أوربا إلى شمالها في وقت ما ؛ وإن انسحبوا إلى غربها ، ليحل محلهم الچرمان ، والبشكنس أو البسكونس Basque ، الذين سكنوا جبال البرتات من الناحيتين في الأندلس وفرنسة . ومنذ ما احتلها الرومان ، وأصبحت مقاطعة رومانية Provincia ، كثر فيها العنصر اللاتيني ، حتى أن الهجرات التي أتتها بعد ذلك صُبغت بصبغة لاتينية . وقد جاءتها موجـات المتبربرين من عناصر آرية چرمانية ، انبثقت من وسط أوربا ، أهمهـــا : الوندال Vandalos والقوط الغربيون Gothoi ، الذين ما لبثوا أن امتـدوا عبر جبال البرتات إلى الأندلس . ولكن عناصر أخرى من الچرمان تُعرف بالفرنجة Francs أو Franks ،استقرت في أجزاء كثيرة في هذه البلاد،وانتشرت هي الأخرى من الشمال حتى البرتات، وربما هم الذين طردوا القوط إلى الجنوب، بحيث غلب اسم الفرنجة على كل البلاد في أوربا . ومع ذلك ، فقد تمكن من الإستقرار في شرقيها جماعة چرمانية أخرى ُعرفت بالبرغنديين ؛ بحيث أن البلاد الـــتي وجدوا فيها ؛ عرفها العرب باسم : برغونية الإفرنجيين .

وكان وجود هذا الخليط الإثنلوجي المعقد من السكان ، أن جعل هـــذه البلاد تعاني اضطرابات داخلية ، شأن البلاد الأوربية الأخرى . فالعداوة بين الفرنجة والقوط كانت على أشدها ، ولا سيما بعد أن تحول الفرنجة إلى المسيحية

---

(١) نفح الطيب، ١ ص ١١٠ س ٤ ، ١٢٨ س ٢٢ ؛ انظر . مؤنس ، فجر ، ص١٠٢.

(٢) أنظر . Brémond : Op. cit, p. 247 - 8.

(٣) أنظر . Ibid, p. 284 sqq

على أساس المذهب الكاثوليكي ، في حين تحول القوط في أول الأمر إلى المذهب الأريوسي ؛ وكلاهما يختلف في نظرته لطبيعة المسيـــح. ومن ناحية أخرى ، أصبحت الفرنجة ، بسبب تحولها إلى المسيحية ، في عداء صليبي ضـد عناصر جرمانية وثنية تأخر تحولها إلى المسيحية ، ولا سيا الألمـان من السكسون في مقاطعة سكسونيا Saxonia (Saxe) ، الواقعة في شرقيّها ، والممتدة حتى شمال أوربا . وقد أصبح العداء بين الفرنجة والألمان تقليداً ، استمر إلى عصرنا الحديث .

ثم إن المجتمع القائم في هذه البلاد – مثل بقية المجتمعات الأوربية أنئذ – كان مبنياً على أساس نظام الطبقات ؛ مما أوجد الحزازات بينها . فتأتي في طليعته طبقـــة رجال الدين ، وهم طبقة هائلة تخضع للبابا في روما ، ولا سيا بعد أن تحول الفرنجة إلى الكثلكة ؛ مما جعل كنيسة الفرنجة مستقلة عن الدولة ؛ وإن كان همها مساندتها [1] . حقاً إن رجال الدين الكاثوليك لا يتوارثون مناصبهم ، لأنهم لا يتزوجون ؛ إلا أنهم جعلوها تُتوارث من عم إلى ابن أخيه في الغالب. وقد استحوذت هذه الطبقة على كل شيء ، فلها محا كمها التي تنص على الحرمان من رحمة الكنيسة ، ولها حق سك العملة الخاصة بها ؛ وحتى استحوذت على العلم ، فجامعات أوربا العتيقة نشأت كلها لها طابع ديني ، والتعليم فيها يكون باللاتينية ، لغة الكنيسة . ثم يليهـــا طبقة النبلاء أو أصحاب الدماء الزرقاء Sang bleu ، ومعظمهم من الجرمان الفرنجة ، حيث قُسّمت البلاد بينهم إقطاعات ، وهو النظام الذي اتسع ، وأصبح من مظاهر الحياة في العصور الوسطى . فكان كل منهم يعيش في إقطاعية Manor ، له الجنود والمحاكم ، وهو يفرض الحياة والموت على الرعايا . كذلك له ألقاب يتوارثوها تدرجت في ظهورها ، تُرتب هكذا [3] : الأمير Prince ، والدوق Duc

---

(١) أنظر . Rebillon : l'Eglise, p. 15.

(٢) أنظر . هارتمان ، الدولة والإمبراطورية ، ترجمة نسيم ، ص ١٠٩ .

(٣) أنظر . Calmette : Le Moyen Age. Paris, 1898, p. 146

من اللاتينية Dux أي رئيس ، والمركيز Marquis ، والكونت أو القومس Comte من اللاتينية Comes بمعنى حامي، والفيكونت Vicomte، والبارون Baron ، والفارس Chevalier أو Sire ، وهـــذه الأخيرة من اللاتينية Senior أي سيد وأخيراً طبقة دنيا ، معظمهم من السكان الاصليين قبل مجيء الفرنجة، وهم عبيد الارض Serfdom ، يعملون في أرض النبيل دون مقابل ؛ فضلاً عن سيطرته عليهم بما فيهم النساء ، وخصوصاً أن النبيل الفرنسي ، عُرف بكثرة فضائحه ، وله سجل فيها Chronique Scandaleuse . وحتى لو كانت قلائل من هذه الطبقة تملك بعض الأراضي، فهم يلتزمون بتقديم بعض الخدمـــات للنبيل مثل العمل في قصره ، والصيد في أرضهم ؛ فضـــلاً عن الضرائب التي يفرضها عليهم وإرغامهم على استخدام عملته . كل هذا جعل المجتمع الفرنسي مجتمعاً مختلاً ؛ قائماً على أساس هرمي ، بين أفراده بُغض وحقد .

أما فيما يختص بحكم فرنسا نفسها ؛ فكانت تعاني اضطراباً سياسياً ؛ فهي ليست وحدة سياسية ، وإنما وحدات مستقلة [1]. فبجوار جبال البرتات، توجد إمارة أكوتانيا Aquitania المستقلة ، التي سماها العرب أقطانية ، وكان يحكمها دوق Dux . ويبدو أنهـــا كانت عبارة عن إقطاعات عدة ؛ منها : غشكونية أو غشقونية Vasconia (Gascogne) ، الممتدة من البرتات حتى اللوار La Loire . واشتهرت في أقطانية مدن عدة ، منها : تولوز Tolosa (Tolouse) ،التي سماها العرب طولوشة أو طليوشة– وهي العاصمة–وبوردو Burdigala (Bordeaux) ، التي سماها العرب بُرْدالة أو بَرْديل . وبجوار أقطانية من ناحية الشرق إمارة يبدو من اسمها أنها كانت خاضعـــة للقوط ، عُرفت باسم : Gothie ؛ ولذا سُميت حالياً باسم لنجدوك Languedoc، أي أرض القوط Land Got ؛ وإن غلب عليهـــا أيضاً اسم : سبتمانية

---

(١) أنظر: Histoire des villes de France. cf. : Guilbert؛ Ibid, p. 256-7؛ ماجد والبنا ، الأطلس التاريخي ، وهو يعتمد على خرائط الجغرافيين العرب ، انظر .

Septemania ، لأنهـــا اشتملت على سبعة Sept معاقل ، ملاصقة لجبال البرنيوه ؛ مما يبيّن أنه أصبح يحكمها أمراء إقطاعيون . وأشهر مدنهـا : كركاسون Carcassona (Carcassonne) ، وسماهـا العرب قَرْقَشونَة ، وناربون Narbona (Narbonne) ، وسماها العرب أرْبُونَة ، وهى العاصمـة للإقليم . وفي شمالها الشرقي البروفنس Province ، وهو إقليم مجـاور للبحر الأبيض ، كان خاضعا للقوط في أيام سيطرتهم ، وإن استقـــل به أمراء إقطاعيون، وأشهر مدنه أڤينيون Avenionum (Avignon) ،التي سماهاالعرب أبنيون . ويقع غربي نهر الرون – ردونة – إقليم برغونية الإفرنجيين ، وأشهر مدنه ليون Lugdunum (Lyon) ، التي سماها العرب لودون. وأخيراً منطقة بريتاني Bretagne ، الواقعة في شمال غرب فرنسا ؛ فقد سكنهاعنصر أصيل هم الكلت Celtae ، الذين أتوا من بلاد إنجلترا ، وعُرفوا باسم البريتون Les Bretons ، فسمى العرب المنطقة بريطانية ، وسميت إنجلترا بهم أيضـــاً بريطانيا .

أما مملكة الفرنجة ذاتها Regnum Francorum ، فتوجد في المنطقة المساة غـــالة G allia (La Gaule) – التي سماها العرب في خرائطهم غاليوش أو غاليس – وهي التي أصبحت تُعرف باسم فرنسة Francia ، وتشمل المناطق الممتدة غرباً عند نهر اللوار ، وشرقاً عند ألمانيا ، وشمالاً حتى بحر الشمال . فكان يحكمها ملوك الأسرة الميروفنجية من نسل كلوفيس ، الذي وحّدهـا . ولكن بعد موته عادت إلى انقسامها ، لأن ملوكها كانوا يقسّمون دولتهم بين ورثتهم الكثيرين ؛ وخصوصاً أن الفرنجة على الرغم من تحولهم إلى المسيحية ، كانوا يتخذون زوجات متعددات . فانقسمت مملكتهم إلى ثلاثة أجزاء رئيسية تدين بالولاء الإسمي ، وهي : استرازيا Austrasia ، أي الأراضي الشرقية الممتدة حتى ألمانيـــا ، ونويسترِيا Neustria ، أي البلاد الجديدة الغربية ، الـــتي ضمها الفرنجة في توسعهم غربـــاً ، مثـــل بريتاني ، وبرغونية Burgundia ، وهـــي البلاد التي توسعوا فيها بين الرون وجبال الألب . ثم إن الملوك

من سلالة كلوفيس ، كانوا منحلين ، حتى أطلق المؤرخون عليهم : الملوك العاطلين ، أي الذين لا يعملون شيئاً Rois fainéants [١] ، وبلغ الأمر أن تندّرت بهم الأغاني الشعبية إلى وقتنا . فمثلاً إحداها تتناول الملك داجوبير Dagobert (٦٢٨ – ٦٣٨ م)، فتقول بأنه يلبس سراويله بالمقلوب:

« C'est le roi Dagobert, portait son pantalon al'envers »

ولم يلبث أن سيطرت على ملوك هذه الدولة الأرستقراطية الإقطاعية ؛ فكانت تعيّن من قبلها حاجباً يتصرف في شؤون المملكة ، عُرف باسم : Major domus ، وهذا أصبح أشبه بأستاذ الدار في الشرق . وكان النزاع بين الأرستقراطية على هذا المنصب شديداً ؛ حتى أن الحرب كانت تقوم بين أجزاء المملكة الثلاثة للحصول عليه . وقد استطاعت أرستقراطية أسترازيا من بيت أرنولف Arnulf ، السيطرة على الملك من دون نويستريا وبرغنديا . فكان من ضعف الملك الفرنسي، أن جعل السيطرة على المملكة كلها في يده Globus . فنجد پيپين دي هرستال أو الثاني Pépin de Hérstal (+٧١٤م)، من هذا البيت ، يتمكن من الوصول إلى منصب حاجب الملك . ولما توفي پيپين خلفه ابنه كارل Karl (Charles) ، وهذا عرفه العرب بقارله[٢] الذي أصبح الوزير الأكبر .

ويبدو أن أطماع العرب في بلاد أفرانسة ، لم تظهر بصورة جدية في أيام استقرارهم في الأندلس ؛ ربما لأن العرب انشغلوا بالغزو في الأندلس . وقد قيل إن موسى بن نصير أراد أن يعبر بلاد أفرنجة العظمى ، ليسير منها على

---

(١) أنظر . Halphen : Les Barbares 5éd, p. 151.
Augustin Thierry ; Récits des Temps Mérovingiens - cf. :
وهو يعتمد على روايات معاصره من كتاب مثل : Grégoire de Tours و Fortunat .
أنظر . Calmette : Le Mogen Age. p, 63 sqq.
(٢) نفح الطيب ، ١ ص ١٢٩ .

على روميّة – أي روما – والقسطنطينية . ولكن استدعاء الوليد لموسى ، جعل موسى لا ينفذ هذا المخطط العسكري . كذلك في عهد عبد العزيز ابن موسى – من ولاة الأندلس – إنشغل المسلمون بتوطيد فتحهم في الأندلس ؛ فاتخذ عبد العزيز أشبيلية [1] عاصمة له ، ولم يرض باتخاذ طليطلة عاصمة القوط السابقة .

وبعد مقتل عبد العزيز بن موسى بتحريض من الخليفة سليمان [2] ، الذي غضب على موسي وعلى ابنه ، اتخذ الوالي أيوب بن حبيب اللخمي ، الذي تولى بعد عبد العزيز قَرْطُبَة عاصمة للمسلمين في الأندلس [3] ، وهي المدينة التي تتوسط الأندلس ، حيث كان اتخاذها عاصمة إيذاناً بعلو شأنها ،فأصبحت فيما بعد مثل دمشق وبغداد والقاهرة ، وبقيت عاصمة مسلمي الأندلس مدة طويلة . يُضاف إلى ذلك أن عبد العزيز وأيوباً كان همهما فتح المدن في الأندلس[4] ، التي لم تكن فُتحت بعد ؛ وبذلك سيطر العرب سيطرة تامة في الأندلس .

وبعد أن وطد المسلمون أقدامهم في الأندلس ، بدأ يراودهم الحلم الذي خطر لموسى بن نصير في السير في بلاد أفرنجة لربطها بدولة العرب في الشرق ؛

---

(١) ابن القوطية ، ص ١٠ س ٦ .

(٢) البيان (L) ١ ص ٤٧ ؛ ماجد ، الدولة العربية ، ٢ ص ٢٤٠ – ٢٤١ . ويقال إن عبد العزيز كان قد تزوج أرملة روذريق التي يسميها العرب أيْلُة Egilona (إيخيلونا) ، وهي التي أصبحت تُعرَف باسم أم عاصم – على اسم ابنه – فحملته على أن يحسن معاملة النصارى ، ويلبس التاج ، ويأمر أصحابه ورعيته بالسجود إذا دخلوا عليه كما كان يُفعل للملوك القوط ، مما أغضب المسلمين حتى ظنوا أنه تنصر فقتلوه . المقري ، نفح ، ١ ص ١٣٢ .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٢١ .

(٤) ابن القوطية ، ص ١١ فما بعدها . قلعة أيوب Calat ayud ، تُنسب إلى أيوب هذا ، وهي تقع شمال شرقي طليطلة . أنظر . ماجد والبنا ، أطلس ؛ معجم البلدان ، ٧ ص ١٤٨ – ١٤٩ .

وأصبح قصدهم الإستيلاء على مدن متقدمة فيما وراء جبال البرتات كخطوة أولى ؛ لإتخاذها قواعد أمامية [١] . لذلك سعى الحرّ بن عبد الرحمن الثقفي – والى الأندلس بعد أيوب – إلى الإستيلاء على حصني قَرْقَشُونَة وأرْبُونَة [٢] في سبتمانيا من أرض القوط السابقة . ويبدو أن سيطرة العرب على الحصنين أصبحت تامة ؛ بحيث أرسل عمر بن عبد العزيز – الخليفة بعد سليمان – الفقهاء إلى قَرقشونة لتفقيه أهلها في الإسلام [٣] . وهذا يدل على أن العرب أصبحوا يَصبون إلى السيطرة على المناطق المجاورة للبرتات .

وبعد ذلك ، زادت الغارات في بلاد الفرنجة ، فتوغل العرب في دوقية أقطانية أو أكويتانيا . وهذه الدوقية الكبيرة ، كان يحكمها دوق اسمه أودو Eudes . فسار عليها القائد العربي السمح بن مالك الخولاني في عام ١٠٢ / ٧٢١ [٤]، وهاجم عاصمتها طولوشة، وهي تولور . إلا أن السمح بن مالك بَعدَ عن قواعده ، واستشهد هناك كثير من المسلمين ، واضطرت فلول جيشه إلى التقهقر إلى أربُونة ؛ بقيادة عبد الرحمن الغافقي ، المعروف عند النصارى باسم Abdérame .

ولكن عبد الرحمن ُعزل ، وجاء بعده عنبسة بن سحيم Anbiza ، الذي أخذ ُيغير في ناحية أخرى ، غير التي أغار فيها السمح ، وهي ناحية بروڤنس

---

(١) أنظر . Codera : Limites probables de la conquista arabe en la cordillera pirenaica. Estudios Criticos,de Historia arabe espanala, V III, Madrid, 1917, p. 111.

(٢) عنهما ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ١٧٦ ، ٧ ص ٥٩ . لا نصدق قول ابن القوطية إنه كان من رأي عمر بن عبد العزيز أن يقفل أهلها منها؛لإنقطاعهم من وراء البحر عن المسلمين. أنظر . إفتتاح الأندلس ، ص ٢٠٦ .

(٣) نفح الطيب ، ١ ص ١٠٩ .

(٤) أنظر . Brémond : Op. cit, p. 262 - 263.

وبرغنديا ، وذلك منـــذ سنة ١٠٣/٧٢١ [١] . فصعد عنبسة نهر الرون – ردُونة – واحتل نيمة Nemausus (Nîmes) ، ووصل حتى لودون ، وهي ليون . ويذكر بعض المورخين الأوربيين مثل رينو Reinaud [٢] ، أن غزوات عنبسة في هـــذه النواحي كانت بقصد التخريب ، وهدم الكنائس والأديرة ؛ ولكننا نستبعد ذلك القول ، لأن فتوحات العرب في جميع البلاد غير الإسلامية ، كانت تقوم على أساس احترام بيوت العبادة ، أياً كان الدين. وعلى كل حال عند عودة عنبسة من إحدى غزواته ، داهمته جموع كثيرة من الفرنجة ، وقُتل عنبسة على ضفاف الرون في سنة ١٠٧/٧٢٥؛ ورجعت فلول جيشه إلى الأندلس بقيادة عذرة [٣] ، المعروف باسم : Hodera .

ولما أُعيد عبد الرحمن الغافقي إلى جيش الأندلس في سنة ١١٢/٧٣٠ [٤] ، عاد إلى الغزو في بلاد الفرنجة بشدة لم ُتعرف قبلاً . فجمع جيشاً لم ُيجمع مثـله ، بلغ من البربر والعرب سبعين الفـــاً ، وبحسب قول مؤرخي الفرنجة أربعمائة ألف . وقد أُختلف في سبب الإهتمام بهذه الغزوة : فتذكر المصادر أن أودو Eudes ، دوق أقطانية ، لم يكن على وئام مع قارلة – كارل – وهو الذي سيطر على مملكة الميروفنجيين ؛ فدعا أودو العرب لغزو قارلة . ونحن نستبعد هذا القول ، لسبب بسيط هو أن غزوة عبد الرحمن الكبيرة وجهت نحو هذا الدوق بالذات . ومثل هـــذه الأقوال ، قد قيلت من قبل بالنسبة لمعظم الفتوحات العربية ، من أنها تمت بنـــاء على دعوات سابقة من أهل البلاد المفتوحة .

---

(١) نفح الطيب ، ١ ص ١٠٩ .

(٢) أنظر . Invasions des Sarrazins en France. Paris, 1836, p.23.

(٣) الكامل، ٤ ص ١٩٧ ؛ Isidoros Pacensis : Cron. c52; 53 (p. 153). انظر . Brémond : Op. cit, p. 263 - 4. ؛ Reinaud : Op. cit, p. 23.
هو عذرة بن عبد الله الفهري .

(٤) البيان (بيروت) ، ٢ ص ٣٩ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art 'Abd al-Râhman B. 'Abd-Allâh al-Ghâfiqî) t 1, p. 55.

ويبدو أن الحوادث هي التي جرت بعضها بعضاً [1]؛ فقد كان عبد الرحمن يتتبع أحد زعماء البربر الثائرين ، الذي يسميه الأوربيون مونوسة أو مونوس Munuza أو Munez ، وكان حاكماً لمنطقة مجاورة لدوق أقطانية ، وأنـه تقرّب منـــه وصاهره . ولعل السبب الرئيسي في تتبع منوسة ، هو النزاع الذي كان استفحل بين البربر والعرب في أواخر عهد الدولة الأموية ، بحيث يُوصف مونوسة بأنه كان يعمل على إيذاء العرب . وقد أُرسلت نحو مونوسة حوالي عشر حملات ، منها حملة بقيادة رجل اسمه الهيثم ، الذي تمكن من قتل مونوسة ، وأرسل زوجة مونوسة إلى بلاط الخليفة الأموى .

وبعد ذلك عـــبر عبد الرحمن من ممر رنشفالة ؛ واتجه نحو أودو صهر مونوسة . ويبدو أن هذا القائد العربي كان مثل عقبة بن نافع – المعروف في فتوح المغرب – فهو لا يعتمد إلا على سيفه . فبدلاً من أن يستميل أودو إلى جانبه ، ليستعين به في غزو قارلة – وقد انقسمت مملكة الفرنجة – نجـــد أنـــه حارب أودو ، ربما للإنتقام لمقتل السمح ، أو للقضاء على قواعد الفرنجـة في الجنوب ، حتى لا يتركهـــا وراء ظهره . فهاجم عبد الرحمن دوقية أقطانية ، واستولى على طولوشة أو تلوز ، ووصـــل إلى بردويل أو بوردو على نهر الجارون Garumna (Garonne) ، وهزم أودو هزيمة هائلة ، وأخذ يفتتح كل ما يصادفه من مدن فرنسا .

---

(١) عن هذه الغزوة بتفصيل : Isidorus Pacensis : Chronicon, cc 58-60؛ وأخبار مجموعة ، ص ١٥٥ وما بعدها ملحق ٢ ؛ Codera : Estudios, criticos, de historia arabe - espanola . Madrid , 1917 , VII , pp. 141 sqq. ؛ Reinaud, p.34.sqq ؛ Brémond , p. 266 sqq ؛ Lévi - Prov . : Espana Musulmana (711 - 1031) . Trad. Gomez. Madrid , 1950 p. 36-37. ؛ عنان ، دولة الإسلام في الأندلس ، ص ٨١ – ٨٢ ؛ شكيب ، تاريخ غزوات العرب ، ص ٨٨ وما بعدها ؛ مؤنس ، فجر ، ص ٢٥٠ وما بعدها ؛ سالم ، تاريخ المسلمين في الأندلس ، ص ١٤١ وما بعدها ؛ ماجد ، الدولة العربية ، ٢ ص ٣٠٥ – ٣٠٧ .

وهرب أودو وجيشه إلى قارلة (كارل) ، سيد القصر في المملكة الميروفنجية ، الذي كان يطمع في خضوع هذه الدوقية . ووجد قارلة أيضاً أن من مصلحته مقاومة العرب ، الذين أصبحوا خطراً مباشراً على حدود دولته . فقد تابع عبد الرحمن غاراته حتى وصل إلى جنوب غرب باريس عند نهر اللوار Owar (Loire)، بين مدينتي تور Turones (Tours) وبواتييه[1] Pictones (Poitiers) ، في سنة ١١٤/٧٣٢ ؛ حيث لقي في إنتظاره جيش الفرنجة بقيادة قارلة ، ومعه عناصر من مختلف أنحاء أوربا من الألمان والبرغنديين وحتى من البُلغار .

وقف كل من الجيشين أمام الآخر ، وهما يختلفان كل الإختلاف من حيث الجنس ، كما يختلفان في تسليحهما . حقاً إن العرب أخذوا بأساليب الحرب عن البيزنطيين – الروم – ونقلوا عنهم أسلحتهم من دروع وغيرها ؛ وإن بقوا يتميّزون بمهارتهم في الكر والفر ، واستخدام السيف. أما جيش الفرنجة؛ فيحارب بوسائل خاصة به ؛ ويستخدم المطارق والتروس . ويذكر المؤرخون أن قارلة نفسه ، كانت له قوة جسمانية غير عادية [2] .

واستمرت المعركة أسبوعاً ؛ وإن كانت معلوماتنا عن تطوراتها غير معروفة . وكان المسلمون منتصرين في أول الأمر ، وقد جمعوا غنائم كثيرة ، منذ أن ابتعدوا عن خطوطهم في الأندلس . ويبدو كذلك أن قارلة كان يعرف كثيراً عن أخلاق المسلمين في هذه النواحي – ولا سيما أن النزاع كان قائماً بين العرب والبربر [3]– فيورد المقرّي رواية مؤداها أن قارلة قال

---

(١) عن ذلك ، انظر . Halphen : Les Barbares, 5éd, p. 151.

(٢) أنظر . Mercier et Séguin : Charles Martel et la bataille, de Poitiers. Paris, 1944.

(٣) أنظر . بعده .

لجنده [1] : « أمهلوهم حتى تمتلىء أيديهم من الغنائم ، ويتخـذوا المساكن ، ويتنافسوا في الرياسة ، ويستعين بعضهم ببعض ، فحينئذ تتمكنوا منهم بأيسر أمر » . كذلك يذكر المؤرخون كيف أن جيش الفرنجة تمكن من إحداث ثغرة في صفوف العرب ، نفذوا منهـا إلى الغنائم المكدّسة خلف المسلمين ؛ فأسرع المسلمون بالدفاع عن غنائمهم تاركين صفوفهم ، فانتهز الفرنجة الفرصة ، ووسعوا الثغرة . وزاد أمور المسلمين تحرجاً ، أن القائد عبد الرحمن ُقتل ، وهو يستحث جنده على الثبات ؛ مما سبب الإرتباك والخلل لجيش المسلمين ، وأدى إلى الهزيمة ؛ فما أقبل الليل ، حتى تسلل المسلمون مقهورين ، تاركين معسكرهم . وفي أول الأمر لم يتتبعهم قارلة ، لظنه أن إنسحاب المسلمــين خدعة من خدع الحرب ؛ ولكنه تتبعهم بشدة بعد أن تأكد أنهـــا هزيمة حقيقية . ووقع كثير من المسلمين أسرى في أيدي الفرنجـــة ، الذين ثاروا في المدن التي خضعت للمسلمين .

وكان لإنتصار قارلة على المسلمين صدى فرح كبير في جميع أنحاء أوربا ، التي كان قد تحول كثير من أهلها الى المسيحية . وكان البابا جريجوري الثالث Gregory III ، (٧٣١–٧٤١م) أول من أظهروا الإبتهاج بانتصار قارلة ، حتى أنه منحه لقب المطرقة : Martel ، على إعتبار أنه مطرقة المسيح في هزيمة المسلمين ؛ وخصوصاً أن البابويـــة في روميّة كانت تسعى إلى التخلص من الخضوع للقسطنطينية ، وتريد الإعتماد في استقلالها على المتبربرين . ومثل هذا اللقب يذكرّنا باللقب الذي منحه النبي لخالد بن الوليد ، الذي استطاع إنقاذ جيش المسلمــين في معركة مؤتة ؛ ضد العرب المتنصرة أو روم العرب في الشام ؛

---

(١) نفح الطيب ، ١ ص ١٢٩ . عن الموقعة أنظر أيضاً : Codera في Estudios criticos de historia arabe - Espanola, VIII, p. 512 - 519.

فسماه : سيف الله [١] . وبسبب هذا الإنتصار رأينا أن فرنسا تلعب دوراً ملحوظاً في العصور الوسطى ، في الدفاع عن المسيحية ضد الوثنيين في أوربا ، وضد المسلمين ؛ وبخاصة في الحروب الصليبية . ويبدو أن قارلة نفسه إغتر بانتصاره ، حتى أنه أخذ يعمل على توسيع نفوذه ، وانقلب ضد البابا وعاداه؛ معتبراً الأسقفات إقطاعات له ، واستولى على أراضيها [٢] ، ووزعهـــا على جنده .

وقد أراد قارلة أن يستفيد من نصره على المسلمين في موقعة تور ، فخف لمحاصرة مراكزهم الباقية؛ إذ أنهم انسحبوا من ليون أو لودون ، ومن أڤينون أو أبنيون أيضاً ؛ إلا أن ناربون أو أربونه صمدت له ، وهي الحصن الواقع على ساحل البحر الأبيض ؛ مما اضطره إلى رفع الحصار عنها . فقد دافع عنها ولاتها ، وخصوصاً عبد الرحمن بن علقمة ، الذي عُرف بشجاعته الفائقة ، ووصف على أنه فارس أهل الأندلس [٣] . كذلك قد يكون تراجع قارلة عن حصار أربونة ، بسبب عداء السكسون ، وهي قبائل ألمانية وثنية ، ولأن بقية أمراء الفرنجة لم يكونوا يرضون عن توسعه ؛ حتى أن بعضهم كان يتفق مـــع صاحب أربونة ضدد ، مثل دوق مرسيلية [٤] Massilia (Marseille) المسمى : مورونتوس Maurontus .

والواقع أن العرب لم يتوانوا فى جهاد الفرنجة بعد موقعة بلاط الشهداء ، والإستمرار في الغارة عليهم؛دون أن تُضعف الهزيمة السابقة معنوياتهم . فقام والي الأندلس عبـــد الملك بن قطّن ، وقائده في أربونة المسمى يوسف الفهري

(١) البخاري ، طبعة بولاق ١٣١٤ هـ ، ٥ ص ١٤٤ (المجلد الثاني) ؛ ابن الأثير ، الكامل، ٢ ص ١٦٠ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Khâlid) t 2, p. 930 - 31. ; ماجد ، الدولة العربية ، ١ ص ١٤٨ .

(٢) أنظر . Reinaud, p. 61-62.

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٤٣ - ٤٤ ؛ ابن القوطية ، ص ١٦ وما يليها .

(٤) أنظر . Reinaud : Op. cit, p. 54.

بالغزو في السنة التالية في ٧٣٣/١١٥[١]،في نواحي شمال الأندلس وفرنسا ، ووصل جيش المسلمين إلى برغنديا ، وقام عقبة بن الحجاج السلولي بغارة شديدة في جليّقية ترتب عليها أن حصر بقايا القوط في مكان اسمه الصخرة Picos de Europa ، كما أغار في بلاد أفرنجة ذاتها في سنة ٧٣٤/١١٦[٢] ، واستولى على بعض المدن مثل أبنيون في البروفنس ؛ مما أزعج قارلة حتى استنجد بملك اللومبارديين في شمال إيطاليا؛حيث كونوا فيها مملكة كما ذكرنا.

وبالغ المؤرخون الأوربيون القدامى والحديثون في تقدير نصر قارلة على المسلمين : فيرى مؤرخ قديم مثل : إيزيدور الباجي ، أن انتصار قارلة هو انتصار المسيحية على الإسلام ، وإنقاذ للصليب واللاتينية . أما المؤرخون الأوربيون الحديثون مثل : جيبون Gibbon وكريزي Creasy وغيرهما ؛ فانهما يعتبران هذه الموقعة من الوقائع الفاصلة Decisive Battle [٣] ، وأنه لولا إنتصار قارلة ، لكانت فرنسا جزءاً من بلاد الإسلام ، ولقُضي على المسيحية في أوربا ، ولكان صوت المؤذن يدوي فيها ، بدلاً من أجراس الكنائس ؛ ولكان القرآن يدرّس في جامعة أكسفورد Oxford .

أما مؤرخو الإسلام ؛ فإنهم لم يتكلموا كثيراً عن هذه الموقعة ، وكل ما ذكروه هو أن عبد الرحمن استشهد ، وأن الموقعة اسمها: بلاط الشهداء[٤]؛ ذلك لأن البلاط في مفهومهم هو الطريق أو القصر . ومن الجائز أيضاً ، أن تكون قلة كلام مؤرخي الإسلام عنها ؛ مسببة عن اعتقادهم أن ما قام به

---

(١) نفح الطيب، ١ ص ١٠٩ - ١١٠ .

(٢) نفسه، ١ ص ١١٠ ؛ انظر . Reinaud, p. 56 ؛ العدوي ، الجرمان ، ص ٢٠٠ ؛ Decline, 6, p. 16. : Gibbon

(٣) أنظر . Creasy : The fifteen decisive battles of the, World. from Marthon to Waterloo. London, 1883. Ch. VII., p. 152 sqq

(٤) نفح ، ١ ص ١٠٩ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٢٥ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Balât al - Shuhadâ') 2éd, t 1, p. 1019 - 1020. كلمة بلاط لاتينية « Palatium » ،أو يونانية ، وتعني الطريق ، وغير ذلك . أنظر . Ency. de l'Isl, (art Balât) t 1, p. 628 - 9.

عبد الرحمن في بلاد أفرنجة العظمى ، لا يتعدى كونه غارة من الغـــارات ، وأنها لم تكن غزواً حقيقياً . ولكننا نرى أن تسمية مؤرخي الإسلام للموقعة ببلاط الشهداء ؛ يدل على أنها كانت معركة فاصلة ، وأن المسلمين نُكبوا فيها بهزيمة هائلة .

وعلى كل حال ، نجد أن خلف قارلة ، وهو پيپين القصير Pepin le Bref – ربما كناية عن دهـــائه – هو الذي قضى على سيطرة العرب ، فيما وراء البرتات ، قضاء نهائياً . فقام باستكمال حرب المسلمين ؛ وإن سبقه بالهجوم على إقطاعات الأمراء الفرنجة في جنوب فرنسا ، ولا سيما دوقية أكويتانيا ، التي حكمها بعد وفاة أودو ، ويفر Waifer أو جفييه Gafier ؛ فأجبره پيپين على أن يقسم له يمين الطاعة ، وأطمأن پيپين لجانبه . وبعد ذلك توجه پيپين لحرب المسلمين ، فاستولى على حصونهم حصناً فحصناً ؛ وأخيراً وقف أمام أربونة ؛ فتجمع له أمامها فرسان من جميع أنحاء فرنسا ؛ مما مكّنه من الاستيلاء عليها في ١٤١/٧٥٩ [١] . وبذلـــك قضى پيپين على كل نفوذ للعرب ، فيما وراء جبال البرتات .

لذلك كانت البابوية تسعى إلى صداقة پيپين القصير ومساندته . ولمـا قام بإنقلاب عسكري Coup d'Etat ، ضد آخر ملك للميروڤنجيين ، المسمى شيلدريك الثالث Childéric III ، أعلن البابا إتيّن الثاني Etienne II ، الذي جاء إلى فرنسا بنفسه ، پيپين وزوجته برتراد أو برت Bertrade أو Berthe ، ملكين على الفرنجـــة في ١٣٧/٧٥٤م [٢] . وهكذا يكون پيپين القصير هو مؤسس الأسرة الكارلونجية Carolingien ، وهو اسم أتى من اسم قارلة

---

(١) أنظر . Calmette : Op. cit, p. 84. ؛ حسين مؤنس ، فجر ، ص ٢٩٠ – ٢٩١ ؛ عنان ، دولة الإسلام ، ص ١٣٨ .

(٢) انظر . Rebillon : L'Eglise, p. 25.

(Karl) [1] (Charles) ؛ وإن كان جدهم هو أرنوف Arnulf ، كما ذكرنا .

★

وكانت أحوال المسلمين في الأندلس ، لا تسمح لهم بالعودة إلى الغزو فيما وراء البرتات ، مثلما حدث في عهد عبد الرحمن الغافقي ، والسبب الرئيسي هو النزاع الذي وقع بين العرب من ناحية ، والبربر من ناحية أخرى . فقد كان الجيش الإسلامي ، الذي فتح الأندلس ، مؤلفاً من كثرة بربرية ، وقلة عربية معظمها من أهل الحجاز المضريين . وكان الطرفان العربي والبربري في وئام في أول الأمر ؛ وبالأحرى انشغلا بالفتح وتوطيده – ولكن ظهرت في المغرب حركة بربرية معادية للعرب في عهد هشام ، وامتدت للأندلس أيضاً. فكان عامل الخليفة هشام ، واسمه : عبد الملك بن قطن [2] الفهري ، الذي وليها مرة ثانية في عـــام ٧٤٠/١٢٢ ، بعد خلع عقبة بن الحجاج السلولي ، يطاول البربر بالعرب ، دون أن يستطيع القضاء على فتنة البربر .

وفي ذلك الوقت ، كان جيش عربي معظمه من أهل الشام بقيادة بلج ابن بشر ، وبخاصة من أهل الأردن اليمنيـين [3] ، قـــد سُيِّر إلى المغرب ضد بربرهـــا ، ولكنه هُزم ، والتجأت فلوله إلى سبتة ، منتظرة الإقلاع إلى الأندلس ، ولا سيما بعد أن استولى البربر على المغرب كله . وكان ابن قطن لا يريد دخول عرب الأردن إلى الأندلس ؛ خوفاً من وقوع الفتنة بينهم وبـين عرب الحجاز ؛ بسبب ذكريات موقعة الحَـرّة :فمن قبل كان الخليفة يزيد ابن

---

(١) يقول عنان نسبة إلى كارل الأكبر أو شارلمان ؛ ولكن بالأولى نسبة إلى كارل (شارل) مارتل ، حيث قامت هذه المملكة في عهد خلفه پيپين . أنظر . دولة الإسلام في الأندلس ، ص ٧٤ وهامش (١) .

(٢) الكامل ، ٤ ص ٢٥٠ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٢٩ ؛ العبر ، ٦ ص ١١٩ . عنه ، انظر . Ency. de l'Isl, (art Abd al - Malik B. Katan) t1, p. 49.

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٣٠ .

معاوية استعان بجند الأردن ضد فتنة أهل الحجاز ، فلما حاصر الأردنيون المدينة النبوية ودخلوها ، استباحوها إنتقاماً لمقتل عثمان بن عفان . فبقي بلج وفلوله محاصراً في سبتة وقتاً، وكان ابن قطـّن قد رفض حتى أن يمده بالميرة، فأكل جنوده دوابهم ، لولا أن بلجاً استحلفه بعروبته [1] . ولكن المضطر يركب الصعب كما يقولون؛فخوفاً من استفحال فتنة البربر في الأندلس ، أرسل ابن قطـّن السفن إلى عرب الأردن في سبتة؛ لنقلهم إلى الأندلس؛ وإن شرط عليهم العودة إلى المغرب بعد استقرار الأمور . وفعلاً تمكن عرب الشام وعرب الحجاز من القضاء على الحركة المعادية في الأندلس من قبل البربر ،الذين احتشدوا للعرب من كل مكان،وأقاموا أحدهم رئيساً عليهم ،حتى جاؤوا نهر تاجه؛فأخرج ابن قطـّن إليهم عرب الشام والعرب الذين كانوا بالأندلس، ومعظمهم من أصل حجازي. فأقبل البربر على مدينة طليطلة ، فثبت لهم ابن قطـّن ، وقاتلهم ببسالة حتى قضى على مقاومتهم ؛ وبعدها تفرّق العرب في أنحاء الأندلس ، فقتلوا البربر في كل مكان ، حتى أطفأوا جمرتهم [2] .

وبعد أن تمت هزيمة البربر في الأندلس ، طلب ابن قطـّن من بلج وجنوده الرجوع إلى سبتة ؛ ولكنهم رفضوا، وحدث ما توقعه ابن قطـّن ، من وقوع النزاع بين عرب الحجاز وعرب الشام . فكان الحجازيون يسمون أنفسهم البلديين أو عرب البلد [3] ، ومعناها العرب الذين اشتركوا في الفتح مع موسى ؛ أما عرب الشام فقد احتفظوا باسمهم الذي أتوا به . وقد تذاكر الطرفان يوم الحرّة ، كما أن بلجاً إدعى ولاية الأندلس من قبل هشام [4] . فتقاتل الطرفان قتالاً عنيفاً ، وبلغ العداء بينهما أنهما كانا يبيعان أسراهما ؛ مع أن العربي لا يُسترق. ثم إن أهل الشام أوقعوا بابن قطـّن وقتلوه وصلبوه

---

(١) نفسه ، ص ٣٧ - ٣٨ .

(٢) نفسه ، ص ٤٠ .

(٣) نفسه ، ص ٤٠ س ٤٥ ، ٤٦ س ٣ .

(٤) المعجب ، ص ١٣ .

في ١٢٣/٧٤١ ؛ مع أنه كان شيخاً كبيراً تجاوز التسعين سنة من عمره [١] ولكن صاحب أربونة – وهي ثغر العرب في الأرض الكبيرة – عبد الرحمن ابن علقمة اللخمي ، لم يلبث أن قتل بلجاً ؛ فولّت عرب الشام عليها ثعلبة ابن سلمة (أو سلامة) ، فقام بقتال عرب البلد والبربر [٢] .

هذا الاضطراب في الأندلس ، جعل عربها وبربرها يكتبون إلى حنظلة والي المغرب من قبل هشام أن يرسل إليهم عاملاً يجمعهم ، ويأخذ بيعتهم له ولأمير المؤمنين ، ولا سيما أن فتن بربر المغرب كانت قد انتهت . فسمى لهم هشام عاملاً اسمه أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي ، الذي وصل الأندلس في سنة ١٢٥/٧٤٢ [٣] ، وكان من خيار أهل الشام ، فجمع كلمة الطرفين ولكي يقضي على خطر اشتباك عرب الشام وعرب الحجاز أبعد بعضها عن بعض ، إذ وزّع عرب الشام في الأماكن التي ليس فيها عرب الحجاز ؛ بحيث أن كل قبيلة من عرب الشام سمت المكان الذي نزلت فيه باسم مكان ما في الشام . ولما كان الشام مقسّماً إلى أجناد ، قُسّم بعض الأندلس إلى أجناد أيضاً ؛ فسمعنا عن جند دمشق في إلبيرة ، وجند حمص في إشبيلية مثلاً .

ولكن سوء أحوال الخلافة الأموية بعد هشام ، أعاد نار العصبية إلى الإشتعال ، حتى إحتدم أوارها وأن أبا الخطار نفسه ما لبث أن إنغمس فيها . فأخذ ينعي على خلفاء بني أمية إبعاد اليمانية ، الذين كان معظم أهل الشام منهم ، إذ كان أهل اليمن قد هاجروا إلى الشام قبل الإسلام في موجات متعددة ، وميلهم إلى المضرية من العرب الحجازيين ، الذين كانوا قد وفدوا إلى الشام من الحجاز مع حركة الفتوحات بعد ظهور الإسلام ؛ مع أن الخلافة

---

(١) أخبار المجموعة ، ص ٤١ – ٤٢ .

(٢) نفسه ، ص ٤٤ ؛ لسان الدين بن الخطيب ، أعمال الأعلام ، تحقيق Lévi-Provençal ، بيروت ١٩٥٦ ، ص ٧ .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ٤٥ – ٤٦ ؛ الكامل ، ٤ ص ٢٦٠ ؛ المقري ، نفح ، ١ ص ١٠٠ .

عادت إلى بني أمية بفضل تأييد اليمانية الشامية في يوم مرج راهط [١] ، الذي اصطدمت فيه العصبيتان ، وكانت العرب المضرية في الشام تريد تولية عبدالله ابن الزبير ؛ منافس الأمويين ، إلا أنها ُهزمت .

وقد ظهر لأبي الخطار المذكور منافس من أشراف مضر في شخص الصميّل ابن حاتم [٢] ، الذي كان دخل الأندلس مع بلج . وكان الصميّل هذا رجلاً عربياً من طراز خاص ؛ يرى أن ُيعالج الأمور بالسياسة . فذهب الصميّل إلى أبي الخطار وكلـّمه في ضرورة البعد عن ُغلو العصبية ضد أهل الحجاز المضريين ؛ ولكن أبا الخطار أساء معاملة الصميّل ؛ مما جعل الأمور تتفاقم . وعمل الصميل على إنتزاع حكم الأندلس من أيدي عرب الشام ، فحرّض على أبي الخطار زعيماً من نفس عصبية اليمن اسمه ثوابة بن سلامة ، وهو أضمر الحقد على أبي الخطار ، لأنه كان عزله من ولاية إحدى المدن . وقد اتفق الصمّيل المضري مع ثوابة اليمني ، على أنه إذا تم إبعاد أبي الخطار ؛ كانت لثوابة الإمارة؛فحارب ثوابة ومعه الصمّيل أبا الخطار وانتصرا عليه ،وأسراه وسجناه . وهكذا أصبح لثوابة من الإمارة الاسم، وللصمّيل الحكم الحقيقي ، وبذلك عاد الوئام بين العصبيتين في الأندلس .

ولما توفي ثوابة في عام ٧٤٧/١٢٩ [٣] ، أختلف عرب الأندلس منجديد.

---

(١) أنظر شعره ، بقوله :

أفادت بنو مروان قيساً دمـــاءنا	وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل.
كأنـكم لم تشهـــدوا مرج راهط	ولم تعلموا من كان ثم له الفضل.
وقيناكم حر القنـــا بنحورنا	وليس لكم خيل تعد ولا رجل.

انظر . الكامل ، ٤ ص ٢٦٠ .

(٢) نفسه ، ٤ ص ٢٩٠ — ٢٩١ ؛ نفح ، ١ ص ١١٠ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Sumaïl) t 4, p. **575 - 76.**

(٣) الكامل ، ٤ ص ٣٠٨ ؛ أخبار مجموعة ، ص ٥٦ وما بعدها ؛ المقري، نفح ، ١ ص ١١٠ - ١١١ .

فالمضريون أي الحجازيون ، أرادوا أن يكون الأمير منهم ، واليمانيون أرادوا أيضاً أن يكون الأمير منهم . فنجد الصميل يجد فرصته في هذا النزاع لأن يكون الوالي على الأندلس في هذه المرة من أهل الحجاز ؛ فاختار لولاية الأندلس يوسف بن عبد الرحمن الفهري . ويبدو أن الصمّيل – كما يظهر من تصرفاته – لم يكن يريد الحكم المباشر ؛ وإنما يريد أن يحكم من وراء ستار ؛ ولذلك لم يول نفسه ؛ وإن كانت هذه التولية لغيره أبقت السلطة في يده أيضاً ، كما كانت الحال من قبل مع ثوابة . ولكن أبا الخطار ، الذي فر من سجنه ، جمع اليمانية وزحف بهم إلى يوسف . فتقابل المضريون واليمانيون بمكان قرب قَرطبه ، وتقاتلوا أياماً بشدة ؛ فكانوا يرمون بالتراب في وجوه بعض ، حتى شُبهت المعركة بصفّين . ولكن دارت الدائرة على اليمانية ، وأُسر أبو الخطار ، ثم قتله الصمّيل ؛ وقد بقي يوسف في الإمارة له الاسم ، وللصمّيل الحكم ؛ إلى سقوط دولة بني أمية .



وفي الوقت ذاته اضطربت الأمور في بلاد الشرق الإسلامي اضطراباً عنيفاً . فقد كان بنو هاشم يسعون إلى أخذ الخلافة من الأمويين ، ويحرضون عليهم الشعوب المفتوحة ، التي أسلمت . وترتب على ذلك ، ظهور الحركة التي ُعرفت بالشعوبية [1] ، وهي حركة بدأت كلامية ، رمت إلى تحقيق المساواة بين الشعوب المفتوحة ؛ بحكم الأخوة الإسلامية . فقد كان الأمويون لا يهتمون بالشعوب المفتوحة ، ويتعصبون للعرب وحدهم ؛ الذين تميّزوا عن الشعوب المفتوحة بلفظة : القبائل [2] . وهناك اسم آخر يظهر منه هدف الشعوب المفتوحة المسلمة من هذه الحركة ، فقد سموا أنفسهم بأهل

---

(١) ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، القاهرة ١٢٩٣ هـ ، ٢ ص ٨٥ فما بعدها ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربية ، ٢ ص ٣٢٧ فما بعدها ؛

Ency. de l'Isl,(art Shû'bîyâ) t 4, p. 410.

(٢) العقد ، ٢ ص ٥٥ ؛ لسان العرب ، ١ ص ٤٨٢ س ١٥ .

التسوية [١] ؛ لأنهم كانوا يطالبون بمساواتهم بالعرب . ومع أن بني العباس من بني هاشم ، حتى ذلك الوقت ، لم يكونوا يطالبون بالخلافة ، وإنما طالب بها العلويون ، وهم من بني هاشم أيضـــاً ، وكان قد قتل معظم هؤلاء ، أو شُردوا بسبب نضالهم مع الأمويين ، ولدينا كتاب يحصي قتلاهم بعنوان : مقاتل الطالبيين [٢] ، لأبي الفرج الأصفهـــاني (٣٥٦/٩٦٧ م) ، بينما بقي الفرع من بني العباس في عنفوان قوته . فلما شعر العباسيون بعداء الشعوب المفتوحة للأمويين ، تزعموا حركة مقاومة الأمويين ، هادفين إلى أخذ الخلافة منهم . وكان جل اعتماد العباسيين على الفرس ، الذين كان الأمويون يسمونهم : الموالي أو العجم أو العلوج [٣] إحتقاراً لشأنهم ؛ مع أن الفرس أسلموا منذ عصر متقدم ، مثل بقية الشعوب المفتوحة الأخرى . وكان الأمويون يقولون عن الفرس خاصة إنهم أقـــل من الكلاب [٤] ، وأنهم ينقضون الصلاة ، ويميّزون منهم بين الصريح والدخيل في الزواج [٥] ، حتى يمنعوهم من الزواج بالعرب .

وبفضل هذه الحركة الثورية ، التي قامت أول مـــا قامت في فارس ، في منطقة نائية منها وهي خراسان ؛ لتؤيد حق بني العباس في الخلافـــة ؛

---

(١) العقد ، ٢ ص ٨٦ .

(٢) الأصفهاني ، مقاتل الطالبيين ، النجف ١٣٥٣ هـ .

(٣) أبو يوسف ، الخراج ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ص ٢٩ — ٣٠ ؛ النجـــار ، الموالي في في العصر الأموي ، القاهرة ١٩٤٩ ، ص ١٤ ؛
Ency. de l'Isl, (art Mawlâ) t 3, p. 479.

(٤) العقد ، ٢ ص ٩٠ .

(٥) أنظر . Kremer : Kulturgeschichte des Orients unter, den Chalifen, I, p. 69.

تمكن جيش خراساني من القضاء على الخلافة الأموية في موقعة الزاب[1] الأعلى بالجزيرة في سنة ١٣٢/٧٥٠، بقيادة عبد الله بن عليّ من بني العباس ، ثم دخل عبد الله هذا دمشق عاصمة الأمويين . ومع أن بعض بني أمية استأمن لعبد الله ، وعددهم بضعة وسبعون رجلاً ؛ إلا أن عبد الله دبّر قتلهم جميعاً قرب الرملة عند نهر أبي فُطرُس [2] ؛ فأدخلهم في سرادق عُقد لهم مع بني هاشم ، الذين كانوا على الكراسي وبنو أمية على الوسائد وقد ثنيت لهم ، مع أنهم كانوا أثناء دولتهم يجلسون مع الخلفاء على السرير — العرش — ويجلس بنو هاشم على الكراسي ؛ ثم قتلهم الخراسانية عن آخرهم ، وبسطت عليهم البسط ، وجلس عبد الله من فوقهم يأكل ، وهم يضطربون تحته ؛ ثم جروا من أرجلهم ، وحُفرت لهم بئر أُلقوا فيها . أما من لم يستأمن من بني أمية ، فقد هرب إلى كانم بأقاصي المغرب [3] ، وحتى إلى الحبشة ، أو إلى الأندلس [4] . وبذلك أصبح اسم عبد الله مرهوباً ، فسماه ابن قتيبة : السفاح [5] .

والذي يهمنا هنا أنه قد فر إلى الأندلس أحد الامويين ، واسمه : عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك[6] ، الذي نجا من المذبحة لأنه

---

(١) الكامل ، ٤ ص ٣٢٧-٣٢٩ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art 'Abd Allàh B. 'Alî) t1, p. 44.
عن الزاب ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٣٦٤ .

(٢) أخبار مجموعة ، ص ٤٧ ؛ الأغاني ، ٤ ص ٩٢ فيما بعدها . عن هذا النهر ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٣٨٦ .

(٣) معجم البلدان ، ٧ ص ٢١٠ .

(٤) الكامل ، ٤ ص ٣٣٢ س ٥ ، ص ٣٦٠ وما بعدها .

(٥) الإمامة ، ٢ ص ٢٣٢ س ٣ ؛ انظر . عبد الحميد العبادي ، صور وبحوث من التاريخ الإسلامي (عصر الدولة العباسية) ص ١ – ٥ . يسمى أبو العباس بالسفاح خطأ ، بينما السفاح هو عبد الله . فمن سيرة عبد الله يظهر الجور ، على عكس سيرة أبي العباس .

(٦) أخبار مجموعة ، ص ٤٧ وما بعدها ؛ نفح ، ١ ص ١٥٤ ومابعدها؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art 'Abd al - Rahmân) t1, p. 54.

كان يتلهى بالصيد ، فلما علم بما حدث هرب إلى مصر وبرّقة ، ووصل إلى المغرب حتى أتى قبائل نفزة المغربية ، على مقربة من طنّجة ، وهم أخواله ؛ حيث كانت أمه من سبي تلك القبائل . ولما كان أنصار الدولة العباسية يبحثون عنه ، أُضطر إلى الإنتقال إلى الأندلس ، ولا سيما أن الفرصة أصبحت سانحة له لوجود الإنقسام في الأندلس ، كما ذكرنا . فنجد اليمانية ، التي كانت مخفوضة الجناح ، تأخذ على عاتقها نُصرة هذا الأموي اللاجيء إلى الأندلس ؛ وذلك على عكس الصمّيل ويوسف – وكلاهما من المضرية – اللذان كانا يريدان محاربة هذا الأمير الأموي الطاريء . وبفضل تأييد اليمانية ، ولا سيما قبيلة كلب التي انتقلت فروع منها إلى الأندلس ، تمكن عبد الرحمن من دخول قَرطبة في سنة ١٣٨/٧٥٥ ؛ ولذا اشتهر باسم عبد الرحمن الداخل ؛ لأنه أول داخل من ملوك الأمويين إلى الأندلس [١] . وبذلك أعاد عبد الرحمن إلى الأندلس الدولة الأموية ، التي سقطت في المشرق ؛ حيث بقيت فيها أربعة قرون . ومع ذلك ، لم يتخذ عبد الرحمن لقب الخلافة ، وإنما اكتفى بلقب الأمير – وإن وُصف حكمه بالسلطنة ، لقوته – كما عُرف خلفاؤه بالأمراء أو أبناء الخلائف [٢] ، وذلك لأن العباسيين في المشرق كانوا قد أعلنوا خلافتهم بعد سقوط الخلافة الأموية ؛ وأن العقلية الإسلامية وقتئذ لم تكن تقبل تعدد الخلفاء ؛ وإنما خليفة المسلمين يجب أن يكون واحداً [٣] .

وفي أول الأمر لم تيأس الخلافة العباسية من العمل للقضاء على هذه البقية الباقية من الأمويين الفارين إلى الأندلس ؛ إذ لم ترضَ قبول إقتطاع الأندلس ، واستقلالها عن جسم الخلافة العباسية الناشئة . فأرسل المنصور العباسي تفويضاً من قبله بولاية الأندلس إلى رجل فيها ، اسمه : العلاء بن مغيث

(١) نفح الطيب ، ١ ص ١٥٥ س ٤ .
(٢) الكامل ، ٦ ص ٣٦٠ س ٣ .
(٣) الماوردي ، الأحكام السلطانية ، مصر ١٩٠٩ ، ص ٦ .

اليحصبي [1] ؛ ليثير أهل الأندلس ضد عبد الرحمن ، حيث تمكن العلاء من إثارة المضرية ، وحتى اليمانية تنكّرت لعبد الرحمن لما استولى على الحكم ، كما انضم إلى أعدائه عدد كبير من الحاقدين على الأمويين . ولكن عبد الرحمن تمكن من القضاء على فتنة العلاء ، وأخذ رأسه ووضعها في سلة ، ومعها اللواء الأسود شعار العباسيين ، والتفويض الذي بعث به المنصور إلى العلاء ، وأرسلها إلى المنصور وهو يحج في مكة ، فارتاع الخليفة الذي قال : « الحمد لله ، الذي جعل بيننا وبين مثل هذا من عدونا بحراً »[2].ومنذ ذلك الوقت ، أخذ المنصور يقدّر شخصية عبد الرحمن الداخل كألمع شخصية في بني أمية ، وسماه : صقر قريش ؛ فقال عنه : صقر قريش عبدالرحمن ابن معاوية ، الذي عبر البحر ، وقطع القفر ، ودخل بلداً أعجمياً مفرداً، فمصّر الأمصار ، وجنّد الأجناد ، ودوّن الدواوين ، وأقام مُلكاً بعد إنقطاعه ، بحسن تدبيره ، وشدة شكيمته [3] .

ومع ذلك ، لم يكن استقرار عبد الرحمن تاماً في الأندلس ؛ فمن الملاحظ أنه قضى طول مدة إمارته يقاتل الثوار ، الذين كان بعضهم من اليمانية ، أو المضرية ، أو حتى من دعاة الشيعة ، أو من ولاة المدن .

★

هذه الحالة القلقة في الأندلس لم تكن تغيب عن أعين مملكة الفرنجة في الأرض الكبيرة ، وهي التي انتصرت على المسلمين في بلاط الشهداء ،وأصبحت تعتبر نفسها المدافعة عن المسيحية ، والمنقذة لمسيحيي الأندلس ، من أيدي المسلمين . وقد كان ولاة الأندلس المنقسمون يحسون بنيات الفرنجة نحوهم ؛ ومع ذلك لم يعملوا على وقف فتنتهم الإلتفات إلى هذا الخطر المسيحي ،الذي

---

(١) ابن القوطية ، ص ٣٢ – ٣٣ ؛ أخبار مجموعه ، ص ١٠١ – ١٠٢ .

(٢) ابن القوطية ، ص ٣٤ .

(٣) العقد الفريد ، ٢ ص ٣٥٧ . أنظر أيضاً ما أورده صاحب (أخبار مجموعة ص ١١٨ - ١١٩) ، وهو يختلف بعض الشيء في عبارته .

يتربص للإنقضاض عليهم .

وقد زاد أمور الحكم الإسلامي في الأندلس تحرجاً ، بظهور شخصية طموحة جداً ، في الأسرة الكارلونجية في فرنسا ، بل في تاريخ الغرب المسيحي كله في العصور الوسطى ؛ أرادت أن تحيي عظمة أوربا في العالم ، التي قامت سابقاً على يد الرومان ، هو : شارل (كارل) العظيم ، أوشارلمان. Charlemaines أو Carlemaines ، وهي التي حرّفت من Karolus Magnus ؛ وإن كان العرب سموه أيضاً قارلة[1]، على اسم جده كارل Karl (Charles). ولدينا معلومات وافية عن طموح شارلمان هذا في كتاب إجينهارد Egnihard المعاصر له ، الذي ألفه عنه ، بعنوان : حياة الإمبراطور شارلمان Vita Caroli Magni imperatoris[2] .

وقبل أن يغامر شارلمان في حروبه ضد مسلمي الأندلس ، عمد مثل كلوڤيس على توحيد فرنسا ، فانتهز موت جافييه أوويفر ، وضم أكويتانيا إلى أملاكه ، كما قضى على عدد كبير من المراكز الإقطاعية في سپتمانيا وبرغنديا ، وحارب السكسون في ألمانيا والپاڤاريين في هنغاريا . حقاً إن كلوڤيس وغيره من ملوك الكارلونجيين حاربوا السكسون وغيرهم ؛ إلا أن نجاح شارلمان في حروبه لم يسبق له مثيل ؛ كما أن من كانوا قبله لم يحاربوا في هنغاريا .

كذلك تقرّب شارلمان من الكنيسة مثل أبيه پيپين القصير ؛ وهي التي عرفت فضل أسرته على المسيحية ، بإنتصارها على المسلمين في موقعة تورو پواتييه ؛ فضلاً عن أن السيف الكارلونجي ، كان يعمل على نشر المسيحية في أوربا . لذلك استجاب لدعوتها في محاربة أعدائها من اللومبارديين ، وهي عناصر

---

(١) نفح ، ١ ص ١٥٥ .

(٢) لدينا ترجمة Halphen ، بعنوان: Vie de Charlemagne. Paris, 1947
أنظر أيضاً : Calmette : Charlemagne. Paris, 1945 : Kleinclausz ؛ Charlemagne. Paris, 1934 ؛ ديفز ، شارلمان ، ترجمة الباز العريني ، القاهرة ١٩٥٩ .

جرمانية كما ذكرنا ، كانت قد استقرت في شمال إيطاليا ، وكونت لها مملكة بزعامة ألبوان Alboin في ٥٦٨ م ؛ وإن إنقسمت مملكته بعد قتله على يـــد زوجته إلى دوقيات تخضع إسمياً للملك منهم . فنجد شارلمان يرحب بالتوسيع شرقاً Drang nach Osten ، فيخضع شمال إيطاليا لنفوذه ، ويقضى نهائياً على ملكية اللنبرديين [١]، ويُصبح ملكاً للفرنجة واللومبارديين معاً ، ويعتبر نفسه حامياً للبابوية في روما ؛ وذلك كما يظهر من هـــذا النص الطويل :

Karlus gratia Dei rex Francorum et longobardorum ac patritius Romanorum . هـــذا على عكس دولة الروم ، التي لم تناصر البابوية ضد اللومبارديين ، فضلاً عن نزاعها المذهبي معها ، بسبب قيـــام حركة في دولة الروم بقصد منع عبـادة الصور ، وهي الحركة اللاأيقونية Iconoclasim، التي ظهرت متأثرة بروح الإسلام في الوحدانية. لذلك قام البابا ليو الثالث Leo III (٧٩٥ — ٨١٦ م) ، بتتويج شارلمان إمبراطوراً Imperator : في كنيسة القديس بطرس بروما سنة ٨٠٠ م ، وسُميت دولته : بالإمبراطورية الرومانية المقدسة [٢] ، بأعتبار أنه إمبراطور روماني مسيحي ؛ فمسحه بالزيت المقدس من رأسه إلى أخمص قدمه [٣]. فبدأ الناس يتهامسون بإحياء عصر الإمبراطورية الرومانية في الغرب والشرق، أو ما عُبر عنه بالسلام الروماني Pax Romana ؛ وإن إصطبغ هذه المرة بالصبغة المسيحية : Pax Christi ؛ وخصوصاً أن دولة الروم كانت تحكمها إمرأة، وهي المرة الأولى في تاريخها؛ فقد كانت إيرينى Irène، وصية على صبي في السادسة من عمره، هو قنسطنطين السادس Constantinus VI .

وعلى ذلك، كان شارلمان قِبلة المسيحية جمعاء، لطرد المسلمين من الأندلس، ولا سيما أن دور الفرنجة كان معروفاً في هذا الصدد ، منذ تسنى لهم طرد

---

(١) أنظر . Calmette : Le Moyen Age, p. 85.
ملكهم المسمى : ديزيدريوس Desiderius ، قضى بقية حياته في أحد الأديرة.

(٢) أنظر. هارتان وبار اكلاف ، الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى ، ترجمة نسيم ، مقدمة ، ص ٣٠ .

(٣) أنظر . Rebillon : L'Eglise au moyen - âge, p. 26.

المسلمين من بلادهم . ومن المؤكد أن شارلمان لم يقم بتوطيد دولته والتقرب من الكنيسة ؛ إلا بقصد التمهيد لحرب المسلمين وطردهم من الأندلس ، التي كانت تتراءى له في حلمه [1]؛ حتى أنه كان من رأيه أن يتزوج من إيرينى –الوصية على دولة الروم [2] – لتوحيد قوى المسيحية ؛ وبخاصة أن ظهور الخلافة العباسية الفتية في الشرق ، أصبح ، من جديد ، خطراً كبيراً على المسيحية عموماً .

وقد أُتيحت لشارلمان الفرصة كي يغزو الأندلس ، حينما شبت فيهـا فتنة جديدة على حـكم عبد الرحمن الداخل ، بزعامـة سليمان بن يقظان العربي الكلبي والي برشلونه [3] ، الذي كان يرى نفسه أحق بحكم الأندلس من عبد الرحمن ، وأقام الدعوة للخليفة العباسي ، كما ثار والي سرقسطة حسين ابن يحي ؛ ورغب في أن يوّحد مجهوده مع سليمان ضد عبد الرحمن. فأرسل سليمان إلى شارلمان يدعوه إلى غزو الأندلس ، بل ذهب إليه بنفسه ، وطلب حمايته من أطماع عبد الرحمن، مقابل أن يحصل شارلمان على بلاد في شمال الأندلس [4]. وفي الوقت عينه ، اتفق شارلمان مع مغامر آخر اسمه عبد الرحمن بن حبيب الفهري ، المعروف بالصقلبي (السقلابي)، لشقرتة وزرقـة عينيه [5] ، الذي رسل من قبل الخليفة العباسي المهدي (١٥٨ – ١٦٩/٧٧٥ – ٧٨٥) ، ونزل مُرسية الميـنـاء الأندلسي في الجنوب ، وهو صهر ليوسف الفهري ، الوالي الذي حـكم مع الصميّل ، وكان عبد الرحمن الداخل قد قتلهما بعد ثورتهما عليه. ويبدو أن الصقلبي هذا اتصل بسليمان بن يقظـان ؛ وإن كان عبد الرحمن قد

---

(١) أنظر .ديفز ، شارلمان ، ترجمة الباز ، ص ٩٨ .

(٢) أنظر . Camb. Med. Hist. 2, 624 ; 4 pp. 24 - 26

(٣) أخبار مجموعة ، ص ١١٠ ، ١١٢ ؛ انظر . دوزي ، تاريخ مسلمي الأندلس ، ترجمة حسن حبشي ، ١ ص ٢٢٨ – ٢٢٩ .

(٤) أخبار مجموعة ، ص ١١٠ .

(٥) أنظر . Kleinclausz : Charlemagne, p.109.

تمكن ، بمؤامرة ، من قتـــل الصقلبي[1] ، قبل أن يتم شيء مع سليمان أو غيره .

وقد بادر شارلمان الى الزحف على الأندلس في جيش كبير ، ومعه السبتمانيون والپروڤنسال والبرغنديون واللومبارديون والباڤـاريون ؛ حيث عبر إليها من باب شيزورا - ممر رُنشڤالة - في جبال البرتات . وقد أراد سليمان بن يقظان أن يسلم شارلمان مدينة سَرَقُسْطَة[2] ؛ إلا أن حامية المدينة المسلمة رفضت التسليم ؛ وثار فيها ولدا سليمان ضـد أبيهما ، كما أن الحسين بن يحيى الذي انضم إلى سليمان ، طمع في الإنفراد بالزعامة ؛ ولذلـــك اعتصم أهل سرقسطـــة خلف أسوار مدينتهم ، ووقف شارلمان بجيوشه أمام أبوابها دون أن يستطيع الدخول ، وذلك في سنة ١٦١/٧٧٨ [3]. وقد خدمت الظروف أهل سرقسطة ومدن الأندلس الأخرى ضد خطر شارلمـــان ، حينما أُضطر إلى ترك شمال الأندلس ، بسبب تمرد القبائل السكسونية ، ورجوعها إلى الوثنية . وقبل أن يرحل شارلمان اصطحب سليمان ؛ إلا أن أبناءه أسرعوا باسترجاع أبيهم .

غير أن مصائب شارلمان في هذه الغزوة ، لم تقف عنـــد هذا الإخفاق ؛ فعند عبوره جبال البرتات ، ارغمته طبيعة هذه الجبال على أن يسير بجيوشـه في صفوف طويلة ، لضيق المسالك . وفي أثناء عبوره ممر رُنشڤالة ، قامت قبائل البشكنس[4] أو الباسك ، وهي عدوة لعنصر الجرمان ، بالهجوم على مؤخرة شارلمان ، بإلقاء الأحجار من أعالي الجبال ، وبمهاجمتهـــا بالسيوف . وربما يكون عبد الرحمن هو نفسه الذي مد البشكنس بالسلاح ، وهي عناصر صالحت المسلمين حينما فتحوا الأندلس وإن هم حاربوهم كلما ثاروا عليهم[5] ؛

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ١١٠ - ١١١ .

(٢) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٧١ .

(٣) أخبار مجموعة ، ص ١١٣ ؛ انظر . Calmette : Moyen Age, p. 92.

(٤) أخبار مجموعة ، ص ١١٤ .

(٥) أنظر . قبله .

فهم مثل الجراجمة – من عنصر أسيوي - الذين صالحوا العرب لما فتحوا الشام[1] ؛ وكانوا أحياناً يثورون ضدهم . وقد قُتل عدد كبير من جيش الفرنجة بلغ ثلاثين ألفاً ، ومنهم رجال من فرسان بلاط شارلمان Paladins .

وكان من بين الذين قُتلوا صديق لشارلمان، هو دوق برطانية، اسمه رولان Roland . فاتخذ الفرنجة مما أصاب رولان، سبيلاً لتمجيد المحاربين الفرنسيين وظهرت ملحمة شعرية أو أناشيد وطنية ، مؤلفة من أربعة آلاف بيت، لا تقتنع بالحقائق المجردة ، بل أُضيفت إليها حلقات من نسج الخيال ، عُرفت باسم : أنشودة رولان La Chanson de Roland . وكانت تمجد رولان، وتجعله ابن أخ للإمبراطور،وساعده الأيمن ، وأعظم محارب في العالم ، بيده سيف حاسم اسمه دورندل Durendal ،وتحته فرس متهور اسمه ڤيانتيف Veillantif . أما الكمين فقد تحول إلى مؤامرة محكمة ، اشترك فيها خليفة المسلمين ، وأحد نبلاء فرنسا الخونة واسمه جانيلون Ganelon ، الذي سعى لتسليم رولان للأعداء . كذلك أُعتبر شارلمان مدمراً لقوة المسلمين، والقائد المظفر ، الذي امتدت فتوحه في أنحاء العالم . ويظهر أن شارلمان ، الذي لم يتجاوز الثامنة والثلاثين من عمره ، كان رجلاً وقوراً ، يبلغ من العمر أكثر من مائتي سنة ، وله لحية في بياض الثلج ، سريع البكاء،عطوفاً على أصحابه، إذا أمر أو أشار أطاعه الجميع. كذلك أصبحت الحملة ذاتها حلقة من حلقات النضال بين المسيحية والإسلام ، وتحول البشكنس المغيرون جيشاً كبيراً من المسلمين الوثنيين Paganos ، الذين يعبدون محمداً والشيطان ، ويُوصفون بالقسوة والمكر . إن هذه الأنشودة تبيّن تضخم الحادث التاريخي البسيط ؛ ليصبح ملحمة وطنية ، له دلالة مثالية قوية . وقد اتخذت قصة رولان ؛ شكلها الأخير في أيام الحروب الصليبية ، حينما التهب الشعور من جديد ضد المسلمين ، وذلك في القرن الحادي عشر الميلادي .

وعلى العموم ، انتهز عبد الرحمن هذه الهزيمة التي لحقت بشارلمان ، فسار

---

(١) فتوح البلدان ، ص ١٥٩ ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربية ، ٢ ص ٣٢ - ٣٣ .

إلى سرُقسطة ؛ حيث كان حسين بن يحيى قد أوعز بقتل سليمان ، ولكن عبد الرحمن دخل سرُقسطة وقتل حسين بن يحيى [١] . ونجد شارلمان من ناحية أخرى ، لا يفكـّر في غزو الأندلس من جديد ؛ خوفاً من تجدد غزوات المسلمين ، ويجعل المنطقة المجاورة للبرتات إمارة ثغرية ، تتألف من أكويتانيا وسپتمانيا وغيرها [٢] ، تحت إدارة واحدة ، وأُطلق عليها الثغر الأسباني Marche d'Espagne (Marca hispanica) ، مهمتها الأساسية ملاحظة تحركات المسلمين ، وأوكل حكمها إلى ابنه لويس ، الذي سُمي فيما بعد بلويس الصالح Louis le Pieux ، وإن سماه العرب لذريق بن قارلة [٣] . وفعلاً أغار المسلمون في عهد هشام الرضا بن عبد الرحمن على هذه الإمارة في ١٧٧/٧٩٣ [٤]، واستولوا على أربونة وغيرها ووصلوا حتى بريتاني (برطانية)، وهزموا كونت طولوشة وليم Guilhem ، هزيمة نكراء قرب قَرقَشُونة . ولكن هذه الإمارة راحت تُنشيء الحصون ، وتنشط في الإغارة على المسلمين فيما وراء البرتات،وأخذت تستولي على المدن التي كانت تدين بالطاعة للمسلمين حول البرتات – ولا سيما برشلونة Barcino (Barcelona) في ١٨٥/٨٠١ – من الحـَكم الربضي بن هشام[٥] ، الذي حاول الدفاع عنها دون جدوى ، وبقيت في حُكم شارلمان . ومع هذا فإن هذه الإمارة الثغرية الإفرنجية ، التي أنشأها شارلمان ، وحققت بها بعض طموحه في الأندلس ، سرعان ما تفتتت بعده ، بحيث لم يتبق منها غير قطعة مركيزية برشلونة ؛ تابعة لمملكة أفرانسة .

وفي الواقع إن إنفصال الأندلس عن بقية جسم الإسلام ، جعل الجهاد في هذه الناحية يقوم على عاتق مسلمي الأندلس وحدهم ، ودائرة هؤلاء محدودة،

---

(١) أخبار مجموعة ، ص ١١٤ وما يليها .

(٢) أنظر . ديفز ، شارلمان ، ص ٢٩٨ ؛ العدوي ، الجرمان والمسلمون ، ص ٢٥٩ ؛ Calmette. : Le Moyen Age, p. 92 - 3. ؛

(٣) نفح ، ١ ص ١٥٩ .

(٤) نفسه ، ١ ص ١٥٨ ؛ انظر . Calmette : Moyen Age, p. 92

(٥) نفسه ، ١ ص ١٥٩ ؛ انظر . Reinaud : Inv, p. 115.

ومادتهم منحصرة. كذلك لم تبق هذه الدولة المنقطعة كفؤاً لأمم النصرانية ، التي هي أمامها كالبحر الخضم. وبذلك أصبحت الأندلس مكسورة الجناح، لا تستطيع أن تجاهد الفرنجة، مثلما كانت الحال في أيام الخلافة الأموية في دمشق فنسمع أن عبد الرحمن الداخل ، سعى إلى مصاهرة شارلمان ، بالزواج من كبرى بناته [1] ، وإن كانت المصاهرة لم تتم ، وإن أجابه شارلمان إلى السلم ، كما أن الحكم الربضي عقد هدنة مع شارلمان إلى وقت وفاة هذا الأخير. وهذا يدل على أن دولة الأندلس الجديدة ؛ جنحت إلى السلم مع الفرنجة ؛ وإن كان هؤلاء لم يتركوها في سلام .

★

نتتقل الآن إلى بحث موضوع العلاقات الديبلوماسية بين الشرق والغرب ؛ التي كان ظهورها بسبب تغيير الأوضاع السياسية في العالم المسيحي والإسلامي. فمن ناحية ؛ أن المسيحية التي كانت سلطة موحّدة ، يتزعمها الروم ، أصبحت بقيام إمبراطورية شارلمان المقدسة في أوربا ، التي يتزعمها الفرنجة ، تتنافس مع الروم في الزعامة على المسيحية . ومن ناحية أخرى ، أدى إنقسام أمة الإسلام ، بانفصال الأندلس ، إلى قيام دولتين إسلاميتين كبيرتين ، إحداهما في الشرق ، والأخرى في الأندلس .

وقد بدأت هذه العلاقات الديبلوماسية ، منذ بعث ببين الثالث Pépin III — وهو القصير le Bref — (٧٥١ — ٧٦٨ م) ، بسفارة إلى بغداد أو مدينة السلام في ١٤٥/٧٦٢ [2] ، وجدت ترحيباً من قبل الخليفة العباسي المنصور ،

---

(١) نفسه ، ١ ص ١٥٥ ؛ انظر . بعده . ربما تكون روتريد أو روترود ، التي خطبت لإمبراطور الروم .

(٢) أنظر . ديفز ، شارلمان ، ص ٩٩ ؛ Atiya : Crusade, Comerce, and, Culture. Bloomington, p. 35. ؛ العدوي ، الجرمان والمسلمون ، ص ٢٦٤ . ليس لدينا عنها مصدر إسلامي أصلي .

الذي ربما لم يكن هو نفسه متحمساً لهذه العلاقة مع دولة من الكفار ، ولكن عداوة العباسيين للأمويين ، وإخفاقهم في استرداد الأندلس ، وعداوتهم لدولة الروم الواقعة على حدودهم ، جعلت المنصور يرحب بقيام هذه العلاقات السلمية الدولية .

يُضاف إلى ذلك أن تأييد الفرنجة للسياسة البابوية ضد القسطنطينية يُعتبر أيضاً من العوامل التي جعلت پيپين يسعى إلى التماس صداقة الخليفة العباسي ، عدو إمبراطور الروم ؛ لأن العباسيين ، بعد قيامهم مكان الأمويين في الشرق ، ورثوا هؤلاء في عداوتهم للروم . ثم إن الفرنجة ، بقيادة پيپين طردت عرب الأندلس من بلادها ؛ ولاصقت حدودها دولة الأمويين في الأندلس ، وهم أعداء العباسيين في الشرق .

وقد مكثت هذه البعثة من قبل پيپين ثلاث سنوات في بغداد، ثم عادت يصحبها رُسل من قبل المنصور ، يحملون الهدايا إلى پيپين ؛ فاستقبلهم هذا بالحفاوة ، ثم عادوا بطريق البحر ، ووصلوا إلى بغداد ، وحملوا من جديد هدايا پيپين إلى المنصور .

على كل حال ، كان ما أحرزته الجيوش العباسية من انتصارات على الروم في آسية الصغرى ، زمن المنصور والمهدي والرشيد ؛ ثم هذه الصلات الودية بين العباسيين والفرنجة ؛ سبباً في جعل إيرينى تسعى إلى الصلح مع شارلمان خلف پيپين ؛ إذ لعل ذلك ينقذ دولة الروم من خطر المسلمين . وسعت إيرينى إلى تزويج ابنها قنسطنطين السادس من ابنة شارلمان المسماة روتريد Rotrude ؛ أو أن شارلمان فكّر في الزواج من إيرينى خدمة لمصلحته في السيطرة على الغرب والشرق كما ذكرنا ، كما أنها أعادت عبادة الصور المقدسة [1] التي كان سلفها قد حرّم عبادتها . ولكن شارلمان ، الذي تُوج إمبراطوراً على الغرب ، رفض المصالحة ؛ واستمر في عدائه للبيزنطيين ، والتقرب من العباسيين ؛ أي أنه اتبع سياسة أبيه . بل إن شارلمان حارب بيزنطة واستولى على البندقية من

(١) أنظر . ديفز ، شارلمان ، ترجمة ، ص ١١٩ ، ١٢٢ .

أملاكها في ٨٠٩ (١٩٤ هـ) ، ولم يتنازل عنها إلا حينما اعترف ميخائيل الأول رانجاب Michael I Rhangabe (٨١١ — ٨١٣ م) ، الذي تولى عرش الروم بعد الإطاحة بحكم الأيسوريين ، بالوضع الراهن ، بحيث جاءت بعثة من القسطنطينية إلى آخن Aachen — إكس لاشبل Aix - La - Chapelle — في ٨١٢ م ، واعترفت بشارلمان كأخ لإمبراطور الروم .

وفي الوقت عينه عادت العلاقات الودية بين الفرنجة والخلافة العباسية ؛ والسبب في عودتها استمرار العداوة بين العباسيين والأمويين ، وعلى الخصوص بسبب هزيمة شارلمان على يد الأمويين في الأندلس . فتألفت سفارة[١] من قبل شارلمان لدى هرون الرشيد في ٧٩٩ م (١٨٣ هـ) ، تتألف من شخص اسمه : سيجموند Sigimund ، وآخر اسمه : لانتفريد Lantfrid ، ومن يهودي اسمه : اسحق Isaac ، ليتولى الترجمة . ويبدو أنها هي الأخرى مكثت في بغداد ثلاث سنوات ، مات في أثنائها سيجموند ولانتفريد. وقد رد هرون على هذه السفارة الأوربية ، بإرسال مبعوثين من قبله : أحدهما فارسي ، والآخر اسمه : إبراهيم بن الأغلب ، بصحبة اسحق المترجم . فوصلت البعثة من بغداد إلى بيروت ومنها إلى بيزة Pisa في ٨٠٢ (١٨٦ هـ) ، في رحلة استغرقت عشرين يوماً ؛ وبعدها استقبلها شارلمان في مكان بقرب تورينو Torino بإيطاليا ، وكان راجعاً من عاصمته بألمانيا ، بمظاهر ترحيب كبيرة . فسلمته البعثة هدية الرشيد ، التي كانت تتألف من حيوانات نادرة ، منها : فيل عظيم أبيض ، كان أحد ملوك الهند قد بعث به إلى المهدي ، وهذا الفيل

---

(١) أنظر . Eginhard : Vita, trad, Halphen, p. 16 ; 48-49 , n2. Annales Regni Francorum,éd Kruze. Hannover, 1895 ؛ جميل نخلة ، حضارة الإسلام في دار السلام ، القاهرة ١٨٨٨ ، ص ٢٦٦ وما بعدها (يعتمد على : الأغاني والمقرّي وابن الأثير وغيرهم ؛ وإن كانت مصادره غير صحيحة) ؛ خدوري ، الصلات الدبلوماطيقية بين هرون الرشيد وشارلمان ، بغداد ١٩٣٩ ؛ ديفز ، شارلمان ، ترجمة الباز ، ص ٢٠٢ وما بعدها والملحق ؛ Reinaud : Inv, p. 115 - 116.

أعتبر في أوربا من الغرائب . وكذلك أقمشة فاخرة من الوشي[١] ، وبُسُط ديباج من طبرستان [٢]، وعطور من اليمن والحجاز ، ومسك وصندل وأعواد ند من الهند[٣]، وسرادق عظيم مجلل بأنواع الحرير ، وشمعدانات ، ومزولة[٤] أي ساعة كبيرة تدل على الأوقات ، وهي من عمل صناع بغداد، مصنوعة من البرونز المطلى بالذهب ، وحينما تدق ساعة الظهيرة ، يخرج من وجهها اثنا عشر فارساً من اثنتي عشرة نافذة ، تغلق خلفهم ، وشطرنج بديع الحسن ، قد أتخذت أدواته من العاج المنقوش، وهو من عمل نقاش من مشاهير صناع بغداد اسمه يوسف الباهلي ، الذي نقش اسمه عليه .

وفي ذات العام ٨٠٢ م (١٨٦ أو ١٨٧ هـ) ،أرسل شارلمان بعثة أخرى يرئسها رجل اسمه : راد بيرت Radbert [٥] ، كما أن هرون رد على بعثة شارلمان الجديدة ببعثة أخرى في ٨٠٦ م (١٩١ هـ) ، على رأسها رجل اسمه : عبدالله، وذلك بصحبة راهبين أُختيرا من قبل بطريرك بيت المقدس ، أحدهما اسمه : فيلكس Felix ، والآخر أجيبالد Agibald ، ومعهم هدايا جديدة .

ويزعم المؤرخون الأوربيون وحدهم ، أن شارلمان كان يسعى لتيسير الحج إلى الأراضي المقدسة ، وجعله حامياً للبيعة في بيت المقدس . وعلى العكس ، نفهم من قول هرون الرشيد لرسوله ، إنه قصد حض شارلمان على محاربة الأمويين ، على أمل أن تعود الأندلس إل أملاك العباسيين. وقد حاول جعفر

---

(١) قماش من الحرير الملون ، مثقل بالذهب ، كان يُعمل باليمن والعراق ومصر . عنه ، انظر Dozy : Supplément aux Dictionnaires arabes. 2éd. Leyden, 1881, 2, p. 809.

(٢) هو الحرير اللامع أو الملون يُعتبر تقليداً للحرير الصيني ، وهي كلمة فارسية تعني لباس الروح . أنظر Dozy : Ibid, I, p. 421. ؛ Ency. de l'Isl,(art Dîbâj) t 1, p. 993 - 4.

(٣) يتكون «الند» من العنبر الرمادي والمسك والعود بنسب معينة . عنه ، انظر Dozy: Suppl, 2, p. 651.

(٤) المعلومات الزائدة عن المزولة أوردها إجينهارد ؛ أما الباقي فقد أورده جميل نخلة .

(٥) عن هذه البعثة بتفصيل ، انظر Atiya : Op. cit, p. 38.

البرمكي – وزير الرشيد – أن يُثني الخليفة العباسي عن تحريض نصراني ضد مسلم ، وأن يرى في دولة الأمويين بالأندلس درعاً منيعاً للإسلام ؛ ولكن الخليفة العراقي ما كان يهمه غير مصالح خلافته العباسية . فمن قول هرون لرسوله [١] : إنا أتانا من ملك الفرنجة رسول يقرئنا منه السلام ، فرأينا أن نوجهك إليه بألطاف تروم إليه أن يتقبّلها في سبيل المودّة لغاية نرغب فيها إليه من التعصب على بني أميّة ، الذين يمزقون الأندلس ، فيما هو واقع بينهم من الحروب . فإذا وافقنا على ما نروم من الإستيلاء على ديارهم ، فهو المقصود من إنفاذك إليه ، واجهد بأن تسرق لبه بخلابة لسانك ، وتقدّم اليه بالوعد الجميل في أننا نوفيه حقه يوم الفتح ، ونصرف له نفقة الحرب من بيت مالنا ، ونجري الأرزاق الواسعة على جنده ، ونقاسمه ما تحوي خزائن الظالمين من المال والجوهر ، واستصحب معك هذا اليهودي ، الذي جاء به رسوله ، فهو يترجم عنك إليه » .

ومما أورده المؤرخون الأوربيون تهمنا مسألة حماية شارلمان لبيت المقدس [٢] ؛ بدليل أن هرون بعث إلى شارلمان ، فيما بعث ، بمفاتيح البيعة المقدسة ، موضع الصلب ؛ وإن كانت مصادر أوربية أخرى ترى أن الذي بعث بالمفاتيح ليس هرون ، ولكن بطريرك بيت المقدس ، الذي استحسن الإعانات المالية ، التي بعث بها شارلمان إلى الأراضي المقدسة ؛ وإن كان لا يبدو أنه يستطيع ذلك دون إذن من الخليفة [٣] .

ومع ذلك ؛ فإنه من المؤكد أن اتصالات هرون بشارلمان ، لا تخرج عمّا بدا من مظاهر النبل والشرف من قِبل خليفة مسلم اشتهر بالتسامح ، وكفل

(١) أورده جميل نخله وحده بالاعتماد على مصادر عربية قديمة ، رجعنا إليها ، ولم نجدها صحيحة . أنظر . بعده .

(٢) أنظر . Kleinclausz : La légende du Protectorat de, Charlmagne sur la Terre Sainte. Syria 1926, pp. 211 - 233.

(٣) أنظر . خدوري الصلات الدبلوماطيقية ، ص ٥٩ – ٦٠ ؛ Atiya : Crusade, Commerce and Culture, p. 36-37.

وقد بعث بها عن طريق رسول شارلمان واسمه Zaccharias .

الأمن والطمأنينة للمسيحيين في بلاده . ولو كانت تلك المفاتيح الصغيرة قد أُهديت فعلاً ، فهي لم تكن إلا مثل تلك المفاتيح الصغيرة للكنائس ، التي يهديها البابوات ورجال الدين إلى كبار الشخصيات ، وهي أشبه بالشارات والتعاويذ . ففي أيام حكم شارلمان ، لم يعلم الناس شيئاً عمّا للإمبراطور الأوربي من سيادة ، أياً كان نوعها ، على الأراضي المقدسة . ويبدو أن أسطورة هذه السيادة من إبتداع أحد الرهبان ؛ الذي بالغ في دلالة هذه السفارة ، حتى أنه نُسب إلى هرون بأنه قال : إنه على استعداد لأن يكون نائباً عن شارلمان في حكم الأراضي المقدسة .

وعلى كل حال ، فإن الصلات الطيبة بين الملكين ، ترتبت عليها نتائج طيبة للمسيحيين الأوربيين من الفرنجة ، الذين جاؤوا إلى الأراضي المقدسة في أواخر القرن الثامن وأوائل القرن التاسع الميلادي . فقد إزداد اهتمام شارلمان؛ بما في بيت المقدس من أديرة ونُزل ، يأوي إليها الحجاج القادمون من مملكته ، وأجرى عليها الاموال [1] .

ومع ذلك ، فإنه في رأي بعض المراجع الحديثة ، أن هذه الصلات الديبلوماسية بين الفرنجة والعباسيين ليس لها وجود ، وأنه ما ورد عنها زائف [2] . وقد يؤيد ذلك ، أن المؤرخ جميل نخلة ، الذي أورد بعض النصوص العربية ، وأيدها بمصادر تاريخية عربية أصيلة ؛ فإنه بالتفتيش عن مصادره تبيّن لنا أنها عملية توفيق لعبارات تتعلق بمواضيع أخرى ، ليس لها علاقة بالاتصالات الديبلوماسية بين الفرنجة والعباسيين ، كما أننا لم نعثر على نص عربي يؤيد وجود هذه الاتصالات . فلعل هذه العلاقات من جانب العباسيين ، لم يكن يعلم بها أحد ، ولا سيما أنها خاصة بتحريض نصارى على

---

(١) أنظر . Richter : Annalen den Frankischen, Reiches in Zeitalter der Karolinger . Halle, 1887, 2, p. 174 . يعتمد على رحالة عاش في القرن الثاني لشارلمان .

(٢) أنظر . Buckeler : Harun'ul Rashid and Charles the, Great . Cambridge, 1931, p. 43 — 47.

مسلمي الاندلس ، مما جعلها تتسم بالسرية . وعلى العكس ؛ فإنه من المؤكد أن ورودها في المصادر الغربية المعاصرة ، كان بقصد إثبات حق للفرنجة في الاراضي المقدسة .

ومن ناحية اخرى ، حدثت صلات ديبلوماسية أخرى بين الشرق والغرب من جانب أباطرة الروم مع أمراء الأندلس الأمويين ، ولا سيما أن الروم كانوا قد ذاقوا الأمرين في حروبهم مع العباسيين في أول تولي هؤلاء الخلافة، يُضاف إلى ذلك عداؤهم للعباسيين ، بحكم كون هؤلاء أرباب الدولة الإسلامية الكبرى، التي ورثت مستعمراتهم السابقة في الشرق ؛ لذلك تعددت وفود القسطنطينية إلى بلاط قرطبة . ومن جهة أخرى ؛ إن الأمويين في الأندلس رحبوا بهذه السفارات الرومية ؛ بسبب عدائهم للعباسيين والفرنجة معاً. ولكننا نلاحظ أن الصلات الديبلوماسية بين الروم والأمويين في الاندلس، لم تحدث مبكرة، مثلما حدثت بين الفرنجة والعباسيين — وإن كانت قد حدثت من قبل يوم كان الامويون في الشام — ربما بسبب أن الروم كانوا منهمكين في أول الامر في حرب العباسيين ، ويسعون إلى كسب صداقة الفرنجة ، وأن الامويين في الاندلس أرادوا أن لا يفقدوا ثقة الشعوب الإسلامية بمحالفتهم الروم ، أعداء الإسلام التقليديين .

ففي أوائل القرن الثالث الهجري في عام ٢٢٥/٨٣٩ — ٨٤٠ [١] ، فإن ملك الروم توفلس (ثيوفيلوس The ophilus) ، وزوجته تود (ثيودورا Theodora) ، أرسلا مندوباً عنهما اسمه قرْطيوس Kratiys ، إلى الامير عبدالرحمن الاوسط (٢٠٧-٢٣٦/٨٢٢-٨٥٢) ،من سلالة عبدالرحمن الداخل،

---

(١) نفح الطيب ، ١ ص ١٦٢ وما بعدها ؛ انظر. ليڤي پروڤنسال ،الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة سالم وحلمي ، القاهرة ١٩٥٦ ، ص ٩٥ وما بعدها (يوجد نص الرسالة التي أرسلها عبدالرحمن الأوسط ، ص ١١٥—١١٨) وهو يعتمد على نصوص لم تنشر،وجدها في مخطوطات بمراكش ؛ ولا سيما من كتاب المقتبس لابن حيان .

ومعه هديــة ، ليحضاه على عقد محالفة ضــد العباسيين وخليفتهم المعتصم ، الذي خاض حروباً قوية ضد الروم ، ويُطمعانه في ملك العباسيين في الشرق ، ويذكّرانه بالعلاقات السلمية السابقة ، التي قامت في وقت ما مع الروم وهم في الشام. ولكن عبد الرحمن الأوسط ، الذي استقبــل سفارة ملك الروم أحسن استقبال ، رد على هذه السفارة ، بسفارة من قِبله أرسلها إلى القسطنطينية ، وعلى رأسها الشاعر يحي الغزال ، الذي عُرف هكذا لوسامته ، ومعه هديــة لطيفة . وقد ضمّن رده اعتذاراً لعدم صلاحية الأحوال لإسترداد ملكه في الشرق ؛ وإن بيّن عداءه للعباسيين ، ووصف المأمون والمعتصم العباسيين بابني مراحل وماردة ، بقصد تحقيرهمــا . ويصف المؤرخون استقبــال ملك الروم للغزال ، الذي عُرف أيضاً بلباقته وكبريائه ، فيقولون إنه رفض أن يسجد لملك الروم ، على الرغم من أن ملك الروم أمر بالمدخــل في قصره فضُيّق ، حتى لا يدخل أحد إليه إلا راكعاً ؛ إلا أن الغزال جلس على الأرض ومد رجليه وزحف على إليته ، حتى ظفر بإعجاب قيصر الروم وزوجته.

ويبدو أن هناك اضطراباً وخلطاً ، فيما ورد عن هذه السفارة من قبل عبد الرحمن الأوسط لملك الروم ، وسفارة أخرى إلى ملك من ملوك أوربا الشمالية — المجوس [١] ، كما يسميهم العرب — حيث أرسل عبد الرحمن الأوسط الشاعر الغزال نفسه ، وكانت لهذا الشاعر الطريقة ذاتها التي اتبعها في أثناء توليه السفارة لدى ملك الروم ، حيث زحف على إليته ، حتى لا يظهر راكعاً أمام ملك المجوس . فلعل الغزال ، الذي أصبح رسولاً عربياً محنكاً ، أُرسل إلى الأثنين. ولكننـّا نستبعد إرسال هذه السفارة الثانية ، لأن عناصر الشمال —

---

(١) أنظر . المطرب في أشعار أهل المغرب ، تحقيق الأبياري وغيره ، القاهرة ١٩٥٤ ، صفحات ١٣٨ — ١٥١ . ألف ابن دحية هذا الكتاب بناء على طلب السلطان الكامل في أيام الأيوبيين، وذلك في أثناء مروره بمصر . كذلك Dozy نقل رواية ابن دحية وترجمها في كتابه: Recherches sur l'histoire et la litterature de l'Espagne. **1881, 2, p. 269 - 278.**

(٢) البيان ، ٢ ص ١٣٠ ؛ انظر . بعده ،

المجوس – هاجمت بشدة الاندلس طوال حكم عبد الرحمن الاوسط بالذات ؛ فضلاً عن أن المؤرخ ابن دحية (م ٦٣٣ / ١٢٣٥) ، وهو الذي نقل إلينا أخبار هـذه السفارة ، عُرف عنه أنه يدعي أشياء لا حقيقة لها ، وأن مؤرخين أندلسيين أوائل مثل ابن حيان، لم يوردوا خبر هذه السفارة إطلاقاً. ثم إن المستشرق ليفي بروفنسال Lévi - Provençal ، يرى أن تود ملكة المجوس ، قد تكون تحريفاً لتود – وهي ثيودورا Theodora – ملكة الروم ، والطريق التي قيل إن الغزال سلكها في بلاد الأعداء في شمال الأندلس ، من الصعب التصديق مروره بها ؛ مما يؤيد أن السفارة الثانية هي من نسج خيال راويها ابن دحية .

كذلك كانت هناك سفارة أخرى في زمن عبد الرحمن الناصر ، الذي كان أول من اتخذ لقب الخلافة من أمراء الاندلس ، وذلك من قبل الملك قنسطنطين السابع برفيروجنيتوس Constantinus VII Porphyrogenitus في عام ٩٤٩/٣٣٨ [١] . فلما وصل مندوب ملك الروم إلى قرطبة ، استقبل أحسن استقبال : ففي ذلك اليوم ركبت العساكر بالسلاح ، وزيّن القصر بأنواع الستور ، وحمل السرير – وهو العرش – ووُضعت حوله المقاعد للأبناء والاخوة والأعمام ، ورُتب الوزراء في مواقفهم ، وعندما دخل رُسل الروم ، بُهروا من فخامة القصر ، فسلموا عبد الرحمن المكتوب ، وقد كتب بالخط الإغريقي ، وعليه من جانب صورة الملك وولي عهـده ، ومن الجانب الآخر صورة المسيح ، وكذلك سلموا هديتهم . وقد أمر الخليفة كبار رجال دولته بأن يخطبوا في ذلك المحفل ، ويعظّموا أمراء الإسلام والخلافـة ، كما مدح الشعراء عبد الرحمن وأبانوا عظمة خلافته . وقـد انصرف الرسل ومعهم رسول الناصر يحمل هدية حافلة ؛ ليؤكد المودّة .

ويبدو أن ملوك أوربا اعتبروا عبد الرحمن الناصر من ملوكها ، فامتنعوا

(١) نفح ، ١ ص ١٧٠ ، ١٧١ – ١٧٤ ؛ العبر ، ٤ ص ١٤٢ – ١٤٣ . يذكر ابن خلدون تاريخاً آخر في ٣٣٦ هـ .

من معاداته ، حتى أنه وصلته منهم رسل عديدة من أنحاء أوربا . منها رسل ملك الفرنجة المجاورين [1] للأندلس ، التي جنحت للسلم معه ، رغبة في استمرار السلم، الذي كان قد ارتضى به شارلمان مععبدالرحمن الداخل،واعترافاً بالأمر الواقع ؛ وربما كانت هـذه العلاقة السلمية في عهد ملك الفرنجـة لويس الرابع Louis IV، المشهور بلويس ما وراء البحار d'Outremer ، لأنه كان منفياً بعيداً عن فرنسا في إنجلترا (٩٣٦ - ٩٥٤ م). وكذلك كانت الحال مع ملوك دويلات الفرنجة في شمال الأندلس ، حيث بدأت تنشأ دويلاتهم نتيجـة لإتساع الحركةالقومية الأسبانية ،المعروفة باسم حركة الإسترداد Reconquista، التي ظهرت في المناطق الشمالية الغربية النائية ، ثم اتسعت شيئاً فشيئاً ،وخصوصاً دويلة قشتالة [2] Castilla ، التي سميت بسبب معاقلها Castilles ، وكانت قد تزعمت هذه الحركة، على الرغم من محاربة عبد الرحمن الناصر لها بشدة ؛ مما حمل ملوك قشتالة على التقرب منه .

كذلك راسل عبدالرحمن ملك الألمان [3] ، المسمى أوتو الكبير Otto - يسميه العرب هوتو - الذي عمل على توحيد الألمـان ، وأعاد الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، إذ وضع البابا نفسه تحت حمايتـه ، بدلاً من ملوك فرنسا المنتمـين إلى سلالة شارلمان ، الذين كانوا قد بدأوا يضعفون. ولقد أرسل اليه عبدالرحمن الناصر كتاباً باللغة العربية لم يفهم منه الإمبراطور شيئاً ، وظـن أن فيه حطاً من مقام المسيح ؛ فأرسل الإمبراطور إلى عبد الرحمن الناصر خطاباً يحط به من مقام النبي ؛ ولكن الناصر أوضح لرسول أوتو أن هناك سوء تفاهم ؛ مما جعل رسول أوتو يطلب خطاباً جديداً من إمبراطوره .

وأخيراً جاءت إلى عبدالرحمن الناصر رسل من قبل ملك الصقالبة [4] ، ولعلهم

---

(١) نفح ، ١ ص ١٧٠ س ٢٠ - ٢١ .
(٢) نفسه ، ١ ص ١٦٥ س ١٣ .
(٣) نفسه ، ١ ص ١٧٠ س ٢٠ ؛ العبر ، ٤ ص ١٤٣ . يسميه ملك الصقالبة ؛ وإن كانت العبارة تبدو مضطربة ؛ لأنه ذكر أيضاً ملك الألمان .
(٤) نفح ، ١ ص ١٧٠ س ١٩ - ٢٠ .

البُلغار ، وهم يسكنون في شرقي أوربا ، كما جاءته أيضاً رسل من قبل البابا في روميّة (روما) [1] ، ومن ملوك شمال أوربا من العناصر الشمالية [2] .

★

يتبيّن من ذلك أن العرب فتحوا أجزاء من أوربا ، وثبّتوا أقدامهم في الأندلس ؛ فكان هذا عاملاً على أن تقوم بينهم وبين الإفرنج حروب وصلات دبلوماسية .

---

(١) نفسه ، ١ ص ١٧١ س ٢ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١٧١ س ٥ .

الفصل الثاني

ناحية حوض البحر المتوسط

سيادة المسلمين على جزائره الشرقية والغربية – فتح المسلمين لصقلّيّة – نشاط المسلمين البحري ضد الفرنجة والروم – عودة سيادة الروم والفرنجة على جزائر البحر الأبيض – هجوم النورمان في صقلّيّة ومالطة وسواحل المسلمين – أثر الإسلام الحضاري .

وحدث صـــدام آخر بين العرب والفرنجة في ناحيـــة حوض البحر الأبيض ؛ ممـا جرّ إلى الإصطدام بالروم أيضاً ، بسبب سيطرة الروم على بعض أجزائه .



ونعرف أن العرب المسلمين ؛ لم يكونوا أمـــة بحرية في أول الأمر ، لها خبرة بركوب البحر ، وإنشاء السفن [١] ، وأن الروم كانوا يسيطرون على كل أجزاء البحر الأبيض ، الذي غلب عليه اسمهم ، فعرف : ببحر الروم أو الرومي أو اليوناني [٢] ، كما أن معظم جزائره كانت في أيديهم ؛ بدليل أن

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٠ .

(٢) أنظر . الأصطخري ، المسالك ، تحقيق الحينى ، ص ٥٠ – ٥١ ؛

Ency. de l'Isl, (art Bahr al-Rûm) 2 éd, t 1, p. 963 sqq; (art Bahr al-Maghrib) 1 éd, t 1, p. 595.

الروم ، مع هزائمهم في البر أمام العرب ، كانوا يصولون ويجولون أمـــام السواحل ، التي احتلها العرب .

ولكن في عهد الخليفة الثالث عثمان بن عفّان ، بُدىء في تجهيز أسطول عربي[1] ، ليكون ضماناً للقضاء على هجوم الروم من البحر ، فضلاً عن إمكان القيام بالجهاد ضدهم في الجزر التي احتلوها[2] . وقد كُفل بناء هذا الأسطول إلى العناصر الخبيرة في الصناعة[3] — أي صناعة المراكب — في البلاد التي فتحها العرب في كل من مصر[4] والشام[5] ، وبخاصـــة القبط[6] ، الذين أسهموا بنصيب كبير في بنـــاء الأسطول الإسلامي ، حتى أصبح للعرب أسطول يتكون من أكثر من ألف وسبعمائة قطعة[7] ، استطاعوا أن يحطموا بـــه السيادة البحرية للروم في البحر الأبيض ؛ وكان كلما توسعت سيطرة العرب على سواحـــله ؛ تغيّر اسم البحر الأبيض الرومي إلى البحر الشامي أو بحر الشام أو بحر إفريقية أو بحر المغرب أو بحر الأندلس أو بحر الإسكندرية[8] .

فأول ما استولى العرب على جزيرة قُبرس أو قبرص ، وهي باليونانية

---

(١) الكامل ، ٣ ص ٤٨ س ١٩ ؛ الخطط ، القاهرة ١٣٢٦ هـ ، ٣ ص ٣٠٨ س ٢٣ . كلمة أسطول غير عربية (الخطط ، ٣ ص ٣٠٧ س ٥ — ٦) ، ولعل أصلها يوناني « Stolos » ، تطلق على مجموع السفن الحربية ، وعلى السفينة الواحدة . أنظر . عبادة ، سفن الأسطول الإسلامي ، القاهرة ١٩١٣ ، ص ١٠ ؛ الشاذلي ، الأسطول في اللغة والأدب والتاريخ ، ص ٣٥ (مجلة الثريا ، السنة الثانية ، عدد ٣ ، مارس ١٩٤٥) .

(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٠٩ س ٢٠ - ٢١ .

(٣) نفسه ، ٣ ص ٢٨٩ ، ٣٠٦ - ٣٠٧ .

(٤) نفسه ، ٣ ص ٢٨٩ ؛ انظر . Bell : Catalogue of the Greek, Papyri in the Brit. Mus. IV, **1376 ; 1410.**

(٥) أغابيوس ، العنوان ، تحقيق وترجمة Vasiliev ، Paris ، ١٩٠٩ ، ٢ ص ٢٢٣ .

(٦) الطبري (طبعة مصر) ٣ ص ٣٤١ .

(٧) أغابيوس ، ٢ ص ٢٢٠ .

(٨) أنظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٧٠ - ٧١ ؛ Ency. de l'Isl, (art Bahr al-Maghrib) t **1**, p. **595.**

Cypros ، وبالتركية Kibris ، تقع في مشارق بحر الروم [1] ، التي كان معظم سكانها من اليونان ، ويسيطر عليها الروم ، ويتخذونها قاعدة للقرصنة؛ فكانت أشبه بمدفـــع يدوي صوبت فوهته إلى إقليم الشام ، الذي فتحه المسلمون . فاستولى عليها معاوية بن أبي سفيان - عامل عثمان في الشام-الذي غزاها مرات عدة بنفسه في : ٢٨ و ٢٩ ﻫ ؛ وإن كان في سنة ٦٥٤/٣٣ [2]، غزاها بقصدإحتلالها، وأنشأ فيها الحاميات ، وأقام المساجد . ثم غزا العرب جزيرة رُودِس [3] Rhodos (Rhodes) ، وهي جزيرة هائلة،تعد من أخصب الجزر مقابلة للإسكندرية ، وتُعتبر في رأي الجغرافيين العرب أول بـــلاد أفرنجة ، ويبدو أن الذي غزاها هو معاوية أيضاً ؛ وربما في غزوة طارئة ، وإن كان في خلافته ، أقام العرب فيها معسكراً في ٦٧٢/٥٢ .

وقد كان هذا النشاط البحري العربي مهدداً لسيادة الروم البحرية ؛ حتى أن إمبراطور الروم قنسطانز الثاني Konstas II ، جمع عدداً من المراكب لم يجمع مثله من قبل ، يزيد على ألف مركب [4] ، وسار بهـــا بقصد تدمير الأسطول العربي . فخرجت أساطيل العرب في أعداد كبـــيرة [5] ، بقيادة عامل مصر عبد الله بن سعد بن أبي سَرح ، وتقابلت مع أسطول الروم قرب سواحل آسية الصغرى في ٦٥٥/٣٤ ، في معركة بحرية عُرفت باسم : ذات

---

(١) عن قبرس ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٦ ؛ صبح ، ٥ ص ٣٧٠ ؛ انظر .
; Ency. de l'Isl, (art Cypre) t 1, p. 905 - 6 ;
Ency. Britannica (art Cyprus) 6, p. 952 sqq.
اسمها اشتق من معدن النحاس ، فالقبرس هو النحاس الجيد .

(٢) فتوح البلدان ، ص ١٥٣ ؛ ماجد ، الدولة العربية ، ١ ص ٢٤٣.

(٣) معجم ، ٤ ص ٣٠٠ ؛ صبح ، ٥ ص ٣٧٠ - ٣٧١ ؛ فتوح البلدان ، ص ٢٣٦ ؛
Ency. de l'Isl, (art Rhodes) t 3, p. 1225 sqq.

(٤) الخطط ، ٣ ص ٣٠٩ س ٢ .

(٥) أُختلف في عددها : فقال أغابيوس ١٧٠٠ (أنظر . العنوان ، ٢ ص ٢٢٠) ، وابن عبد الحكم ٢٠٠ (فتوح مصر والمغرب والأندلس، تحقيق Torrey ، طبعة New-Haven، ١٩٢٠ ، ص ١٩٠) ، والبلاذري ٥٠٠ . فتوح البلدان ، ص ١٥٣ .

السواري [١] أو الصواري ؛ لكثرة سواري المراكب . فقتل من الروم ما لا يُحصى ، ودُمرت معظم مراكبهم ، وأنقذ الإمبراطور حياتــه بصعوبة ، حيث فرّ إلى جزيرة صقلّيّة . وقد شُبهت الموقعة بموقعة اليرموك ، التي لم تقم للروم بعدها في الشام قائمة .

وكان من نتائج هذه الموقعة أن مهّدت لسيطرة العرب البحرية على شرقي البحر الأبيض Levant ؛ بحيث أنهم وضعوا الحصار في عهد خلافــة معاوية حول القسطنطينية . ولكن ظهور النار اليونانية أو الإغريقية[٢]، التي اخترعها يوناني اسمه كالينيكوس Kallinicos ، وهي عبارة عن مادة أساسهــا النفط Naphta – وهو البترول – يسير على الماء دون أن تنطفىء ، بل تزداد اشتعالاً ؛ حتى تصل إلى المراكب فتحرقها ؛ مما ترتب عليه تدمير الأسطول العربي المحاصر للقسطنطينية [٣] ، وإنسحاب العرب من قبرس ورودس [٤] ، وغيرهما من جزائر شرقي البحر الأبيض .

ولكن العرب استعادوا نشاطهم البحري ، بسبب معرفتهم سر تكوين النار الإغريقية [٥] ؛ فأصبح النفط ضمن أدوات قتالهم ، ولا سيما أنه كان متوفراً بكثرة في بلادهم ، فعرفوا منــه الأسود الذي يوجد على ساحل بحر القُلزم (الأحمر)،ويسيل من أعلى جبل ويجمع في خزائن [٦] ، والأبيض أو

---

(١) الكامل، ٣ ص ٥٨–٥٩ ؛ ابن عبد الحكم ، ص ١٩١ س ١ ؛ الخطط ، ٣ص٣٠٩.
Chronographia. ed. de Boor, p. 332, 344 - 5. : Theophanis
تُسمى أيضاً موقعة فونيقية (أغابيوس ، ٢ ص ٢٢٤)، لوقوعها قرب ثغر« Phoenicus »، على ساحل آسية الصغرى .

(٢) هذه التسمية حديثة : Feu Grégeois . عنها ، انظر : Renaud et Favé Feu Grégeois . Paris, 1845 .

(٣) أغابيوس ، ٨/٢ ص ٤٩٢ [٢٤٣] ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربية ، ٢ ص ٤٨ .

(٤) فتوح البلدان ، ص ١٥٤ س ١–٢ ، ٢٣٦ ؛ الكامل ، ٣ ص ٢٤٤ ، ٢٤٦ .

(٥) المصنف مجهول ، العيون والحدائــق ، تحقيق de Goeje ، ١٨٧١ ، ص ٢٤ (في آخر الصفحة) .

(٦) صبح ، ٣ ص ٢٨٨ .

الطيار ويوجد في العراق [١] ؛ كما وجدت منابعه بجوار بحر قزوين عند بلدة باكه أو باكُويه [٢] ، حتى أنهم سموها « النفاطة » ، وهي باكو الحالية . فعادوا إلى فرض سيطرتهم على قبرس [٣] – وربما على غيرها من الجزائر – وتهديد القسطنطينية من جديد .

وقد ازدادت سيطرة العرب في البحر الأبيض بفتح المغرب . فحينما فتح حسان بن النعمان بلاد المغرب في أيام عبد الملك بن مروان ، أنشأ في تونس ، بجوار قرطاجنّة ، داراً للصناعة لبناء السفن والأساطيل [٤] ؛ حيث كان عبد العزيز بن مروان ، واليه على مصر ، قد أرسل إلى حسان ألف قبطي بأهلهم [٥] . وبفضل استيلاء العرب على هذه القاعدة البحرية في غرب البحر الأبيض ، تمكنوا ، في عهد موسى بن نصير ، من الاستيلاء على جزائر [٦] : منورقة Minorca (Menorca) ، وميورقه Majorca (Mallorca) ، قبالة ساحل الأندلس الشرقي ، أو ما عُرف بجزائر شرق الأندلس أو الجزائر الشرقية أو البحرية ، وهي جزائر البليار Baleares (Balearica) ؛ حيث كانت من أملاك الوندال ثم الروم ؛ وذلك في سنة ٩١/٧١٠ . ثم فتح موسى سَرْدَانِيةَ أو ما يسميه الفرنجة صُرداني [٧] Sardinia (Sardaigne) ، وهي

---

(١) العماد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي، مصر ١٣٢١ هـ ، ص ١٧١ ، ١٧٩ .

(٢) معجم البلدان ، ٢ ص ٤٥ ؛ انظر ماجد والبنا ، أطلس ، خريطة ٤ و ٨ .

(٣) فتوح البلدان ، ص ١٥٤ .

(٤) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٠ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٢ ص ٤٣٤ .

(٥) البكري ، المغرب في ذكر بلاد إفريقية والمغرب ، نشر de Slane ، الجزائر ١٩١١ ، ص ٣٨ .

(٦) الذهبي ، دول الإسلام ، ط ٢ ، حيدر أباد ١٣٦٥ ، ١ ص ٤٢ ؛ الكامل ، ٤ ص ١١٢ ؛ معجم البلدان ، ٣ ص ١٠٤ ؛ انظر .

Ency. de l'Isl, (art Baléares) t 1, p. 630 - 631.

(٧) صبح ، ٥ ص ٣٧٤ ؛ معجم البلدان ، ٥ ص ٦٦ ؛ انظر .

Ency. de l'Isl, (art Sardaigne) t 4, p. 167 - 8.

جزيرة كبيرة قليلة الماء، تقع في شمالها جزيرة قُرسق أو قَرْسَقة أو قورنس Corsica (Corse) ، ويفصل بينهما مضيق سماه العرب المجـــاز ، ولم تكن سَردانية من أملاك القوط قط ؛ إذ أن دولة القوط نفسها لم تكن دولة بحرية ؛ ولكنها كانت من أملاك الوندال ثم الروم لما طردوا الوندال من أملاكهم في شمال افريقيا وغيرها ؛ فـأغار عليها العرب في ٩٢ هـ / ٧١١ [٢] ، ولا نظن أنهم احتلوها ؛ إذ لم يُعرف أنهم استقروا فيها ؛ على الرغم من غاراتهم عليها باستمرار . وقد ساعدت هذه الإغارات على السيطرة في غرب البحر الأبيض، ومهدت لفتح الأندلس كما ذكرنا .

ومع إنقسام وحدة المسلمين وظهور الدولة الأموية في الأندلس ، مستقلة عن جسم الخلافة الإسلامية ، وقيام الدولة العباسية في المشرق والمغرب ؛ فإن السيطرة البحرية الإسلامية ظلت قوية ؛ بسبب تزايد ضعف دولة الروم من جراء سيطرة العرب على هذه الجزائر ؛ حتى أنهم استمروا يغيرون على سَردانية في ٩٨ و ١١٨ و ١٣٥ و ١٤٣ [٣] ، أي قبـــل سقوط الدولة العربية ، وبعد قيـــام الدولة العباسية . وأكثر من هذا ، أن العرب فتحوا جزيرة كريت المسماة لهم : أَقْرِيطش أو أقريطية [٤] Krete (Kriti) – وللترك كريد – وهي جزيرة كبيرة عامرة ، عُرفت بمرافئها المائة ، تقع على سمت برّقة ، كانت تابعة للروم ، وسكانها من اليونان . وقد تعرضت لغارات العرب في دور الفتوح الأولى في أيام عثمان، وغُزيت في أيام معاوية ،

---

(١) عنها ، انظر صبح ، ٥ ص ٣٧٤ - ٣٧٥ ؛ انظر ماجد والبنا ، الأطلس التاريخي ، خريطة ١٥ .

(٢) الكامل ، ٤ ص ١٢٢ . أو في سنة ٧١٦/٨٩ . ابن قتيبة ، الإمامة ، ٢ ص ١١٢ .

(٣) المكتبة الصقلية ، ط . Lipsia ، ١٨٥٧ ، ٢٠ - ٢١ ، ٢١٦ - ٢١٨ . نقلا عن الإدريسي وابن الاثير .

(٤) صبح ، ٥ ص ٣٧١ ؛ معجم البلدان ، ١ ص ٣١١ - ٣١٢ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Crète) t1, p. 900 sqq.
Ency. Britannica, 6, p. 731 sqq. ؛ ماجد والبنا ، الأطلس ، خريطة ١٤ .

وُفتح بعضها في عهد الوليد[1] ؛ وإن كان فتحها النهائي تم على أُيدي جماعة من أهل الأندلس . فقد قامت فتنة في ربض – أي ضاحية – قَرطبة ضد أمير الأندلس الأموي الحكم بن هشام (١٨٠ – ٢٦٠ / ٧٩٦ – ٨٧٣) ، بسبب فسقه وشربه الخمر،وهي الفتنة التي اشتهرت باسم فتنة أهل الربض[2]، كما سمي الأمير الحكم ، بسبب ذلك أيضاً ، بالحكم الربضي . وقد تمكن الأمير الأموي من إخمادها ، وأرغم عدداً كبيراً من الثوار على الخروج من الأندلس. فانصرف بعضهم مهاجراً إلى المغرب ، واتجهت جماعة منهم إلى الإسكندرية، وتغلبوا عليها من‌وإلى العباسيين في ١٩٩/٨١٤ . ولكن المأمون بعث قائده عبدالله بن طاهر وأخذها منهم ، وعقدوا معه حلفاً في ٢١٠/٨٢٥ ، على أن ينزلوا في أقريطش . فزودهم بالسفن والعتاد ووجههم اليها ، وعلى رأسهم زعيمهم أبو حفص عمر بن عيسى بن شعيب البلوطي [3] . فلما وصلت سفن الأندلسيين إلى أقريطش ، أمر أبو حفص بالسفن فأحرقت ، فاشتد الجند في أمر الحرب ، فاحتلوا الجزيرة ، وأخرجوا منها الروم ، حتى أن أبا حفص المنتصر عليها ، ُعرف بالأقريطشي ، نسبة إلى اسم الجزيرة . وكان العرب قد حفروا خندقاً يتسترون فيه ، فلما احتلوا الجزيرة ، قامت في موضعه مدينة سموها : قندية Khandax (Candia) ؛ وهي التي بقيت أكبر مدنها إلى الآن .

وقد غدت أقريطش تابعة لولاة مصر من حيث التقسيم الإداري منذ ٢١٠/٨٢٥ . وقد حاول ملك الروم ميخائيل الثاني Michael II (٨٢٠ – ٨٢٩ م) ، إخراجهم منها ، دون جدوى . وفي سبيل ذلك أرسل

---

(١) فتوح البلدان ، ص ٢٣٦ .

(٢) أخبار مجموعة ، ص ١٣١ ؛ الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، طبعة الحسينية ، ١٠ ص ٢٧٥ – ٢٧٦ ؛ Cedrenus, p. 506 - 508 ؛ انظر . أومان ، الأمبراطورية البيزنطية ، تعريب طه بدر ، ص ١٦٢ ؛ Gibbon : Decline, 6, p. 38-39.

(٣) عنه ، انظر . Ency. de l'Isl, (art Abû Hafs) t 1, p. 89; زامباور ، معجم الأنساب ، ترجمة عربية من زكي حسن وحسن محمود ، ١ ص ١٠٩ .

فوتيناس [1] Photinas ، الذي فر بعد مقاومة العرب له ، كما أن هؤلاء استولوا على سفن أمير البحر كرايتروس [2] Krateros ، لما نزل بعسكره إلى البر ؛ مما جعله ينقذ حياته بالهروب على ظهر سفينة تجارية .

وقدأصبح سكان أقريطش جميعاً من المسلمين [3] – إلا نبذ من النصارى – أهل غزو يغيرون منها على بلاد الروم ، ولا سيما على جزر الأرخبيل أو بحر أو خليج القسطنطينية – وهو بحر إيجه – Aegeum (Egée) – العديدة المجاورة ، التي يبلغ عددها نيف على الثلاث مئة وخمسين جزيرة بعضها خالية ، وهي التي عرفها العرب باسم : جزائر الرمانية [4] ، وهي ملك الروم . كذلك خرجت جماعة من مسلمي أقريطش ، بالإتفاق مع جماعة من المصريين ، الذين كانت تحكمهم أسرة ابن طولون ، وقد جهزت أسطولاً من ألف مركب [5] ، للهجوم في عام ٢٩٣/٩٠٥ ، على سلانيك أو سالونيك Salonae (Salonica) [6] ، وهي مدينة يونانية قديمة في ساحل دالماشية Dalmatia – أو ما عرفه العرب بجبل القلال [7] – حيث أصبحت من أمنع ثغور الروم . وكان خليجها مليئاً بالحجارة لمنع المهاجمين من دخوله ، ولكن العرب علّوا بمراكبهم سورها ، الذي تسلقوه ، ودخلوا المدينة ، فهدموا حصونها ؛ وإن لم يعملوا على الإحتفاظ

---

(١) أنظر . Cedrenus : Annales, 1566, 418 ؛ العدوي ، الأساطيل العربية ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ٩٩ .

(٢) أنظر . Ibid, p. 420 ؛ نفسه ، ص ٩٩ - ١٠٠ .

(٣) الإصطخري ، مسالك ، تحقيق الحيني ، ص ٥١ .

(٤) ابن جبير ، رحلة ، تحقيق نصار ، صفحات ٣٠٤ و ٣٠٥ و ٣٠٧ .

(٥) ابن إياس ، بدائع الزهور ، بولاق ، ١ ص ٤٠ .

(٦) مسكويه ، تجارب الأمم ، ٤ ص ٢٤٩ ؛ انظر .
؛ Ency de l'Isl, (art Salànik) t 4, p. 213 s qq

Finay: History of Greece, 1877, 2, p.268,270 ؛ العدوى ، الأساطيل ، ص ١١١-١١٢

(٧) ماجد والبناء ، أطلس تاريخي ، أنظر .

بالمدينة ذاتها . ولكن أصبح لهم في هذا الساحل مواضع [1] .

✶

وبفضل هذه السيطرة البحرية ، تمهد للعرب فتح كبير في جنوب أوربا شمل صقلّيّة وجنوب إيطالية. فصِقِلّيّة أو صَقَلّيّة أو سقلية [2] Sicilia أو Sicula ، هي جزيرة مقابلة لساحل إفريقية – تونس – وقد أُعتبرت من من جزائر ساحل المغرب ، كما أنها تنفصل عن جنوب إيطاليا ، وهو كالبريا Calabria ، التي سماها العرب قِلّورية [3]، بضيق مسينة Messana ،المسمى المجاز أو الزقاق ، الذي يُرى منه أرض الفرنجة [4] ، أي أوربا .

ومن وصف صقلّيّة الجغرافي، نعرف أنها مثلثة الشكل،متساوية الساقين ، وهي بلاد جبلية تتخللها أودية تجري فيها أنهار قصيرة ، وسواحلها جيدة ؛ إلا الشواطىء الجنوبية المقابلة لإفريقية ، كما يوجد فيها بركان جبل النار Etna ، في المنطقة الشرقية المسماة : قطانية Catania . وبين صقلّيّة وقِلّوريّة توجد جزائر صخرية عديدة ، أشهرها جزيرة صغيرة عرفها العرب : بجزيرة البركان أو جبل البركان أو بركان النار [5] Strognili ، عبارة عن جبل فيه نار عظيمة نادراً ما تفتر ، وهي الجزيرة المعروفة حالياً باسم : سترمبولي Stromboli .

---

(١) الإصطخري ، ص ٥١ ؛ المكتبة الصقّلية ، ص ٣ .

(٢) عنها ، انظر . صبح ، ٥ ص ٣٧٣ ؛ معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧٣ وما بعدها ؛ المكتبة الصقلية ، ص ٤ وما بعدها (يعتمد على مصادر عديدة مثل : الإدريسي ، نزهة المشتاق، تحقيق أماري ، رومة العظمى ١٨٧٨ ، ص ١٧ وما بعدها ، ٢١ وما بعدها) ، انظر .
Ency. de l'Isl (art Sicile) t 4, p. 414 sqq;
Ency. Italiana (Sicilia) t 31, p. 683 sqq.

(٣) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ١٥٢–١٥٣ .

(٤) الإصطخري ، المسالك ، ص ٥١ .

(٥) المكتبة الصقلية ، ص ٢٢ – ٢٣ . نقلاً عن نزهة المشتاق . انظر .
Ency. Italiana, t 33, p. 858 sqq.

أما قِلَّورية ؛ فهي شبه جزيرة مستطيلة في الطرف الجنوبي أشبه بالحذاء وكعبه ، تُعتبر مدخـــلاً للأرض الكبيرة [1] – أي أوربا – هي الأخرى جبلية ، أشهر جبالها المعروفة عند العرب ، بجبال الجلالقة ، بينما في شمالها توجد سهول تحيط بها جبال ، حيث يسمي العرب السهول باسم لُنْبَرْدِيه[2] ، نسبة لعناصر اللومبارديين من الجرمان ، الذين استقروا فيهـــا ، أو حتى باسم : الأنْكَبُرْدَة [3] ، وإن كان هذا الاسم الأخير شمل بلاداً واسعة ، تمتد من القسطنطينية إلى الأنداس ، أمـــا الجبال فهي جبال الألب ، التي يسميها الجغرافيون العرب : نيت جون [4] .

وكما نعرف ؛ فإن أصول سكان صقلّيّة وإيطاليا ، أغلبهم من أجناس البحر الأبيض، الذين يمثلهم على الخصوص: العنصر اللاتيني والفينيقي واليوناني؛ حيث استقروا في جميع أجزائها . وبعد ذلك ، أصبحت صقلّيّة وإيطاليا مجالاً لسيل موجات المتبربرين من الجرمان ، مثل : القوط الشرقيين ، الذين احتلوا روما ، ووصلوا إلى صقلّيّة ؛ إلا أنهم لم يبقوا فيها ، كما أن الوندال الذين احتلوا أجزاء في شمال افريقيا كانوا يغيرون عليها ، وعلى العكس تمكن من الإستقرار في شمـــال إيطاليا عنصر اللومبارديين ، الذين أطلقوا اسمهم على السهل الشمالي .

وقد كانت صقلّيّة وإيطاليـا تخضعان للرومان ، ثم لما قضى القوط على الرومان ؛ فإن أباطرة الدولة الرومانية الشرقية أي بيزنطة – أو ما يسميهم العرب الروم – اعتبروا أنفسهم الورثة الشرعيين لأباطرة الرومان ؛ فـكان ملك القوطثيودريك Theodorik يعتبر نفسه مندوباً عن الإمبراطور الشرقي. وبعد موت ثيودريك ؛ عمل جستنيان إمبراطور بيزنطة على استرداد صقلّيّة

---

(١) ابن جبير ، رحلة ، ص ٣١٣ .
(٢) صبح ، ٥ ص ٤١٥ .
(٣) معجم البلدان ، ١ ص ٣٦٣ .
(٤) ماجد والبنا ، الأطلس التاريخي ، انظر .

وإيطاليا . ففتح قائده بليزاريوس [١] Belisarius صقلية ، وتوغل في جنوب إيطاليا ، والذي سهل زحفه فيها أن حاميات القوط الشرقيين كانت نادرة في هذه الأجزاء ، فضلاً عن أن الصقليين كانوا اتفقوا مع القوط على أن لا تبقى حاميات في جزيرتهم . ومع ذلك ، فإن القائد نرسيس [٢] Narses ، الذي خلف بليزاريوس ، هو الذي تمكن من هزيمة آخر ملك للقوط اسمه بديله Baudula أو توتيله Totila في ٥٥٣ م ؛ وبعدها تفرّق القوط الشرقيون ، وذابوا في غيرهم .

وعلى العكس لم تتقدم جيوش الروم نحو روما ، التي استفادت من نزاع المتبربرين والبيزنطيين ، ليصبح لها كيان خاص ؛ وإن خضعت لبيزنطة اسمياً في أول الأمر ، حيث كان لبيزنطة ممثل في روما [٣] . ولما حدث الإنفصال الديني ، بسبب الحركة الدينية المعروفة باسم حركة اللاأيقونات Iconoclasim ، التي ظهرت على يد إمبراطور الروم ليون الثالث المرعشي الأيسوري [٤] Leon III Isaurikos – لاوون –(٧١٧ – ٧٤١ م) ، وهو أرمني أو من عنصر الجراجمة ، التي تقيم على حدود الشام الشمالية ، بقصد منع عبادة الصور المقدسة – أي الأيقونات – في الكنائس ؛ إذ كان متأثراً بوحدانية الإسلام . ونلمس أثراً لهذه الحركة في الشرق الإسلامي أيضاً ؛ حينما يقوم الخليفة الأموي يزيد بن عبد الملك بتحريم عبادة الأيقونات في كنائس الشرق [٥] . ولكن

---

(١) أنظر . أورمان ، بيزنطة ، ص ٦٩ وما بعدها ؛ .Ure : Justinian and his Age. London, 1951.

(٢) أنظر . نفسه ، ص ٧٥ – ٧٦ ؛ Lot : The End of the Ancient, World and the Beginnings of the Middle Ages. London, 1931, pp. 262 - 263.

(٣) ابن صاعد ، ص ٣٤ س ١٩ .

(٤) أنظر . أورمان ، بيزنطة ، ص ١٥٣ وما بعدها . هو من إقليم في الطرف الشرقي لآسية الصغرى . أسد رستم ، حرب في الكنائس ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ١٦ وما بعدها .

(٥) أنظر . Dénys de Tell-Mahrc : Chronique, publ et trad, par Chabot. Paris, 1895, p. 17 - 18. ؛ ماجد ، الدولة العربية ، ٢ ، ص ٢٧٢ ؛ أسد رستم ، حرب في الكنائس ، ص ١٨ .

هذه الحركة الدينية الإصلاحية لم تجد قبولاً في روما ، وعند رجال الدين في الغرب كما ذكرنا ؛ إذ أن البابا جريجوري الثاني ومن بعـــده الثالث قررا حرمان الإمبراطور البيزنطي اللاأيقوني في ٧٣١ م ؛ وبقيت الأيقونية جزءاً من عبادة الغرب، ومن ناحية الإمبراطور البيزنطي ؛ فإنه حرم البابا من حقوقه في أملاكه ؛ وعلى هذا بقيت روما أيقونية ، بينما كانت صقلـيّة وجنوب إيطاليا لا أيقونيـــة [١] . وقد حاول قنسطنطين الخامس كوبرونيموس Costantinus V Copronymus ، خلف ليون الإتفاق مع البابا وعـقد مؤتمر للتوفيق ؛ ولكن على غير جدوى ؛ وإن كانت الملكة إيريني Irène ، الـتي توصت على قنسطنطين السادس Constantinus VI أنهت هذه الحركة اللاأيقونية الإصلاحية [٢] . فكان هذا الإضطراب العقائدي ، سبباً في إيجاد الفرقة بين عقيدة الروم ، وعقيـــدة الفرنجة ، وجعل روما تستقل في تصرفاتها عن القسطنطينية .

أما شمال إيطاليا، فقد اكتفى الروم بإبقاء من يمثلهم في راڤنّا Ravenna ، وهو الأكسرخس Exarch أو النـــائب ؛ وإن ضاعت سيادتهم بمجيء اللومبارديين منذ القرن السادس الميلادي في ٧٥٠ م ، وهم من الجرمان كما ذكرنا ، الذين استولوا على راڤنـّا من البيزنطيين [٣] ، ووطدوا أقدامهم في شمال إيطاليا ، الذي عُرف باسمهم . وربمـــا يكون الذي سهّل استقرار اللومبارديين في شمال إيطاليا ، حروب البيزنطيين مع القوط ؛ حيث كونوا لهم مملكة بقيادة ألبوان [٤] Alboin . وقد كان التوسع اللومباردي نحو روما ، وخصوصاً أنهم في أول الأمر كانوا على المذهب الأريوسي المخالف لمذهب روما ؛ مما جعل روما تطلب العون من مملكة الفرنجة ، وليس من الروم ، بحيث أن پيپين الثالث — القصير — ذهب وقاتل اللومبارديين ، كما

(١) أنظر . Comb. Med. Hist. vol. 4, p. 10
(٢) أنظر . قبله .
(٣) أومان ، ص ١٥٤ .
(٤) أنظر . قبله .

أن شارلمان قضى على مملكتهم ، وأصبح هو نفسه ملك اللومبارديين والفرنجة. فكان من نتيجة سيطرة الفرنجة في شمال إيطاليا ؛ أن مهدت نهائياً لإستقلال روما ، وجعلها دولة لها كيانها الخاص Sui generius ، واعتماد روما على الفرنجة .

ولقد كان من نتيجة ضعف مركز الروم في الجنوب ، وسيطرة الفرنجة في الشمال ، أن تحولت مدن إيطاليا ، التي بدأت حياتهـــا التجارية ، إلى دويلات مستقلة ، وخصوصاً أن تداخل عناصر اللومبارديين والفرنجة في أنحائها ، ميّز هذه المدن وحياتها . فنذكر منها : بلاد نابُل ، وهي نابلي Neopolis (Napoli) ، التي أصبحت أكبر دوقيــات اللومبــارديين [١] ، وبلاد البيازنة ومركزها بيزة أو بيشة Pisa ، التي هي مرسى جيد [٢] ، وهي غربي روميّة ، وتتبع البابوية ، وبلاد الجنويين وقاعدتها مدينة جنوة [٣] Genua (Genova) ،الواقعة على خليج «جون» كبير ، وبلادالبنادقة ،التي قاعدتها البندقية Venetia (Venezia) ، وتقـع على الخليج المعروف باسمها جون البنادقة [٤]، في الركن الشرقي من سهل لومبارديا ـ الأنبردية ـ حيث اشتهرت البندقية بجودة دنانيرها المسماة دوكات [٥] Ducat ، نسبة إلى الدوك أو الدوق Doge ، الذي كان يحكمها ، وبلاد التـُّسقان [٦] Toscania ، التي كان يحكمها أكابر ، وتقع في شرقي بلاد جنوة .

وأول ما فتح العرب صقـّليـّة ، حيث ُشبه فتحها بفتح الأندلس، وأُعتبر

---

(١) أنظر . Gibbon : Op. Cit. 6, p. 174

(٢) صبح ، ٥ ص ٤١١ .

(٣) نفسه ، ٥ ص ٤٠٥ .

(٤) نفسه ، ٥ ص ٤٠٤ - ٤٠٥ ؛ الإدريسي ، نزهة المشتاق ، تحقيق أماري ، رومـــة العظمى ١٨٧٨ ، ص ١١ . يسمى الخليج البنادقي أو خليج البنادقيين .

(٥) صبح ، ٣ ص ٤٤١ – ٢ ؛ انظر . ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٢٥ .

(٦) صبح ، ٥ ص ٤١١ .

من الفتوح الكبيرة . ويُنسب فتحها إلى دولة الأغالبة [1] ، التي نشأت في إفريقيّة والمغرب الأوسط ، وهي تُدين بالولاء للخلافة العباسية ؛ وتنتسب إلى إبراهيم بن الأغلب ، الذي ولاه هرون الرشيد شؤون إفريقيـــة في ١٨٤/٨٠٠ ، وأطلق يده في تدعيم كيانها . وبعد أن تمكن إبراهيم من التغلب على أعداء العباسيين ، الذين كانت تحرضهم دولة الأمويين ضد بني العباس في الأندلس ، سعى إلى التوسع البحري . فأعاد قاعدة قرطاجنّة القديمةالبحرية، التي كان العرب أنشأوها أيام فتح المغرب ، وقام إبراهيم بنشاط بحري في هذه النواحي ؛ فاق كل ما ظهر من نشاط بحري سابق .

وكان همّ إبراهيم وخلفه فتح صقلـيّة ، وذلك لتوسط هذه الجزيرة البحر الأبيض ؛ مما يجعلها شديدة الخطر على السيادة البحرية العربية ؛ إذ كان الروم يستخدمونها — بعد أن استولى العرب على معظم جزائر البحر الأبيض — قاعدة لأعمال القرصنة ضد إفريقية والمغرب وغيرهما من بلاد المسلمين ؛ ولا سيما إفريقية لقربها منها ؛ ففتحها فيه تأمين لدولته . يُضاف إلى ذلـك ، أن هذه الجزيرة وُصفت بأنها كثيرة الخيرات،فهي وُصفت بأنها ابنة الأندلس[2]، تكثر فيها المواشي والخيل والبغال والحمير ، وأن كلأها لا ينقطع ؛ مما يهيء خيراً كثيراً للغزاة .

والواقع أنه منذ أن ظهرت البحرية الإسلامية ، وهي دائمة الإغـارة على صقلـيّة. فبعد موقعة ذاتالسواري في ٢٤/٦٥٤ ، التجأ إلى صقلـيّة قنسطانز Konstas II ، فاراً من الهزيمة ؛ فأسرع العرب بالإغارة على الجزيرة [3] . وغزاها العرب في أيام خلافـــة معاوية ، فأغار عليها معاوية بن حديج في

---

(١) عنهم : ابن خلدون ، العبر ، ٤ ص ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Aghlabides); t 1, p. 185 - 6.
Julien : Histoire de l'Afrique du Nord. Paris, 1952, p. 45 suiv.

(٢) ابن جبير ، رحلة ، ص ٣١٤ س ٥ .

(٣) المكتبة الصقلية ،ص ١٩٨ - ٢٠٥ ؛ ابن عبد الحكم ، فتوح مصر، تحقيق Torrey، ص ٢١٦ ؛ ماجد ، الدولة العربية ، ١ ص ٢٤٤ .

٦٦٧/٤٦ أو ٦٦٩/٤٩ [١] بقصد فتحها ، وأغاروا عليها في أيام عبدالملك ، لما هرب الروم من قرطاجنّة إليها ، بعد أن استولى على هذه الأخيرة حسان بن النعمان [٢] ، كما أن مراكب الروم من صقلّيّة ، كانت هي التي قتلت زهير بن قيس لما انسحب العرب من القيروان [٣] . وفي عهد الوليد ، أغار عليها عبدالله بن موسى بن نصير ، في سنة ٨٥ أو ٨٦ / ٧٠٤ أو ٧٠٥ ؛ وعُرفت هذه الغارة : بغزوة الأشراف [٤] ، بسبب كثرة من اشترك فيها من كبار الشخصيات . وغزاها في أيام هشام ، حبيب بن أبي عبيدة حفيد عقبة ابن نافع [٥] في سنة ٧٣٤/١١٦ ، وكان ينوي فتحها لولا حدوث فتنة في المغرب . ويبدو أنه في الأيام الأخيرة للدولة الأموية ، كانت توجد شبه هدنة ، بين الأمويين والروم ؛ بحيث توقفت غارات العرب على صقلّيّة . ولما ظهرت دولة بني الأغلب في إفريقية والمغرب في أيام العباسيين ، ونظّمت شؤونها الحربية والبحرية ، أصبح أسطولها دائم الغزو في هذه الجزيرة ؛ حيث كان يغزو فيها منذ أيام إبراهيم بن الأغلب ، مؤسس هذه الدولة . ولم تكن غزواتهم فيها بقصد الإغارة – كما تقصد دائرة المعارف – وإنما كان وراءها غرض سياسي أيضاً ؛ هو هدم الموانيء ، التي تختبيء فيها مراكب الروم .

ولكن فتح الجزيرة لم يتهيأ إلا على يد زيادة بن إبراهيم في ٨٢٧/٢١٢ .

---

(١) المقدمة ، ص ٢٠٠ ؛ فتوح البلدان ، ص ٧٨ ، ٢٣٦ . عن هذا التاريخ الأخير ، انظر ما أورده شعيرة في كتابه : La lutte, p. 127; n (2).

(٢) الكامل ، ٤ص ٣١ (آخر الصفحة) ؛ انظر . ماجد ، الدولة العربية ، ٢ ص ١٨٠ .

(٣) ابن الأثير ، أسد الغابة ، ٤ ص ١١٣ ؛ المكتبة الصقلية ، ص ٢١٥ . نقلاً عن الكامل لابن الأثير .

(٤) المكتبة الصقلية ، ص ١٦٤ ، ص ٢١١ . نقلاً عن كتاب الإمامة والسياسة لابن قتيبة ، ٢ ص ١١٢ .

(٥) المكتبة الصقلية ، ص ٢١٨ وما بعدها . نقلاً عن ابن الأثير . أنظر . إحسان ، العرب في صقلية ، ص ٣٢ .

ويورد المؤرخون العرب أسباباً للفتح [1] ؛ تشبه الأسباب التي سيقت عن فتح الأندلس. فقد كان يوفيميوس Euphemius (Eufemio) – ويسميه العرب فيمي أو فيمة – أحد القواد الروم الذين ثاروا على حاكمها قنسطنطين Constantinus ؛ بحيث أن فيمي قتل قنسطنطين ، واستولى على الجزيرة . وربما سبب ثورة فيمي على قنسطنطين – كما يورد المؤرخون العرب – هو أن قنسطنطين اغتصب فتاة اسمها هومنيزه Omoniza ، كان فيمي يحبها . فلما سمع ملك الروم ميخائيل الثاني Michael II ، بقتل حاكم صقلّيّة من قبله ، أرسل أسطولاً للقبض على فيمي ، الذي فرّ في مراكبه ، حتى لحق بالأغالبة في القيروان ، وحرضهم على غزو الجزيرة .

وعلى كل حال؛ فإن الأغالبة، الذين كانوا يواصلون غاراتهم على هذه الجزيرة، انتهزوا فرصة الإضطراب فيها ، فأعدوا لغزوها أسطولاً في جزيرة قَوْصَرَة [2] ، القريبة من ساحل إفريقية ، في نحو مائة مركب ، سوى مراكب فيمي . وقد جمعوا له الجند من المجاهدين من عرب اليمنية والقيسية ، ومن الفرس ، الذين قامت على أكتافهم الخلافة العباسية ، ومن البربر والأندلسيين المتطوعين ، ولا سيما من رجال الفقه وأهل العلم الراغبين في الجهاد؛ بحيث بلغ مجموع المشتركين في الحملة أكثر من عشرة آلاف مقاتل . وقد جُعلت قيادة الحملة إلى الفقيه أسد بن الفرات بن سنان [3] ، الذي كان قاضياً للقيروان في أيام الأغالبة . ويبدو من سيرة أسد أنه من أصل خراساني ، وُلد بأرض الجزيرة في حرّان ، وأنه رحل إلى الحجاز ، وعاصر مالك بن أنس ، وتبحر

---

(١) معجم البلدان ، ٥ ص ٣٧٤ ؛ المكتبة الصقلية ، ص ١١٦ وما بعدها ، ٢٢١ وما بعدها ، ٤٢٨ وما بعدها ؛ البيان ، ط بيروت، ١ ص ١٣٢ ؛ إحسان ، فتح صقلية ، ص ٣١ وما بعدها ؛ انظر : Amari : St. dei Musul, di Sicilia. Firenze, 1854, I, p. 239 sqq. ; Gibbon : Decline, 6, p. 40, sqq.

(٢) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ١٨٣ .

(٣) عنه: المكتبة الصقلية ، ص ١٨٠ وما بعدها ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Asad B.al- Furât) t 1, p. 482. ; Amari : Storia, 1, p. 253

في فقهه ، ثم رحل إلى العراق ودرس على تلامـذة أبي حنيفة ، ثم إلى مصر التي كان قد انتشر فيها المذهبان : المالكي والشافعي ، ثم إلى المغرب ، وعاصر الفقيه ابن سحنون ، وألف مثله كتباً في الفقه ، سُميت باسمه : الأسدية .

وقبل تحرك الحملة أقام لهم زيادة الله حفـلة توديع عظيمة . وحينما وصل الأسطول إلى شواطىء صقلـيّة الجنوبية ، ألقى مراسيه عند ميناء مَـازر Mazara [١] ، وهو أقرب ميناء إلى جزيرة قُوصرة ، حوله أسوار حصينة شاهقة . وكان معهم فيمي ورجاله ، فأمرهم أسد بعدم الإشتراك في القتال ، ربما كان ذلك تجنباً لمكيدة ما ، وبذلك اختفى فيمي ومن معه من الميدان . وكان الروم قد أعدوا للمسلمين جيشاً كبيراً قابلهم عند نزولهم ؛ وكان المسلمون يقاتلون وهم يكبّرون ، على عادتهم في القتال ، وحملوا حملة صادقة ، بحيث قتلوا من الروم عدداً كبيراً .

وبعدهـا ، زحف المسلمون إلى شرق الجزيرة ، نحو سَرَقُوسَة [٢] Syracusae (Siracusa) ، وهي أكبر مدينة بجزيرة صقلـيّة ، وكان فيهـا مركز الحاكم الرومي ، فألقوا عليها الحصار . غير أن أسطولاً رومياً خف لنجدة المدينة ؛ ممـا جعل الحصار مهمة شاقة . وفي الوقت ذاته ، انتشر الطاعون بين المسلمين ، وتوفي بسببه أسد بن الفرات في ٢١٣/٨٢٨ [٣] ؛ ممـا حمل العرب على رفع الحصار عن سرقوسة . وكادت الحملة تفشل لولا أن جاء مدد من قبل أسطول الأندلس [٤] ؛ فاتجه العرب إلى شمالي الجزيرة نحو بَلَرْم أو بَلَرْمة [٥] Pelorum (Palermo) في ٢١٦/٨٣١ ، التي تُعتبر أعظم مدينة في صقلـيّة ، تقع في شمالها على شاطىء البحر ، وهي محصنـة بأسوار

---

(١) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٣٦٣ ؛ المكتبة الصقلية ، ص ٤٠ . نقلاً عن نزهة المشتاق .

(٢) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٥ ص ٧٤ .

(٣) المكتبة الصقلية ، ص ١٨١ . ربما مات متأثراً بجراحات .

(٤) البيان (L) ، ٢ ص ٩٦ - ٩٧ .

(٥) ابن جبير ، رحلة ، ص ٣٢٢ ؛ معجم البلدان ، ٢ ص ٢٦٨ - ٢٦٩ .

شاهقة مستطيلة ، وتحيط بها عيون الماء من شرقيها وغربها . فتمكن العرب من الإستيلاء عليها ، بعد حصار دام خمس سنين. وأهمية الإستيلاء على بلرم ، أنها هيأت للأسطول العربي ميناءً متقدماً إلى الشمال ، وكتب زيادة الله إلى المأمون العباسي يبشّره بهذا الفتح العظيم . وبعد فتحها ، فُتحت مدينة أخرى بجوارها وهي مَسِّينة أو مسيني[1] Messana في ٨٤٣/٢٢٩ ، وهي الميناء المهم الذي يقع على المجاز لقِلّورية ، في رأس الجزيرة ، حيث تقوم الجبال من ناحيتها الغربية . وقد هيأ الإستيلاء على بلرم ومسينة الأسباب لجعل العرب يقتربون من إيطاليا ؛ إذ لم يبق إلا المجاز لكي يقفزوا على قِلوريّة .

وبعد ذلك ، أصبح همّ المسلمين العودة إلى فتح سرقوسة ؛ مركز الحاكم البيزنطي . وقد عمل الروم على إرسال أسطول جديد لإنقاذها. ولكن إصرار العرب على فتحها ، جعلها تسقط بين أيديهم في ٨٧٧/٢٦٤[2] ؛ بعد مقاومة دامت خمسين عاماً . وقد حاول الروم استردادها بإرسال أسطول ضخم في ٨٧٨/٢٦٥ ، مؤلفاً من ثلثمائة سفينة كبيرة ؛ فتصدى له الأسطول الأغلبي ، الذي تمكن من أسر مائة مركب ؛ لذلك تخلى الروم نهائياً عن استعادتها .

وفي أثناء حصار سرقوسة الطويل ، كان العرب ينتشرون في أنحاء الجزيرة ، ويستولون على مدنها الواحدة بعد الأخرى . وقد شُبهت الحروب فيها بحروب الثغور ، مثلما كان يوجد في الشام بين العرب والروم ، من صدائف وشواتي. فكان العرب يستولون على الحصون الواحد بعد الآخر ، حتى أخلى الروم كثيراً من المدن والحصون . ونتيجة لهذه الغارات الشديدة من قِبل العرب ، احتلوا مدناً عدة مهمة ، مثل : قَصْريانة Camarina[3] ، وهي مدينة كبيرة ، تقع على سن جبل[3] ، وقطانية Catana أو Catania ، مدينة في شرق

---

(١) المكتبة الصقلية ، ص ٣٣ . نقلاً عن نزهة المشتاق وابن جبير ، رحلة ، ص ٣١٣ - ٣١٨ .

(٢) الكامل ، ٦ ص ١٩ .

(٣) صبح ، ٥ ص ٣٧٤ ؛ معجم البلدان ، ٧ ص ١١٣ .

الجزيرة عندسفح جبل النار[1]، وطَبَرْمين[2] Tauromenium (Taromina) – لعلها طَرابُنش أو طرابش أيضاً – الذي يُعتبر آخر حصن ساحلي مهم، احتلوه في ٩٠٢/٢٨٩[3].

وبفضل هذه المثابرة، تمكن الأغالبة من السيطرة التامة على جزيرة صقّليّة. ولا ريب، فإن مقاومة صقّليّة الطويلة دلت على أن دولة الإسلام كانت قد شاخت وكبرت. ولكن لا يجب أن ننسى أن المسلمين في هذه الجزيرة، كانوا يقاتلون على جبهات عدة، فهم يقاتلون الفرنجة في الداخل، ويصدون هجمات الروم من الداخل والخارج. كما أن انتصار المسلمين البطيء في صقّليّة، قد يرجع إلى أن العصر الإسلامي وقتئذ، أمسى لا يجود بقواد مثل قواد الإسلام الأوائل، وهم الذين فتحوا بلاداً تبلغ في حجمها ضعف بلاد صقّليّة مرات عدة، مثل موسى بن نصير، الذي فتح الأندلس في ثلاث سنوات.

*

وقد أتاح فتح الأغالبة لصقّليّة أن سيطر العرب سيطرة قوية في البحر الأبيض؛فهم أثناء فتح هذه الجزيرة، قاموا بغزو مالطة[4] Melita (Malte)، وهي أكبر الجزر المجاورة لصقّليّة، كان يسكنها عنصر قديم من جنس البحر الأبيض المتوسط، وخضعت للدول الكبيرة المسيطرة فيه، مثل الفينيقيين واليونان والرومان، ومن بعدهم البيزنطيين، وتحولت إلى المسيحية على يد القديس بولص في القرن الأول الميلادي. وقد فتحها المسلمون في سنة ٨٦٩/٢٥٦ – ٨٧٠؛ وإن يبدو قبل ذلك في عام ٨٣٥/٢٢١ – ٨٣٦؛ إذ يقول ابن الأثير إن إبراهيم الأغلبي استولى على الجزائر، ولعله يقصد الجزائر

---

(١) معجم البلدان، ٧ ص ١٢٠.

(٢) نفسه، ٦ ص ٢٣.

(٣) المكتبة الصقلية، ص ٢٤١ وما بعدها. نقلاً عن الكامل ابن الأثير.

(٤) الكامل، ٨ ص ١٥٩ س ٦؛ انظر Ency.de l'Isl,(art Malte) t3,p. 226-8.

الواقعة بين إفريقية وصقلـيّة ، ومنها جزيرة مالطة . وأيضاً ربما كان غزوها حتى قبل غزو صقـليّة ؛ أما ما أورده ابن الأثير عن هذين التاريخين ، فلعله كان يعني محاولات الروم استردادهـا ؛ إذ وقعت قرب مالطة معارك كبيرة بين الأسطولين العربي والرومي ؛ كان الإنتصار فيها للأسطول العربي . ويبدو أن إستقرار العرب في هذه الجزيرة كان مستمراً ، ولا سيما بعد فتح صقـليّة؛ والدليل على ذلك أثر اللغة العربية في لهجة أهل مالطة ، التي اعتبرها بعض العلماء إحدى لهجات العربية .

وأصبح الأسطول الأغلبي يهاجم في إيطاليا ذاتها ؛ فتمكن من الإستيلاء على مراكز متعددة في قِلـَّورية ؛ وأخلى الروم كثيراً من المدن والحصون ، كما استأمن اليه أهل نابل [١] ، ولا سيما باري Barium (Bari)في [٢] ٢٢٨ / ٨٤٢ ، التي جعلتهم يتحكون فيمدخل بحر الإدرياتيك Mare Hadriaticum ، أو ما يسميه العرب بحر أو خليج البنادقة أو البندقية . وقد أراد البنادقـة أن يوقفوا خطر الأسطول الأغلبي ، بتحريض من الروم [٣] ؛ فجهزوا أسطولاً مؤلفـاً من ستين سفينة أقلعت نحو صقَلـيّة ، والتقى بالأسطول العربي في شرقيّها ؛ فمزق الأسطول العربي أسطول البنادقة شر ممزق ، وأهلك معظم رجاله .

ولعل الغارة البحرية ، التي تستحق الذكر في تاريخ دولة الأغالبة ، بعـد فتح صقلـيّة، هي غزو روما Roma ، أو ما سماه العرب رُوميَة العظمى [٤].

---

(١) الكامل ، ٥ ص ٢٥٣ ، ٢٦٧ .

(٢) انظر : Gibbon . Decline, 5, p. 175 .

(٣) الكامل ، ٥ ص ٢٥٣ . يقول إنه هزم أسطول صاحب القسطنطينيّة . أنظر نقولا ، صور من التاريخ العربي ، ص ٤٧ .

(٤) عنها ، انظر ، معجم البلدان ، ٤ ص ٣٣١ – ٣٣٦ ؛ البيان ، ١ص ١٤٨ ؛ أبوحميد الغرناطي ، وصف روما ـ لعله كتاب تحفة الألباب ـ تحقيق وترجمة : Carlo Crîspo-Moncada ، طبعة Palermo ، ١٩٠٦ ؛ انظر . Enciclopedia Italiana, t XXIX.

فهذه المدينة كانت محصنة للغاية ، وكبيرة جداً ، حتى لقد وصفت بأنها من بناء الجن . وكان يشقهـا نهر روميّة — أو التيبر Tiberis (Tevere) — أو ما يسمى أيضاً بنهر قنسطنطين[١] ، الذي يدور بها ؛ وكان لها عشرة أبواب، وفيها أسواق أرضها مغطاة بالرخام الأبيض ، وتعلوها الأعمدة ، كما توجد فيها كنائس كثيرة ، أشهرها كنيسة طولها ألف ذراع في خمسمائة ذراع في سمك مائتي ذراع — ولعلها كانت من الفاتيكان Vatican ، مركز البابوية — وفيها قبر الحواريين: بطرس San Pietro وبولص San Paolo ؛ وهما مدفونان في أجران من رخام أبيض بحيث يراهم الناس .

وقد سارت حملة كبيرة في٢٣١/٨٤٦[٢]—ربما اتخذت سردانية قاعدة [٣] لها — متجهة شمالاً بحذاء الشاطىء الإيطالي ؛ فهاجمت الموانىء في طريقهـا ، ودخلت نهر التيبر بقصد الوصول إلى روميّة . فلما دخلهـا العرب ، أحرقوا المدينة ، ونهبوا ذخائر قبري بطرس وبولص ، وعبثوا بقبور البـابوات — وذلك على حسب قول المصادر الأوربيـة — حتـى أضطر البـابا ليو الرابـع Leo IV (٨٤٧ — ٨٥٥ م) ، أن يختبىء . وقـد عاد العرب إلى غزو رومية مرة ثانية ، بحملة أكثر تنظيماً ، بالإشتراك مع الأندلسيين . فالتقى الأسطول العربي ؛ بأسطول مكون من مراكب الروم ومراكب المدن الإيطالية [٤]؛ حيث تحالف البابا معحكام هذه المدن لإنقاذه . فحدثتعاصفة شديدة دمرت بعض مراكب العرب، الذين هزموا ، وأضطروا إلىالإنسحاب. وبعدها أقام البابا إحتفالاً للقديسين ؛ حيث علقت أسلحة العرب المنهزمين ،

---

(١) أبو حميد الغرناطي ، ص ٣٠ ؛ ماجد والبنا ، الأطلس ، أنظر .

(٢) لم يرد عن ذلك شيء في المصادر العربية القديمة أو حتى اليونانية . أنظر . Lauer : Le poème de la destruction de Rome. Mélange de l'Ecole de Rome XIV, 1899, pp. 307 - 9. Gibbon : Decline, 6, p. 42 sqq. ؛ نقولا ، صور ، ص ٤٨ .

(٣) أنظر . Ency. de l'Isl, (art Sardaigne) t 4, p. 167.

(٤) أنظر . Gibbon : Decline, 6, p. 44 - 45.

حول المذبح . ولدينا تصوير لهذه الموقعة ونجاة روما من هجوم العرب،بريشة الفنان الإيطالي رفاييللو Raffaello [1]،في كنيسة الفاتيكان . ومع ذلك ؛ فإن البابا حنا الثامن Jean VIII (٨٧٢ – ٨٨٢ م) ، رأى أن يُبعد العرب عن روما بتأدية الجزية لهم ، مدة عامين[2] .

وفي الوقت ذاته ، كان الأسطول الأموي في الأندلس ، يلهب بسياطه ظهور سكان السواحل الأوربية المجاورة. فقد كثرت دور الصناعة في مرافىء الأندلس ، مثل [3] : طَرّكُونَة وطَرْطُوشة وقرطاجنّة والمرِيّة ، وبلغ عدد مراكب الأسطول الأموي في أيام عبدالرحمن الناصر مائتي مركب أو نحوها . وكانت أغلب غارات أسطول الأندلس على كورسيكا Corsica (Corse) ،التي سماها العرب قرسَقة أو قرشقة أو قُرشف أو قورنس[4]،وهذه تنفصل عن سَردانية بمجاز ، وكانت تابعة لمملكة الفرنجة على ما يبدو . ولعل شارلمان أراد أن يقضي على الخطر القائم حول الجزيرة المجاورة لبلاده ؛ فقبل هدنة من عبد الرحمن الداخل كما ذكرنا ؛ وفك أسر رجال من قرسقة .

ولكن الأندلسيين ما لبثوا أن عادوا إلى نشاطهم البحري؛فغزوا سَردانية وقُرسقة من جديد[5] ، كما استعادوا السيطرة على الجزائر الشرقية –البليار–

---

(١) أنظر . حتي ، العرب ، تاريخ موجز ، بيروت ١٩٤٦ ، ص ٢٠٢ .

(٢) نفسه ؛ انظر . Ency.de l'Isl, t 4, p. 415.

(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٠ .

(٤) المكتبة الصقلية ، ص ٢١ . نقلاً عن نزهة المشتاق ، وأيضاً: شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، القاهرة ١٣٥٢ هـ (ترجمة لكتاب رينو) ، ص ١٤٠ ، ١٤١؛ العدوي ، الأساطيل العربية، ص ٨٦ ؛ Reinaud : Inv, p. 120 -121. عنها ، انظر . معجم البلدان ، ص ٣٧٥ (في آخر سطر) ؛ صبح ، ٥ ص ٣٧٤ - ٣٧٥ : ماجد والبنا ، أطلس ، انظر .

(٥) أنظر . Reinaud : Inv, p. 121-2.؛ شكيب أرسلان،تاريخ غزوات العرب، ص ١٤٠ ؛ العدوي ، الأساطيل ، ص ٨٦ وما بعدها .

في عهد عبــد الرحمن الناصر [١] . وكان أغلب هجومهم ، بـين ٢٧٤ و ٢٨١/٨٨٧ – ٨٩٤ ، على سواحل فرنسا الجنوبية ، في المنطقـة المعروفة باسم: البروڤنس Provence ، وهي منطقـة الكوت دازير Côte d' Azur. ولعله كان هناك تعاون مع الأغالبة في الهجوم عليها. فكان المهاجمون العرب، معروفون لدى الأوربيين وقتئذ ، باسم: السراقنة Sarrazins (Sarrasins) ، وهي كلمة يونانية أو لاتينية الأصل ، من : Sarakenos أو Saracenus [٢] ، التي ربما كان اشتقاق كلمة شرقيين منها . فاتخذ المسلمون لهم في هذا الساحل قاعدة ثابتة لمدة قرن،بين الرون – ردونة وجبال الألب ، في البلدة الفرنسية سان تروبيز Saint - Tropez [٣] ، المجاورة لنيس Nice ، المسماة نيقة عنـد العرب ، وهي منطقة جبلية مملوءة بالغابات . ولمـا كان الأسطول الفرنجي ضعيفاً ، لا يستطيـع صد هذه الغارات ؛ فقد طلب الأمداد من أساطيل المدن الإيطالية أو من الروم ؛ بحيث تمكن الأوربيون أخيراً من ذبح معظم المسلمين أو أسرهم في هذه القاعدة . ومع ذلك ؛ بقيت جماعـة من العرب تثير الرعب بين سكان هذا الساحل ؛ حتى أن الأوربيين أنشأوا فيه حصوناً دائمة لمقاومة العرب ، عُرفت باسم : حصون العرب Tours sarrazines [٤] . ومـا تزال

---

(١) أنظر. Ency. de l'Isl, (art Baléares) t 1, p. 63

(٢) أنظر . Ency. Brit. vol. 19, p. 287 . لهذه الكلمة تفسيرات مختلفة ، منها : أنها قد تكون مأخوذة من اسم قبيلة عربية من سكان أعالي الجزيرة العربية على حدود الشام بجانب جبل السراة « Saraka » ، أو على اسم سارة زوجة إبراهيم المعروف بأنه أبو العرب (أنظر . Gibbon : Decline, 5, p.216 n(3).) ؛ أو أنها قد تكون مشتقة من فعل « سرق » ؛ إشارة إلى أن العرب من البـدو كانوا يحبون الغارة . أنظر . جواد علي ، تاريـخ العرب ، ١ ص ١٧٩ ؛ Reinaud : Inv, p. 229 sqq.

(٣) أنظر . العدوي ، الأساطيل ، ص ٨٨ ؛ شكيب أرسلان ، تاريخ غزوات العرب ، ص ١٦٠ وما بعدها ؛ Reinaud : Inv., p. 157 sqq.: Calmette : Le Moyen Age, p. 120.

(٤) أنظر . Calmette : Le Moyen Age, p. 119 - 20. ولا تزال بعـض الأسماء في فرنسا تدل على هذه الحصون ، مثل Castel - Sarrazin ، علىنهر الجـارون. Reinaud : Inv, p. XXIV.

آثار هذه الحصون قائمة إلى الآن ؛ لتدل على أن العرب قد وصلوا إلى هذه الأماكن .

والدليل على التقدم الملاحي في الأندلس ما يذكره الإدريسي عن شبان من لشبونة عُرفوا بالمغرّرين [١] ، وهم ثمانية رجال ، كلهم أبناء عم ، أنشأوا مركباً حمّلوه من الماء والزاد بما يكفيهم لأشهر ، ثم ساروا به في بحر الظلمات إلى الغرب أحد عشر يوماً ، وأبحروا نحو الجنوب اثني عشر يوماً ، ثم اثني عشر يوماً أخرى ، حتى وصلوا إلى جزيرة ، وجدوا فيها رجالاً شقراً ، قد زعّروا شعر رءوسهم ؛ فلا يستبعد أن يكون الشاطىء الذي رسوا فيه ؛ إحدى جزر أمريكا الجنوبية .

ولما جاء الفاطميون إلى إفريقيّة سنة ٩٠٩/٢٩٧ ، وأسّسوا خلافتهم الشيعية فيها أول مرة ، كانوا يرمون إلى الإستيلاء على صقلّيّة ، كإرث عن دولة الأغالبة [٢] ، التي تغلبوا عليها ؛ هذا فضلاً عن إدراك الفاطميين أهمية هذه الجزيرة في الجهاد ، الذي جعلوه دعامة من دعائم العقيدة الإسلامية الشيعية . وقد ترددت أحاديث نبوية ، نُقلت عن أئمة الفاطميين أنفسهم عن أخذ رومية ، وهي غير الأحاديث النبوية التي ترددت عن أخذ القسطنطينية ، وأن أخذ روميّة يكون على يد المهدي ، ويُقصد به مهدي الفاطميين، كما ورد في مخطوطة بالمكتبة الأهلية بباريس (B. N.) ، بعنوان : شموس الغيوب من حناديس القلوب [٣] . ولا ريب ، فقد احتلت روميّة

(١) نزهة المشتاق ، ط . Dozy و De Goeje ،ص١٨٤ - ١٨٥؛ انظر،ماجد،تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٢٨٧ .

(٢) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠١ .

(٣) وهي برقم ٢٦٦٩ . أنظر : Abel Un Hadît sur la prise de, Rome dans la tradition eschatologiqne de l'Islam. Arabica, t v. ;Jan. 1958. Fasc. 1 p. 1, sqq.

حسن إبراهيم ، عبيدالله المهدي ، مؤسس الدولة الفاطمية في المغرب ، بالإشتراك مع طه شرف ، القاهرة ١٩٤٧ ، ص ١٩٩ .

مركزاً مهماً في أوربا ؛ بسبب إعتمادها في نفوذها على الفرنجـة ، الذين أصبحوا منافسين أقوياء للروم ، في ميدان الزعامة على المسيحية .

ولذلك نجد أن الفاطميين يستولون على صقلـيّة إثر فتنة ضد واليها الأغلبي ، وهي فتنة تبدو مؤيدة من قبل البربر — المغاربة — الذين يكونون غالبية الغزاة في صقلـيّة ؛ إذ أيّد البربر — كما نعرف — الفاطميين ، وساعدوا على قيام دولتهم في إفريقية مكان الأغـالبة . فولى المهدي — أول خلفاء الفاطميين — على صقلـيّة والياً اسمه : الحسن بن أحمد بن أبي خنزير الكتامي[1] ، مكافأة للكتاميين ، الذين كانوا أول من عمل على قيام دولة الفاطميين . ولكن العرب من جند صقلـيّة ثاروا على الوالي المغربي ، وأقاموا والياً عليهم اسمه أبو الفوارس ؛ وإن نجح البربر في أن يولوا والياً جديداً اسمه عليّ بن عمرو البلوي .

وكان من عدم استقرار مُلك الفاطميين في أواخر حكم المهدي ؛ أن جعل حُكم صقلـيّة من قبلهم أيضاً غيرَ مستقر . فحدثت في صقلـيّة فتن كثيرة ؛ أهمها فتنة أحمد بن زيادة الله بن قرهب في سنة ٣٠٠/٩٦٢ ، الذي رفض أن يتولى على أهل صقلـيّة في أول الأمر ؛ ولكن العرب صمموا على توليتها . وكان ابن قرهب في أول ولايته ؛ يخضع للمهدي ؛ ولكنه انقلب عليه بعدذلك ، ولم يكتف بالإستقلال بصقلـيّة ، وإنما جعل الخطبة على المنابر للعباسيين أعداء الفاطميين ، وأرسل ضد هؤلاء أساطيله نحو إفريقية . ثم حدثت فتنـة ضد ابن قرهب بتحريض من المهدي ، فأراد ابن قرهب الهروب إلى الأندلس ؛ ولكن أهل صقلـيّة سلموه للمهدى ، الذي قتله [2] . ولم يلبث المهدي أن أرسل أسطوله ليحارب العرب في صقلـيّة ، وأخضع العرب للبربر .

---

(١) المكتبة الصقلية ، ص ٢٥٠ وما بعدها . نقلاً عن الكامل لابن الأثير .

(٢) نفسه ، ص ١٩٦ ، ٢٥١ وما بعدهـا ، ٣٦٤ وما بعـدها . نقلاً عن يحيى ابن سعيد الأنطاكي ؛ وابن الأثـير ، وعن البيان المغرب ؛ انظر . إحسان ، العرب في صقلية ، ص ٤٠ — ٤١ ؛ Ency. of Isl, (art Fatimids)2 ed t 2, p. 853.

ولما قلب البربر ظهر المجن للفاطميين في المغرب ، في عهد القـــائم ، ومن بعده المنصور – ولا سيما بسبب فتنة أبي يزيد ، الملقب بصاحب الحمار – ضعف مركز الفاطميين في صقلـيّـة ، فكان يتولاهــا الولاة المتغلبون . يُضاف إلى ذلك ، أن أهل المدن المسيحية في صقلـيّة ، انتهزوا الاضطراب بتنازع العرب والبربر للقيام بالثورة ضد الحكم الإسلامي ، وبخاصة أن بعض مدن صقلـيّة لم تكن قد فُتحت بعد ؛ فكانت تستعين في ثورتها بالروم . وكان المؤيدون للحكم الفاطمي في صقلـيّة ؛ يحاربون سكان المدن المسيحية الثائرة ، ويحاربون في الوقت عينه البربر الذين أصبحوا أعداء الحـكم الفاطمي .

* ولكن في حوالي سنة ٣٣٤/٩٤٥ ، ولي المنصور الفاطمي الذي تغلب على فتنة أبي يزيد ؛ واليــاً على صقلـيّة من أصل عربي ، اسمه : الحسن بن عليّ ابن أبي الحسين الكلبي [١] ، حيث كان لأفراد أسرته مواقف جليلة في خدمة الخلافة الفاطمية أثناء فتنة أبي يزيد . وقد تمكن الحسن بنفوذه ودهائه ، من أن يعيد السلام إلى ربوع الجزيرة بين العرب والبربر ، وأن يعود إلى الجهـاد الداخلي والخارجي .

والواقع أن الفاطميين في ظل بني أبي الحسين الكلبيين ، استطاعوا أن يجاهدوا جهاداً لم يتهيأ لهم مثله طول أيام دولتهم . فكانوا يغزون مدناً روميّة في صقـلّيّة ، كما أرسلوا حملة بقيادة سالم بن راشد عبرت المجـاز من مسيني ، وثبتت سيادة المسلمين في قِلـوْرِيَة [٢] . كذلك عادوا إلى غزو السواحل الإيطالية ، ففتحوا جنوة في ٣٣٣/٩٤٥ [٣] ، وعادوا إلى الإغارة على قورسقة وسَردانية [٤] ، كما غزوا ساحل الرڤييرا ، وهو الذي عرفه العرب باسم البر

(١) عن تتابع أسرته ، انظر . زامباور ، معجم الأنساب ، ١ ص ١٠٧ .

(٢) المكتبة الصقلية ، ص ٢٥٣ . نقلا عن الكامل لابن الأثير .

(٣) المقدمة لابن خلدون ، ص ٢٠١ س ٣ ؛ العبر ، ٤ ص ٢٠٨ ؛ المكتبة الصقليـــة ، ص ٤٦٢ . نقلاً عن كتاب العبر لابن خلدون .

(٤) المكتبة الصقلية ، ص ٢١٧ . نقلاً عن الكامل لابن الأثير . أنظر .
Ency. de l'Isl, t 4, p. 167 .

الكبير من العدوة الشمالية ؛ إذ العدوة هي المكان المتباعد . بل أرسل المعزّ الفاطمي – الذي ولـّي الخلافة بعد المنصور – من صقـّليّة أسطولاً المريّـة – الميناء الأندلسي – أحرق جميع ما فيـــه من المراكب في ٣٤٤/٩٥٥[١]؛ للإنتقام من الخلافـــة الأموية في الأندلس ، التي كانت تُثير الفتن في المغرب ضدهم . ويصف لنا ابن هانىء الشاعر (م ٣٦٢/٩٧٣[٢]) ، الأسطول الفاطمي في غاراته ، بقوله :

عليهـــا غمام ؛ مكفهرٌ صبيرهُ له بارقاتٌ جمـــةٌ ورعود.
إذا زفرت غيظاً ، ترامت بمارجٍ كما شَبَّ مِن نارِ الجحيم وقودُ.
فأفواههنّ الحاميـاتُ صواعق وأنفاسهنّ الزافراتُ حديـد.

وقبل ذلك ، ظهر خطر شديد على هذا النشاط البحري الفاطمي ، الذي مركزه صقـّليّة من قبل الروم ، وبخاصة أن هذا النشاط كان بعضه موجهـاً ضد سواحل الروم[٣] . فأرسل ملك الروم قنسطنطين السابع پرفيروجينتوس Constantinus VII Porphyrogenitus (٩٠٥ – ٩٥٩ م) ، جيشاً ضخمـــاً لمساعدة روم الجزيرة ؛ وذلك في أواخر عهد المنصور في ٣٣٦/٩٤٧ ، حتى كاد الروم يستردون الجزيرة ؛ فحاربهم جيش الفاطميين خمس سنوات إلى أن طردهم منها في ٣٤٠/٩٥١[٤] ، وثبّت قدمه في قِلـّورية ؛ فاستولى فيها على ريو Reggio(Redgio) ، وبنى مسجداً . وقد جدد روم صقـّليّة طلب العون من ملك الروم نيقيفوروس الثاني فوقاس Nicephorus II Phocas في ٣٥٣/٩٦٤[٥] ، الذي أرسل جيشاً ضخماً بقيادة مانويل Manuel ، عدده خمسين

---

(١) النعمان ، المجالس والمسايرات ، مخطوطة بجامعـــة القاهرة ، برقم ٢١٦٦ ، ١ ورقات ٢٢٥ – ٢٢٦ ؛ المكتبة الصقلية ، ص ٤٦٤ ؛ الكامل ، ٦ ص ٣٤٩ ؛ انظر . العدوى ، الأساطيل ، ص ١١٦–١١٧ .
(٢) تحقيق زاهد علي ، بيروت ١٣٥٦ ﻫ ، ص ٢٦ .
(٣) النعمان ،المجالس ، ٢ ورقات ٤١٨ و٤١٩ و٤٢٣ .
(٤) الكامل ، ٦ ص ٣٣٩ .
(٥) نفسه ، ٧ ص ١١ - ١٢ ؛ المكتبة الصقليـــة ، ص ٤٦٤ ؛ انظر . العدوى ، الأساطيل ، ص ١١٨ .

ألفاً ، لم تر الجزيرة مثيلا له من قبـــل ؛ فاستولى على مسيني وطبرمين ، وسواحل قِلورية . ولكن هذا الأسطول هُزم ؛ إذ أرسل المعزّ الفاطمي إلى صقـلية تعزيزات كبيرة ؛ مما جعل المسلمين تتمكن من طرد جيش نقفور ، وقطع خطوط تموينه ، وتدمير مراكبه قرب مسيني ؛ حتى أن جماعة من المسلمين ألقوا بأنفسهم في الماء لحرق مراكب الروم ؛ فكانت خسارة كبيرة للروم في هذه الموقعة ، التي عُرفت بوقعة المجاز ، وهو المضيق بين صقـلية وإيطاليا . وبذلك عادت سيطرة الفاطميين على مدن صقـلية ؛ ممـــا هيأ للأسطول الفاطمي العود إلى نشاطه .

ولما انتقل الفاطميون من المغرب إلى مصر لم يرضوا التخلي عن حكم صقلـية للمغاربة ، كما فعلوا بالمغرب ؛ وإنما فصلوا صقلـية عن حكم المغرب، وجعلوها خاضعة لهم مباشرة ، وذلك للاستمرار في الجهاد من ناحية ؛ ولتكون قاعدة قد تهـــدد المغرب إذا حاول الإنفصال . فأبقى المعزّ صقلـية لأسرة الحسن ابن علي بن أبي الحسين الكلبي الكتامي ، الذي تولاها منذ ٣٣٦|٩٤٨ ؛ حيث جاء إلى المعزّ قبل مغادرته المغرب وحلف له يمين الولاء [١] . فكان حـــكم صقلـية بهـــذه الأسرة ، سبباً في استقرار أحوال الجزيرة ، والإشتداد في الجهاد . وكان أفرادها يخرجون بأنفسهم للجهاد ، حتى أن أبا القاسم عليّ ابن الحسن بن عليّ ، قُتل في معركة مع الفرنجة في ٩٨٢/٣٧١ [٢] ، وعُرف بالشهيد ، لأنه استشهد في غزوته الخامسة بجنوب إيطاليا ؛ وذلك بعـد أن بقي في ولايتها اثنتي عشرة سنة ، وهو الذي كان قد دوّخ السواحل .

والذي جعل أمور الجهاد تسير بنشاط أيضاً ، هو وجود دور صناعات السفن المهمة في مصر ، حيث أن نواة الأسطول الفـــاطمي الكبير نشأت في

---

(١) الكامل ، ٦ ص ٣٣٩ ؛ المقريزي ، اتعاظ الحنفـــا ، تحقيق الشيال ، ص ١٤٤ وهامشها (٤) .

(٢) المكتبة الصقلية ، ص ٢٦٩ . نقلاً عن ابن الأثير ٧ ، ص ١٠٩ ؛ البيان ، ط.بيروت، ١ ص ٢٣٨ ، يقول ٩٨٢/٣٧٢ .

مصر ؛ على يد صناعها المصريين . والمعزّ نفسه أنشأ دار صناعة في مكان على النيل اسمه : المَقس ؛ كان من أكبر دور الصناعات البحرية ،إذ اتسع لستمائة سفينة ؛ ولم تر مصر مثل هذا العدد من السفن من قبل . وكان لهذا الأسطول ديوان يسمى : « ديوان الجهاد » ، ورجـاله يسمون : « المجاهدين في سبيل الله » ، وكان الخليفة الفاطمي يقوم بموادعة الأسطول ، وتقام لذلك حفـلة خاصة توزع فيهـا النفقة والخلع والألقاب على رجال الأسطول . ولكن هذا الأسطول الضخم ، أُحرق في أيام العزيز ، وأُتهمت به جالية الروم في مصر؛ وإن كان العزيز قـد أمر بإعادة بنائه [١] ، وجمع الأخشاب من سائر أنحاء البلاد ؛ حيث كانت مصر تزرع الغابات [٢] ، كما طرد جزءاً كبيراً من جالية الروم في مصر . فكان أسطول الفـاطميين في مصر هو الحارس لصقلّيّة العربية ، وأُضطر ملوك الروم منذ أيام الحاكم بأمرالله[٣] إلىمهادنة الفاطميين.

وبذلك صدق قول ابن خلدون [٤] إن المسلمين قد غلبوا على هذا البحر من جميع جوانبه ، وعظمت صولتهم فيه ، فلم يكن للأمم النصرانيـة فيه قِبل بهـذه السيطرة ، وتحول بحر اللاتين Mare Nostrum – أي بحرهم – إلى بحيرة إسلامية ؛ فكان المسلمون كلما توسعوا فيه تسمى بأسمـاء بلادهم : البحر الشامي أو بحر إفريقية أو بحر المغرب ، بدلاً من البحر الرومي [٥].



ولكن هذه السيادة البحرية الإسلامية لم تستمر ؛ ذلك لأن العـداوة

---

(١) الخطط ، ٣ ص ٣١٧ - ٣١٨ ؛ انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، فصل الأسطول .

(٢) الخطط ، ١ ص ١١٨ ، ٣ ص ٣١٥ ؛ انظر . Bahgat : Les Forêts en, Egypte. Mém. de l'Inst. Eg. Le Caire, 1900, p. 141 sqq.

(٣) يحيى الأنطاكي ، صلة تاريخ أوتيخا ، تحقيق شيخو ، بيروت ١٩٠٥ ، ص ١٨٤ ؛ انظر . ماجد ، الحاكم بأمر الله ، ص ١٣٣ .

(٤) المقدمة ، ص ٢٠٠ .

(٥) أنظر . Ency. de l'Isl, (art Bahr al - Rûm) 2éd t 1, p.963; (Bahr al - Maghrib) 1ed t 1, p. 595,

الشديدة بين أمم الإسلام وأمم النصرانية ، والتي بدأت بانتصار المسلمين في البر والبحر ؛ جعلت أمم النصرانية ، تعمل للإنتقام من المسلمين ؛ حينما اشتد ساعدها ؛ حيث أصبح همها الأول تحطيم سيطرة العرب البحرية .

وقد جاء هذا الإنتقام أولاً من جانب الروم ، بسبب أنها الدولة الوحيدة بين أمم النصرانية ، التي لها أسطول قوي [١] . ثم لأن العرب كانوا قـــد استولوا على معظم أملاكها البرية والبحرية . حقاً إن دولة الروم كانت قد ضعفت لأن المسلمين ، في أيام الراشدين والأمويين ، نفوها إلى أقصى بلادها في آسية الصغرى ، وسيطروا على أملاكها في الشرق ، وكادت تُمحى من الوجود تماماً على يد العرب ثلاث مرات الأقل ؛ ولا سيما في عهد الأمويين . كذلك كانت حدودها في أوربا ، تحت ضغط عناصر من الفرنجة ، من السلاڤيين أو الصقالبة — البُلغار والروس وغيرهما — كما أن ظهور دول من الفرنجة في الغرب ، أوجد لها منافساً خطيراً في أوربا .

ولكن دولة الروم الضعيفة قويت فجأة ، وساعد على ذلك أن الدولة العباسية القوية في أول نشأتها ؛ قد ضعفت ضعفاً شديداً ، بحيث انقسمت إلى دول مستقلة ، فضلاً عن ضعف السلطة التنفيذية فيها . والواقع أن الدولة العباسية تركت حرب الثغور والجهاد منذ زمن بعيد ؛ مما أتاح للروم أن يستعيدوا كثيراً من حصونهم المفقودة ؛ على الحدود المتاخمة للمسلمين ، في الشام والجزيرة . كذلك تمكنت دولة الروم من تسوية مشاكلها في أوربا مع البُلغار والروس ؛ حيث أنها لما اطمأنت على حدودها من جهة المسلمين بسبب ضعفهم ، قاتلت هذه العناصر بشدة ، حتى أن باسيل الثاني Basilios II (٩٦٣-١٠٢٥ م)، أحد ملوك الروم، عُرف بسفاح البُلغار [٢] Bulgaroctonos. ثم إن البُلغار والروس قد تحولوا إلى النصرانية ، وأصبحوا بالتدريج عضداً

---

(١) أومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ص ١٧٢ - ١٧٣ .

(٢) أنظر . Runciman : La Civilisation byzantine. 330 - 1453, trad. Lévy. Paris, 1952, p. 50.

لدولة الروم . وفوق ذلك ؛ فإن قوة الروم جاءت أيضاً من ظهور أسرة قوية فيها ؛ هي الأسرة المقدونية ، التي كانت تحركها روح صليبية ، لاستعادة أملاكها القديمة سواء في الشرق في الشام والجزيرة ، أو في جزر البحر الأبيض ؛ حتي أن بعض ملوكها المحاربين ألفوا كتباً في الفنون العسكرية [1] .

وسعى الروم في أول الأمر إلى استرداد الجزر في البحر الأبيض ، مستفيدين من تفكك وحدة الخلافة العباسية وضعفها . فاستولوا على قبرس ؛ ربما في أواخر أيام الأمويين ، حتى أن الوليد الثاني عمل على نقل سكانها المسلمين إلى الشام في سنة ١٢٥/٧٤٣ [2] ؛ وإن قام العباسيون بعد ذلك بغزوات طارئة عليها [3] ، وربما سيطروا على أجزاء منها [4] ، وكان لهم فيها أمير وحاكم ، كما أغار عليها الفاطميون ومن بعدهم الأيوبيون [5] ؛ ولعل الجزيرة كانت قاعدة لتحركات أسطولها . ولكن المؤكد هو أن الروم استولوا عليها على يد نيقفوروس الثاني فوكاس Nicephorus II Phocas ،في ٣٥٥/٩٦٥ [6] ، ووقعت بأيديهم. ومنذ ذلك الوقت عينه ، كان الروم يسعون إلى الإستيلاء على رودس ؛ في عام حدده لنا المؤرخون العرب وهو ٣٣٢/٩٤٣ [7] ، على يده هذه الأسرة المقدونية ؛ مما يدل على أن رودس

---

(١) مثل ما ألفه نقفوروس Nicephorus : De Velitatione Belli أو Liber de Re Militari . أنظر . عمر كمال توفيق ، الإمبراطور نقفور فوكاس، واسترجاع الأراضي المقدسة ، فبراير ١٩٥٩ .

(٢) الطبري ، الرسل والملوك ، ط الحسينية ، ٨ ص ٢٩٩ .

(٣) مروج (ط Paris) ٨ ص ٢٨٢ ؛ Ency. t1, p. 905.

(٤) ابن حوقل ، المسالك والممالك ، ط Leyden، ١٨٧٣ ، ص ١٣٦ .

(٥) ابن ميسر ، ص ٩٨ ؛ أبو شامة ، الروضتين، R. H. C. Or ، ٥ ص ٧ .

(٦) أنظر . Ency. de l'Isl,(art Chypre) t1,p.905 ؛ Ency. Britannica, (art Cyprus) 6, p. 952.

(٧) أنظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٣٠٠ .

كانت بأيدي المسلمين حتى ذلك التاريخ . وقد اتخذ الروم في الجزيرتين دور صناعة لبناء السفن ، التي تغير وتعبث في أملاك المسلمين .

وبعد ذلك ، سعى الروم إلى استرداد جزيرة كريت « أقريطش » ، التي التي خضعت – كما ذكرنا – لبعض المغامرين الأندلسيين من أسرة أبي حفص عمر البلوطي . فبعث أهالي أقريطش المسلمون إلى المعزّ لدين الله الفاطمي ، خليفة الشيعة في المغرب ؛ قبل أن ينتقل إلى مصر ، يستنجدون به ؛ لما رأوا من خطر الروم الذي يتربص بهم ، ويتحفز للإنقضاض عليهم . فأسرع المعزّ بالاتصال بكافور من ولاة العباسيين في مصر ، وطلب التعاون معه على استنقاذ الجزيرة ، وعرض عليه إرسال مراكبه مع مراكبه،ولا سيما أن خطر أقريطش – إذا استولى عليها الروم – يزداد ؛ بسبب قربها من مصر . فمن قول المعزّ الفاطمي لكافور [1]: « ولا تخشى على مراكبك منا ؛ فلك علينا عهد الله وميثاقه ، أننّا لا نكون معهم إلا بسبيل خير ، وإنا نحلهم محل رجالنا ، ونجعل أيديهم مع أيدينا » . ولكن كافوراً الذي كان يخشى الفاطميين في المغرب ، لم يأمن للمعزّ فيرسل إليه مراكبه ، فضلاً عن أن كافوراً – وهو آخر الأخشيديين – يمثل ضعف هذه الدولة الإسلامية شبه المستقلة ، لذلك لم يُرسل شيئاً لاستنقاذ الجزيرة . ولما كان المعزّ الفاطمي مشغولاً بمشاريعه في فتح الشرق – وخصوصاً مصر – لم يُرسل هو الآخر شيئاً ، واكتفى بأن هدد الروم بالحرب الشاملة ، إذا هاجموا الجزيرة ، ذاكراً أن له جنداً كثيراً .

إزاء هذا التخاذل الإسلامي ، استطاع أسطول الروم بقيادة نيقفوروس أن يهاجم كريت ، ويحاصر عاصمتها قنديا (الخندق) Candia ، التيقاومت مقاومة شديدة ، ولكنها أضطرت إلى التسليم في نهاية الأمر ، فاستولى الروم

---

(١) النعمان ، المجالس ، ٢ ورقات ٤١١ – ٤١٩ ؛ انظر ، العدوى ، الأساطيل ، ص ١٢٣ .

على الجزيرة كلها، وذلك في عام ٩٦١/٣٥٠ [١] . وقد أخذ نيقفوروس صاحب الجزيرة المسلم عبد العزيز بن شعيب من ولد أبي حفص عمر ، وحمله إلى القسطنطينية ؛ حيث توفي عبد العزيز فيها ، ودخل ابنه في خدمة الملك البيزنطي ، وقد حمل منها غنائم كثيرة وضعها في ثلثمائة مركب . ولكي يقضي على أي خطر مقبل من جانب المسلمين في الجزيرة هدم أسوار العاصمة، وألقي بالحجارة في الميناء حتى لا تدخلها مراكب المسلمين ثانية . ولدينا قصيدة أرسلها نيقفورس إلى الخليفة المطيع لله — لعله كان يوجد في ديوان المراسلات الرومي من يعرف العربية — يذكر فيها أخذ كريت ، ورد فيها [٢]:

وأقريطش مالت إليها مراكبي ... على ظهر بحر مُزبدٍ متلاطم .
فحزناهم أسراً ، وسيقت نساؤهم ... ذوات الشعور المسبلات الفواحم .

ولقد تنصر كل من بقي من المسلمين في الجزيرة بالتدريج [٣] ؛ حيث كان لما حدث فيها وقع أليم في نفوس المسلمين وقتئذ .

وهذا النجاح البحري ، الذي حازه الروم على يد الأسرة المقدونية ، جعلهم يطمعون في استرداد الشام، التي كانت من مستعمراتهم ، وفيها الأماكن المقدسة ، وذكريات النصرانية . فبدأوا يصولون ويجولون في أعالي الشام والجزيرة ، فحاربوا دولة أقامها العباسيون ؛ وهي دولة الحمدانيين [٤] ، وكفلوا لها حراسة ثغور الإسلام ؛ وذلك حينما ترك العباسيون أنفسهم الجهاد. فتمكن الروم من الإستيلاء على أنطاكية [٥] ، التي كانت عاصمة الثغور الإسلامية،

---

(١) معجم البلدان ، ١ ص ٣١١ ؛ انظر . Gibbon : Decline, 6, p.60.

(٢) السبكي ، طبقات الشافعية ، ٢ ص ١٧٩ - ١٨٤ ؛ العدوى ، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ، ملحق ٣ ص ٢١٢ - ٢١٣ .

(٣) المكتبة الصقلية ، ص ١٠٣ . نقلا عن ابن جبير ، رحلة ، تحقيق نصار ، ص ٣٣٣ .

(٤) عنهم ، انظر . ابن خلكان،وفيات ، القاهرة ١٢٩٩هـ ، ٢ ص ٦٦-٧٠ ؛ Canard : Histoire de la dynastie des Hamdanides de Jazîra et Syrie. cf.

(٥) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ١ ص ٣٥٣ وما بعدها .

وتقدموا جنوباً في الشام ، ووصلوا حتى بيت المقدس ؛ وذلك في جولات[1] عدة، على يد ملوكهم الأقوياء مثل : نيقفوروس فوكاس[2] ، الذي أرسل من جديد للخليفة العباسي المطيع لله في ٣٥٣ / ٩٦٤ ؛ رسالة أهان بها الإسلام . ومع ذلك ، فالخليفة العباسي لم يحرك ساكناً؛ وإن كان الخطيب الذائع الصيت ابن نباتة ؛ عمل على تقوية الروح المعنوية ، وحث المسلمين على الجهاد . ومن بعد نيقفوروس، جاء زمسكيس Zimiskes ،الذي هو من أصل أرمني، وسماه العرب ابن الشميشق ، حيث اقترب هو الآخر من فلسطين [3] .

ولحسن حظ المسلمين وقتئذ ظهر الفاطميون في الشرق ، بانتقالهم من المغرب إلى مصر ، واتخاذهم إياها قاعدة لوقف أطماع الروم . وينقل عن المعز الفاطمي قوله : إنه ما سار إلى الشرق طمعاً في ملك أو جاه، وإنما للجهاد ووقف خطر الروم [4]. وفعلاً تمكن الفاطميون من أن يوقفوا تقدم الروم في الشام وحاربوهم بشدة ، حتى أن العزيز الفاطمي ، كان يخرج على رأس جيش مصر كملوك مصر الفراعين – مع أن الخلفاء كانوا لا يحاربون – ويجمع أهل مصر والشام بالنفير [5]، لحرب الروم. وإزاء هذه المقاومة الشديدة لأطماع الروم ، أجبروا

(١) النجوم (ط. دار الكتب) ، ٤ ص ١٨ ، ٧٢ ، ١١٨ وما بعدها؛ انظر. lorga :
Brève Histoire des Croisades et de leurs fondations en Terre Sainte. Paris, 1924, p. 4.

(٢) عن ذلك ، انظر . الكامل ، ٧ ص ٣٨ ؛ النجوم، ٤ ص ١٨ - ١٩ ، ٥٥ - ٥٧ ؛
Cedrenus : Synopsis Historiae (Corprus Scriptorum historiae, byzantinae (C S H B)1838-9. éd Becker, p.507 sqq. ; Schlumberger :
Un empreur, byzantin au Siècle, Nicephore Pnocas. Paris, 1890 ؛ اسد رستم ، الروم في سياستهم ، ٢ ص ٣٦ وما بعدها .

(٣) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق Amedroz ، بيروت ١٩٠٨ ، ص ١٢-١٤ ؛ R. H. C. Doc Arm. Paris, 1869, t 1, p. 5 sqq. ؛ انظر . أسد رستم ، الروم ، ٢ ص ٤٥ وما بعدها ؛ Schlumberger : L'épopée byzantine à la, fin du Siècle. Paris, 1909 (Jean Tzimiscès).

(٤) النجوم ، ط. القاهرة ، ٤ ص ٧٢ ؛ انظر . Canard : L'impérialisme, des Fatimides et leur propagande. Annales de l'Inst. d'Et. Or. 6, 1942, p. 180.

(٥) النجوم ، ط. القاهرة ، ٤ ص ١٢١ س ٥ .

على السكون ، وعقدوا الصلح مع الخليفة الحاكم الفاطمي [1] .

ولكن الفاطميين الذين استهلكوا قوتهم ضد الروم في الشام ، لم يتمكنوا من استرداد الجزائر التي استولى عليها الروم في البحر الأبيض . بل تهددت سيطرتهم في صقلّيّة ، لما بدأ الزيريون [2] في إفريقية - وهم الذين تولوها من قبل الفاطميين- يقلبون لهم ظهر المجن ، ويسعون إلى الاستقلال عنهم ؛ فظهر أثر ذلك في عودة النزاع بين المغاربة وجند الفاطميين في صقلّيّة . فانتهز الروم هذه المنازعات ، وأرادوا تحقيق مغانم خاصة ، وتهديد السيطرة الفاطمية في الجزيرة . فنجد ملك الروم باسيليوس الثاني Basilios II Bulgaroctonos - بسيل - في ١٠٢٥/٤١٦ [3]-الذي كان يعادي الظاهر الفاطمي ؛ يملك ما كان للمسلمين في قِلّورية . وكذلك فعل رومانوس الثالث أرجيروس Romanus III Argyrus (١٠٢٨ - ١٠٣٤م)-أرمانوس- بمشروعاته في غزو صقلّيّة؛ وكان يحارب الظاهر في الشام وقد كانت صقلّيّة السبب في بقاء العداء قائماً بين رومانوس والظاهر - حتى بعد توقف العداء في الشام - فقد رفض الملك الرومي أن يعقد مع الظاهر هدنة [4] ؛ إلا إذا تركه حراً في محاربة صاحب صقلّيّة ، الذي هو نائب الظاهر . ولكن الظاهر - الذي كان شديد الرغبة في مصالحة الروم- رفض الموافقة على ذلك، وبعدئذ عقدت أرملة الظاهر التي توصت على ابنها المستنصر الفاطمي، حلفاً مع ميخائيل الرابع البفلاجوني Michael IV Paphlagoni في ١٠٣٨/٤٢٩ ؛ فقد كان ميخائيل يسعى للمصالحة ؛ لإعادة بناء كنيسة القيامة التي هدمها الحاكم

---

(١) يحيى الأنطاكي ، صلة تاريخ أوتيخا ، تحقيق شيخو ، ١ ص ١٨٤ ؛ انظر . ماجد ، الحاكم بأمر الله ، ص ١٣١ .

(٢) ابن عذارى ، البيان ، بيروت ، ١ ص ٣٤٣ وما بعدها ؛ الكامل ، ٧ ص ١٢١ ؛ انظر . ماجد ، الإمام المستنصر بالله الفاطمي ، ص ١٢٧ وما بعدها .

(٣) الكامل ، ٧ ص ٣٢٣ .

(٤) يحيى الأنطاكي ، ص ٢٧٠ - ٢٧١ .

من قبل ، كما عقد الأكحل أمير صقلـيّة من آل الحسينيين حلفاً معه [1] .
ولكن ما لبث أن نقض هذا الحلف وغزا الروم صقـليّة من جديد بقيادة منياكس Miniakès ، في ٤٣٠ إلى ١٠٣٨/٤٣٢ – ١٠٤٠ [2] ؛ ولكنـه اخفق وقوي المسلمون ، الذين طردوا كل رومي من الجزيرة ؛ وكان ذلك بمساعدة الزيريين ، وليس الفاطميين ؛ فقد كان جيش المسلمين بقيادة عبدالله ابن المعزّ بن باديس من آل زيري . كذلك حاول الروم فتح مالطة [3] في عام ١٠٤٨/٤٤٠ ، وكان المسلمون فيهـا قد أصبحوا قلة ؛ فإنهم طلبوا من عبيدهم القتـال معهم ، وذكروا لهم إن ظفروا صاروا أحراراً ، فتم لهم الانتصار ، ولم يحاول الروم بعد ذلك غزوها .

* ومن ناحية أخرى ، ولحسن حظ الإسلام ، أن جاء للدولة العباسية عنصر تركي فتي هو عنصر السلاجقة [4] ، الذين سيطروا على الخلفاء العباسيين . وكان السلاجقة من عناصر البدو الوثنيين في أول أمرهم ، يعيشون في وسط آسيا ، ثم هاجروا إلى بلاد الخلافة العباسية ، وتحولوا إلى الإسلام . ولما كبر شأنهم باستيلائهم على الشرق الإسلامي ، وسيطروا على الخليفة العباسي في العراق ،

---

(١) أنظر . Dolger : Regesten der Kaiserukunden des, Ostromischen Reiches, I, Berlin — Munich, 1924, 841 ؛ أسد رستم ، الروم ، ٢ ص ٦٦ .

(٢) العيني ، تاريخ دولة بني العباس والطولونيين والفاطميين ، مخطوطة بالمكتبة الأهليـة بباريس (B. N.) ، برقم ٥٧٦١ ، ورقة ١٨ ب ؛ Michel Psellos : Chronographia, ed et trad. Reinaud. Paris, 1828,11,p.31-46 ؛ Schlumberger, L'épopée byzantine, à la fin du Xe Siècle : Le Monde Oriental,t3, p. 545 ؛ Dièhl et Marçais؛t3, 1905, p. 227 sqq. ؛ أسد رستم ، الروم ، ٢ ص ٦٦ .

(٣) المكتبة الصقلية ١ ص ١٤٢ – ١٤٣ . وذلك نقلاً عن كتاب القزويني: آثار البـلاد وأخبار العباد ، تحقيق Wust ، ط. Gottingen ، ١٨٤٨ .

(٤) صدر الدين ، أخبار الدولة السلجوقية ، صححه إقبال ، ط.لاهور ١٩٣٣؛عمادالدين ، تاريخ دولة آل سلجوق ، مصر ١٩٠٠/١٣١٨ ؛ Ency. de l'Isl, (art Seljûkides) t 4, p. 216 sqq.

أُصبحت لديهم آمال كبـار في إنقاذ الإسلام من خطر الروم . فتقدم السلاجقة إلى أبواب آسية الصغرى بقيادة سلطانهم ألب أرسلان ، وتقابلوا مع الروم في موقعة فاصلة على الفرات الأعلى ، هي موقعة منَا ذكَرد أو مَلا ذكَرد ؛ فهزموا جيش الروم ، وأسروا ملكهم رومانوس الرابـــع ديوجينيس Romanos IV Diogenes، الذي سماه العرب أرمانوس ، وذلك في عـــام ٤٦٣/١٠٧١[١] ؛ حيث كان في جيشه صقالبة وروس . وقد ترتب على هذه المعركة ، أن فُتحت أبواب آسية الصغرى لهجرات قبائل الترك ، التي أقامت فيها إمارة تركية قوية على يد ابن عمة السلطان ملكشاه — وهو أتى بعـــد ألب أرسلان — المسمى : سليمان بن قُتلمِش (م ٤٧٩/١٠٨٦) . فأخذت هذه الإمارة السلجوقية تقتطع من أراضي الروم جزءاً جزءاً ، وأخضعت قونية[٢] وغيرها لحكمها ، وعُرفت بلادها باسم : دولة الروم السلاجقة ؛ فكان ملوك الروم يدفعون لها الجزية[٣] . وإجمالاً باتت دولة الروم غير ذات خطر كبير على المسلمين بأية حال ؛ وإن انتزعت بعض السيطرة في البحر الأبيض .



ولكن الخطر الحقيقي على السيادة البحرية الإسلامية في البحر الأبيض ، جاءت من قبل عناصر مغامرة من الفرنجة ؛ لم يكن العرب يعرفونها قبلاً ، ولم تكن لها علاقة بالبحر الأبيض . هذه العناصر هم الشماليون Norsmen ، الذين يمثلهم النورمان Normands أو Northmen — وكلتا الكلمتين تعني الشمال

---

(١) آل سلجوق ، ص ٣٥ وما بعدها ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Malâzgerd) t 2, p. 214.

(٢) الكامل ، ٨ ص ١٨٦ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ١٨٦ ؛
. عن سليمان ، انظر . Ency. de l'Isl, (art Konya) t 2, p. 1119.
Ency. de l'Isl, (art Solaimân B. Kutulmish) t 4, p. 558 - 9.

(٣) ابن جبير ، رحلة ، ص ٢١٧ .

Nord أو North – وإن سماهم العرب : الفرنج [١] ؛ وهي تسمية عامة لكل سكان أوربا، والرمانيون[٢] التي قد تكون تحريفاً لاسم النورمان ، والروس[٣] بسبب أن الروس يسكنون الشمال أيضاً ، والمجوس [٤] لإعتقادهم أنهم يعبدون النار ، بسبب إشعالهم النار في البلاد التي يغزونها. وهؤلاء ظهروا في الوقت، الذي ظهر فيه السويديون ، وسكنوا معهم في شبـــه جزيرة سكندنياوه Scandinavie ،التي يبدو أنها ضاقت بهم ؛فاضطروا إلى الخروج منها.وعرفنا منهم عناصر متعددة ، أشهرها الفيكنج Vikings [٥]،وهي كلمة ربما كان لها معنى الخليج Vike ، حيث تكثر الخلجان في جزيرة سكنديناوه ، والدانيون Danes ، وهم الدنمركيون . وكان النورمان يعيشون في قبائل ؛ لها عادات البدو العرب في حب الثأر ، وأخذ الديات، ولها شعراء يشجعونها على القتال، وكانوا ينشدون ملاحمهم Sagas ، وهم يحبون الغارة ، ويقاتلون على الخصوص بالبلط ؛ وإن كانت غاراتهم بالمراكب ، وهي خفيفة البناء ، ولا مقدمة لها ؛ تسير بالمجاذيف ، وعليها شراع واحـد مربع ، رسمت عليـه وعلى خشب المركب صور الوحوش . وكان أغلب النورمان وثنيين يعبدون آلهة متعددة، مثل : إله الحرب أودن Odin ، وإله الرعد ثور Thor .

وقد غزوا إنجلترا في القرن الثامن الميلادي (الثاني الهجري) ، وإن سماهم الإنجليز بالدانيين Danes ، وهزمهم الملك ألفرد الكبير Alfred (٨٤٨ – ٨٩٩ م).ثم انتقلوا إلى فرنسا ، وكانوا يغزون فيهـا منـذ أيام شارلمان ، فمعظم الأنهار أصبحت لهم مسالك ؛ تعبرها مراكبهم إلى داخل

---

(١) ابن جبير، رحلة ، ص ٣٢٢ .

(٢) المكتبة الصقلية ، ص ٣٧٠ . نقلاً عن البيان المغرب لابن عذارى .

(٣) ابن القوطية ، ص ٦٦ ؛ نزهـــة المشتاق ، الجزء الرابع من الإقليم السابع ؛ انظر قبله وبعده .

(٤) اليعقوبي ، البلدان ، (B.G.A) ، ص ٣٥٤ س ١٣-٢٤ ؛ Ency de l'Isl, (art Rüs) t 3, p. 1262 ؛قبله .

(٥) بعامة ، انظر . Mawer : The Vikings, 1930.

البلاد . ويبدو أن غاراتهم في فرنسا كان لها أثرها في الدولة الكارلونجية القائمة ، حتى أن ملكها شارل الثالث Charles III (٨٩٨ — ٩٢٣ م) ، منحهم منطقة عُرفت باسمهم في ٩١١(٢٩٩هـ) ؛ وهي أساس دوقية نورمنديا Normandie ، التي سماها العرب أرمندية . وقد عاد النورمان إلى الهجوم على إنجلترا فيما بعد ، بقيادة وليام Guillaume ،دوق نورمنديا ، الذي سحق الإنجليزفي معركة هيستنجز Heistingz, (Hastings) في عام ١٠٦٦ (٤٥٨هـ)، وبذلك بدأ تاريخ جديد لإنجلترا. كذلك هاجم النورمان سواحل الأندلس ، ووصلوا حتى أشبيلية التي فيها المسلمون في ٢٣٠ هـ / ٨٤٤ [١] ، وعُرفوا فيها باسم المجوس أو الروس كما ذكرنا ، وذلك بأن دخلوها عن طريق الوادي الكبير ، حيث وقعت موقعة حاسمة اسمها طبلاطة ، انتهت بانتصار المسلمين ، وتعليق جثث النورمان على جذوع النخيل ؛ وإن عاد النورمان إلى الهجوم في ٢٤٥/٨٥٩ [٢] ؛ حيث أحرق المسلمون مراكبهم؛ وأدرك النورمان أول مرة أن المسلمين ليسوا كغيرهم من الإنجليز أو الفرنسيين. كما هاجم النورمان سواحل المغرب الأقصى أيضاً في أيام الأدارسة [٣] ، ولكن المسلمين فيها ردوهم. وبعد ذلك امتدوا في حوض البحر الأبيض، وهاجموا ساحل دلماشيا وبحر الأدرياتيك، وحاولوا، بقيادة زعمائهم، مثل: روبرت جسكارد Robert Guiscard (١٠١٥ — ١٠٨٥ م)، وأخيه روجر الأول Rogero I (Roger) (١٠٤٠ — ١١٠١) ، من أسرة هوتڤيل Hauteville ، أن يقضوا على نفوذ الدولة البيزنطية في هذه الناحية، فهاجموا القسطنطينية في ١٠٧١ (٤٦٤ هـ) ، والصقالبة المحيطين بالبحر الأسود ؛ ولعل ذلك كان بتشجيع من البابوية ، التي باركت من قبل حربهم ضد المسلمين في الأندلس [٤] . وحينما

---

(١) نفح ، ١ ، ص ١٦١ ؛ انظر . Ency. de l'Isl,(art Majûs) t3, p. 105-106; Fabricius : La première invasion des Normands dans l'Espagne, musulmane en 844. Lisbonne, 1892.

(٢) البيان (L) ، ١ ، ص ١٤٥ .

(٣) أنظر أيضاً : اليعقوبي (B. G. A.) ، ص ٣٥٤ .

(٤) أنظر . باركر ، الحروب الصليبية ، تعريب ، ص ١٦ .

حد البيزنطيون من تقدم النورمان ، اتجه هؤلاء إلى جنوب إيطاليا، وانشأوا لهم إمارة فيها [1] ، وأخذوا يتطلعون إلى صقلـّيـّة ، التي بأيدي العرب .

ولقــــد ازدادت الأمور سوءاً في صقلـّيـّة ؛ حينما تحول ولاء الزيريين إلى العباسيين ؛ مما جعل الفاطميين يرسلون نحو الزيريين القبائل العربية ، الـــتي كانت تقيم في مصر ، وهي قبائل بني هلال وسليم [2] ، حيث أخذ هؤلاء في اقتطاع أجزاء من أملاك الزيريين في إفريقية . فأدى هذا الانقسام إلى إضعاف سلطة الفاطميين في صقلـّيـّة ؛ فضلاً عن ضعف الفاطميين أنفسهم لما حدث في عهد المستنصر الفاطمي من مجاعات عارمة ، وفتن الجند ، وإنشغال بالأحوال الداخلية السيئة .

يُضاف إلى ذلك أن أسرة بني الحسين الكلبيين ، التي كانت تحكم صقلـّيـّة نيابة عن الفاطميين ، وتعاقب منهم في حكمها عشرة ولاة في مدى خمس وتسعين سنة ، إذ كان من أسباب تثبيت أقدام هذه الأسرة إشغال جندها ، من العرب والبربر ، بالحروب في جنوب إيطاليا ؛ ولكن هـــذه الأسرة أرادت أن تزيد من استقلالها عن الفاطميين الذين أدركهم الضعف ، فاعتمدت على الزيريين .

وكان الزيريون يستفيدون من العداء بين العنصرين البربري والعربي ، لزيادة الدس ضد الفاطميين في الجزيرة ؛ فنرى أحد أفراد أسرة بني الحسين الكلبيين الحاكمة واسمه يوسف ، أمام فتن الجند بتأثير دسائس الزيريين ، أُضطر إلى الرحيل مع ابنه جعفر إلى مصر ، تاركاً الجزيرة في يد الأكحل ، وهو ابن

---

(١) رحلة ابن جبير ، ص ٣٠٩ .

(٢) السجلات المستنصرية ، تحقيق ماجد ، سجل رقم ٥ ؛ العبر ، ٦ ص ٥ وما بعدها ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Hilâl) t 2, p. 325 - 326;
كحالة ، قبائل العرب القديمة والحديثة ، دمشق ١٣٦٨/١٩٤٩ ، ٣ ص ١٢٢١ وما بعدها ؛ يونس ، الهلالية في التاريخ والأدب الشعبي ، القاهرة ١٩٥٦ ؛ Hartmann : Die, Benî Hilâl Geschichte, das Zeitschrit für Afrika und Ocean Sprachen IV, 289 sqq.

آخر . فما كان من المعزّ بن باديس إلا أن انتهز الفرصة ، وأرسل ابنه عبدالله فقتل الأكحل ؛ ولكن عرب صقلّيّة ثاروا ضد عبدالله وولوا الصمصام أخا الأكحل [1] .

بعد هذا نجد أن السلطة المركزية في صقلّيّة قد ضعفت جداً ، فانقسمت الجزيرة إلى قطيعات ، بعضها يحكم بالإعتماد على خلفاء الفاطميين في مصر ، وبعضها يحكم بالإعتماد على الزيريين في إفريقية ، حتى أصبحوا أشبه بملوك الطوائف في الأندلس . وانتهز أهل صقلّيّة المسيحيون هذا الإنقسام ، وكانوا يقاومون في مسيني ، فاستغاثوا بزعيم النورمان روجر الأول RogeroI – سماه العرب رجار – [2] الذي كان ينتظر بفروغ صبر مثل هذه الدعوة إلى التدخل . كذلك قد يكون النورمان تدخلوا في صقلّيّة بناء على دعوة أحد الخونة المسلمين فيها ، وهو ابن الثمنة [3] ، الذي حكم سَرَقُوسة ومدناً أخرى غيرها ، وتلقّب بالقادر بالله ، وأصبح يُعرف بصاحب صقلّيّة . فقد طلب ابن الثمنة المال من المستنصر الفاطمي ، الذي كان عاجزاً عن دفع ما طُلب منه ؛ بسبب الأزمة الإقتصادية التي وقعت في مصر وقتئذ ؛ فبعث ابن الثمنة إلى النورمان يدعوهم إلى غزو الجزيرة ، كما قد ترجع خيانته إلى تنازعه مع والٍ آخر ، بسبب التنافس على حب امرأة ؛ فعمد إلى طلب العون من روجر .

على كل حال أسرع روجر بالدخول إلى صقلّيّة عن طريق مسيني ، فحاول الزيريون استنقاذ الجزيرة ، أما الفاطميون فلم يفعلوا شيئاً . وأرسل المعزّ ابن باديس أسطولاً كبيراً يتألف من أربعمائة قطعة ، وتطوع جمع كثير للجهاد ، فلما قرب الأسطول من جزيرة قوصرة المجاورة لتونس ، هبت عليهم ريح

---

(١) العبر ، ٤ ص ٢١٠ ؛ المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٥ . نقلاً عن ابن الأثير .

(٢) المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٥ وما بعدها . نقلاً عن مؤرخين من العرب .

(٣) نفسه ، ص ٢٧٦ ؛ العبر ، ٤ ص ٢١٠ - ٢١١ ؛ انظر . ماجد ، الإمام المستنصر بالله الفاطمي ، ص ١٤٧—١٤٨ .

شديدة ، وغرق الأسطول[1] ؛ بحيث سهل غزو النورمان للجزيرة .

ومن ناحية أخرى ، شُغل المعزّ بن باديس بهجمات العرب من بني هلال ، الذين أطلقهم المستنصر ضده ، ممـا حال دون السعي من جديد لإستنقاذ الجزيرة . وحاول تميم بن المعزّ أيضاً أن ينقذ الجزيرة من النورمان ، فأرسل أسطولاً بقيادة ابنيه أيوب وعليّ . ومع أن المسلمين في صقلـيّة قد سُروا بقدم هذه المعونة ؛ ولكن بسبب وجود العبيد في جيش تميم ؛ وكره أهل صقلـيّة لهم ، رجع الأسطول في ٤٦١/١٠٦٨ [2] ، دون أن يفعل شيئاً .

وهكذا تُركت صقلـيّة للنورمان يتوغلون فيهـا ، فسقطت بَلرم في ٤٧١/١٠٧٨ ، وطَبرْمين في ٤٧٨/١٠٨٥؛ وغيرهما. ونشير هنا إلى أن ابن عباد كان أشهر من قاوم النورمان ؛ إذ حاربهم في البر والبحر . ومع أن مراكب ابن عباد أخذت تغرق واحدة بعد أخرى ، فإنه ظل يجاهد ، حتى زلت قدمه ، وابتلعه البحر . وقد أثنى عليه رجار [3] ، الذي أرسل جثته إلى الأمير تميم بإفريقية . وبعدها استولى روجر على جميع مدن الجزيرة ؛ بحيث حدد العرب سنة ٤٨٤/١٠٩١ [4] ، لإستيلاء النورمان على الجزيرة بأجمعها . وبعد ذلك ، استولى روجر على مالطة [5] وغيرها من الجزائر القريبة من صقلـيّة . أي أن رجار على مـا يبدو استمر يحارب ثلاثين سنة منـذ ٤٥٣/١٠٦١ [6] ، حتى سقطت الجزيرة كلها بين يـديه . وقد ترتب على سقوط صقلـيّة أن سكنها الروم والفرنج مع المسلمين .

---

(١) الكامل ، ٨ ص ١٥٨ ؛ انظر . Amari : Storia di Sicilia, 2, p.p. 423 sqq .

(٢) المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٧ . نقلاً عن الكامل لابن الأثير .

(٣) أنظر . Amari : S. D. M. 3, p. 154; 157.

(٤) الكامل ، ٨ ص ١٥٩ ؛ المكتبة الصقلية ، ص ٢٧٨ .

(٥) المكتبة الصقلـيّة ، ص ٢٧٨ . نقلاً عن الكامل لابن الأثير .

(٦) المكتبة الصقلية ، ص ٢٦ . نقلاً عن نزهة المشتاق للإدريسي .

وأكثر من هذا فقد هاجم النورمان سواحل المغرب[1]، وطرابلس الغرب في سنة ١١٤٦/٥٤١ ، وكانت هي أيضاً قـــد استقلت عن نفوذ الفاطميين ، وقد استولوا عليها بعد إهلاك أهلها ، فبقوا فيها اثني عشر عاماً ، إلى أن انتزعتها منهم دولة مغربية ناشئة هي دولة الموحدين . وكذلك استولوا على المهديّة ، ميناء مهم من موانىء إفريقية ، وكانت عاصمـة الفاطميين السابقة بالمغرب ، وذلك في سنة ١١٤٨/٥٤٣ ، وبقوا فيها إلى أن طردهم منهـــا الموحدون أيضاً في ١١٦٠/٥٥٧ . وكان من استيلاء النورمان على هذه الموانىء المهمة ، أن هيأ لهم الإغارة على مدن أخرى مجاورة مثل سُوسة وصَفاقس أو سفاقس . كما قطعوا طرق الملاحة العربية في أي اتجـــاه ، وأغاروا على دِمياط ، وعاثوا في رشيد والإسكندرية.

كذلك تحالفت مدن الطليان مع النورمان، مثل: بيزة وجنوة والبندقية، للقضاء على نفوذ المسلمين في البحر الأبيض . وقيل إن البيزنطيين والجنوبيين تمكنوا من طرد العرب من سَردانية في ١٠١٥/٤٠٦ [2] ، وذلـك حتى قبل مجيء النورمان . ونسمع أيضاً أن البنادقة هاجموا قاعدة تنيّس في مصر ، وأغرقوا فيها أسطولاً للفاطميين .

فكان مما حدث في البحر الأبيض أن قضي نهائياً على السيطرة العربيـــة فيه ، وكان النورمان العامل الأساسي في ذلك ، بحيث تحول البحر الأبيض إلى بحيرة نورمانية ، وصدق قول أحدهم :

البحر للروم، لا يجري السفين به   إلا على الغرر ، والـــبرّ للعرب

★

---

(١) الكامل ، ٨ ص ١٤٧ : البيان ، ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠١ ؛ انظر . Storia, 2, p. 170. : Amari ؛ Ency. de l'Isl, (art Tripoli) t 4, p. 858. Histoire de l'Afrique du Nord, p.107. : Julien

(٢) أنظر Les Navigations. Médiévales, Lisbon, 1960, p. 34: Mauny يرى مصدر آخر أن البيزنطيين هم الذين استولوا عليها . أنظر زكي النقـــاش ، العلاقات الإجتماعية ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ١٨ ،

خلال ذلك ، كانت ثمار المعرفة الإسلامية وحضارتها قد انتشرت في الجزيرة ، حيث كانت بَلرم ومسيني وسَرقوسة وبُوة وباري وغيرها ، ينابيع للحضارة الإسلامية اليانعة . ولدينا وصف الجغرافيين والرحالين [١] المسلمين لما في هذه المدن وغيرها من مساجد وقصور وأسواق وحمامات ومارستانات وصنائع وبساتين وأسوار وقلاع وأبواب . ومع أن النورمان احتلوا هذه البلاد ، وكانوا قد تحولوا إلى المسيحية ؛ فإن الحضارة الإسلامية قد بقيت في صقلّية وإيطاليا؛ ولا سيما أن النورمان أنفسهم سرعان ما استقامت علاقتهم بالمسلمين من سكان الجزيرة . كذلك نظّم النورمان علاقتهم بالمسلمين خارجها ؛ فراسلوا الفاطميين ، ولدينا نص خطاب من الحافظ الفاطمي إلى روجر الثاني النورماني [٢] .

وعلى كل حال ، ونتيجة لعلاقة النورمان السلمية مع المسلمين ، انتشرت الحضارة الإسلامية في ظل حكمهم - مع أنهم غير عرب - وذلك بسبب تفوق هذه الحضارة في العصور الوسطى . وعلاوة على ذلك ، فإن حكم النورمان القوي في الجزيرة أتاح فيها الإستقرار ، بعد النضال المستمر بين المسلمين وأهل الجزيرة من ناحية ، وحروب المسلمين مع النورمان من ناحية أخرى . فأتاح هذا الإستقرار ، إندماج الحضارة الإسلامية ، التي قامت في الجزيرة على يد المسلمين،بثمار الحضارتين اليونانية واللاتينية ، وكلاهما سادتا في الجزيرة قبل مجيء المسلمين . ووجود هذه الثمار اليانعة بعضها بجوار بعض ، أوجد مزيجاً حضارياً رائعاً ، جمع بين غموض الشرق وعمقه ، وجمال اليونان ، ونشاط اللاتين .

---

(١) نفسه ، ص ٤ وما بعدها ؛ ابن جبير ، رحلة ، ص ٣١٤. نقلاً عن ابن حوقل من كتابه المسالك والممالك .

(٢) صبح الأعشى ، ٦ ص ٤٥٨-٤٦٣ . انظر . Canard :
Une lettre du Calife fâtimite, al-Hâfiz (524-542 / 1130 -1149), à Roger II. Palerme, 1955, p. 125 sqq.

وتبرز هذه الحضارة الإسلامية المشوبة بروح الغرب ، بفضل أول ملك نورماني في الجزيرة اسمه روجر الثاني Rogero II (Roger) (١١٠١-١١٥٤م)، الذي سماه العرب رُجار بن رُجـــار ، أو رجار الثاني . وقد نسب إليه المؤرخون – بما فيهم المسلمون – بسبب إقباله على حضارة المسلمين ، أنه قد تحول إلى الإسلام ، فيلقّبه الإدريسي : بالملك المعظم ، المعتزّ بالله ، المقتدر بقدرته [١] . وحقاً يبدو إعتزازه بحضارة الإسلام من إضافته عقيدة الإسلام إلى شارة المسيح في ضرب نقوده، واضعاً في إحدى وجهيها : لا إله إلا الله، محمد رسول الله ، كما ترك الحرية للمسلمين في إقامة شعائرهم .

كذلك كان غليام أو غليالم الثاني Guillaume II ١١٦٦-١١٨٩م، المسمى الطيب، – الذي يعتبر منظماً لدولة النورمان في صقلّيّة – يتكلم بالعربية، ويسلك مسلك ملوك الشرق في تصرفاته [٢] ؛ فكانت له عـــلامة للتوقيع كعلامة ملوك الشرق المسلمين ، وهي : الحمد لله حق حمده – أما علامة أبيه غليام الأول فهي : الحمد لله شكراً لأنعمه ، وله في بلاطه الأطباء والمنجمون والخصيان والجواري المسلمـــات [٣] والحجاب ، وحرس من العبيد السود ، وإذا سار في موكبه حُملت على رأسه المظلة ، على عادة خلفاء الفاطميين ، وأنه لبس ملابس المسلمين الفضفاضة وأرديتهم ، عليها نقوش عربية ، ولف على رأسه عمامة .

وتبدو أريحية غليام هذا مع مسلمي صقلّيّة ، في أنه ترك لهم الحرية الدينية ، ومنع المسيحيين من التعرض لهم . ويذكر الرحالة ابن جبير وغيره من الذين زاروا الجزيرة في ظـــل حكم النورمان ، أنه أبقى لمسلمي بلرم

---

(١) المكتبة الصقلية ، ص ١٥ . نقلاً عن الإدريسي من كتاب : نزهة المشتاق .

(٢) نفسه ، ص ٨٣ وما بعدها . نقلاً عن ابن جبير ، رحلة ، ص ٣٦٥ .

(٣) ابن جبير ، ص ٣١٥ .

قضاءهم [١] ، وأنه كان يحكمهم القـــائد وهيئة الأفاضل ، التي تشبه السلطة البلدية ، بل أبقى المسلمين في مراكزهم في الدواوين والتجارة والزراعة ؛ إذ كان قد هاجر إلى صقلـيّة عرب وبربر وفرس . كذلك بقيت لهم مساجدهم العديدة ، التي يُدعى فيها للعباسيين [٢] .

وعدا ذلك ، فإن هذا الملك ، أبقى على النظم الإدارية الإسلامية ، التي كانت في الجزيرة من قبل ، مثل نظام الضرائب من الخراج وهي ضريبة على الأرض ، والجوالي وهي ضريبة على الرءوس – أصبحت تفرض على المسلمين – ومال البحر وهي ضريبة السفن ، والمرافق وهي المكوس أو ضرائب الصادر والوارد ، وديوان التحقيق الذي يعتني بشؤون المال ، وديوان المظـالم الذي يراقب تصرفات الحكم ، وديوان الطراز لعمل الملابس .

وكان هذا الملك يعتز بثقافة العرب ، ولم يحجم عن الإنتفاع بها ، وأبقى على ازدهارها الذي كان موجوداً قبل مجيء النورمان ، حيث يذكر الرحالون كثرة المدارس الإسلامية . ويبدو أن إزدهار الثقافـــة العربية في الجزيرة يرجع سببه على الخصوص إلى موقع الجزيرة الجغرافي المتوسط ؛ فكان يزورها العلماء المسلمون من الشرق والغرب الإسلاميين . فبقيت اللغة العربية بعد مجيء النورمان إحدى اللغات المهمة في الجزيرة ، واعتبرت اللغة الرسمية ، وبجانبها اللغتان اليونانية واللاتينية ؛ وإن وجدت لغة رابعة دارجـة هي الطليانية . وقد ترتب على ذلك نقل الثقافة العربية وترجمتها إلى اللغات الأوروبية ، على الخصوص اللاتينية ، ولا سيما كتب الطب العربية ؛ حيث كان الأوربيون قد بدأوا يتذوقونه في الغرب ، وأُنشئت له مدرسة خـــاصة في سالرنو Salerno ،بجوار نابلي (نابُل) . وقد قام بالترجمة عناصر من أهـــل البلاد

---

(١) نفسه ، ص ٣٢٢ وما بعدها ، ٣٣١ وما بعدها ؛ المكتبة الصقلية ، ص ٧٩ – ٨٠ ، ٨٣ – ٨٤ . نقلاً عن ابن جبير .

(٢) ابن جبير ، ص ٣٢٢ .

المسيحيين أو اليهود ، وكانت ترجمتهم من العربية إلى اللاتينية أو حتى إلى الطليانية الدارجة، حيث كان أهم ما ترجم كتب ابن سينا والرازي في الطب. ونذكر من أعلام المترجمين ممن ينتسبون إلى صقلية وإيطاليا ، أمثال : أوجين البلرمى Eugenius ، وليوناردو پيزانو Leonardo Pisano .

ويجب أن نذكر هنا ما قام به الإدريسي الحمودي ، الجغرافي الكبير ، الذي ولد في سبتة عام ٤٩٣/١١٠٠، وهو ينتمي بالنسب إلى الأسرة الإدريسية العلوية في مراكش ، فقد استضافه روجر الثاني – رجار بن رجار – في بالرم، وقرّبه منه ، وجعله يرسم له خرائط العالم . فقد رسم الإدريسي اثنتين وثمانين خريطة ، تُعتبر من أدق ما وصل إلينا من خرائط ، رجع في رسمها إلى المصادر الإسلامية ، وإلى ما توصل إليه الغربيون في أوربا في رسم الخرائط . ونظراً لإهتمام روجر الثاني بالجغرافيا [1] ؛ فإن الإدريسي أهدى إليه كتابه المعروف باسم : نزهة المشتاق في إختراق الآفاق، وسماه بالكتاب الروجاري .

وحتى المباني التي أُنشئت في هذه الجزيرة بعد مجيء النورمان ؛ فإنها أخذت طابع المباني العربية ، ولا سيا كنيسة يسميها ابن جبير كنيسة الأنطاكي [2] ، التي يبدو أنه بناها رجال عرب أو من أصل عربي ، حيث تبدو جدرانها الداخلية كلها من الذهب .

وفي الزراعة ؛ فقد دخلت الجزيرة وإيطاليا أصناف من زراعات الشرق الإسلامي ، كما دخلتها أساليبه الزراعية من الطواحين والسواقي .

ولكن خلفاء هؤلاء الملوك النورمان النابهين ، لم يقدّروا تمام التقدير عظمة ملكهم القائم على الصلة بين الشرق والغرب ؛ مما جعل الحضارة الإسلامية

---

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٢ ؛ انظر . Miller : Mappae, Arabicae (Idrisi Atlas) . Stuttgart, 1927, VI. cf ؛ المكتبة الصقلية ، ص ١٥ وما بعدها .

(٢) رحلة ، ص ٣٢٣ .

تضمحل في صقلّيّة ، ولا سيما أن عناصر مسيحية متعصبة ، من سكان البلاد الأصليين أو من الجرمان، عملوا على إضطهاد المسلمين ،وجعلوهم يشعرون بأنهم غير مرغوب فيهم ؛ ويتهمونهم بأنهم على صلة بدولة الموحدين في المغرب [1] . وقيل إنهم ضايقوهم، ونزعوا سلاحهم، وقتلوا من كان في الدواوين والحوانيت والفنادق ، وربما يكون الجغرافي الإدريسي نفسه من ضحاياهم ؛ ولذا أُضطر بعضهم إلى التنصر ، وكانوا يبكون مما هم فيه ، وكان المسلمون العابرون بالجزيرة يدعون لهم . وما لبثت أن اندلعت الحروب الصليبية، وهي حروب عالمية بين الشرق والغرب ؛ مما قضى نهائياً على كل أثر المسلمين في صقلّيّة ؛ وإن بقيت مع ذلك حضارة المسلمين فيها بعدهم وقتاً طويلاً .

★

فالمحصل ، أن العرب سيطروا سيطرة تامة في حوض البحر الأبيض ، فلما قضى الإفرنج على حكمهم فيه ، تركه العرب وقد صبغوه بطابع حضارتهم القوي ؛ بحكم كونها الحضارة المتفوقة في خلال العصور الوسطى .

---

(١) المكتبة الصقلّيّة ، ص ١٠١ - ١٠٣ . عن رحلة ابن جبير .

الفصل الثالث

الحروب الصليبية
أو ما سمّي بحركة الافرنج

الحملات الصليبية على الشام ومصر ، ورد الفعل الإسلامي – طرد المماليك للصليبيين من الشام نهائياً – تعقب فلولهم في قبرس وروودس – غزو العثمانيين للبلقان وجزر البحر الأبيض – أثر الإسلام الحضاري .

الخطوة التالية للمسيحية ، هي الحروب التي عُرفت عند الأوربيين بالحروب الصليبية ، وهي تقابل الجهاد عند المسلمين ؛ إذ كلاهما أساسه الدين (١) ؛ وإن كان الجهاد أو الجهاد في سبيل الله ، أُعتبر عند بعض مذاهب المسلمين من أصل الدين الإسلامي (٢) ، وليس وارداً عليه كما هو عند المسيحية . كذلك الحروب الصليبية هي امتداد للحروب التي شنها المسيحيون على المسلمين في الأندلس (٣) ، وفي جزر البحر الأبيض .

وقد أُختلف في تفسير دوافع الحروب الصليبية (٤) ؛ فمنها ما هو مادي ،

---

(١) أنظر . Enan : Decisive moments in the History of Islam, 3ed. Cairo, 1948, p. 110.

(٢) القرآن ٩ : ٨١ ؛ انظر . النعمان ، دعائم الإسلام ، ١ ص ٣ .

(٣) أنظر . Grousset : L'épopée des Croisades. Paris, 1939.

(٤) أنظر . Alphandéry et Dupont : La Chrétienté et, ←

مثل طمع الأوربيين في خيرات الشرق ، أو ديني بالتعصب ضد المسلمين ، وبخاصة أن الأوربيين بدأوا يرون ضرورتها ؛ لضم البـــلاد التي ظهر فيها المسيح ، واعتبروها لذلك بلاداً مسيحية ، وأن في هذه الحروب تكفير الذنوب . وفي رأينا أن السبب الرئيسي لهذه الحروب ؛ هو أن ميزان القوى بين الشرق والغرب قـــد تغيّر بضعف المسلمين في الأندلس ، وضياع سيطرة المسلمين في البحر الأبيض ؛ فكانت الخطوة التالية حرب الفرنجة ضد المسلمين ، كمظهر من مظاهر الصراع البشري ؛ إذ هي مقدمة لما عُرف في التاريخ الحديث بالمسألة الشرقية : Question d'Orient .

ومع ذلك ؛ فهذه الحروب أتت في مظهرها بسبب الحج المسيحي ، وهو الحـــج « Passagium » إلى الأماكن المتصلة بذكريات المسيحية في فلسطين، وبخاصة إلى مدينة القدس أو بيت المقدس أو ما سُمي قديماً إيلياء أو أورشليم ، وهي جميعاً أسماء تعني القداسة أو الطهارة أو بيت الله (١) . ويدعونا هذا إلى أن نتكلم عن الحج المسيحي بالتفصيل . فليس لدينا ما يدل على وجود عقائد مسيحية قديمة أو أنـــه فرض ديني كما هو عند المسلمين . ولكن يظهر أنه بدأت تظهر له شعائر بقيام الدولة البيزنطية ، التي ورثت الرومان في الشرق ، وأخذت بدين المسيح ، ودانت بتعظيمه ، واعتبرتـــه إمبراطورها «Christos Basilieus» . فيروي المؤرخون – ومنهم العرب – أن هيلانة Helena ، أم قنسطنطين الأكبر Constantinus ، أول إمبراطور لهذه الدولة المسيحية ، ارتحلت إلى القدس في طلب الخشبة ، التي صُلب عليها المسيح ؛ فأخبرها القساوسة بأنه رُمي بخشبته على الأرض ، وألقيت عليهـــا

→ l'idée de croisade. Les premières croisades. Paris, 1954, p. 10.
؛ ورأيضاً : Atiya Crusade, Commerce and Culture. Bloomington, 1962, p. 1 sqq. ؛
Ency. of Isl, (art Crusades) 2 éd, t2, p. 63 sqq.

(١) معجم البلدان ، ١ ص ٣٩٢ – ٣٩٤ ، ٨ ص ١١٠ وما بعدها ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Kuds) t 2, p. 1158 s qq.

القمامات والقاذورات . فاستخرجت الخشبة وبنت مكانها كنيسة ، عُرفت باسم : كنيسة القيامة كأنها على قبره ، أو كنيسة القمامة لوجود هذه القمامة ، ثم بنى البيزنطيون في بيت لحم المجاور للقدس ؛ كنيسة على المكان الذي ولد فيه المسيح [1] . فكان المسيحيون يذهبون إلى القدس لزيارة هذه الأماكن المقدسة ؛ وأصبحت لهم أشبه بالكعبة للمسلمين . وقد منعت غزوات الفرس للشرق الزيارات ، وحين استرجع هرقل Heraclius – إمبراطور بيزنطة – الشام منهم في ٦٢٢ م [2] ، عاد النصارى للحج زرافات .

ولما جاء المسلمون كفاتحين لفلسطين ، صمم بطريرك بيت المقدس اليوناني ، واسمه صفرنيوس Sephronius، على تسليم بيت المقدس للخليفة عمر بن الخطاب نفسه ، على أن يمنح النصارى الأمان لدينهم وكنائسهم . فقبل الخليفة وقدم إلى فلسطين في سنة ١٧/٦٣٨ ، وهو راكب بعيراً أحمر ، وخلفه جفنة مملوءة بالتمر وقربة ماء ، ودخل القدس ، التي سلمها إليه البطريرك ، ومنح عمر أهلها النصارى الأمان على دمائهم وأموالهم وكنائسهم ، وقد صالحهم وحدهم دون اليهود ، وامتنع من أن يصلي في كنيسة القيامة ، وصلى خارجها على سلالمها ، حتى لا يحولها المسلمون إلى مصلى [3] .

وكان من استمرار العداء بين العرب والروم في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم الأمويين ، أن توقف الحج المسيحي إلى هذه الأماكن من خارج أرض الإسلام . ولما قامت الدولة العباسية ، أخذ الحج المسيحي يزداد ، وبخاصة بالنسبة لسكان أوربا الذين كانوا قد تحولوا إلى المسيحية ؛ وذلك لأن العباسيين في عهد هرون الرشيد كانوا على علاقة طيبة بأكبر دولة للفرنجة ، وهي دولة شارلمان . ويذكر مؤرخو الفرنجة وحدهم أن هرون الرشيد ، جعل للإمبراطور شارلمان ؛ حق الإشراف المعنوي على بيت المقدس ، وأنه أرسل

(١) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٢ .

(٢) المسعودي ، التنبيه ، ص ١٤٧ .

(٣) سعيد بن بطريق ، ٢ ص١٧ ؛ اليعقوبي ، تاريخ ، تحقيق Houtsma ، ط Lug-Bat ، ١٨٩٣ ، ص ١٦٧ – ١٦٨ .

له جملة هدايا ؛ منها مفاتيح كنيسة القيامة [1] . ولهذا ازداد اهتمام النصرانية في أوربا بالحج إلى بيت المقدس ، وبدأت تظهر تقاليده بينهم ، كما ظهرت بين مسيحيي الشرق ؛ بحيث أنهم بنوا لهم في بيت المقدس نزلاً وأديرة ، كما أن هيئات خاصة ، أشهرها جماعة الكلونيين ، التي نقلت نظام الرهبنة من مصر ؛ كانت تحرض الأوربيين على زيارة الأماكن المقدسة . وكانت بيزنطة من ناحيتها ؛ تسهّل مهمة حجاج أوربا، ولا سيما أن الدولة العباسية ؛ جنحت هي الأخرى نحو السلم مع الروم ، وتركت جهادهم [2] ؛ إلا أنه منذ أن حرم البابا في روما بطريرك القسطنطينية ، ووقف منه موقف عداء ظاهر ، وقف البيزنطيون موقف العداء من حجاج أوربا ؛ وإن كان هؤلاء غالباً ما يأتون من بلادهم إلى الأراضي المقدسة عن طريق البحر مباشرة . فكان تسامح خلفاء العباسيين ، السبب في استمرار الحج المسيحي .

ولما أسس الفاطميون خلافتهم في مصر ، واستولوا على الشام من العباسيين، وقف الحج المسيحي بسبب العداء بين الروم والفاطميين ، ولا سيما أنه كانت تحرك ملوك الروم دوافع صليبية [3] ، وأنهم عملوا على استعادة الأراضي المقدسة. وقد بلغ العداء أقصاه حينما أصدر الحاكم بأمر الله ، الخليفة الفاطمي، أمره بهدم كنيسة القيامة [4] . ولدينا نص الأمر بذلك ؛ فقد أصدر سجلاً إلى واليه على القدس ؛ كتبه أحد أقباط مصر ، جاء فيه [5] : «أمر الإمامة إليك بهدم قمامة ، فاجعل سماءها أرضاً ، وطولها عرضاً » ؛ فهُدمت بعض أجزائها . ويبدو أن الحاكم بأمر الله لم يهدمها بقصد وقف الحج المسيحي ؛ بل

---

(١) أنظر . قبله .

(٢) ابن صاعد ، ص ٤٨ ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٣٠ .

(٣) أنظر . قبله .

(٤) يحيى الأنطاكي ، ص ٤٩١ – ٤٩٢ [٢٨٣ – ٢٨٤] ؛ انظر . ماجد ، الحاكم بأمر الله ، ص ٩٩ – ١٠٠ .

(٥) الكامل ، ٧ ص ٢٤٠ ؛ يحيى ، ص ٢٣٠ – ٢٣١ ؛ انظر . عنان ، الحاكم ، ص ٦٩ ؛ Lane - Poole : Egypt, p. 128. ؛ ماجد ، الحاكم ، ص ١٠٠ .

لأن أمنية الروم الأولى ؛ أصبحت الوصول إلى بيت المقدس . وقيل أيضاً إن السبب جاء من أن نصارى كنيسة القيامة ، عملوا على فتنة المسلمين عن دينهم : فكانوا أثناء صلاتهم ، وترديدهم : كيرياليسون Kyrie elison ، يُطلقون فجأة في السماء ناراً ، ويعطونها عطراً خاصاً ، مُظهرين أنها نور ينزل من السماء ، لكي يُقنعوا المسلمين بحقيقة دينهم [١] ، ولا سيما أن تسامح العزيز بالله —والد الحاكم بأمر الله— الذي صاهر بطريرك بيت المقدس ،جعل النصارى يتمادون في إظهار شعائر دينهم . ويقوّى من هذا السبب ، هو أن الحاكم بأمر الله في الواقع لم يهدم غير هذه الكنيسة ؛ فلدينا سجل يمنح الأمان لبقية كنائس بيت المقدس . كذلك قيل إن سبب هدمها ؛ أن ملك القسطنطينية ، هدم جامع المسلمين فيها [٢] ؛ المسمى جامع القسطنطينية ، فعمل الحاكم بأمر الله على الإنتقام . ومع ذلك ؛ فنرجّح أن السبب الرئيسي في هدمها ؛ هو رغبة الروم في الإستيلاء على بيت المقدس — كما ذكرنا — ولا سيما أن الحاكم في الوقت ذاته أرغم جالية الروم في مصر على الخروج منها ؛ حيث كان بعض الروم يعملون في قصره ، وكانت لهم حارة خاصة في القاهرة [٣] ؛ وإن سمح لهم — على الرغم من عداوة دولة الروم — بالإنتقال إلى بلادهم بكل ما يملكون [٤] ؛ كما أن نصارى بيت المقدس ، من غير العرب ، هاجروا أيضاً إلى بلاد الروم [٥] ، وتوقفت الزيارات . ولقد أثار هدم الحاكم لكنيسة القيامة غضب النصرانية عموماً ،وإن كان الروم أسرعوا بالتودد إلى الحاكم وخلفه [٦] ؛ مما أوجد ميلاً إلى الإعتقاد أن إعادة بناء كنيسة القيامة قد تم في عهد الحاكم

---

(١) ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، ص ٦٧ ؛ De Sacy : Druzes, CCCXXXVI-11.

(٢) الخطط ، ٢ ص ١٦٩ س ٩ .

(٣) يحيى الأنطاكي ، ص ٢٢١ « في آخر الصفحة » ؛ الخطط ، ٣ ص ١٢ .

(٤) يحيى الأنطاكي ، ص ٢٠٧ س وما بعدها ؛ انظر . ماجد ، الحاكم بأمرالله ،ص ١٠١ .

(٥) يحيى الأنطاكي ، ص ٥١٩ [٣١١] ؛ انظر . أسد رستم ، الروم ، ٢ ص ٦٤ ،

(٦) النجوم (ط. دار الكتب) ، ٤ ص ١٩٢ ؛ انظر . ماجد ، الحاكم ، ص ١٣٣ .

او الظاهر [١] أو المستنصر [٢] . كذلك أرسل ملك الروم ، المسمى ميخائيل الرابع البفلاجوني Michael IV Paphlagoni (١٠٣٤ - ١٠٤١ م) ، المعاصر للمستنصر ، مهندسين من الروم لإصلاح كنيسة القيامة . وعلى كل حال عاد النصارى من الروم والفرنجة إلى زيارة بيت المقدس .

ولما هاجم السلاجقة أملاك الفاطميين في الشام ، ساءت أحوال نصارى بيت المقدس ، وتوقفت الزيارات اليه ؛ لأنهم حينما عملوا على أخذه من الفاطميين ، وهاجمه القائد التركي المسمى أتسز أو الأفسيس [٣] ، من قبل تتش أخي السلطان ملكشاه السلجوقي ، نهبه وقتل كثيراً من أهله ؛ فغضب تتش على أتسز وقتله، وولى غيره واسمه سكمان أو سقمان . غير أن الفاطميين عادوا بعسكر من مصر ، لإسترداد بيت المقدس من السلاجقة بقيادة وزيرهم الأفضل في سنة ١٠٩٦/٤٨٩ ؛ وذلك بمعاونة أهله ، وأنابوا فيه رجلاً عُرف بإفتخار الدولة مع حامية مصرية ، بقيت فيه إلى وقت مجيء الفرنجة [٤] .

وإذا كانت الحروب الصليبية وقعت بسبب الحج المسيحي ، فإن الذي صنعها على الخصوص هي البابوية الأوربية . فقد رأينا كيف أن الكنيسة في روما بعد تحول الفرنجة إلى النصرانية ، قد استطاعت أن تقف نداً للكرسي

(١) وفيات ، ٣ ص ٦ ؛ يحيى الأنطاكي ، ص ٢٤٣ ؛ Cedrenus : Synopsis Historiae Corpus Scriptiorum Historiae byzantinae, ed Bekker (C. S. H. B.), 1838-9, II, p. 259-260 ؛ أسد رستم ، الروم ، ٢ ص ٦٤ .

(٢) الكامل ، ٨ ص ١٦ ؛ Dolger : Regesten der Kaiserurkunden, des Ostromischen Reiches. Berlin — Munich, 1924 , 834 — 843, ؛ اسد رستم ، ٢ ص ٦٥ .

(٣) الكامل ، ٨ ص ١١٠ ، ١٢٦ ، ١٨٩ . ينفي كثير من المؤرخين ، من بينهم نصارى، تعصب السلاجقة ضد النصارى ، فمثلا كانوا يعفون كنائس هؤلاء من الضرائب . أنظر .
Chronique de Mathieu d'Edesse, continuée par Grégoire le Prêtre, trad. Dulaurier. Paris, 1858, pp. 156 , 201. ؛ Osman Turan ؛ Les Souverains Seldjoukides et leurs sujets non Musulmans. Stvdia Islamica. Paris, 1953, p. 65 — 100.

(٤) الكامل ، ٨ ص ١٨٩ ؛ النجوم ، ٥ ص ١٤٨ .

البطريركي في القسطنطينية ، واختصت من دون الكنائس الأخرى بلقب البابا . وأكثر من هذا أنها وضعت نفسها تحت حماية الفرنجة ، وأقامت من دولة الفرنجة الكارلونجية إمبراطوراً في الغرب منافساً لإمبراطور بيزنطة ؛ بحيث أصبحت دولة الفرنجة تمثل الدولة الرومانية السابقة في الغرب Orbis Romanus . ولكن الدولة الكارلونجية ضعفت بسبب نظام الوراثة في هذه الأسرة ؛ وهو ما عرف باسم الأمر الإمبراطوري Ordinatio Imperii، الذي ظهر في عام ٨١٧ م ، بأن تقسّم أملاك الدوله بين عدد من الأبناء . فأصبحت أملاك الكارلونجية سواء في فرنسا أو إيطاليا أو ألمانيا دويلات متحاربة منفصلة بين الورثة . وما لبثت الكارلونجية أن سقطت في فرنسا ، وحلت مكانها أسرة جديدة تُعرف باسم : كابيه Capet (٨٨٨-١١٣٧م) ، وظهرت في ألمانيا الأسرة السكسونية أوليدلفونج Liudolfing (٩١٩ - ١٠٥٦ م) ، كما ظهرت أسر أخرى . وبعد أن كانت البابوية تحت نفوذ ملك فرنسا ، وضعت نفسها تحت نفوذ الملك من أسرة السكسون ، وأعطته لقب إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة [1] ، مثلما فعلت مع شارلمان سابقاً؛ وخصوصاً أن اللومبارديين والنورمان ، سرعان ما ذابوا في شعوب إيطاليا ؛ ولم يكن لأحدهما طموح التوصي أو حماية البابوية .

فترتب على هذا الإنقسام الأوربي أن استطاع البابا، بدسائسه بين ملوك أوربا الإحتفاظ بالسلطة العليا ، كما أن كل ملك فيها ، كان يطلب إلى البابوية أن تباركه مثلما كان يحدث تماماً بالنسبة للملوك المسلمين في الشرق ، الذين كانوا يطلبون التقليد الشرعي من الخليفة . ويدل على سلطان البابا المتزايد ما حدث في إنجلترا ، فقد طرد السكسون عناصر الفيكنج من بلادهم ، ولكن دوق نورماندیا تمكن بتشجيع البابوية من الوصول إلى الملك فيها ؛ فأول ملوك النورمان في إنجلترا كان وليم الفاتح أو النورماني William the Conqueror

---

(١) أول من أخذها من ملوك الالمان هو أوتو Otto الكبير (٩٣٦ - ٩٧٣ م). أنظر . هارتمان وبارا كلاف ، الدولة والإمبراطورية ، ترجمة ومقدمة جوزيف نسيم ، ص ٣٨ .

(١٠٢٨ — ١٠٨٧ م) .

ولما أحست البابوية بقوتها في أوربا ، بدأت تطمح بشدة ، إلى توحيد كنيستي الشرق والغرب تحت نفوذها . وقد نمى الشعور بضرورة الوحدة المسيحية ، أن بيزنطة ، الدولة المسيحية في الشرق ، أخذت تستنجد بالبابوية ضد المسلمين، لما توسع الترك السلاجقة في آسية الصغرى ، بعد موقعة مَلاذكرد أو مَناذكرد . فقد أرسل ميخائيل السابع پاراپنيسز Michael VII Parapinaces (١٠٧١ — ١٠٧٨ م) ، ملك بيزنطة ، إلى البابا جريجوري السابع Gregory VII (١٠٧٣ ١٠٨٥ م) ، يدعوه إلى إرسال حملة من أهل الغرب، لإسترداد آسية الصغرى من الترك ، وربما كان ذلك مقابل اتحاد الكنيسة الشرقية مع الغربية[٢] . فأسرع البابا ، الذي كان يحلم بالسيطرة على جميع المسيحيين ، بتلبية النداء ، وكتب إلى ملوك الكاثوليك في أوربا وأمرائهم حاثاً إياهم على المبادرة إلى حرب المسلمين .

ولكن وقف عجلة الصراع مؤقتاً بين المسيحيين والمسلمين، حدوث صراع بين الكنيسة وملوك اوربا ، بقصد زيادة النفوذ الروحي على السلطة الزمنية؛ حتى أنها أصدرت قراراً بضرورة تقليد الملوك[٣]؛ مما أوجد معارضة شديدة في أنحاء أوربا ، ولا سيما من قبل هنري الرابع Henri IV ، ملك الألمان (١٠٥٠-١١٠٦م) ،الذي أُضطر ، بسبب فتن عديدة في بلاده ، إلى مصالحة البابا ، وجثى أمامه في ١٠٧٧ م ؛ وإن يكن عاد إلى الإصطدام به ، فغزا روما ؛ مما أدى إلى هروب جريجوري، وتولية بابا جديد في روما في ١٠٨٤م.
وبعد موت هنري ، عادت إلى البابوية قوتها من جديد ؛ فتطلعت إلى

---

(١) أنظر . Ency. Brit, t 6, (art Crusades), p. 828.
(٢) أنظر . جوزيف نسيم ، العرب والروم واللاتين ، ص ١٤٩ - ١٥٠ .
(٣) أنظر . La Monte : The world of the Middle Ages. New-York, 1949, p. 256 - 60. ؛ الدولة والإمبراطورية ، ترجمة نسيم ، ص ٢٣٥ وهامش ؛وبتفصيل : Greewood : The Empire and the Papacy in the, Middle Ages. London, 1901.

توحيد الكنيستين في الغرب والشرق، وذلك عندما استنجد ألكسيوس الأول كومنينوس Alexius I Comnenus (١٠٤٨ - ١١١٨ م) ، ملك بيزنطة، بأهل الغرب ضد الترك السلاجقة [١] . وربما كانت مطامع البابوية في إقامة حكومة في الشرق ، تجمع بين السلطتين الدينية والزمنية ، هي السبب الأول في قيام الحروب الصليبية ؛ ولا سيا أن الكنيسة قد طرحت جانباً منذ مدة ، جانب دعوة المسيحية إلى السلام ، وهي الدعوة التي عُرفت : بالسلام الرباني Pax Dei ، التي هي إمتداد للهدنة الربانية « Treuga Dei » . فقد كان القديس أوغسطين [٢] St Augustin ، وهو من أشهر آباء الكنيسة اللاتينية ، يقول في كتابه المشهور بمدينة الله [٢] De Civitate Dei ،بإمكان استخدام القوة ضد أعداء الكنيسة، كما أن الكنيسة ذاتها جعلت في يدها تكريس الفرسان؛ الذين عملهم الأساسي خدمة الله ، فهو يتسلم سلاحه من رجل الدين .

وقد استغلت الكنيسة كل نظم أوربا ؛ لإثارة العداء ضد المسلمين ؛ حتى أن البابا ليو الرابع Leo IV (٨٤٧ - ٨٥٥ م) ، كان يرى أن كل من يموت في سبيل الدفاع عن الكنيسة يكون مأواه الجنة ، وأنه لا خلاص بغير الكنيسة : Extra ecclesiam nulla Salus . وكان جميع البابوات ينظمون الحملات المسيحية لمساعدة ملوك جليقية المسيحيين ضد مسلمي الأندلس . فالبابا جريجوري السابع مثلاً ، كان يُرسل المغامرين من نواحي فرنسا لقتال المسلمين ؛ وقد هاجموا نواحي سرقسطة في عام ١٠٦٣/٤٥٦ .

---

(١) Guibert de Nogent : Historia quae dicitur Gesta, Dei per Francos. R. H. C. occ, IV, p. 131 — 132.

؛ انظر . جوزيف نسيم ، الدافع الشخصي في قيام الحروب الصليبية ، مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، السنة ٦٢ - ٦٣ ، ص ١٨٨ وما بعدها . قد ينقض وجود مثل هذا الخطاب سوء معاملة ألكسيوس لفرسان الغرب ، لما أرادوا عبور بلاده إلى بلاد المسلمين .

(٢) بدأ في تأليفه عام ٤١٣ م ، وانتهى منه في عام ٤٢٦ م . أنظر . Baynes : The Political Ideas of St - Augustine's «De Civitate Dei». London, 1962.

ومهما يكن ؛ فإن الحرب ضد المسلمين جاءت من تدبير البـــابوية . فقد اتخذ البابا إربانوس الثاني Urbanus II (١٠٨٨ - ١٠٩٩ م) - وكانت له أهداف جريجوري السابع ذاتها - شكوى الحجاج إلى بيت المقدس ذريعة لحرب المسلمين ؛ وهو البابا الذي كان من رهبـــان دير كلوني ، الذين عُرفوا بتعصبهم ضد المسلمين ، وهم يحاربونهم في الأندلس . وقد جاء هذا البابا إلى فرنسا بالذات ، للتبشير بحرب المسلمين ؛ لأن فرنسا كانت هي التي دافعت عن المسيحية في الموقعة المعروفة عند العرب ببلاط الشهداء ، لكثرة من سقط من قتلى المسلمين في ١١٤/٧٣٢ [1] ، ثم لأن ملك ألمانيا هنري الرابع كان يعادي البابوية . ولذلك أُعتبرت الحرب التي بشر بها إربانوس ؛ أنها حركة مقدسة من قبل الفرنسيين Gesta Dei per Francos .

فعقد في بلدة كليرمون فران Clermont Ferrand - التي سماها العرب أكلرمنت - جنوب فرنسا مؤتمراً في عام ١٠٩٥/٤٨٨ ، اجتمع فيه الفرنجة [illegible] . فخطب فيه كل من البابا إربانوس الثاني وبطرس الناسك Pierre l'Ermite (١٠٥٠ - ١١١٥ م) - أحـــد الشخصيات الفرنسية الدينية المهمة [2] - حاضين على حرب المسلمين. فقال البابا في خطابه [3]: « إنـــه من الواجب على النصارى أن يحموا أرواحهم بالذهاب في طريق المسيح ، وإذا لم يستطيعوا فليقـدموا أموالهم » . وقـال بطرس الراهب : « إني نظرت قبر المسيح محتقراً مهانـــاً ، وزواره مضطهدين » . فصرخ الحاضرون بالحرب وهم يرددون : الله يريد ذلك Deus vult أو Diex le volt

---

(١) أنظر . قبله .

(٢) أنظر . Hagenmeyer : Le vrai et le faux sur Pierre, l'Ermite, trad. Raynaud. Paris, 1883.

سبب حقده على المسلمين هو ما قاساه على أيدي الأتراك في بيت المقدس. أنظر. Anna Comnena: The Alexiad. An English. transl. London, 248 - 249.

(٣) عن خطابه ، انظر. بتفصيل مقالة المعاصر Fulcher de Chartres في Krey : The First Crusade. The Account of Eyewitness and Participants, reprinted, Gloucester, 1958.

(Dieu le veut) ، وهي العبارة التي أصبحت صرخـــة المسيحية في حرب المسلمين[1]. فأخذ الفرنجة يتجمعون من كل مكان لقتال المسلمين ، وهم يعلقون على الكتف الأيمن أو على الكتفين صليباً Crux ، من قماش أحمر [2] ؛ لذلك عُرفت الحروب التي قاموا بها ضد المسلمين بالحروب الصليبية «Cruzada» ، أو ما يسميه الأوربيون حاليـــاً في لغتهم الفرنسية Croisades والإنكليزية Crusades ، أما المؤرخون العرب مثل ابن تغري بردي فسموها حركـة الفرنج [3] .

وقد كانت أول أفواج من الصليبيين أغلبهم من الفقراء – فقراء المسيح : PauperChristi – جاءوا من كل مكان من أوربا ، يقودهم بطرس الراهب[4] ، حيث تحركوا بزحوفهم الحاشدة عبر وسط أوربا ، في الطريق ذاتهـــا الذي سار فيها الإمبراطور قسطنطين إلى القسطنطينية ، بعد تحوله إلى المسيحية . فقتلوا اليهود في طريقهم ، ولكي يحصلوا على ما يمسك رمقهم كانوا يسلبون وينهبون . ويصف لنا المؤرخون اليونان وغيرهم ، هذه الموجـــة الصليبية المتعصبة بأنها تتكون من جماعات من الأفاقين ، الذين لا يستحقون مشاهدة قبر المسيح . فلمـــا وصلوا إلى أسوار القسطنطينية في ٤٨٩/١٠٩٦ ، نصحهم ملكها ألكسيوس ؛ بألاّ يتسرعوا في العبور إلى آسية الصغرى ، ويظهر من قصائـــد آنّا كومنينوس Anna Comnenus ، ابنة الملك ، وكانت شاعرة ، ذكرت في قصيدتها المسماة Alexiadis ؛ احتقارها للمتبربرين الفرنجة. ولكنهم أساؤوا التصرف ، فأحرقوا القصور ، ونهبوا الكنائس ، فأمرهم الملـــك بالرحيل ، وخصوصاً أنه خاف من أن تسخط عليـــه أوربا ، إذا منعهم من

---

(١) أنظر . Gesta Francorum, transl. Somerset, p. **11** (وهي من مؤلف مجهول معاصر) ؛ R. H. C. occ. tv, 2e, p. **663 - 4** ؛ مكسيموس ، تاريخ الحروب المقدسة ، ١ ص ١٠ وما بعدها .

(٢) أنظر . Gesta, p. **12, 15.**

(٣) النجوم ، ٥ ص ١٤٦ س ٣ .

(٤) أنظر . Gesta, p. **12 - 15.**

الرحيل ، كما كان يسره بطبيعـــة الحال أن يحاربوا الأتراك السلاجقة ، الذين احتلوا أجزاء من بلاده في آسية الصغرى . وتروي مصادر الفرنجة أن السلاجقة قاتلوهم بقيادة شخص اسمـــه سليمان Solimanus ، الذي لا يمكن أن يكون سليمان بن قتلمش مؤسس إمارتهم في آسية الصغرى ؛ لأنه كان قد قُتل قبل ذلـك ، في سنة ٤٧٩ / ١٠٨٦ ، وخلفه ابنه المسمى قلج أرسلان ، أي سيف الأسد [١] . وقد انتصر الترك السلاجقة على الصليبيين ، وأحرقوا من هرب منهم في الغابات ، أو ألقوا بهم في البحر . وأُضطر بطرس الراهب إلى النجاة بنفسه . ولا يعتبر المؤرخون الحديثون هذه الحملة،حملة صليبية بالمعنى الصحيح ، بل هي تمهيد للحملة الصليبية الأولى.

وفي الوقت ذاته ؛ قامت تجمعات أخرى كبيرة [٢] ، معظمها من فرسان الفرنجة والنورمان ، وكانت أكثر تنظيماً من السابقة ؛ ولذلك كان خطرها شديداً على المسلمين ، واعتبرها المؤرخون الحديثون الحملة الصليبية الأولى . وقد ظهر بين أفرادها قواد مشهورون ؛ ارتبط اسمهم بهذه الحملة ، مثل : الأخوين جود فروي الملقب دي بويون Godefroy de Bouillon – ويسميه العرب في كتبهم كندفري أو كندهري – وبودوان أو بلدوين Baudouin (أو Baldwin)، الملقب دي بولونيا de Boulogne – ويسميه العرب : بغدوين أو بردويل – وقد جـــاء الإثنان على رأس أهل اللورين Les Lorrains ، والقـائد ريموند Raymond IV de Saint Gilles ، الذي جاء على رأس أهل البروفنس Les Provencaux ، ثم هوخ Hugues أخو الملك الفرنسي ، الذي قاد أهل غالة ؛ أما الملك نفسه وهو فيليب الأول Philippe 1er. (١٠٦٠ – ١١٠٨ م) ؛ فلم يأت لأنه كان قد حُرم من قِبل البابا ، ثم النورمـــاني بوهيمدند Bohemund – ويسميه العرب بيمنت أو

---

(١) أنظر . Ency. de l'Isl, (art Kilidj Arslân) t 2, p. 1065.

(٢) أنظر . Gesta, p. 14 sqq ؛ وأيضاً ما أورده : الكامل،٨ ص ١٨٥ وما بعدها.

بيمند – وهو الذي حارب الروم مع روبرت جيسكارد دوق النورمان ، وجاء من إيطاليا، ومعه ابن أخيه تنكريد Tancred أو Tangri – ويسميه العرب طنكري – حيث أن بوهيمند هو ابن جيسكارد الذي طلّق أمه ، وطمع الفتى في ملك عمه رجار ؛ إلا أنه وجد في دعوى البابوية مجاله . ويبدو من هذا التجمع أن الحملة لم يكن لها رئيس ؛ وإن وُصف جود فروي بأنه الزعيم ، وأنه رجل طويل ، وشعره أشقر ، يقال في مصادر الفرنجة إن الطيبة تبدو على وجهه .

وقد أقبل الجزء الأكبر من هذه الحملة ؛ نحو الشرق من طرق متعددة ، بعضها عن طريق الألب ونهر البو ، أو عن طريق وسط أوربا من ألمانيا وهنغاريا ، أو عن طريق البحر الأدرياتي . فلما وصلوا إلى القسطنطينية سنة ١٠٩٧/٤٩٠ ؛ ليعبروا بحر مرمرة – وهو الخليج أو المجاز [١] – إلى بلاد الترك السلاجقة ، لم يمكّنهم ألكسيوس من العبور ، وطلب منهم البقاء في ضواحي القسطنطينية ؛ حتى يحلفوا له يمين الولاء . وربما كان يفكر ألكسيوس ؛ أن الفرنجة يستعيدون له الأراضي التي أخذها المسلمون ، فيسمح لهم بأن يحكموها باسمه . وعلى الرغم من أن الفرنجة لم تعجبهم هذه المساومة من ألكسيوس ؛ فإنهم حلفوا له يمين الولاء ؛ إذ كان هدفهم قتال المسلمين قبل كل شيء [٢] . وليطمئن ألكسيوس على خططه ؛ أصحب جيوش الفرنجة جيشاً بيزنطياً بقيادة تاتيكيوس Tatikios .

فلما وصل هذا الزحف الصليبي إلى آسية الصغرى ، حارب الصليبيون الترك السلاجقة ؛ فأول مكان هاجموه فيها نيقية أو أنيقية [٣]

---

(١) عنه ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٤٦٠ ، ٤ ص ٣٢٨ .

(٢) أنظر . Gesta, p. 15 - 20 ، أنظر . إشارة ابن الأثير لإختلافهم ، الكامل ، ٨ ص ١٨٦ س ٥ .

(٣) أنظر . Ibid, p. 21 - 24 ؛ النجوم، ٥ ص ١٤٦ ؛ معجم البلدان، ٨ ص ٣٦٠؛ Ency. de l'Isl, (art Iznîk) t 2, p. 600.
يقول ابن الأثير قونية وغيرها : الكامل ، ٨ ص ١٨٦ .

Nicaea (Iconium) ، بلدة من أعمال اصطنبول ، تقع على بحيرة ، كانت لقلج أرسلان . وكان حصارهـــا أشبه بحصار الطرواديين ؛ بحيث أن الصليبين جاؤوا بسفن جروها من القسطنطينية بالثيران . وقد حــاول الترك استنقاذها على غــير جدوى ، إذ لم ينقطع وصول الإمدادات برآً وبحراً ، وكانت كثيرة . وبعد أكثر من سبعة أسابيع ، قرر الترك تسليمها إلى ملك بيزنطة ، دون الفرنجة ؛ مما يبيّن استمرار النزاع بين البيزنطيين والفرنجة ؛ فقبل ذلك منهم في رجب من سنة ٤٩٠/يونية ١٠٩٧ ، وحمل الأسرى إلى القسطنطينية ؛ وقد بقيت نيقية في أيدي البيزنطيين إلى وقت مجيء الأتراك العثمانيين .

وكان أول نصر للفرنجة في سهل دَرَوْلِيّة Dorylaeum (Dorylée) — قرب إسكي شهر — التي انتصر فيها جود فروى ، وقتل قلج أرسلان ، أمير السلاجقة . ونجد أن مؤلف أعمال الفرنجة : Gesta Francorum ، وهو مجهول ، يتكلم عن شجاعة الترك ، ومقاومتهم الشديدة . وبالإنتصار فيها ؛ فتح طريق فروجيه Phrygie وغيرها ، ولا سيما أنه سهّل زحفهم ؛ وصولهم إلى بلاد الأرمن المسيحية [١] .

وبعدها توقفوا أمام أنطاكية لحصانتها [٢] ؛ إذ كانت محصنة طبيعياً بالجبال ، وبأسوار وبروج وحصون متقدمة ، ولأن جماعات مسلمة من مدن عديدة خرجت لنصرتها ؛ مثل : حلب ودمشق والقدس . وبعد أن حاصرها الصليبيون ؛ مدة تسعة أشهر ، وبنوا أمامهـــا قلعة ، جمعوا حجارتها من قبور الموتى ، استولوا عليها من صاحبها التركي ياغيسيان أو ياغي سيان — يسميه الأوربيون Cassian — في جمادى الأولى من سنة ٤٩١/مارس ١٠٩٨ ؛ وذلك بفضل خدعة رجل اسمه فيروز أوزرد ، وهو أرمني كان قد أسلم ، وكان يدافع في أحد البروج ، فسلم البرج للصليبيين ؛ ممـــا جعل بقية البروج

---

(١) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٥٧ .

(٢) الكامل ، ٨ ص ١٨٥ - ١٨٦ ؛ Gesta, p. 34, spq

تتداعى . وقد هرب الأمير التركي، أو أنه قُتل وأخذ رأسه إلى الفرنجة ؛ كما يقول ابن الأثير ، فلما دخلوها ذبحوا معظم أهلها المسلمين ، بحيث لم تعد تُرى الأرض من كثرة الجثث [1] . ومع أن سلاجقة الشام والجزيرة ، ومعهم العرب ، ساروا لاستعادتها ؛ بقيادة كربوقا أو كربوغا التركي أمير الموصل ، وكادوا يستولون عليها ، وبات الفرنجة فيها محاصرين ؛ ليس لهم ما يأكلونه؛ إلا أن تكبّر كربوقا ، وإنقسام القواد ، أضاع هذه الفرصة ، وأدى إلى إنهزام المسلمين هزيمة منكرة [2] ؛ وكان الفضل في انتصار الفرنجة في أنطاكية يرجع إلى النورمان على الخصوص .

في ذلك الوقت ، حاول الفاطميون في مصر وقف زحف الصليبيين ، بعد أن عجز السلاجقة عن صدهم ، بالدخول في مفاوضات مع الفرنجة . ولا نصدق ؛ ما قيل من أن الفاطميين ؛ خانوا المسلمين ، وأنهم هم الذين استدعوا الصليبيين إلى الشام ؛ ليستعينوا بهم ضد السلاجقة . ومن الغريب ، أن بعض المؤرخين الحديثين يؤيدون ذلك [3] . ولكن ينقض هذا الرأي أنّا رأينا ؛ كيف كان الفاطميون دائماً حماة الإسلام ؛ فاستماتوا في الدفاع عنه ؛ حينما هاجم الروم في الشام . ثم إن ابن الأثير ، صاحب هذه الرواية القديمة ، هو نفسه يتشكك فيها ، ويقول : « والله أعلم » [4] . وفوق ذلك ، لدينا سجلات عديدة ؛ بتقليد أمراء مصر — أي القواد — وتوليتهم أمر الجهاد ضد الصليبيين [5] ، كما أنهم ، أي الفاطميين ، جعلوا طائفة من الجند ، تُعرف بصبيان الحُجر ، من أولاد الناس ؛ ليتعلموا الفنون الحربية ، ويكونوا

---

(١) أنظر . Ibid, p. 51.

(٢) أنظر . Ibid, p.53 ؛ الكامل ، ٨ ص ١٨٦ - ١٨٧ .

(٣) مثلاً : مؤنس ، نور الدين محمود ، ص ٩٨ - ٩٩ ؛ عاشور ، الحركة الصليبية ، ١ ص ١٩٧ . هذا الأخير يستند في معظم مصادره إلى مراجع حديثة .

(٤) الكامل ، ٨ ص ١٨٦ س ٣ - ٤ .

(٥) مثلاً ، انظر . صبح الأعشى ، ١٠ ص ٤٠٦ .

مستعدين لقتال الصليبيين ، عند أول إشارة [١] . حتى ولو أيدت المصــادر الأوربية وقوع المفاوضات ؛ فيحتمل أن تكون مع الروم، وليس مع اللاتين، وهي عادية في سياسة الفاطميين ، الذين عقدوا مع الروم معاهدات من قبل ، إذ هادنوهم منذ زمن الحاكم بأمر الله ، كما ذكرنا .

وعلى كل حال ، كانت مفاوضات الفاطميين مع الروم — حتى إذا صحت في أثناء حملات الفرنجة — في مصلحة الإسلام ، لأنها جعلت المعسكر المسيحي ينقسم على نفسه . والدليــل على ذلك ، أنه لما احتل الفرنجة أنطاكية ، ولوا عليها بطريركاً أرثوذكسياً ، أي أنه تابع الروم ؛ وذلك بناء على الإتفــاق السابق بين الفرنجــة وألكسيوس ؛ ولكنهم عزلوه بسبب تفاوض الروم مع الفاطميين ، واتهموا الروم بالخيانة [٢] ، وأجبروا جيش الروم على الرجوع إلى القسطنطينية . وقد تولى أمر أنطاكية بوهمند النورماني ، الذي كان طامحاً إلى إقامة إمارة له في الشرق ؛ وإن يكن تركها لابن أخيه تنكرد — طنكري — الذي جعلها إمارة خاصة له ، وسك فيها عملة باسمه : Tankridos . فـكان هذا بداية لإمارة أنطاكية ؛ وبذلك ظهرت نيات الفرنجة واضحة في استعمار الشرق .

وبعد هذا الإنتصار في أنطاكية، سار قسم من الصليبيين نحو بلاد الجزيرة، واستولوا على مدن كثيرة ، منها : الرُّهاء ، المساة أيضاً أرُفه ، ولليونان أذاسا Edessa [٣] ، وهي المدينة المسيحية الهامة الذائعة الصيت ، الواقعــة بين الموصل والشام ، وكان أغلب سكانها من الأرمن ، وليس فيها من المسلمين إلا قليل ، وإن تمكن أتابكة السلاجقة في الجزيرة من وقف تقدم الفرنجة نحو

---

(١) وفيات ، ٢ ص ٧٨ . أنظر ما ورد عنهم في كتابنــا : نظم الفاطميين ، ١ ص ١٩٧ - ١٩٨ .

(٢) أنظر . Gesta, p. 71 - 74.

(٣) النجوم ، ٥ ص ١٧٨-١٧٩ .ولعلها فتحت في سنة ٤٩٧/١١٠٣-٤. أنظر . الكامل، ٨ ص ٢٠٤ . عنها ، انظر معجم البلدان ، ١ ص ١٥٩ ، ٤ ص ٣٤٠ - ٣٤١ ؛ Ency. de l'Isl, (art Orfa) t 3, p. 1062 sqq.

بغداد . فكانت الرُّها هي مركز إمارة صليبية أخرى في بلاد الجزيرة .

وكذلك سار قسم آخر من الصليبيين إلى الجنوب بمحاذاة الساحل الشامي على شط البحر ؛ فكانت تأتيهم المراكب الإيطالية بالذخائر والرجال [١] : وكانت مدن الشام العليا وموانئها تسلم إليهم دون مقاومة . وقد استعمل الصليبيون منتهى القسوة مع المدن المستسلمة ؛ فحينما دخلوا معرّة النعمان مثلاً ؛ قتلوا معظم من كان فيها من الرجال والنساء ، ما يزيد على مائة ألف، وأخذوا من كان حياً لبيعه [٢] .

وبعد ذلك ، وصل الفرنجة إلى بيت المقدس، الذي كان استرده الفاطميون من السلاجقة ، وأبقوا فيه حامية مصرية كما ذكرنا . فضربوه بالنار والحجر من المنجنيقات، ودافع عنه عسكر مصر بشجاعة نادرة مدة تنيف على أربعين يوماً؛ فكانوا يفضلون الإنتحار بإلقاء أنفسهم من بروج الجدران على التسليم[٣]. ولما تمكن الصليبيون من دخول المدينة في شعبان سنة ٤٩٢ / يونيو ١٠٩٩ ، ذبحوا كل من وجدوه فيها من المسلمين ، من شيوخ ونساء وأطفال ، وأحرقوا منهم من هرب إلى مسجد قبة الصخرة والمسجد الأقصى ؛ حتى أن المصادر النصرانية ذاتها تقول : « لم نر مثل هذا الذبح من قبل في المسلمين [٤] ». فقد استمر القتل ثمانية أيام ؛ إذ كانوا يعتقدون أن المسيح عانى كثيراً من العذاب [٥] ، ولذلك يجب أن يشفى غليل المسيحية ؛لما حدث له.وكان وزير الفاطميين الأفضل ، لما بلغه وصول الفرنجة إلى القدس، حشد العساكر المصرية وسار بهم لاستنقاذها، فلما قرب من القدس كان الفرنجة قد فتحوها ، وهجموا على الافضل وعساكره وهزموه ، وأحرقوا من التجأ من العساكر المصرية إلى

---

(١) أنظر . Gesta, p. 81 ؛ مكسيموس ، ١ ص ١٥٠ .
(٢) أنظر . Ibid, p. 77 ؛ الكامل ، ٨ ص ١٨٧ - ١٨٨ .
(٣) أنظر . Ibid, p. 84 sqq ؛ نفسه ، ٨ ص ١٨٩ ؛ النجوم ، ٥ ص ١٤٨ - ١٤٩ .
(٤) أنظر . Gesta, p. 88
(٥) أنظر . Calmette : Le Moyen Age, p. 428.

الغابات [1] . وقد فرح الفرنجة بالوصول إلى مقبرة المسيح « ربهم » ؛ بحيث كانوا يبكون من شدة الفرح [1] . وهكذا سقط بيت المقدس في أيـــدي الفرنجة، بعد أن ظل في أيدي المسلمين منذ فتحه في عهد عمر بن الخطاب سنة ٦٣٨/١٧ . ومع أن البابا إربانوس الثاني توفي في يوليو ١٠٩٩ ، وهو لا يدري بهذا الإنتصار ؛ إلا أن رومـا دقت النواقيس ، وأعلنت انتصار الصليب على الهلال .

وتريث الصليبيون ؛ لتنظيم الدولة التي أقاموها في بيت المقدس [2] ، وإن كانوا قد اتفقوا على تعيين جودفروى - كندفرى أو كندهرى – حامياً للبيعة (أو القبر) المقدسة Advocatus Sancti Sepulchri ؛ وإن رفض هذا أن يتخذ لقب الملك . ويُنسب إلى جودفروى أنه وضع أساس دستور هــذه الدولة ، وهو ما عُرف باسم : أسس Assises؛ حيث أضاف إليه ملوكهـــا من بعده قوانين أخرى خاصة بالدولة وبالنظام الإقطاعي ؛ وإن كانت نصوص هذه القوانين لم تجمع إلا في القرن الرابع عشر الميلادي ؛ لأن أصولهـا قد ضاعت ، عندما استرد صلاح الدين بيت المقدس فيما بعد .

ولما قُتل جودفروى ، بسهم أصابه أمام مدينة عكـــة، اختـار مجلس كبار الفرسان ورجال الدين (Haute Cour) [3] أخاه بغدوين ، وهو الذي اتخذ لقب الملك في ٤٩٥ / نوفمبر ١١٠١ ؛ ومنذ ذاك الحين صار حكام بيت المقدس يلقّبون بالملوك . وكان بغدوين يفعل مثل ملوك الشرق،فيلبس الثياب الشرقية ، ويرسل لحيته ، ويتناول طعامه على الأرض [4] . وأصبحت دولة بيت المقدس ، نظراً لأن حاكمها ملك ، تـُعرف : بمملكة بيت المقدس ، أو

---

(١) الكامل ، ٨ ص ١٩٠ ؛ النجوم ، ٥ ص ١٤٩ .

(٢) أنظر . Gesta, p. 88

(٣) أنظر . Assises de Jerusalem. R. H. C. occ. t II. ؛انظر. Dodu : Histoire des Institutions monarchique dans le royaume, Latin de Jerusalem. Paris, 1894.

(٤) أنظر . جرونباوم ، حضارة الإسلام ، ترجمة جاويد ، مصر ١٩٥٦ .

المملكة اللاتينية ، إذ أُخذت هـــذه التسمية من جنسية ملوكها ، وبسبب إنشاء أول كنيسة لاتينية في الشرق . وقد اتسعت هذه المملكة بمن جاءها من الفرنجة من كل نوع ، ولا سيما من الباحثين عن الثروات والمغامرات ، وهؤلاء يأتون كحجاج ، ولكن سرعان ما يستقرون فيهـا . كذلك أصبح للمدن الطليانية نفوذ في هذه المملكة ؛ فنالت حقوقاً تجارية كثيرة .

وقد قُسمّت هذه المملكة إلى إقطاعات، وعهد في الدفاع عنها إلى طوائف من الفرسان ، أبرزها طائفة فرسان : الإسبتارية Hospitaliers ؛ لأنهـم في أصل نشأتهم ، كانوا يقومون باستقبال الحجاج وإيوائهم في نزل « Hospes » ، أنشأوها أول مرة ، بجوار كنيسة القيامة . وهناك طائفة أخرى ، عرفتهـا العرب باسم فرسان : الداوية أو الدّيْويّة ، أو مــا عُرف لدى الفرنسيين باسم فرسان : المعبد Templiers ، ذلك لأنهم سموا مكان الصخرة بالمعبد Templum ، بسبب غموض تاريخها لديهم . وكانت الطائفتان تملكان الحصون والأساطيل ، ولها حق عقد المعاهدات ، وجباية الضرائب ، كأنهـم دولة داخل دولة .

وعقب فتح بيت المقدس ، تحولت جميع مساجده إلى كنائس ، وبخاصة مسجد قبة الصخرة ، الذي كان عبد الملك بن مروان ، قد بناه على أنقـاض المسجد ، الذي بناه عمر بن الخطاب ؛ والمسجد الأقصى ، الذي بناه الخليفة الوليد ، في ساحة مسجد قبة الصخرة ، وعُرف ، لفخامته أيضاً، ببـلاط الوليد[٣] . وحُوّل المسجد الذي على الصخرة المقدسة إلى كنيسة[٤] ، أخذوا يعظّمونها ويفتخرون بها ، وأقاموا على قبتها صليباً من ذهب ، سموه صليب

---

(١) عنهم ، انظر . النجوم ، ٦ ص ٣٣ وهامش ؛ Ency. de l'Isl, (art al - kuds) t2,p. 1164; Kings : The Knights Hospitaliers in the Holy Lands. London, 1931.

(٣) أنظر . كتابنا : التاريخ السياسي للدولة العربية ، الجزء الثاني .

(٤) عماد الدين، الفتح القسي ، ص ٥٠ - ٥١ ؛ ابن خلدون ، المقدمة، ص ٢٨٢ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, t 2, p. 1164 - 5.

الصلبوت ، أما المسجد الأقصى ، فقد أُقيمت فيه كنيسة ونزل الفرسان الداوية ، وأصبح يُعرف باسم : معبد أو قصر سليمان Templum (Palatum) Salomonis ، لأن سليمان كما يقال ، كان قد بنى في مكانه معبداً[1] . ويبدو من ذلك أن التعصب الصليبي نحو المساجد ، كان على نقيض ما جُبل عليه المسلمون من تسامح نحو كنائس النصارى ، التي تركوها لهم ؛ بما فيها من ذخائر وتحف . حتى بعد أن استرد صلاح الدين بيت المقدس ، ترك لهم كنوز الكنائس ؛ ليأخذوها معهم ؛ وكذلك أبقى على كنيسة القيامة لا يدخلها المسلمون .

وفتح أيضاً الصليبيون طَرَابُلُس ، وكانت فيها أسرة بني عمّار ، التي استقلت عن الفاطميين . وقد حاصروها قبل محاصرة بيت المقدس ؛ ورفع الحصار عنها ؛ للإستيلاء على بيت المقدس . ولكن بعد ذلك سقطت في أيدي الفرنجة في ٥٠٢/ ١١٠٩ ، وسقط ما حولها من مدن كثيرة، مثل : بيروت في ٥٠٣ / ١١٠٩ ، وصيدا في ٥٠٤ / ١١١٠ ، وصُور Tyr في ٥١٨/١١٢٤، التي استولى الفرنجة عليها بعد تحطيم الأسطول الفاطمي فيها[2]؛ بحيث لم يتبق غير عَسْقَلان ، التي سقطت في ٥٤٨ / ١١٥٣ [3] . ويقول ابن تغرى بردى المؤرخ : إنه كان من الممكن إنقاذ كل هذه المدن ؛ لولا سوء الحالة في بلاد الفاطميين [4] . وقد أصبحت طرابلس وما يحيط بها إمارة متميّزة ، عُرفت باسم : إمارة طرابلس .

ولم يقف طمع الصليبيين أو الحجاج المسلحين عند حد ؛ فقد طمعوا أيضاً في مصر لضعفها ، وهي التي كانت تزهو أمام أعينهم بغناها . فقد كان بغدوين يفكر في غزوها ، وذهب بنفسه يستكشف طريق الزحف ،

(١) الفتح القسي ، ص ٤٨ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, t 2, p. 1164 - 5.

(٢) النجوم ، ٥ ص ١٧٠ .

(٣) الكامل ، ٩ ص ٤٢ . يقول ابن تغرى بردي في سنة ٥٤٥ / ١١٥٠ . أنظر . النجوم ، ٥ ص ٢٩٩ .

(٤) النجوم ، ٥ ص ١٧٩ - ١٨٠ .

وتوغل في شبه جزيرة سيناء، ودخل الفرما على الساحل بين العريش والفسطاط، وفتحها في سنة ١١١٥/٥٠٩ ، ولكن الجند الفاطميين الدائمين في الشرقية ، يتقدمهم العربان حاربوه، كما أسرع الوزير الفاطمي الأفضل في إرسال العساكر المركزية من القاهرة، فرحل بغدوين، ولكنه مات قبل أن يصل إلى العريش ؛ وأُخذت جثته لتدفن في كنيسة القيامة ، بعد أن أُلقي بأمعائه في مكان ما يزال إلى اليوم يُعرف بسبخة البردويل أو جزيرة البردويل أو بالسبخة [1] . ولعل الأفضل – وزير مصر – قد تشجع بعد طرد الصليبيين في محاربة هؤلاء بالاتفاق مع طغتكين السلجوقي أمير دمشق ، الذي أسس أتابكيته برعايته لدقاق بن تُتش أخي ملكشاه، ثم استقل بها بعد موت دقاق ، إلا أنه لم يحدث أمر جدي من الناحيتين .

ومعنى هذا أن الفرنجة قد انتصرت على المسلمين في الشام والجزيرة ، وأصبحت لهم مملكة وإمارات ثلاثاً بين إمارات السلاجقة على حدود مصر . ولما كان معظم الغزاة من الفرنسيين ؛ فقد قام أول استعمار لفرنسا في الشرق، وبذلك ظهرت فرنسا ما وراء البحار Outre-mer . فمن إماراتها : إمارة أنطاكية في الشمال ، التي امتدت على ساحل البحر الأبيض إلى جبال طوروس وشمال الشام ، وجاورت أتابكية حلب ، التي حكمتها بقايا السلاجقة من بيت تُتش ، وأشهرهم أبناء رضوان بن تُتش . وإمارة الرّها على الفرات ، التي امتدت من مرعش إلى منبج في الجنوب ، وجاورت الموصل التي كانت تُضمّ غالباً إلى إمارة حلب ، وتكوّن معها أتابكية واحدة ، وتهدد بغداد مركز الخلافة العباسية . وإمارة (أوكونتية) طرابلس ، التي نشأت تابعة لمملكة بيت المقدس ، وأُعتبرت منفذاً لها على الساحل ، وامتدت من حمص إلى شمال لبنان ، فهددت أتابكية دمشق السلجوقية ، التي أقامها طغتكين كما ذكرنا . ثم مملكة بيت المقدس ، الممتدة من لبنان حتى صحراء النقب والبحر الأحمر ،

---

(١) نفسه ، ٥ ص ١٧١ ؛ الخطط ، ١ ص ٣٤٢ – ٣٤٣ ؛ ابن إياس ، بدائع ، ١ ص ٦٣ . عن الفر ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٣٦٧ – ٩ .

وقد هددت هذه خلافة الفاطميين في مصر .

والواقع أن نجاح الإستعمار الفرنجي في الشرق الإسلامي ، كان مسبباً من الدرجة الأولى عن انفصام الوحدة السياسية بين سكانـــه ؛ حيث توزعتهـم خلافتان واحدة في بغـــداد ، وأخرى في القاهرة . يُضاف إلى ذلك ضعف السلطة المركزية في كل منهما ؛ مما أدى إلى وهن السلطة العامة فيهما . فالدولة العباسية السنية ، انقسمت بعد موت ملكشاه السلجوقي إلى قطيعات ؛ لأن السلاطين السلاجقة اتبعوا عادة توزيع أملاكهم بين أبنائهم الأمراء ؛ على أن يعهدوا في تربيتهم إلى قوادهم الذين يسمونهم بالأتابـكة ؛ وهي لفظة تركية مفردها أتابك ، ومركبة من أتا ، بمعنى أب ، وبك بمعنى سيد أو أمير ، وتحولت دولتهم بسبب ذلك إلى دويلات متحاسدة ؛ تخضـع لأبناء السلاطين وأقاربهم وأتابكتهم ، الذين غمرتهم حروب داخلية . أما خلافة القاهرة؛ فقد خضعت لوزراء التفويض، الذين فُوضت إليهم السلطة من قبل الخلفاء الفاطميين، وكانوا يتنافسون على هذا المنصب الوزاري ؛ مما ابتلاهـــا بالضعف ؛ بحيث تسللت أملاكها من يدها شيئاً فشيئاً .

ومع هذا ؛ سرعان ما ظهر رد الفعل الإسلامي ضد هذا الخطر الصليبي ، الذي هدد كيان المنطقة كلها ، وعمل على ابتلاعها ؛ ولم يقـف عند الأماكن المسيحية المقدسة ، وإنما زحف نحو مصر والجزيرة وربوع الشام . ويبدو أنه منذ الزمن القديم ، كان العامل الجغرافي يجعل من هذه البلاد الثلاثة رقعة واحدة؛ وكأنه يدعو سكانها على مختلف دياناتهم وأجناسهم وأهدافهم إلى الوحدة . فقد اتحدت دائماً أجزاء هذه المنطقة ضد غزاتها ؛ مثلما حـــدث في عهد الفراعنة ضد الحيثيين والعبرانيين والإسرائيليين ؛ وغيرهم من الطارئين . ولمـــا جاء الإسلام ، وهو دين توحيد ، وكل فروضه تدعو إلى التوحيد بـين معتنقيه ، قوّى من وشائج الوحدة عند سكان هذه المنطقة ، التي كان انفصام وحدتها ؛ يجر دائماً إلى أوخم العواقب . ولحسن حظ سكان المنطقة ؛ أن ظهر فيهـا أبطال عملوا على وحدتها ؛ مما حد من خطر الإستعمار الفرنجي ، ورجّح كفة

المسلمين إلى حد ما ، في أول الأمر على الأقل . ولدينا شعرٌ يعبر عن ضرورة وحـدة سكان المنطقة ، ويذكّر العروبة فيها بواجبهم ، ورد فيه :

أترضى صناديد الأعاريب بالأذى ويغضي على ذل كماة الأعاجم [1].

فهذا يؤيد رأينـا في أن جوهر وحدة سـكان هذه المنطقة في الإسلام بدأ يظهر كاتجاه جغرافي، دون رقعة الإسلام الواسعة ، فضلاً عن كونه جمع بالتالي اللغة العربية والإسلام .

ومن الطريف أن نذكر أن دعاة الوحدة في العصر الإسلامي ، كانوا في البدء من منطقة الموصل في بلاد الجزيرة، وهي ولاية إسلامية ظهرت شخصيتها منذ أيام الإسلام الأولى ، وجود الروم بجوارها ، مما نشأ عنه خطر شديد على المسلمين ؛ وكانت في أيام الأمويين والعباسيين الجناح الأيسر أو الجزري، الذي يدافع عن ثغور المسلمين ضد الروم . أما الآن ؛ فأصبحت تواجه إمارة الرّها الصليبية ، التي تقع في طريق بغداد عاصمة الخلافة العباسية . وقد كان سكان الموصل خليطاً من العرب والـترك والأكراد ، الذين تحولوا إلى الإسلام في معظمهم منذ ظهوره . ومن حكامهـا الذين سعوا إلى توحيد سكان المنطقة والجهاد : مودود وأيلغازي وآقسنقر البرسقي وزنكي .

فمودود [2] (م ٥٠٧ / ١١١٣) ، وهو أمير تركي، عيّنه أخوه السلطان محمد بن ملكشاه على الموصل ، فحاول أن يضم الأماكن المجاورة إلى إمارته، ليجابه الصليبيين بقوة في الرّهـا ، التي حاصرها ولم يقدر على فتحها . فعبر الفرات إلى الشام ، ليتحد مع طفتكين أو طغدكين أمير دمشق التركي ، في حرب الفرنجة ، وهزم الإثنان بغدوين (أو بردويل) الثاني (١١٣١ م) ، ملك بيت المقدس ، وجوسلين Josceliu أمير الرّها ، وغيرهما من الفرنجة عند طبرية المجاورة للقدس . ولكن وصل مدد كبير من فرنجة أنطاكية ، فتوقف

---

(١) الكامل ، ٨ ص ١٩٠ س ١٢ .

(٢) ابن الأثير ، التاريخ البـاهر في الدولة الأتابكية (بالموصل) ، تحقيق طليمات ، ص ١٧ - ١٩ .

مودود عن الجهاد وقتاً ، وذهب للراحة في دمشق ، حيث قُتل فيها، وربما كان ذلك بتحريض من طغتكين الذي خاف منه على دمشق ، حتى أن هذا صالح الفرنجة للغرض ذاته .

أما أيلغازي بن أرتق [٢] (م ١١٢٢/٥١٦) ، صاحب ماردين ، إحدى مناطق الجزيرة ؛ فمع أنه لم يكن حاكماً للموصل في أول الأمر ؛ إلا أنه كان من حكام المنطقة المجاورة للرّها ؛ ثم ضم حلب ، بعد أن توفي غلام رضوان . فتمكن أيلغازي من إحراز إنتصارات هائلة ضد إمارتي الرّها وأنطاكية ، التي قتل أميرها روجر Roger ، الذي تولى بعد تنكريد Tancrède ؛ مما جعل ملك بيت المقدس بغدوين الثاني ، يسرع لإستنقاذها . ولكن ابن أخي أيلغازي المسمى بلك بن بهرام ، الذي تولى بعده ، أسر ملك بيت المقدس ؛ وأسر جوسلين أمير الرّها أيضاً ؛ مما قوّى من الروح المعنوية عند المسلمين ؛ ولكن نجا الإثنان من الأسر فيما بعد عن طريق الخيانة .

أما آقسنقر البرسقي [٣] (م ١١٢٦/٥٢٠) ، الذي تولى على الموصل وبعض مناطق الجزيرة ، فقد حارب الفرنجة في الرّها، وخرّب بلاداً بجوارها ؛ ولكن قتله بعض الفداوية الشيعة المنتشرين في هذه المنطقة .

وكان أعظم هؤلاء جميعاً عماد الدين زنكي [٤] (م ١١٤٦/٥٤١) ، وهو ابن وحيد لقسيم الدولة آقسنقر [٥]، الذي قتل في الموصل في ١٠٩٤/٤٨٧، على يد تُتش

---

(١) الكامل ، ٨ ص ٢٨٨ ، ٣٠٩ ؛ ابن العديم، زبدة الحلب، (R. des Hits. des Crois. Or. III) ص ٥٩٥ - ٥٩٦ .

(٢) التاريخ الباهر ، ص ١٩ - ٢٠ ، ٢٤ ، ٣١ ؛ الكامل ، ٨ ص ٣٠٢ .

(٣) نفسه ، ص ١٥ وما بعدها ؛ وطبعة R. des Hist. des Crois. Or ، بعنوان : الدولة الأتابكية ، ٢ / ٢ ص ٤٢ وما بعدها ؛ وفيات ، ١ ص ٣٤٣ - ٣٤٤ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Zengî)- t 4, p. 1294 - 5.

(٤) التاريخ الباهر ، ص ١٥ .

أخو ملكشاه. فلما شب زنكي أقطعه سلطان وقته السلجوقي محمود بن محمد بن ملكشاه الموصل ، وجعله مربياً لولديه ؛ فعُرف بالأتابك ، لأن الأتابك هو من يربي أبناء السلاطين . ثم ما لبث أن ظهر طموح زنكي ، فضم حلب أيضاً ، التي كانت لأبيه من قبل ، كما ضم غيرها من مدن الجزيرة [1] . وبعد موت محمود أصبح زنكي مع مسعود أخي محمود ضد الخليفة المسترشد الذي رغب في تولية السلطنة لغير مسعود من أمراء السلاجقة . وقد ذهب زنكي مع مسعود لحصار الخليفة في بغداد ، فهزمهما الخليفة ، وكاد زنكي يهلك [2] ؛ ولكن مسعوداً قتل الخليفة ، وتولى السلطنة . وربما كان زنكي ؛ يترقب موت مسعود ، ليحكم في بغداد ذاتها [3] .

وكان زنكي يرمي إلى ضم أتابكية [4] ، دمشق ، الواقعة في وسط الشام ، إلى مُلكه ، وهي التي – كما ذكرنا – أسسها طغتكين أو طغدكين ، حيث كانت هذه الأتابكية قوية في عهده ، وعهد ابنه بوري ، الذي قتله الإسماعيلية في الشام . وبعد بوري تولى ابنه إسماعيل ؛ إلا أنه كان ظالماً فقُتل . فولوا بعده محمود بن بوري ، الذي سيطر عليه معين الدين أنر ، مملوك طغتكين . ولما قتل محمود ، ولّى أنر جمال الدين بن محمود ، ومن بعده أخاه مجير الدين . فكان زنكي يريد في أول الأمر ، أن يضم الأتابكية عن طريق الزواج من الخاتون أم محمود المساة زمرد خاتون ، التي استدعته ليأخذ بثأر ابنها ، الذي أُغتيل . ومع أن زنكي حاصر دمشق في سنة ١١٣٩/٥٣٤ ، إلا أنه لم يستول عليها ؛ بسبب استنجاد أنر بالفرنج ؛ مما جعله يرفع الحصار عنها .

وعلى العموم يرجع الفضل إلى زنكي في سعيه لرفع معنويات المسلمين ؛

---

(١) الدولة الأتابكية ، ص ١٢٦ - ١٢٧ .

(٢) نفسه ، ص ٨٢ ؛ ابن واصل ، كتاب مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، تحقيق الشيال ، ١ ص ٤٧ - ٤٨ ، ٥١ .

(٣) نفسه ، ص ١٢٧ ؛ نفسه ، ١ ص ٩٥ .

(٤) عن ملوكها ، انظر . وفيات ، ١ ص ١٦٩ ؛ أبو الفدا ، المختصر ، ط. الحسينية ، ٣ ص ٨ وما بعدها .

بمحاربة الفرنجـــة بشدة ؛ حتى أنهم عرفوه باسم : Sanguinus ، أي محب سفك الدماء ، وعرفه المسلمون بالشهيد ، لتفانيه في جهاد الصليبيين . ويذكر له المؤرخون أنه كان لا ينقضي عليه عام ، حتى يفتح بلاداً من بلاد الفرنجة. ولعل أهم انتصاراته عليهم ، فتحه مدينة الرّهـــا ، التي أُعتبرت من أشرف المدن وأشهرها عند النصارى ، لكثرة قديسيها . وقد تم له الإستيلاء عليها أثناء غيبة أميرها ، جوسلين الثاني ، وذلك بعد حصار دام ثمانية وعشرين يوماً في سنة ٥٣٩/١١٤٤ [١] ، فلما دخلها ؛ قتل كل من فيها من الصليبيين ، وجمع رءوس القتلى ، وبنى بهـــا منارة أُذن عليها ؛ ونكس صلبانها وأباد رهبانها ، ورتب العساكر الإسلامية فيها؛ وبذلك خلـّص المسلمين من خطرها. وقد شبه الإنتصار في الرّها ؛ بالانتصار في بدر ، وبعدها لم يتبق من إمارات الصليبيين غير إمارتي أنطاكية وطرابلس ، ومملكة بيت المقدس .

وقـــد انتشر خبر الإستيلاء على الرّها في كل مكان ، وذاع في أوربا ، واشتهر صيت زنكي دون بقية الأتابكة عند الصليبيين . والذي يدل على عظم إنتصار زنكي ؛ أن ملك اليونان يوحنـــا الثاني كالوجوهانيز Jean II Calojahannes (١١١٨ - ١١٤٣ م) ، قدّر خطر هذا الزعيم الإسلامي على النصرانية كلها ، فعاد إلى الإتحاد مع الفرنجة ، ولا سيا أن أرملة أمير أنطاكية قد استعانت به ؛ خوفاً على إمارتها . فخرج في جيوش كثيرة من اليونان والأرمن والفرنجة ، للإستيلاء على حلب من أملاك زنكي ؛ الذي أُضطر إلى طلب العون من بغداد ؛ لإعتقاده ؛ أنه إذا ذهبت حلب ، لم يبق بالشام إسلام . ومع أن السلطان والخليفة؛ لم يهتما إطلاقاً بطلب زنكي، فقد استطاع أن ُيرغم يوحنا على التقهقر ، واستولى على بعض الثغور بين الشام وأنطاكية ؛ لتقوية مركزه [٢] .

*

(١) الأتابكية ، ص ١١٨ وما بعدها ؛ الكامل ، ٩ ص ٨ .
(٢) ابن واصل ، ١ ص ٧٨ - ٨١ .

وعلى كل حال ، فقد دعت أوربا ، على أثر إستيلاء زنكي على إمارة الرها ، وانتصاره على ملك الروم ، إلى حملة صليبية جديدة ، جاءت إلى الشرق بعد موت زنكي ، الذي قتله أحد غلمانه . ولدينا وصف مسهب ، عن الحملة الثانية من مؤرخين أوربين وشرقيين معاصرين [١] . فقد دعا إلى القيام بها ، البابا يوجينوس الثالث Eugenius III (١١٤٥ – ١١٥٣ م) ، ملك فرنسا لويس السابع Louis VII ، وملك الألمان كونراد الثالث Konrad III [٢]، كما كلف القديس برنارد Bernard، أن يدعو إليها. فلم تكن هذه الحملة حملة فرسان مشهورين ، كالحملة السابقة ، بقدر ما كانت حملة ملوك ، حيث خرج ملوك أوربا أول مرة خارج بلادهم ، كما اتحدت فرنسا وألمانيا ؛ على الرغم من عداوتها التقليدية . ولم يكن مقدراً في هذه الحملة أن تصحب النساء أزواجهن ، ولكن ملك فرنسا اصطحب زوجته إليانور Eléanore ، لأنه لم يكن يثق فيها ، ليتركها وحدها ؛ وهي التي عُرفت بمغامراتها ، ولم يكن يعجبها أن تتزوج رجلاً متديناً مثل لويس .

وقد بدأت الحملة بداية سيئة ، بسبب العداوة المتأصلة بين الفرنسيين والألمان . ثم ما لبث ملك القسطنطينية ؛ مانويل الأول كومنينوس Manuel I Comnenus، الذي جاء بعد يوحنا الثاني كومنينوس في عام ١١٤٣م، أن فعل مع الملكين مثلما فعل ألكسيوس مع كبار فرسان الحملة الأولى ، فطلب منهما أن يحلفا له يمين الولاء، ففعلا، ولكن ضد رغبتهما Contre-Coeur ؛ بحيث أُقترح على ملك فرنسا ، أن يستولي على بيزنطة . كما أن الملكين : الفرنسي والألماني ، لم يتفقا على خطة عسكرية واحدة ؛ فاتجه ملك الألمان بمفرده إلى دروَلية Dorylaeum، في ناحية الترك السلاجقة في ٥٤٢/أكتوبر ١١٤٧ ؛ حيث مُني بهزيمة ساحقة، في المكان ذاته الذي انتصر فيه صليبيو الحملة الأولى. ومع أن ملك فرنسا أسرع في إثر ملك الألمان لإنقاذه ، وقد استقبله مفتوح

(١) الروضتين ، ١ ص ٣٦ - ٣٧ ، ٥٢ - ٥٣ ؛ ذيل تاريخ دمشق ، ص ٢٧٩-٢٨٠ .
(٢) عنه بتفصيل، انظر : Bernhardi : Konrad III 2 vols. Leipzig, 1883.

الذراعين ؛ فإن ملك الألمان لم يسر معه ، ورجع إلى بيزنطة ، وابحر منهـا إلى عـكة .

أما ملك فرنسا [١]، الذي أراد أن يتفادى السلاجقة، فقد لقي مفاجئات كثيرة في الطريق، وكاد يقع في الأسر؛ إذ عمد الترك إلى قطع خطوط تموينه، حتى لم يبق لدى الفرنسيين شيء من متاعهم، وكانوا يعيشون على ما كانت بيزنطة تمدهم به من ناحيةالبحر؛بحيث قضي على جزءكبير من الجيشالفرنسي، وأضطر الملك أن يذهب إلى أنطاكية عن طريق البحر. وهناك ، في أنطاكية ، حدثت فضيحة Scandale كبيرة ، في البيت الملكي ؛ فقد أعلنت إليانور زوجة الملك نفورها من الزواج برجل متدين مثل لويس ، ثم الملك لحظ تقارباً بين إليانور وأمير أنطاكيـــة الفرنسي الشاب ريموند Raymond أو Raimond ، وهو عمها ؛ مما أثار غيرة الملك ، وحقده على زوجته المتبرجة الخفيفة . وكان من رأى ريموند ، أن يوجه المجهود لإستعادة الرّها ، التي قامت من أجلها هذه الحملة الصليبية الثانية ، واقترح أن يذهب الملك إلى الرّها، وتبقى إليانور في أنطاكية . ولكن الملك الفرنسي الغيور ، خاف على زوجته ، وطرح مسألة الرّها جانباً ، وقرر أن يسير إلى بيت المقدس ، ويقابل كونراد ، ويهاجم إمارة دمشق .

ولحسن حظ المسلمين ، أن أولاد زنكي لم ينقسموا بعـــد قتل أبيهما في ٥٤١/١١٤٦ [٢] ؛ فإن ولديه نور الدين وغازي اتحدا ، وأقام الأول في حلب والثاني في الموصل [٣] ، وقررا أن يساعدا إمارة دمشق ، التي بها معين الدين أنر ، بالدفاع عنهـا ضد هذه الحملة ، التي حاصرتها في ٥٤٣/١١٤٨ . ولحسن حظ المسلمين أيضاً : أن ملك بيت المقدس بغدوين الثالث ، لم يكن مستعداً

---

(١) أنظر . Michel le Syrien. Chronique, t 3, p. 276 ؛
Rey : Hist. des Princes d'Antioch. Paris, p. 367.
حبشي ، نور الدين والصليبيون ، ص ٥١ وما بعدها .

(٢) الأتابكية ، ص ١٣١ وما بعدها ؛ ابن واصل ، ١ ص ٩٩ وما بعدها .

(٣) ابن واصل ، ١ ص ١٠٩ .

للتعاون مع الملكين الغربيين. وقد حارب المسلمون ، متحدين ، الملكين ، وأكرهوهما على التراجع [1] ، وهكذا أضطر الملكان إلى الرجوع إلى بلادهما ، بعد أن أخفقا في حملتهما ، وفقد ملك فرنسا ثقته بزوجته ، حيث طلقها بعد ذلك .

*

وفي الوقت ذاته ، بدأت شخصية نور الدين [2] تعزز مكانها بين الزعماء الذين يعملون على إتحاد قوى المسلمين ، في منطقة الشرق الأوسط ، ودفع الغزاة عنها . حقاً إن نور الدين ؛ لم يصل إلى نتائج حاسمة ، في حروبه مع الصليبيين ؛ إلاّ أنه تمكّن من أن يبني دولة إسلامية قوية ، تقف بثبات أمام هجمات الصليبيين . فكان نور الدين ، بذلك ، من أبطال وحدة الشرق الأوسط ، ولا سيما أنه كان من الزعماء النادرين ، الذين وصفهم الأوربيون بالحكمة وجودة السياسة :

« Noradinus tam prudens tanque providus princeps ».

وقد أيقظت الحملة الصليبية الثانية ؛ الإحساس لدى نور الدين بضرورة ضم دمشق إلى حلب ، كما يريد أبوه من قبله . ويبدو أن الخليفة العباسي المقتفي لأمر الله ، هو الذي حث نور الدين على ذلك ، فمنحه تقليداً على البلاد الشامية والمصرية ، التي كانت بيد الفاطميين [3] . وقد أُتيحت الفرصة لنور الدين بموت أنر ، ذلك الرجل الخائن لقضية المسلمين ، الذي قضى عمره في الكيد والدس لهم ، ومعارضة وحدتهم . فقد حكم بعده الرجل الضعيف : مجير الدين ، الذي تحالف هو الآخر مع فرنجة بيت المقدس ، ووعدهم بتسليم

---

(١) نفسه ، ١ ص ١١٢ وما بعدها ؛ الكامل ، ٩ ص ٢٠ - ٢١ ؛ الأتابكية ، ص١٥٩ وما بعدها .

(٢) مثلاً ، انظر . حسين مؤنس ، نور الدين محمود ، القاهرة ١٩٥٩ .

(٣) حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٧ . يكتبها المكتفي . عنه ، انظر .
Ency. de l'Isl, (art al - Muktafî) t 3, p. 769.

بعلبك [1] . ويظهر قصد نور الدين في توحيد قوى المسلمين ، من الكتاب الذي أرسله إلى مجير الدين ، حينما ذهب لحصار دمشق ، ورد فيه : « أنني ما أردت بنزولي هذا المنزل ، طلباً لمحاربتكم ، ولا منازلتكم ، وإنما دعا إلى هذا الأمر ، كثرة شكاية المسلمين ، وعدم الناصر لهم . ولا يسعني ، مع ما أعطاني الله – وله الحمد – من الإقتدار ، على نُصرة المسلمين ، وجهاد المشركين، وكثرة المال والرجال؛ أن أقعد عنهم، ولا انتصر لهم، مع معرفتي بعجزكم عن حفظ أعمالكم، والتقصير الذيدعاكم إلى الاستصراخ على محاربتي. » وقد اتصل نور الدين بأنصاره في دمشق [2] ، وخصوصاً بأيوب – أحد كبار الأكراد – الذي كان أنقذ أباه زنكي ؛ لما حارب خليفة العراق [3] كما أن أخا أيوب المسمى شيركوه ، كان هو الآخر في خدمة نور الدين [4] . وكان شعب إمارة دمشق العربي تواقاً إلى توحيد قوى المسلمين ؛ حتى أن إحدى نساء دمشق ؛ كانت أول من أدلى الحبال لجنود نور الدين ؛ وهذا يدل على أن دمشق سباقة دائماً إلى الوحدة . وبذلك تحققت على يد نور الدين وحدة المسلمين من حلب إلى دمشق إلى الموصل [5] ، التي توفي فيها أخوه الأكبر غازي ، فتولى بدلاً عنه قطب الدين الأخ الأصغر ، الذي سار على السياسة عينها في التعاون مع أخيه .

وبفضل هذه الوحدة المحددة، أخذ طرفا الهلال يحدقان في بطء بدويلات الصليبيين . والواقع أنه منذ ذاك الحين ، أخذ نور الدين يشنها حرباً شعواء ضد إمارات الفرنجة ، فصفّى إمارة الرّها ، ثم أخذ أملاكاً من إمارة أنطاكية ، واستولى على مدن من إمارةطرابلس . ولشدة حماس نور الدين في قتال الصليبيين ، ُعرف كأبيه بالشهيد ، لطلبه الشهادة في قتالهم ،

(١) ابن واصل ، ١ ص ١٢٦ – ١٢٧ .
(٢) الخطط ، ٣ ص ٣٧٨ ؛ انظر . حبش ، نور الدين ، ص ٦٢ وما بعدها .
(٣) ابن واصل ، ١ ص ٨ ؛ انظر . ماجد ، الناصر صلاح الدين الأيوبي، القاهرة ١٩٥٩، ص ٤٨ .
(٤) النجوم ، ٦ ص ٥ .
(٥) الكامل ، ٩ ص ٢٤ . توفي غازي في ٥٤٤ / ١١٤٩-٥٠ .

وأُعتبر من أشد أعدائهم ، على حد قول المؤرخ المسيحي الصليبي وليم الصوري Willieromo Tyrensi [1] (Guillaume de Tyr) (حـوالى ١١٨٣ م) :
Noradinus li crueus anemis aus Crestins .

ولكن هدف نور الدين من وحدة مسلمي الشام والجزيرة ، هو إقامة الوحدة الكبرى مع مصر ؛ وذلك بسبب أن مصر غنية بالمال والرجال ، وأنه لا يمكن طرد العدو إلا بقوة مصر ورجالها . ولا ننسى أن الخليفة العباسي السني كان يستحثه على ذلك ؛ إذ كانت في مصر خلافة شيعية معارضة للعباسيين . وفوق ذلك، كان نور الدين يشعر بطموح الفرنجة إلى الإستيلاء على مصر ، التي كانت وقتئذ أشبه بالرجل المريض ، إذ تنافس الوزراء على حكمها ، دون الإلتفات إلى أخطار الفرنجة . وكأن الأقدار قد دبرت له الأمر ؛ فكان هناك نزاع بين وزيرين أحدهما اسمه ضرغام والآخر اسمه شاور، فجاء هذا الأخير إلى نور الدين ، ليستعين به ضد ضرغام ، وأطمعه في الديار المصرية ، ووعده بحصة من خراجها مقدارها الثلث سنوياً ، ويمنح جنده الإقطاعات والإقامة في مصر ، ويكون متصرفاً تحت أمره ونهيه . فأسرع نور الدين منتهزاً الفرصة بإرسال شيركوه مع جند الشام [2] ، فأقام شيركوه في الوزارة شاور ، الذي تلقب بالملك المنصور [3] .

هذا الإتحاد بين الشام ومصر لا تغيب خطورته عن نظر النصرانية ، حتى أن المؤرخ ابن واصل [4] يقول : « إنهم خافوا من إتحاد مصر والشام خوفاً شديداً ، وأيقنوا بالهلاك ، وأن بلادهم تستأصل » . ونجد بغدوين الثالث – ملك بيت المقدس – يخاف من قبل ، وليقطع كل أمل في ذلك ، أسرع بالإستيلاء على عسقلان ، التي كانت تابعة للفاطميين ، وفيها حامية مصرية ؛

---

(١) نقلاً عن : Champdor : Saladin. Paris, 1956, p. 66.

(٢) الكامل ، ٩ ص ٨٤ - ٨٥ ؛ الأتابكية ، ص ٢١٥ - ٢١٦ ؛ ابن واصل ، ١ ص ١٣٧ وما بعدها .

(٣) صبح الأعشى ، ١٠ ص ٣١٠ - ٣١٨ .

(٤) ابن واصل ، ١ ص ١٣٩ .

قاومتهم إلى سنة ١١٥٣/٥٤٨[١]. كذلك جدد الفرنجة الإتصال بالبيزنطيين طوال السنوات العشرين التالية : فتزوج بغدوين الثالث هذا من بيت كومنينوس ، كما تزوج ملك بيزنطة مانويل كومنينوس بماري ابنة أمير أنطاكية . وكذا خلف بغدوين وهو عموري Amaurri ، المسمى أيضاً أملريك Amalric ، وسماه العرب غالباً في كتبهم مُرّي ، تزوج هو الآخر بابنـــة أخي مانويل كومنينوس [٢] ؛ مما قوّى الصلة بين الروم والفرنجة .

وفي أول الأمر ، نجد عموري يعرض على الوزير الفاطمي ضرغـــام[٣] – Dargam – المساعدة ضد شاور ، لكي يسبق مساعدة نور الدين. ولكن شاور ، الذي رأيناه من قبل يستدعي الترك ليحتفظ بمنصب الوزارة ، راح يعمل هذه المرة على الإتصال بالفرنجة[٤]، ويدعوهم إلى إخراج جند شيركوه، إذ كان شاور يمثل أنر ، الذي استعان بالفرنجة في سبيل مصلحته الشخصية . فجاء عموري وحاصر جيش نور الدين بقيـــادة شيركوه – Syracons – وانتهى الأمر بخروج جيش نور الدين والصليبيين من مصر [٥] . ولكن نور الدين أرسل شيركوه مرة ثانية[٦] ، كما أن شاور أرسل ثانية إلى الفرنجة يستنجد بهم . فأرسل عموري رسله إلى مصر ؛ ولدينا وصف لما شاهدوه من

---

(١) أو في ١١٥٢/٥٤٧ أو في ١١٥٠/٥٤٥ . أنظر . الكامل ، ٨ ص ٢١٩ ، ٩ ص ٤٢ ؛ النجوم ، ٥ ص ٢٩٩ .

(٢) أنظر . R. H. C. Occ t1, 2ème, p. 942-3.

(٣) أنظر . Ibid, t1, 2è, p. 892.

(٤) أنظر . Id.

(٥) ابن واصل ، ١ ص ١٤٠ ؛ الأتابكية ، ص ٢١٧ – ٢١٨ ؛ الخطط ، ٢ ص ١٧٤ ؛ انظر . Schlumberger : Les Compagnes du roi Amaury. Paris, **1906, p. 63 - 80.**

(٦) الكامل ، ٩ ص ٩٤ – ٩٦ ؛ ابن واصل ، ١ ص ١٤٨ وما بعدها ؛ الخطط ، ٢ ص ١٤٢ – ١٤٣ ، ١٧٤ ؛ وفيات ، ١ ص ٤٠٥ وما بعدها ، ٣ ص ٤٧٧ ؛ الأتابكية ، ص ٢٣٦ وما بعدها ؛ انظر . حبشي ، نور الدين ، ص ١١٠ وما بعدها .

بذخ القصر الفاطمي [١] ، ثم أتى بنفسه إلى مصر . ونظراً للمقاومـة التي وجدها عموري من جيش شيركوه [٢] ، ومعاونة المصريين له [٣] ، قرر ترك مصر على شرط أن تكون له حامية في القاهرة – التي سموها Cahaire – وأن يدفع الفاطميون له بعض المال .

بعـد ذلك ، قرر عموري أن يقوم بعمل حاسم في مصر بالإتفاق مع البيزنطيين ، ولا يقنع بوجود حاميته الصغيرة في القاهرة . ولكي يدبّر عموري حملته على مصر سعى إلى الإتفاق مع البيزنطيين . وقد ترك لنا المؤرخ الصليبي وليم الصوري صورة للإتفاقية ، التي وقعها بنفسه نيابة عن عموري: فقد اتفق الطرفان على أن تكون الحملة برياسة عموري ، وأن يطيعه القائد البيزنطي في كل ما يأمره به [٤]. ومع أن عموري نفسه كان يفضل إنتظار وصول الجيش البيزنطي ؛ إلا أن فرسان المملكة وذوي الرأي فيها ، أشاروا عليـه بقصد مصر لفتحها لحساب مملكتهم ، والتقوي بها في نزاعهم مع نور الدين ؛ إذ كان اعتقادهم أن فتحها يكون سريعـاً ؛ بسبب أنه كانت لهم بأبواب القاهرة حامية . فأسرع عموري على رأس الفرنجـة بالدخول إلى الريف المصري في شرقي الدلتـا [٥] ، وارتكبت جيوشه في بلبيس فظائع كثـيرة ، ثم سارت على الفسطاط ، فأحرقهـا شاور [٦] الذي أدرك نيات الفرنجة في

---

(١) أنظر . R. H. C. occ t 1, 2 ème, p. 910 - 913 ؛ Schlumberger : Op. cit, p. 116 - 127 ؛ ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٢٤ ؛ المنجد ، كتاب الرسل والملوك ، ص ١٢٧ – ١٢٩ .

(٢) أنظر . R. H. C. occ t1, 2 ème, p. 928 ؛ Schlumberger : Op. cit, p. 142- 3 ؛ حبشي، نور الدين ، ص ١١٥ .

(٣) الروضتين ، ١ ص ١٦٨ .

(٤) أنظر . R. H. C. occ, t 1, 2ème, p. 945 sqq.

(٥) النجوم ، ٥ ص ٣٥٠ ؛ الكامل ، ٥ ص ٩٩ وما بعدها ؛ ابن واصل ، ١ ص ١٥٧ وما بعدها ؛ الروضتين ، ١ ص ١٧٠ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art al-Sharkiya) t 4, p. 345 - 6.

(٦) الخطط ، ٢ ص ١٤٣ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Le Caire), t 1, p. 837 sqq, ؛ Alî Bahgat : Fouilles d'al-Foustât. Paris, 1921.

إحتلال مصر .

وكان من الممكن أن ينتصر عموري ؛ لولا تدخـــل نور الدين بإرسال شيركوه مرة ثالثة ، كمـــا فكر نور الدين في أن يأتي بنفسه [١] ويورد المؤرخون أن الخليفة العاضد الفاطمي أرسل لنور الدين يستنجد به [٢] ، أو أن المصريين هم الذين استنجدوا بجيش الشام الإسلامي [٣] . وقـــد استطاع جيش شيركوه تخليص القاهرة من خطر الفرنجـــة ؛ لأن عموري كان مضطراً هـــذه المرة إلى قتال عسكر مصر والشام معاً ، بعكس المرات السابقة . ويقول المؤرخ ابن واصل : لو استولى العدو – لعنـــه الله – على الديار المصريـــة ، لاستولى على سائر الخطـــة الإسلاميـــة [٤] . وبهزيمة عموري ، أصبحت مصر في قبضة جيش نور الدين ، وتولى شيركوه[٥] وزارة العاضد الفاطمي ، بعد قتل شاور على يد صلاح الدين [٦] . وبعد موت شيركوه تولى صلاح الدين الأيوبي – ابن أخ شيركوه – القيادة مع الوزارة في مصر في جمادى الآخرة [٧] سنة ٥٩٤/ مارس ١١٦٩ .

حينئذ قرر عموري من جديد، الإستعانة بالبيزنطيين بقصد إحتلال الدلتا؛ وذلك بإرسال حمـــلة بحرية كبيرة إلى ثغر دِمياط المهم على فرع النيل المسمى باسمه ، بلغت ما يزيد على ألف ومائتي مركب، وذلك في سنة ١١٦٩/٥٦٥[٨]. وعلى الرغم من غضب مانويل على عموري ، بسبب قيامه بالحملة السابقة دونه؛

---

(١) الأتابكية ، ص ٢٥٤ .
(٢) حسن المحاضرة ، ٢ ص ١٨ .
(٣) الكامل ، ٩ ص ١٠٠ س ١٠ – ١١ .
(٤) ابن واصل ، ١ ص ١٦٠ .
(٥) صبح ، ١٠ ص ٨٠ – ٩٠ .
(٦) النجوم ، ٥ ص ٣٥١ – ٣٥٢ ؛ وفيات ، ١ ص ٣٩٤ ؛ الكامـــل ، ٩ ص ١٠١ ؛ السلوك ، ١/١ ص ٤٣ ؛ الروضتين ، ١ ص ١٧١ – ١٧٢ .
(٧) صبح ، ١٠ ص ٣٠٨ ، نص السجل ، انظر. نفسه ، ١٠ ص ٩١ وما بعدها، ٣٠٨.
(٨) الخطط ، ١ ص ٣٤٦ ؛ انظر . Schlumberger: .Campagnes,p.258-261؛ حبشي، نور الدين، ص ١٣٥ وما بعدها .عن دمياط ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٨٥-٨٩.

فإنه وافق على إنفاذ أسطول اليونان القوي إلى عسقلان ؛ لينضم إلى أسطول الفرنجة بقيادة أندرينكوس كونتستفانوس Andronicus Contostephanus [1].
فلما وصلت الحملة إلى دمياط ، بذل صلاح الدين، ومعه الفاطميون ، مجهوداً هائلاً، لتستمر مقاومة حاميتها[2]، كما أن نور الدين هاجم حصون الفرنجة[3].
وترتب على ذلك إخفاق الحملة في إقتحام ثغر دمياط . وبعد خمس وخمسين يوماً عادت تجر أذيال الفشل ، كما أن بلاد الفرنجة في الشام أصبحت خراباً يباباً من هجوم نور الدين. وقد شُبهت هذه الحملة بالنعامة ، التي ذهبت تطلب قرنين ؛ فرجعت بلا أذنين[4] .

بعد هذا الانتصار ورغبة في توحيد مجهود المسلمين في الشرق الأوسط ، قرر صلاح الدين ، بتحريض من نور الدين والخليفة العباسي ، القضاء نهائياً على خلافة الفاطميين [5] . ومع أن صلاح الدين ، لم يستطع ذلك في أول الأمر ؛ إلا أنه اتخذ كل التدابير لبلوغ هذا الهدف ، فتمكن من القضاء على جيش الفاطميين ورجال بلاطهم ومؤيديهم ، وعزل الخليفة الفاطمي العاضد ،الذي ما لبث أن توفي [6]؛ فأصبحت أسماء الخليفة العباسي المستضيء ونورالدين وصلاح‌الدين تُذكر على منابر مصر [7] .

وكان اتحاد المسلمين في الشرق الأوسط ، خطراً جداً على الفرنجة . ومع أن نورالدين ما لبث أن توفي ؛ إلا أن صلاح الدين [8] كان أشد بطشاً من

---

(١) أنظر . R. H. C. occ, t1, 2ème partie, p. 961 ; n (9)

(٢) الروضتين ، ١ص ١٨١ .

(٣) الأتابكية ، ص ٢٥٩ — ٢٦٠ .

(٤) نفسه ، ص ٢٦٠ ، الكامل ، ٩ ص ١٠٥ .

(٥) إقرأ الفصل الخاص عن ذلك بمصادره في كتابنا: الناصر صلاح الدين .

(٦) أنظر . ما قيل في ذلك : النجوم ، ٥ ص ٣٣٤–٣٣٥ ؛
Ency. de l'Isl, (art al - 'Adid) ; 2 éd, t1, p. 203 - 204.

(٧) النجوم ، ٥ ص ٣٥٧ .

(٨) بتفصيل ، انظر كتابنا : الناصر صلاح الدين الأيوبي .

زنكي ونورالدين : فهو من بيت كردي ، كان يعمل في خدمة زنكي ونورالدين ، وقدرأيناه مع عمه شيركوه في حملاته على مصر ، ثم وزيراً للعاضد، وعاملاً قوياً في تنفيذ سياسة نورالدين في توحيد قوى المسلمين في الشرق الأوسط ؛ يقضي على الخلافة الفاطمية في مصر ، ويجعل المسلمين صفاً واحداً في العقيدة ، وأدخل الإمبراطورية الفاطمية في إمبراطورية الترك ، وهي الوحدة الإفريقية الأسيوية Africo-Asiatique ، التي بدأت تظهر .

وكان صلاح الدين ذكياً ؛ فكانت أمامه عقبات كثيرة ، ولكن الأقدار كانت في ركابه ، وتمهد له الطريق ؛ فأزالت نورالدين في الوقت المناسب ؛ وإن قيل إن صلاح الدين تأثر لموته وخنقته العبرات ؛ مما يدل على تقديره لصفات نور الدين ، على الرغم من عداوتها الأخيرة[1]. وبموت نورالدين تأكدت سيطرة صلاح الدين على مصر ؛ إلا أنه فكر أيضاً في السيطرة على الشام والجزيرة ، أي على بلاد نورالدين وأسرته . وقد كان صلاح الدين مثل نورالدين يستهدف من وراء ذلك تكوين جبهة إسلامية قوية في الشرق الأوسط أو على حد قوله : «جمع الكلمة» [2] ، « إن أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة [3] ». وشجعه على ذلك أن نور الدين ترك طفلاً صغيراً خلفاً له ، لا يزيد عمره على إحدى عشرة سنة ، هو الملك الصالح إسماعيل[4] . وتحت ستار الدفاع عن حقوق الملك الصالح ، استطاع صلاح الدين أن يضم دمشق

---

(١) الحنبلي ، شفاء القلوب في مناقب بني ايوب ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة ، برقم ٢٤٠٣١ تاريخ ، المجلد السابع عشر ، ورقة ١٦ ؛ ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ٨٩ .

(٢) نفسه ، ورقة ٢٣ . ورد ذلك في كتاب أرسله صلاح الدين إلى الملك الصالح .

(٣) الروضتين ، ٢ ص ٤٨ س ١٦ – ١٧ . النص : ولو أن أمور الحرب تصلحها الشركة لما عزّ عليه أن يكون كثير المشاركين، ولا أساءه أن تكون الدنيا كثيرة المالكين ، وإنما أمور الحرب لا تحتمل في التدبير إلا الوحدة .

(٤) الكامل ، ٩ ص ١٣٠ – ١٣١ ؛ الأتابكية ، ص ٣٢٠ – ٣٢١ ؛ السلوك ، ١/١ ص ٥٥ . عن الملك الصالح ، انظر : Ency. de l'Isl, (art al-Malik al-Sâlih) t4, p. **114 - 115.**

وحمص وحماه إلى أملاكه . ولما توفي الملك الصالح ضم حلب ، ثم سيطر بعد ذلك على الجزيرة [1] .

فلما إطمأن صلاح الدين إلى تضامن المسلمين ، عمل على بث روح النضال بينهم ضد الصليبيين ، وحصّن بلاد المسلمين، حيث أنشأ سلسلة من التحصينات في القاهرة [2] ، وثغور مصر البحرية [3] ، وحتى في صحراء سيناء [4] ، كما اهتم بالأسطول [5] إهتماماً كبيراً . وكان صلاح الدين يتمتع بشخصية رائعة، فهو مسلم متحمس لدينه ، ومحارب بسليقته . ولقد هجر في مجد الجهاد أهله وأولاده ووطنه وراحته ، ليقنع بالعيش في ظل خيمة في واحة الوغى . ويتجلى حماس صلاح الدين لحرب الصليبيين من قوله في إحدى مكاتباته للخليفة [6] : إنه يودّ أن تعود الكنائس مساجد ، والمذابح معابد للمسلمين ، والصليب المرفوع حطباً في المواقد ، والناقوس الصاهل أخرس . وبالإضافة إلى صفاته الحربية ، كان يتمتع بالمقدرة السياسية ، حيث وصفه معاصرنا تشرشل Churchill ؛ بأنه كان أدهى رجال عصره سياسة.

ومنذ أن توفي نور الدين ، شنها صلاح الدين حرباً شعواء ضد الصليبيين ، بشكل لم يُسمع به من قبل، ولا سيما أن الفرنجة كانوا يريدون أن يستفيدوا من الإضطراب الذي ساد بين المسلمين بوفاة نور الدين عدوهم اللدود . فهاجم

---

(١) انظر. الفصل الخاص بذلك في كتابنا : الناصر صلاح الدين ؛

(٢) مثلاً : الروضتين ، ١ ص ١٩٢ س ١٥ ؛ الخطط ، ٢ ص ٢٠٨ ؛ ٣ ص ٣٣٠ وما بعدها . انظر . Casanova : Histoire, et description de la Citadelle du Caire. M. M. A. F. tVI, p. 535 sqq. ; Ency. de l'Isl, (art Le Caire) t 1, p. 844.

(٣) مثلاً : الخطط ، ١ ص ٣٤٧ ؛ انظر . الشيال ، مجمل تاريخ دمياط ، ص ١٧ وما بعدها .

(٤) السلوك ، ١/١ ص ٨٧ ؛ Sauvaget و Combe و Wiet : Répertoire, 9, p. 158.

(٥) الروضتين ، ٢ ص ١١ ، ١ ص ٢٧٠ .

(٦) نفسه ، ٢ ص ٤٩ . وربما يقصد المساجد التي حوّلها الصليبيون إلى كنائس .

صلاح الدين حصونهم المتفرقة في الشام ، حصناً بعد حصن ؛ وكانت طريقته في الحرب الهجوم السريع ، والقيام بحرب العصابات . وقد جمع لذلك جنوداً من الكرد والترك [١] والأعاريب [٢] ، ثم أصبح معظم جيشه حسب قول مؤرخي عصره من السمر المصريين على الخصوص ، ومن سودان مصر [٣] ، وحتى من القبط الذين كان إحساسهم ضد الصليبيين ، يدل على ذلك قولهم : « وصرنا معشر النصارى اليعاقبة القبط لا نصل إلى الحج – أي إلى القدس– ولا نتمكن من الدنو منها ؛ لما هو مشهور من بغض الفرنجة لنا ، وسوء إعتقادهم فينا ، وتكفيرهم لنا » . ولما ضم صلاح الدين الشام إلى ملكه ، أخذ من أهله أعداداً كبيرة ، ولكن بقيت الغالبية من السمر المصريين .

وقد أصبح همّ صلاح الدين تخليص أرض فَلسطين أو فِلسطين . وساعد على ذلك ، إنقسام الفرنجة بموت ملكهم بغدوين الرابع ، الذي توفي بمرض الجذام ، وتلاه بغدوين الخامس ، الذي اختفى هو الآخر ، فانتقل الملك إلى أمه سيبيلا Sybella (Sibyl) ، التي تزوجت فارساً قدم إلى الشام من أوربا اسمه جي دي لوسينان Gui de Lusignan (Guy) ، وهو الذي يسميه المؤرخون المسلمون جوي أوكي أو ابن غتم [٥] ، فوضعت التاج على رأسه وأعلنته ملكاً على الفرنجة . ولكن أمير طرابلس القومصي الصنجيلي ريموند Comte Raymond III de Saint Agilles [٦] ، كان يطمع في الملك

---

(١) الخطط ، ١ ص ١٥٢ س ٢٥ .

(٢) نفسه ، ١ ص ١٣٩ .

(٣) عماد الدين الأصفهاني ، الفتح القسي ، مصر ١٣٢١ هـ ، ص ١٦٣ ؛ انظر . ماجد ، الناصر ، ص ١٣٠ .

(٤) الفتح القسي ، ص ١٣ – ١٤ ؛ الكامل ، ٩ ص ١٧٤ ؛ انظر .
R. H. C. occ t2, p. 39 ; 45.

(٥) انفرد ابن خلدون بذكر ابن غتم . العبر ، ٥ ص ٣٠٥ .

(٦) السلوك ، ١/١ ص ٧٧ س ١ – ٢ ؛ R. H. C. occ, t 2, p. 4; t 5, 2ème, p. 517 sqq. عن تسمية العرب لريموند ، أنظر . الكامل ، ٩ ص ١٣٢ ، ١٧٤ . يبدو ←

بدلاً منه ، ولم يرض عن ذلك ، وحث صلاح الدين على قصد ملك الفرنجة . فهاجم صلاح الدين حصن الكرك [1] الصليبي Crac ، الذي كان فيه فارس مشهور ، من أخلص التابعين لملك بيت المقدس اسمه : رينو دي شاتيون Renaud de Châtillon ، أو أرولد Arauld أو رينولد Raynald ، أو ما يسميه العرب البرنس أرناط [2] . كما هاجم قلعة الشوبك ، وكلاهما كان يقف دون اتصال مُلك صلاح الدين في مصر والشام . فأراد ملك القدس وقف صلاح الدين عند حده ، وتقابل جيشه الذي ضم فرساناً من كل القلاع الصليبية مــع جيش المسلمين في حِطّين أو حَطّين [3] ، في مكان صخري ، استدرجهم إليه صلاح الدين . وقد قاتل المسلمون وهم يصيحون صيحة رجل واحد : الله أكبر [4] ؛ فانتصروا. ويقول ابن الأثير عن ذلك : « فكان من يرى القتلى لا يظن أنهم أسروا أحــداً ، ومن يرى الأسرى لا يظن أنهم قتلوا أحداً » .

ومما لا شك فيه أنه لم يحدث أن شفى المسلمون غليلهم من الفرنجة منــذ مجيئهم إلى الشام مثل هذه المرة ؛ بحيث سموا موقعة حطّين : بوقعــة حطين المباركة [5] . ويقول السياسي الإنجليزي المعروف تشرشل «Churchill» ، في مذكراته عن عظماء التاريخ ، ممن اشتركوا في الحروب الصليبية ، إن سبب

← أن القومص تعريب حرفي للكلمة اللاتينية « Comes » ، بمعنى الرفيق ، التي صارت إلى « Comte » في اللغة الفرنسية . أنظر . السلوك ، ١/١ ص ٥٩ وهامش (٣) .

(١) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٧ ص ٢٤٠ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art al-Kerak) t 2, p. 905 - 6.

(٢) السلوك ، ١/١ ص ٦٤ وهامش (٥) .

(٣) عن هذه المعركة ، انظر بالتفصيل على الأخص : الكامل ، ٩ ص ١٧٧ — ١٧٩ ؛ R. H. C. occ, t 2, p. 62 sqq ؛ سعداوي ، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٨٣ ، ١٨٤ . عن البلدة ، انظر . معجم البلدان ، ٣ ص ٢٩٨-٢٩٩ ؛ Ency. de l'Isl, (art Hattîn ou Hittin) t 2, p. 308.

(٤) وفيات ، ٣ ص ٣٩٨ .

(٥) النجوم ، ٦ ص ٣١ س ٧ .

نصر المسلمين راجع إلى كثرتهم العددية . ولكننا نظن أن نصرهم راجع إلى تنظيم قواهم على يد صلاح الدين ، ووحدة هدفهم بالعمل على إستنقاذ أرضهم المحتلة ؛ على عكس الصليبيين ، الذين أصبحوا عناصر يسودهـــا الإختلاف والتنافس فيا بينها . هذا فضلاً عن التكتيك الحربي الرائع الذي استخدمـه صلاح الدين بفضل معرفته للأرض التي يحارب عليها ؛ حتى أن الفرنجة قـد بلغ منهم العطش حـــداً لم يستطيعوا معه الحركة ، فاستسلموا وعلى رأسهم ملكهم وأمراؤهم [١] .

وبعد هذا الظفر العظيم ، جلس صلاح الدين لعرض الأسرى الكثيرين ، وهم يتهادون في القيود أمامـــه كالسكارى بسبب العطش ، وكان العسكري المسلم يربط بالحبل الواحد ثلاثين أو أربعين أسيراً منهم [٢] . ولما أحضر ملك الفرنجة أمامه أجلسه على يمينه ، وهدأ من روعه ، وأعلمـــه ، عن طريق الترجمان ، أن من عادة الملوك أن لا يقتل الملك ملكاً مثله ، وقدّم إليه ماءً مثلجاً ؛ وكان صنع الثلج معروفاً من قبل عند الفاطميين ، يأخذونـه معهم في قيظ مكّة وفي الحروب [٣] . ثم أخذ في تأنيب أمير الكرك لسخريتـه من نبي المسلمين ، وقال له : « ها أنا انتصرت لمحمد » . ولما كان صلاح الدين قد نذر دم هذا الأمير إن وقع في يده، بسبب أنه أرسل رجالاً لدخول مدينة الرسول ، وإخراج جسده الشريف من القبر ، بحيث أرسل صلاح الدين قوة وراءهم وأسرهم [٤] . ولذلك رفض أن يسقيه الماء ، وضربه بالسيف على كتفه وقطع رأسه ، وأطعم جثته الكلاب [٥] . كذلك ضرب أعناق فرسان طائفتي

---

(١) أنظر . ماجد ، الناصر ، ص ١١٦ .

(٢) الروضتين ، ٢ ص ٧٩ وما بعدها ؛ الفتح القسي ، ص ١٩ - ٢٠ ؛
R. H. C. occ, t 2, p. 66 sqq'

(٣) عن ذلك ، انظر . ماجد ، نظم الفاطميين ، ٢ ص ١٠٢ .

(٤) رحلة ابن جبير ، ص ٢٩ - ٣٠ .

(٥) الكامل ، ٩ ص ١٧٤ ؛ R. H. C. occ, t 2, p. 34.

الدواية والإستبارية، ولم يبقهم في الأسر؛ لأنهم كانوا يمثلون التعصب المسيحي، إذ كان معظمهم من رجال الدين المحاربين؛ وقال أبو شامة عنهم [١] «إنه ما جرت عادتهما بالمفاداة، ولا يقلعان عن المعاداة، ولا يخدمان في الأسر».

ومن ثم كانت هذه الوقعة العظيمة مقدمة لإنتصارات حربية مهمة على فرنجة الشام[٢]؛ بسبب فقدهم معظم رؤسائهم. وكانت سبباً في فتح بلاد الساحل، ويُقصد بها البلاد الواقعة على ساحل الشام، مثل: عكّة (أو عكّا) وغزة وحيفا وصيدا وبيروت وعسقلان. كذلك فتح بعض الأماكن القريبة من القدس، مثل: طبرية والرملة والخليل وبيت لحم ونابلس (أو نابلوس)؛ وفي هذه الأخيرة قاتل المسلمون فرقة من اليهود كانت تدافع عنها مع النصارى، فقتلهم المسلمون على بكرة أبيهم[٣].

وبعد ذلك، ذهب صلاح الدين لفتح القدس على رأس عساكر مصر، كما يذكر عماد الدين الكاتب[٤]؛ مما يبيّن أن صلاح الدين أصبح يعتمد عليهم في المعارك الحاسمة؛ ولا سيما أنهم كانوا قد تفانوا في الدفاع عنه لما أخذه الفرنجة أيام الفاطميين في سنة ١٠٩٧/٤٩٢، فسلّمت له بالأمان، على أن يخرج الفرنجة منها، وذلك في ليلة الإسراء يوم الجمعة ٢٧ من رجب سنة ٥٨٣/٢، من ديسمبر سنة ١١٨٧، بعد أن بقيت في أيدي الفرنجة إحدى وتسعين سنة؛ حيث عُرف فتحها بالفتح الأكبر[٥]، وسُمي صلاح الدين: «منقذ بيت المقدس من أيدي الكافرين». ونحن لا نجد شروطاً لليهود، ربما كان ذلك لأن الفرنجة لم يكونوا يسمحون ببقائهم معهم بالقدس، أو تقليداً لما حدث أيام

---

(١) الروضتين، ٢ ص ٧٩.

(٢) الكامل، ٩ ص ١٧٩ وما بعدها.

(٣) رحلة ابن جبير، ص ٢٨٨ – ٢٨٩.

(٤) الفتح القسي، ص ٣٩ س ٢٠ – ٢١، ٨٠. عن فتحه بالتفصيل، انظر. نفسه، ص ٣٩ وما بعدها؛ الكامل، ٩ ص ١٨٢ فما بعدها؛

R. H. C. occ, t 2, p. 82 sqq.

(٥) الروضتين، ٢ ص ١٢١.

عمر بن الخطاب ، الذي منح الأمان للنصارى دون اليهود . ولم يرضَ صلاح الدين أن يدخله إلا ومعه مندوبون من أطراف البلاد الإسلامية ، فدخله ومعه زهاء عشرة آلاف عمامة [1] . فجلس صلاح الدين للتهنئة وحوله الشعراء ، وأكثرهم من المصريين ، ينشدون قصائد المديح ، التي عُرفت بالقدسيات ، نسبة إلى يوم فتح القدس[2] . وبذلك تحققت معجزة إسترداد القدس على يد عسكر مصر من دون عسكر المسلمين ؛ بحيث يقول عماد الدين الكاتب : «ولتفخر به مصر وعسكرها على سائر الأمصار [3] » .

وبتسليم بيت المقدس أعاد صلاح الدين لمساجده طابعها الإسلامي وجددها[4]، بعد أن غيّر الفرنجة فيها وحوّلوها إلى كنائس ؛ ولدينا نقوش من عهده تدل على تجديدها . فهو الذي أمر بإظهار الصخرة المقدسة ، التي كان الفرنجة قد فرشوا الرخام فوقها لحفظها ؛ بعد أن كان يقطّع منها قطع صغيرة للبركة أو للبيع ؛ فلما ظهرت قام بغسلها وهو يبكي . كذلك أمر بخلع الصليب النحاس الكبير المحلى بماء الذهب ، الذي أقيم على قبتها ؛ ووضع مكانه هلالاً بين حماسة المسلمين وفرحهم[5] . وقد أشير على صلاح الدين بهدم كنيسة القيامة إنتقاماً لما فعله الفرنجة بمساجد المسلمين ، فلم يوافق لأن عمر بن الخطاب كان قد أبقى عليها لما تسلّم القدس ؛ إلا أنه أمر بغلقها وكسر أجراسها وإزالة صلبانها ، ثم فتحها بعد مدة ؛ وفرض على من يرد إليها من الفرنجة مبلغاً

---

(١) عن دخوله القدس ، انظر . الروضتين، ٢ ص ٩٦ وما بعدها؛ الحنبلي ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، مخطوط جامعة القاهرة برقم ٢٤٠٣١ ، ورقة ٣٥ ؛ ابن شداد ، النوادر السلطانية ، مصر ١٣١٧ هـ ، ص ٦٦ .

(٢) الفتح القسي ، ص ٧٣ - ٧٤ ؛ السلوك ، ١/١ ص ٩٨ س ٢ .

(٣) الفتح القسي ، ص ٣٩ س٢٠-٢١.

(٤) أنظر . Répertoire, 9, p. **159-160** ؛ ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨٢ . عن التفاصيل ، انظر . الكامل ، ٩ ص ١٨٤ - ١٨٥ ؛ الفتح القسي ، ص ٤٨ ، ٥٠ - ٥٣ ؛ Ency. de l'Isl, (art al - Kuds) t 2, p. **1165 - 6.**

(٥) السلوك ، ١/١ ص ١٠١ - ١٠٢ .

من المال [1] .

وبعد فتح بيت المقدس ، بلغ من حماسة صلاح الدين للجهاد ، أنـــه أخذ يعمل لطرد الفرنجة من الشام . وقد حالفه النصر في هجومه عليهم ، فاستولى على أغلب قلاعهم [2] ، التي لم يتبق في أيديهم منهـــا غير : صور وطرابُلس وأنطاكية ؛ مما أحيا آمال الفرنجة في التشبث بالساحل الشامي .

وترتب على سقوط بيت المقدس قيام حرب صليبية جديدة ، ولا سيا أن البطريرك الذي كان في بيت المقدس ، وتركه صلاح الدين يرحل عنها بالأمان، ذهب إلى بلاد أفرنجـة – وهي أوربا – يطوفها جميعها ، وهو يحمل صورة رجل عربي يضرب المسيح ؛ ليحث الإفرنج على الأخذ بثأر بيت المقدس من المسلمين [3] . وكان البابا إربانوس الثـــالث Urbanus III ، قد توفى في ١١٨٧ م ، عندما سمع بسقوط بيت المقدس ، وجاء بعـده البابا جريجوري الثـــامن Gregory VIII ، الذي لم يلبث أن توفى هو الآخر في ١١٨٧ م ، فجاء بعده كليمنت الثالث Clement III (١٠٨٠ – ١١٠٠ م) ، الذي أمر أساقفته في كل مكان بأن يبشروا بحرب صليبية جديدة ؛ وهي مـا عُرفت بالحملة الصليبية الثالثة [4] . فاشتركت أوربا كلها في هذه الغزوة بجميع شعوبها وإمكانياتها ، حتى بنسائها اللاتي جُندّن كالرجـال لقتال المسلمين على الصعب والذلول براً وبحراً ، مندفعين بالحماسة الدينية لعقيدتهم .

وكان أول الوافدين من كبار الفرنجة الملك السابق لمملكـة بيت المقدس

---

(١) نفسه ، ١/١ ص ٩٧ س ٨ – ٩ ؛ الفتح القسي ، ص ٥٣ – ٥٥ ؛ Répertoire, t 9, p. 179.

(٢) مثل : لاذقية وجبلة والكرك والشوبك وصفد وكوكب وأنطرسوس . . . الكامـل ، ٩ ص ١٨٧ وما بعدها .

(٣) نفسه ، ٩ ص ٢٠١ .

(٤) أنظر . مثلاً : lorga : Brève Histoire des Croisades et de, leurs fondations en Terre Sainte. Paris, 1924.

؛ Champdor : Op. cit, p. 201 sqq.

— جي ويسميه العرب أيضاً العتيق ، وهو الذي كان أطلقه صلاح الدين من الأسر ، لقاء دعوة فرنجـــة عسقلان إلى تسليم مدينتهم ؛ وذلك على ألاّ يعود إلى حربه [١] . فنكث جي بوعده ، وجاء إلى طرابلس . ولكن وقع نزاع بينه وبين كونراد دي مونتفرات Conrad de Montferrat [٢] —المسمى أيضاً المركيس Marquis - على عرش مملكـــة بيت المقدس ، وكان أبوه غليوم Guillaume زوجاً لسيبّلا قبل جي ، وأبوه بغدوين الخامس . ولكن تصالح جي والمركيس ، واتفقا على قتال المسلمين ،وبدأوا بمكـّة أو عكـّا أو عكـّاء[٣] Akko ، وهي بلدة قديمة ، تُعتبر من أكثر بلاد الشام تحصيناً ،كانت أول ما فتحه صلاح الدين من بلاد الساحل في ١١٨٧/٥٨٣ [٤] ؛ حيث قـام بتحصينها قراقوش [٥] ؛ فصمدت أمام الفرنجة مدة ثلاث سنوات .

وقد استفحل الأمر على المسلمين بمجيء ملوك أوربا ، ولا سيا أن البابا كان قد أرسل إلى بقايا فرنجة الشام يطلب منهم الإستمرار في المقاومة ، ويعدهم بإرسال إمدادات كثيرة[٦] ، ويدعوهم إلى المثابرة على حصارهم لعكـّة . وقد نجح البابا في إصلاح ذات البين بين ملوك أوربا ، وتوجيههم إلى حرب المسلمين . ومع أن ملك إنجلترا هنري الثاني Henri II ، وملك فرنسا فيليب أغسطس Philippe II Augustus ، كانا في حروب مستمرة[٧] بسبب سيطرة هنري على النورماندي ، بعد أن فتح النورمان إنجلترا ؛ فإنهما اتفقا على دفن الخلاف

---

(١) الكامل ، ٩ ص ١٨١ - ١٨٢ .

(٢) نفسه ، ٩ ص ١٨١ ؛ الفتح القسي ، ص ٣٣ — ٣٤ ؛

R. H. C. occ, t 2, p. 74 sqq؛

: Champdor Op. cit, p. 169, sqq.

(٣) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٦ ص ٢٠٥ – ٢٠٧ ؛ رحلة ابن جبير ، ص ٢٩٣ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art 'Akka) t 1, p. 244 - 5.

(٤) الفتح القسي ، ص ٢٣ — ٢٥ .

(٥) نفسه ، ص ٩٠ — ٩١ ؛ وفيات الأعيان ، ٢ ص ١٨٣ .

(٦) الكامل ، ٩ ص ٢٠٩ س ٨ — ١٠ .

(٧) عن نزاع هنري وفيليب ، انظر . R. H. C. occ, t 2, p. 143 sqq.

بينهما ، ومحاربة المسلمين ، بنـــاء على معاهدة نونا كور Nonancourt ، في ١١٨٩ م . ولكنهما عادا إلى الحرب لأن هنري خلع ابنه الأكبر ريتشارد Richard ، من ولاية عهده لصالح ابن آخر ؛ فحارب ريتشارد أباه بمساعدة ملك فرنسا ، وكان قد خطب أخته أليكس Alix de France ، فلما توفي هنري ، تولى ريتشارد عرش إنجلترا ، واتفق مـــع فيليب على استخلاص الأراضي المقـــدسة . كذلك أنهى ملك الإلمان فردريك بربروسا Frederick I Barbarossa ، سوء التفـــاهم الذي كان بينه وبين أمراء اللومبارديين في إيطاليا ، وأخذ على نفسه العهد بحرب المسلمين [١] .

وكان الألمان أول من غادروا بلدهم إلى الشرق ، في أعداد هائـــلة بلغت مليون مقاتل « ألف ألف » [٢] ؛ حيث يقول المؤرخ المسلم ابن الأثير عن هذا العنصر الأوربي : « إنهم نوع من الفرنجة شديدي البأس [٣] » . وكان لفردريك خبرة سابقة بحرب المسلمين ، وذلك حينما اشترك مع عمه الإمبراطور كونراد الثالث في الحملة الصليبية الثانية ؛ ولذلك علقت آمال كثيرة على حملته. وقد أورد لنا المؤرخ الصليبي ماتيو باريس Mathieu Paris ؛ نص الكتب المتبادلة بين صلاح الدين وفردريك ؛ إذ أراد هذا الأخير ـ على طريقة الفرسان الأوربيين ـ أن لا يهاجم خصمه قبل أن يدعوه سلمياً إلى تسليم الأراضي المقدسة. ولكن صلاح الدين رد عليه برسالة يقول فيهـــا إنه سيقاتله بشدة ؛ إلا إذا

---

(١) عن ذلك ، انظر . Champdor : Loc. cit. p. 201 sqq.
؛ Calmette : Le Moyen Age, p. 218 sqq.
؛ Iorga : Loc. cit, p. 122 sqq.

(٢) السلوك ١/١ ص ١٠٣ س ٢ - ٣ .

(٣) الكامل ، ٩ ص ٢٠٧ - ٢٠٨ ؛ الفتح القسي ، ص ١٦٠ وما بعدها ، ١٩١ وما بعدها . يقول هذا الأخير ثلثمائة ألف . أنظر . R. H. C. occ, t1èr, p. IX sqq ; t 2, p. 131 sqq. ؛ Champdor : Loc. cit, p. 205 sqq ; 234 sqq. Grousset : Histoire des Croisades et du Royaume Franc de, Jérusalem, 3, p. 10.

جنح إلى السلم ؛ فيسهّل لحجاجه زيارة بيت المقدس ؛ ويسمح لمندوبه بالبقاء فيـــه [1] .

ولكن النحس رافق هذه الحملة الألمانية منذ أن تركت أوطانها ، فقد قوبل الألمــان من ملك بيزنطة اسحق الثاني أنجيلوس Isaac II Angelus (١١٨٥ – ١١٩٥ م) – ويسميه العرب إيساكيوس [2] – بعداء شديد ، أكثر مما ظهر قبـــلاً من ملوك بيزنطة نحو الفرنجة . فمنذ أن أساء ملوك الفرنجة التصرف بأخذ أنطاكية ، وقف ملوك بيزنطة من المسلمين موقف المحايد غالباً. فلم يشترك اسحق الثاني في حرب صلاح الدين مع الفرنجة في حطين، وأرسل إليه يهنئه بفتح بيت المقدس [3] . ولعل اسحق كان يرجو زوال الفرنجة من فلسطين ؛ ليجعله صلاح الدين مشرفاً على كنيسة القيامة . وقد وعد اسحق صلاح الدين بأن لا يمكّن الألمان من عبور بلاده . ولذلك حاربه ملك الألمان مرتين ، وشق طريقه إلى آسية الصغرى بقوة السلاح .

وفي أثناء سير الألمان واقترابهم من حدود الشام ، انتشر بينهم الطاعون ، وفتك بهم فتكاً ذريعاً ؛ بحيث ذابوا ذوبان الثلوج . وقـــد أراد ملكهم السباحة في أحد الأنهر [4] – وكان شيخاً مسناً - فهلك من برودة الماء ، فزاد هذا في مصائبهم . وحينما وصلت قلة منهم بقيادة ابنه فريدريك سواب Fréderic Souab (Schwaben) ، إلى أنطاكية أول الشام، ثقلوا على أميرها الفرنجي ، فطلب منهم مهاجمة حلب ، ولكن الألمان لم يفعلوا ، بل ساروا ، بعد ذلك ، إلى عكة ؛ حيث اشتركوا في حصار المسلمين دون أن يحالفهم النصر ، بحيث قرروا العودة ، ولكن غرقت بهم المراكب . فكأن لعنة

---

(١) نقلاً عن : Champdor Loc. cit, p. 206 - 209.
(٢) ابن شداد ، ص ١١٦ – ١١٧ .
(٣) السلوك ، ١/١ ص ٩٨ وهامش ، ١٠٤ .
(٤) يقول ابن الأثير نحو أنطـاكية ، ولا يذكر اسم النهر . ويبدو أن النهر هو المسمى في المراجع الأوربية باسم سالف « Calycandus » . أنظر R. H. C. Doc. Arm, t 1 . p. XXVIII . ولعله هو البردان عند العرب ، الذي سُمي هكذا لبرودة مائه .

الأقدار صاحبت الجيش الألماني ، الذي لو وصل سالماً ؛ لقيل إن الشام ومصر كانتا للمسلمين ، على حد قول ابن الأثير [١] .

وما أن خلص المسلمون من الألمان ، حتى دهمهم الخطر من جانب فرنجة غرب أوربا. وقد أجل فيليب الذي يسميه العرب فيليب ملك أفرنسيس[٢]، سفره ؛ بسبب موت زوجته إيزابيلاّ Isabella ، كما أن ريتشارد فَقَد صهره غليوم الثاني الطيب Guillaume II le Bon ، ملك صقلّيّة ، الذي كان من أكبر مشجعي البابا في سياسته الشرقية . وقد فرض فيليب ضريبة خصصها لهذه الحرب ، يدفعها الذين لا يسافرون ، عُرفت : بالعشر الصلاحي Dîme Saladine ، وكتب وصيته Testament ، وقرئت علناً . ثم سار إلى جنوى ، ومنها ركب البحر إلى صقلّيّة ، حيث تقابل فيها مع ملك الإنجليز ، فحدث سوء تفاهم بينهما . وفسخ ملك الإنجليز خطبته لأخت فيليب المسماة أليكس Alix ، وأعلن رغبته في خطبة برنيير الناڤارية Bérengère de Navarre . فأبحر فيليب بمفرده إلى الساحل السوري ، حيث وصله بأسطول صغير لا يتعدى ست مراكب حربية ، وكأنه في نزهة صيد ، وقد حمل معه بازاً .

أما ملك الإنجليز ريتشارد [٣] ، الذي يسميه العرب ليجرت ملك الأنكتير أو الإنكلتار ؛ فقبل أن يرحل إلى الشرق ترك بلاده في يد أخيه جان Jean-sans-Terre ، والملكة الوالدة إليانور Eleonore ، وأبحر من سواحل جنوب فرنسا في أسطول كبير إلى صقلّيّة ، حيث تقابل مع فيليب ،

---

(١) على الخصوص : الفتح القسي ، ص ١٩٤ - ١٩٦ ؛ انظر . Champdor : Loc. cit, p. 240 sqq.

(٢) الفتح القسي ، ص ٢٣٨ ؛ الكامل ، ٩ ص ٢١٣ ؛ انظر . R. H. C. occ, t1, p. L111; t2, p. 146. ؛ Champdor : Op. cit, p. 267 sqq.

(٣) الفتح القسي ، ص ٢٣٩ - ٢٤٠ ؛ الكامل ، ٩ ص ٢١٣ ؛ R. H. C. occ, t 1, p. L111 sqq ; t 2, p. 146 sqq ؛ Grousset : Op. cit., t3, p. 48. ؛ Champdor : Loc. cit, p. 265 sqq. ؛ ←

وحدث بينهما سوء تفاهم ؛ فسبقه فيليب إلى الساحل السوري كما ذكرنا . ولكن ريتشارد أُضطر أن يحارب ملك صقلـيّة الجديد، الذي بتحريض من ملك فرنسا ، حجز أخت ريتشارد المسماة چان Johane ، وهي أرملة ملكها السابق غليوم الثاني ، . وبعدها حملت الرياح أسطول ريتشارد إلى جزيرة قبرس[1]، التي يحكمها يوناني من أسرة كومنينوس، اسمه اسحق الثاني أنجيلوس Issac II Angelus ، بعد أن استقلت عن بيزنطة منذ عام ١١٨٥م ، فحارب ريتشارد ، بمساعدة نورمان صقلـيّة اسحق الثاني؛ حيث استقبله بالعداء ذاته، الذي كان يستقبل به ملوك بيزنطة ملوك أوربا ؛ إذ أصبح اليونان حلفاء للمسلمين ضد الأوربيين . وقد طلب ريتشارد نجدة من فرنجة الساحل الشامي في حربه ضد القبارسة ؛ فأرسلها إليه الملك جي ، وأخيراً طلب اسحق الصلح ، ولكن ريتشارد غدر به ، واستولى على الجزيرة . ولا شك في أن إحتلال الإنجليز لقبرس ، التي تطل على ثلاث قارات ، يدل على إدراكهم المبكر لأهمية موقعها ؛ بحيث أصبت جسراً لكثير من الحملات التي وُجهت نحو الشرق ، ووُصفت بأنها : « قوة للفرنج » [2] ؛ وإن تنازل عنها لأسرة جي ، الذي ساعده في أخذها [3] . وبعدها ، غادر ملك الإنجليز قبرس إلى الساحل الشامي في أسطول كبير ، قطعه الرئيسية وحدها خمس وعشرون شينياً ، كل منها أشبه بقلعة .

بإزاء تهديد الفرنجة الشديد ، أوفد صلاح الدين رسله إلى ملوك المسلمين

Hubert : The crusade of Richard Lion - heart, by Ambroise. Tranlated, from the old French. New York, 1941.

وبعامّة ؛ Norgate : Richard the Lion Heart. London, 1924.

(١) أنظر . عاشور ، قبرس والحروب الصليبية ، ص ٢٤ وما بعدها ؛ Ency. Britannica, 6, p. 952.

(٢) الكامل (ط Leyde) ، ١٢ ص ٤٢ ؛ انظر. عاشور، قبرس، ص ٣٠ .

(٣) أنظر R. H. C. : occ, t2, p. 191. ؛ عاشور ،قبرس ، ص ٣١ – ٣٢ .

في الشرق والغرب يحثهم على الجهاد معه عن الأراضي المقدسة ، وكان ذلك قبل تحرك ملك الألمان بجيشه الكبير نحو الشرق [١] . وقد عرض صلاح الدين على الخليفة العراقي الناصر أن يحضر بشخصه لإثارة الحماسة في المسلمين ، على أن يتنازل له عن جميع بلاده [٢] ؛ وبذلك أظهر صلاح الدين إنكاراً للذات وإخلاصاً شديداً في الجهاد . ولكن الخليفة العراقي لم يكن يتحمس للإنتقال من قصوره ، والعيش في ميدان القتال ، ولذلك لم يرد على دعوة صلاح الدين ، الذي استاء من تصرف خليفة المسلمين [٣] . وكذلك لم يستطع سلطان العجم بإيران [٤] ، وأمراء الترك بآسية الصغرى أن يلبوا نداء صلاح الدين؛ لإنشغالهم بمسائلهم الشخصية . كما أن الموحدين ، الذين أقاموا لهم دولة في المغرب ، لم يحركوا ساكناً ، على الرغم من أن صلاح الدين وجه رسالتين إلى ملك المغرب أبي يعقوب المنصور ، يطلب فيهما مساعدته [٥] . ولو أن المجهود توحّد ، لكان قضى على خطر الفرنجة ، ليس في الشرق فقط ، بل في الأندلس أيضاً . أما عن عسكر مصر ، فكان المدد يصل إلى صلاح الدين باستمرار كما يقول المؤرخون [٦] ، الذين بمجرد وصول الجنود المصريين ، كانوا يُرسلون إلى ميدان المعركة المشتعلة .

وعلى العموم ، فقد إزدادت الأمور سوءاً بالنسبة لحامية عكّة ، بعد وصول ريتشارد إلى ساحل الشام . وكانت حماسة المحاصِرين في القتال لا تقل عن حماسة المحاصَرين . وقد تمكن صلاح الدين غير مرة من فك الحصار عن عكّة ، وحمل الأطعمة إلى حاميتها [٧] . وأكثر من هذا ، تمكن من تغيير الحامية

(١) الفتح القسي ، ص ١٦١ ، ١٧٣ .
(٢) نفسه ص ١٦٢ ؛ الروضتين ، ٢ ص ١٦٧ .
(٣) نفسه ، ص . ١٧ .
(٤) نفسه ، ص ١٧٣ - ١٧٥ .
(٥) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٠٢ ؛ صبح ، ٦ ص ٤٦ - ٥٣ ؛ الروضتين ، ٢ ص ١٧٠ وما بعدها .
(٦) الفتح القسي ، ص ٢٥٠ .
(٧) نفسه ، ص ١٤٧ وما بعدها ؛ الكامل ، ٩ ص ٢٠٢ وما بعدها .

– وهو ما سُمي بالبدل – في ٥٨٦ – ٥٨٧/١١٨٣ – ١١٨٤ ، منتهزاً سحب الفرنج لمراكبهم المحاصرة أمام عكّة ، بسبب هياج البحر ، فجمع عدداً كبيراً من المراكب ، نقل عليها زهاء عشرين ألف من رجال الجيش والبحر . ومع أن صلاح الدين لم يُرغم أحداً على دخول عكّة بدلاً من الراحلين عنها ؛ إلا أنه يبدو أن أغلب من دخلوها كانوا من الجنود المصريين ، بدليل وجود الكتّاب القبط ، الذين كانوا يدفعون لهم النفقة . أما قواد صلاح الدين من الترك والأكراد ، فكان موقف معظمهم نقيض ذلك ، إذ لم يدخل عكّة منهم غير عدد قليل ، لا يبلغ عشرين رجلاً[1] ؛ وعلى رأسهم سيف الدين المشطوب كبير الأكراد ، وبهاء الدين قراقوش ، الذي عين حاكماً عليها .

ولما زادت الأمور سوءاً ، قرر قائد حامية عكّة ، وهو المشطوب ، تسليمها إلى ملك فرنسا ، الذي رفض منحها الأمان وإن سلمت ؛ بحيث قال المشطوب مغتاظاً : « نحن لا نسلم البلد حتى نقتل جميعاً »[2] . كذلك عرض صلاح الدين [3] على ملوك الفرنجة تسليم عكّة ، لقاء منح الأمان لحاميتها ، ولكن الفرنجة كانوا يريدون أن يستردوا جميع البلاد التي استولى عليها صلاح الدين ، وخصوصاً بيت المقدس . وقد تمكن الفرنجة من دخول عكّة عنوة de vive force ، على الرغم من مقاتلة حاميتها المصرية في الشوارع ، ومن بيت إلى بيت ، وحتى على الأسطح[4] ، وأخيراً سلّمت في يوم الجمعة ١٧ من جمادى الآخرة سنة ٥٨٧/ يوليو ١١٩١ . وقد انتقم ريتشارد من الحامية التي استماتت في الدفاع عنها ، فقتل من أسراها ثلاثة آلاف .

وبعد هذا النصر المسيحي ، أصبحت عكّة أهم قواعد الفرنجة بالشام ، تأتيها مراكبهم الكبيرة ، حاملة الإمدادات الكثيرة . ويبدو أن الفرنجة أعادوا إليها طائفة الفرسان الإسبتارية للدفاع عنها ، وهم الذين أصبحوا يُعرفون

---

(١) نفسه ، ص ٢٢٧ وما بعدها ؛ نفسه ، ٩ ص ٢١٠ .

(٢) الفتح القسي ، ص ٢٥٥ – ٢٥٦ .

(٣) نفسه ، ص ٢٥٩ .

(٤) نفسه ، ص ٢٦٣ .

باسم: فرسان القديس يوحنا Saint Jean ؛فسميت المدينة باسمهم : Saint-[1] Jean - d'Acre [1]ولقد بقيت عكّة في أيدي الصليبيين إلى عهد سلاطين المماليك، يستخدمونها كقاعدة أمامية في حرب المسلمين .

ولحسن حظ المسلمين أن الفرنجة تمهلوا بعض الوقت في زحفهم إلى داخل الساحل ، وذلك لسوء التفاهم الذي وقع بينهم من جديد ، بسبب عرش مملكة بيت المقدس ، ومن هو صاحب الحق من المطالبين به . فقد طالب كونراد – المركيس – بعد موت سيبلا بعرش مملكة بيت المقدس ، إذ أن سيبلا لم تترك وريثاً [2] ، ولأن كونراد – المركيس – كان قد تزوج اختها الصغرى ، المساة إيزابيلا Isabella ، بعد طلاقها على ما يبدو . فانتقل الملك إلى الصغرى بوفاة الكبرى ، وكان جي نفسه قد أخذ الملك بسبب زواجه بسيبلا . وبينما أخذ ريتشارد جانب جي ، الذي تقرّب إليه بإرسال الأمداد ضد القبارسه [3] ، فإن فيليب أخذ جانب كونراد ، الذي وضع نفسه تحت حمايته . وأخيراً قرر ريتشارد أن يكون كونراد ، وريث جي ، وأنه إذا مات الاثنان ورث هو هذا العرش . وبهذا ظهرت أطماع ملك الإنجليز بتدخله في النزاع بين كونراد وجي ، وتوجيه هذا النزاع لمصلحته. وقد كان استئثار ريتشارد بكل شيء، ونقضه الإتفاق مع فيليب، على أن يقتسم وإياه كل ما يُفتح سواء في قبرس أو في عرش مملكة بيت المقدس ، سبباً في أن حمل فيليب – بعد فتح عكّة – على مغادرة الأراضي

---

(١) أنظر . Ency. t1, p. 244.

(٢) الفتح القسي ، ص ٢٤٩ ؛ R. H. C. occ, t2, p. 5 — 7. ؛
انظر . Dodu : Histoire des Institutions Monarchiques dans le royaume latin de Jérusalem. Paris, 1894, p. 120 — 121.
؛ Grousset : Op. cit, 3, p. 41 sqq ; 57 sqq ; 87 sqq.

(٣) الفتح القسي ، ص ٢٣٩ .

المقدسة غاضباً [1]. وهذا الإفتراق بين الملكين الأوربيين ، كان من الأسباب التي أدت إلى إشعال حرب المائة عام الرهيبة بين فرنسا وإنجلترا فيما بعد .

وبعد رحيل فيليب ، قوي نفوذ ريتشارد ، وظهرت أطماعه بوضوح . وما لبث أن كونراد المركيس قتل ، وربما كان ذلك بتحريض ريتشارد [2] ، الذي أسرع فأعلن هنري دي شامبين [3] Henri de Champaigne الكندهري ملكاً على بيت المقدس ، الذي تزوج بايزابيلا – مع أنها كانت حاملاً من كونراد – وذلك ليصبح صاحب حق في عرش مملكة بيت المقدس . وقد عوض ريتشارد جي عن حقه في مملكة بيت المقدس بتنازله له عن قبرس ، التي باعها ريتشارد لفرسان الداوية حينما جاء عكة ؛ وذلك على أن يدفع جي المال الذي أخذه ريتشارد من الداوية . ولكن هنري توفي ، فتزوجت إيزابيلا من جديد مرة ثالثة بأخي جي المسمى : عموري الثاني Amauri II ، الذي أصبح له حق وراثة مملكة بيت المقدس .

ولقد استفاد صلاح الدين من تنازع الفرنجة في تدبير مقاومتهم ، ولا سيما بتحصين بيت المقدس [4] . وكان من المناظر المؤثرة اشتراك السلطان وأولاده والأمراء والقضاة والصوفية والزهاد في حمل الحجارة في القطاف على الخيول . ويذكر المؤرخون أن صلاح الدين لم يطمئن على بقاء القدس في أيدي المسلمين إلا حينما طلب عسكراً مصرياً ، الذين أصبحوا المنقذين للمسلمين من كل خطر ،

---

(١) الروضتين ، ٢ ص ١٨٩ ؛ R.H.C. occ, t 2, p. 194 sqq ؛ انظر . Grousset : Op. cit, 3, p. 59.

(٢) الفتح القسي ، ص ٣٠٣ – ٣٠٤ ؛ ابن شداد ، ص ٢٠٢ وما بعدها ؛ العيني ، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان ، مخطوط مصور بدار الكتب ، برقم ١٥٨٤ تاريخ ، ١ / ١ ورقة ١٤٢ . قال هذا الأخير إن ملك الإنجليز قتله بإرسال اثنين من الداوية .

(٣) الفتح القسي ، ص ٣٠٤ ؛ R.H.C. occ, t 2, p. 189 sqq ؛ انظر . Grousset : Op. cit, t 3, p. 36 .

(٤) الفتح القسي ، ص ٢٨٩ - ٢٩٠

ويرجع إليهم فضل استنقاذه من الفرنجة [1].

ويبدو أن ريتشارد وجـد لذة في حروبه في الشرق . وقد وصفه ابن شداد بقوله : إنه عظيم الشجاعة ، قويّ الهمة ، وجسوراً في الحروب [2]. ولعل ريتشارد قد استحق بشجاعته هذا التلقيب ، الذي أصبح يُعرف به : ريتشارد قلـب الأسد Richard Cœur - de - Lion . ولكن ريتشارد الذي طالت غيبته عن بلاده ، سمع أخباراً سيئة تقول إن أخـاه يحاول اغتصاب مُلكه ، بتحريض فيليب [3] . ثم إنه كان في فتوحه في الشام لا يفتح إلا مدن الساحل ، ووجد أن لا سبيل إلى إختراق خط دفاع صلاح الدين إلى القدس . فلما قرر أن يطلب الصلح أرسل إليه صلاح الدين أخاه العادل. ويبدو أن ريتشارد في أثناء هذه المفاوضات اتصلت صداقته بالعادل، حتى أنه طلب منه مرة أن يُسمعه غناء المسلمين ، فأحضر له العادل مغنية تضرب على العود ؛ فغنت له ، وقد أعجب بغنائها . وكذلك عرض ريتشارد على العادل أن يزوّجه بأخته چان، أرملة ملك صقلـيّة السابق غليوم ، على أن يقيم العادل وزوجته في القدس ، وأن يشمل ملكهما ما بيد المسلمين والفرنج. وقد قبل صلاح الدين ؛ إلا أن ريتشارد عاد فاعتذر تحت تحريض رجال الدين [4].

وأخيراً وقعت المصالحة بين الإنجليز وصلاح الدين لمدة ثلاث سنين وثمانية أشهر [5] ، على أن تكون هدنة عامة في البر والبحر والسهل والوعر ؛ وكان ذلك يوم الثلاثاء الحادي والعشرين من شعبان سنة ٥٨٨ / سبتمـبر ١١٩٢ . وقد نُص في الصلح على أن يحتفظ كل فريق بما في يده ، بشرط أن تُخرّب عسقلان، التي كان ملك الإنجليز قد حصّنها ، وتُصبح منطقة منزوعة السلاح

---

(١) أنظر . ماجد ، الناصر صلاح الدين ، ص ١٤٥ .

(٢) النوادر ، ص ١٤٤ .

(٣) أنظر . Champdor : Op. cit, p. 323.

(٤) الكامل ، ٩ ص ٢١٦ - ٢١٧ ؛ الفتح القسي ، ص ٢٨٤ - ٢٨٥ .

(٥) نفسه ، ٩ ص ٢٢١ - ٢٢٢ ؛ نفسه ، ص ٣١٢ وما بعدها ؛ الروضتين ، ٢ ص ٢٩٤ ؛ ابن شداد ، ص ٢٣٢ وما بعدها .

No man's land ، وأن يُسمح للحجاج النصارى بالوصول إلى بيت المقدس، كما دخلت بارونا أنطاكية وطرابلس في الصلح [1] . وبمقتضى هذا الصلح لم يبق للصليبيين على الساحل الشامي غير نطاق ضيق يشمل صيدا وبيروت وجبل ؛ إلا أنهم أبقوا معظم داخلية البلاد بأيديهم ، وأبعدوا خطر الفرنجة عن مصر ، واحتفظوا ببيت المقدس .

هذه أول مرة تنتهي حملة صليبية إلى صلح أو اتفاق يجمعهما على التعايش وقبول الواقع Modus Vivendi . وقد كان إقرار شروط الصلح بداية لصلات المودة بين الفرنجة والمسلمين : فاختلط العسكر ، ونشطت التجارة . وقد أمر صلاح الدين بالمناداة في المسلمين : أن الصلح قد انتظم ، فمن شاء من بلادهم أن يدخل بلادنا فليفعل، ومن شاء من بلادنا أن يدخل بلادهم فليفعل [2] . كذلك وصل الحجاج إلى القدس ، ومنهم ريتشارد نفسه ، وزاروا كنيسة القيامة المقدسة . ويبدو أن قصد ملك الإنجليز كان كعادته سيئاً ، فأرسل إلى السلطان يطلب منه ألا يسمح للنصارى بالحج إلا بإذن منه [3] . ولكن السلطان الذي رفض ، حتى لا يجعل له بمقتضى هـذا الحق أي سيطرة ولو معنوياً على بت المقدس ، وخوفاً من غضب الحجاج النصارى وهم من أجناس مختلفة، وعودتهم إلى إثارة أممهم ضده .

هذا القائد العظيم صلاح الدين، المتحمس للإسلام ووحدة الشرق الأوسط، والذي اتخذ النسر رمزاً له ليدل على تحفزه وإنقضاضه على أعداء الإسلام ، تأثرت صحته بهذا الجهاد المستمر ، فلم يلبث بعد ذلك وقتاً حتى وافته منيته في ليلة الأربعـاء ١٧ من صفر سنة ٥٨٩ / ٤ مارس ١١٩٣ [4] . فكان موته يوماً مشهوداً ، لم يُصب الإسلام بمثله منذ عهد الخلفاء الراشدين . فحمله

---

(١) صالح بن يحيى ، كتاب تاريخ بيروت ، تحقيق شيخو ، بيروت ١٩٢٧ ، ص ٢٤ .
(٢) السلوك ، ١/١ ص ١١٠ .
(٣) الفتح القسي ، ص ٣١٧ .
(٤) السلوك ، ١/١ ص ١١٢ - ١١٣ ؛ وفيات ، ٣ ص ٥١٨ وما بعدها ؛ شذرات الذهب ، القاهرة ، ١٣٥٠هـ ، ٥ ص ٢٩٨ - ٢٩٩ ؛ النجوم ، ٦ ص ٥٠ وما بعدها ؛
R. H. C. occ t 2, p. 217.

العلماء الذين كان يحبهم ويحبونه في تابوت على أعناقهم؛ ليدفن في قلعة دمشق، إلى أن أعيد دفنه في مقبرة خاصة شمال جامع دمشق . وقد قال عماد الدين الكاتب في مناسبة موت صلاح الدين : « مات بموته الرجال ، وأدلهمت الآفاق، وفجع الزمان بواحده وسلطانه، ورزيء الإسلام بشيد أركانه [١]». وحتى الفرنجة رأوا في صلاح الدين شخصية رائعة ، حتى أن الشاعر دانتي Danti ، ميّزه في أعتاب الجحيم المسمى : « اللمبو Limbo » ، مع حكام العالم القديم وأبطاله [٢] .

وقد ترك صلاح الدين فراغاً كبيراً بموته ؛ ففقد الإسلام به بطله وناصره ، إذ لأنه لو ُمد في عمره أكثر من ذلك ، لتمكن حتماً من القضاء على دولة الفرنجة في الشرق . وقد زاد الأمور تحرجاً بموته ، أنـــه خلف من بعده أولاداً كثيرين [٣] ، تنازعوا فيما بينهم ؛ مما هيأ للفرنجة البقاء،ومجيء حملات صليبية جديدة إلى الشرق ؛ لم يعد قصدها الأول إستعادة بيت المقدس، وإنما احتلال مصر بالذات.فقد أدرك الصليبيون أنه لا مجـــال لتنفيذ خططهم في الإستيلاء عـــلى بيت المقدس ، إلا بالإستيلاء على مصر ، التي تقف برجالهـا ومواردها سداً منيعاً دون تحقيق أطماعهم في الشرق.. وهذا الهدف لم يكن جديداً على الفرنجة ؛ فقد رأينا من قبـــل كيف تسابق ملك الفرنجة في بيت المقدس [٤] ، مع نور الدين في الإستيلاء على مصر .

ومن الجدير بالذكر أن معظم الهجمات الصليبيـــة على مصر اتجهت نحو

---

(١) ابن الوردي ، تاريخ ، الجزء الثاني ؛ مصر ١٢٨٥ هـ ، ٢ ص ١٠٧ - ١٠٨ .

(٢) أنظر . حسن عثمان ، أفريقيا في جحيم دانتي ، فصلة من مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، المجلد العاشر ، ديسمبر ١٩٥٦ ، ص ٥ ، ١٢ .

(٣) الفتح القسي ، ص ٣٢٦ . يقول ابن تغري بردى إنهم ستة عشر ذكراً وابنة واحدة . النجوم ، ٦ ص ٦٢ .

(٤) أنظر . قبله .

دمياط [١] ، التي كانت لها أهمية كبيرة ، لأن فرع النيل نحو دمياط حل محل الفرع البلوزي ، الذي كان ينتهي عند بلوزيم [٢] القديمة Pelusium ، وهي الفرما [٣] ، أو بور سعيد الحالية ، حيث كان الفرع البلوزي آخذاً في الإضمحلال ، واضمحلت معه الفرما . وتقع دمياط على زاوية البحر الأبيض والنيل، يفصلها شريط ضيق من الأرض عن بحيرة المنزلة ؛ بحيث كانت مياه الفيضان تعلو عليه وتغمره ؛ فتبدو دمياط وكأنها جزيرة منعزلة في الماء. وقد انتعشت دمياط وما يحيط بها من مدن — يذكرها المقريزي [٤] وغيره — فهي اشتهرت في العصور الوسطى بصناعة الأقمشة الشفافة جداً كالشرب [٥]، وبصفة خاصة القماش المقصب الأبيض وهو قماش مطرّز؛ وإن كان في ضواحيها يوجد الملون [٦] ، كما أنها عُرفت بصنع الأثاث كذلك أصبحت ثغراً مهماً ، ولها ميناء جيد ، في مدخله برجان، بينهما سلسلة حديد، تمنع دخول المراكب إلا بإذن [٧] . ويذكر المقريزي أنه في العصر الفاطمي كان في دمياط دار صناعة لبناء السفن الكبيرة مثل : المسطّحات والشلنديات والشواني [٨]، كما كان الأسطول الفاطمي يخرج منها للجهاد ضد الصليبيين في الشام، فيكون له ببلاد العدو

---

(١) معجم البلدان ، ٤ ص ٨٥ وما بعدها ؛ الخطط ، ١ ص ٣٤٤ وما بعدها ؛ انظر . الشيال ، مجمل تاريخ دمياط، الإسكندرية ١٩٤٩ ؛ Ency. de l'Isl, (art Damiette) t1, p. 934 sqq . ؛ Julien : Note sur l'emplacement, de l'ancienne Damiette . Le Caire, 1887 .

(٢) عنها ، انظر . Strabo : Geog I. 2 : 31 (Boock I) p. 141.

(٣) معجم البلدان ، ٦ ص ٣٦٧ — ٩ ؛ الخطط ، ١ ص ٣٤١ - ٣٤٣ .

(٤) مثلا : الخطط ، ١ ص ٢٨٤ ، ٣٦٤ . مثل شطا ودبيق .

(٥) عن هذا النوع ، انظر . Dozy : Suppl, I, p. 740 .

(٦) ناصر خسرو ، سفرنامة ، تحقيق الخشاب ، ص ٣٨ .

(٧) الخطط ، ٣ ص ٣٤٧ س ١٦ .

(٨) نفسه ، ٣ ص ٣١٣ س ٧ - ٨ .

صيت ورهبة[1]. ولذلك هاجم الروم ومن بعدهم الفرنجة دمياط مرات عدة في أيام الفاطميين، كما هاجموها في أول عهد صلاح الدين في ٥٦٥/١١٦٩[2].

وقد انتهز الفرنجة موت صلاح الدين، وتنازع أولاده مع العادل أخيه، للقيام بحرب صليبية جديدة، وهي الحملة الرابعة، التي أورد أخبارها مؤرخون معاصرون، وخصوصاً الفرنسي كلاري Clari[3]، واليوناني نيستاس Nicetas. وعلى الرغم من بلاغة رسل البابا إنسونت الثالث Innocent III[4] (١١٩٨-١٢١٦ م)؛ الذين أرسلهم البابا إلى فرنسا وألمانيا وإيطاليا، فلم يشترك في هذه الحملة أحد من الملوك كالحملة السابقة، وإنما اشترك فيها أبناء شعوب أوربا، ومعهم بعض البارونات الفرسان، مثل: بودوان كونت فلاندر Baudouin de Flandre، وبونيفاس كونت مونتفرات Boniface de Montferrat، وهو زوج أخت ملك ألمانيا فيليب سوابيا Philippe Swabia، (Philippe Von Schwabenland)، ويسميه العرب الفرنسيس.

وقد كلف البابا البندقية نقل أفراد هذه الحملة على مصر بمراكبها، لقاء ٨٥ ألف مارك، على أن يُدفع المبلغ أقساطاً، وأن تأخذ البندقية أيضاً نصف الغنائم. وعلى الرغم من أن دوك البندقية -أو دوقس- Doge[5]، المسمى هنري داندولو Enrico Dandolo (١١٠٧ - ١٢٠٥ م)، كان على علاقة طيبة بسلطان مصر العادل، الذي تولى بعد صلاح الدين؛ إلا أن عرض البابا السخي حمله على الإشتراك في الحملة.

ولكن هذه الحملة ما لبثت أن أمست ميداناً لتضارب الأغراض السياسية.

---

(١) نفسه، ٣ ص ٣١٤ س ١٥ - ١٦.

(٢) نفسه، ٣ ص ٣٤٦ - ٣٤٧.

(٣) أنظر. فتح القسطنطينية على يد الصليبيين، ترجمة حسن حبشي، القاهرة ١٩٦٤. عن هذه الحملة، أيضاً: العبر، ٥ ص ٢٠٩ - ٢١٠؛ صبح، ٥ ص ٤٠١ - ٤٠٢.

(٤) أرسل إلى العادل -سلطان مصر- يطلب تسليم الأراضي المقدسة. أنظر.
Acta Innocentii, ed Haluscyskyj. Civitas Vaticana, **1944**, p. **111**.

(٥) صبح، ٥ ص ٤٠١، ٤٨٥.

فقد أصبح فيليب سوابيا، ملك ألمانيا من أسرة هوهنشتاوفن Hohenstaufen [1]، وريثاً للملك النورماني في صقلـيّة، حيث دخل في نزاع مع البابوية، التي كانت تسعى إلى السيطرة على صقليّة بدلاً منه. وزاد البابوية حقداً عليه، أنه زوّج ابنته إيريني Irène، بملك بيزنطـة اسحق الثـاني أنجيلوس Issac II Angelus، فولدت له صبياً. ولكن ثار على اسحق أحد أخوته، وسمل عينيه، وزج به في أحد الأديرة، وتولى هو الملك باسم ألكسيوس الثالث أنجيلوس Alexius III Angelius، فهرب الصبي ابن الملك المخلوع إلى خاله.

وهكذا رأينا فيليب سوابيا لا يهتم بإرسال الحملة إلى مصر، بقدر إهتمامه بالإنتقام من ألكسيوس الثالث، وقد حرض دوق البندقية، على أن ترحل الحملة أولاً إلى القسطنطينية، وبعدئذ إلى مصر.

فاتجهت الحملة إلى القسطنطينية، لنصرة الملك المعزول؛ وكان معظم رجال الحملة أنفسهم لا يعرفون وجهتهـا الصحيحة، في أول الأمر. فلما هجموا على القسطنطينية، قابلهم عم الصبي بالحرب، إلى أن أكرهوه على الهرب. فأقاموا الصبي ملكاً باسم ألكسيوس الرابع أنجيلوس Alexius IV Angelus، ثم عزلوه، وتقاسموا ملك البيزنطيين، بعد أن استباحوا المدينة، وقتلوا من فيها من القسيسين والرهبان والأساقفة الأرثوذكس. وقد سُر البابا بسقوط بيزنطة، لأنه رأى حلمه قد تحقق بوحدة كنيستي الغرب والشرق؛ وإن يكن قد أُضطر إلى التدخل في النزاع بين ورثتها.

وقـد اتفق أن يفوز بعرش بيزنطة بودوان كونت فلاندر، الذي كان يناصره الفرنسيون، وهم كثرة في هذه الحملة، فأعلن نفسه ملكاً في كنيسة آية صوفيا؛ حيث تأسست على يديه مملكة اللاتين في القسطنطينية في ٩ مايو سنة ١٢٠٤ م. أما بونيفاس فقد استولى على سالونيك

---

(١) حكم الألمان ثلاث أسر، هي: السكسون ومن بعدهم الساليان ثم أسرة هوهنشتاوفن، التي حكمت من ١١٣٨ - ١٢٦٨ م، وشتاوفن هي قلعة في سوابيا. الدولة والإمبراطورية، ترجمة نسيم، ص ٢٢٥ وهامش (١).

وما يحيط بها ، كما استولى بعض البارونات على أجزاء أخرى من بلاد اليونان بما فيهـــا أثينا . وكذلك استولى دوق البندقية على مدينة طَرابزُنده أو أطرابزُندة التجـــارية الواقعة على ساحل البحر الأسود –أو بحر بُنطس كما يسميه العرب – وعلى رودس وكريت وغيرهمـــا . وفي الواقع ، أن مملكة البيزنطيين قد ضمرت جداً بسبب استيلاء السلاجقة على أراضيهـــا في آسية الصغرى ؛ بحيث أصبحت تشمل القسطنطينية وبعض البلقان .

ولكن دولة اللاتين هذه سرعان ما انهارت ، فالبُلغـــار الأعداء الألداء للبيزنطيين سابقاً ، كانوا قد تنصروا على مذهب هؤلاء ، فحاربوا هذه المملكة اللاتينيـة ، وأسروا الإمبراطور بدوان ، الذي توفي في الأسر ، كما قتلوا بونيفاس . ثم إن ميخائيل الثامن باليولوجس Michael VIII Paleologus (١٢٥٨-١٢٨٢م)– الذي يسميه العرب لشكري -تزوج من أسرة كومنينوس، وتمكن من طرد سلالة بدوان من القسطنطينية ، وأعاد دولة بيزنطة إليهـا ، وربما يكون استصرخ بترك آسية الصغرى .

إن هذه الحملة الصليبية الرابعة ، تسببت في إضعاف الصليبيين من ناحيـة، وبيزنطة من ناحيـــة أخرى ، وذلك في الوقت الذي كانت فيه قوة الإسلام آخذة في الإزدياد . ومع ذلك ، يذكر ابن واصل غارات كثيرة للصليبيين على ثغور مصر والشام بعد الإستيلاء على القسطنطينية [١] .

وليس أدل على أن الروح الصليبية لم تبق على قوتهـا الأولى ، من التمهيد للحملة الخامسة بحملة من الأطفال لإثارة نخوة الرجال. فقد ادعى أحد الصبيان الرعاة في فرنسا ، واسمه ستيفن Steven ، أن العذراء قد ظهرت له وطلبت منه أن يذهب إلى الأراضي المقدسة ، كما ظهر طفل آخر في ألمانيا ، اسمـــه نيقولا Nicolas ، رأى ذات الرؤيا . وبالفعل خرج آلاف الأطفال ،وركبوا المراكب ، ولكنهم لم يصـــلوا إلى بيت المقدس ، بسبب غرق معظمهم في الطريق إليها ، كما اختطف من بقي منهـم قراصنة أوربا ، وباعوهم حتى في

(١) مفرج الكروب ، ٣ ص ١٦٠ .

أسواق مصر [1] .

وعلى كل حـال أدى خروج الأطفال إلى قيام حملة منظمة من الطليان والفرنسيين ، بقيادة حنا دي بريين Jean de Brienne (١١٤٨ – ١٢٣٧م) ، الذي كان تزوج بماريا Maria ،ابنـــة عموري الثاني Amauri II ،ملك قبرس وبيت المقدس (+١٢٠٥ م) ، وأصبح له حق المحاربـة من أجل عرش بيت المقدس . ويبدو أن قيام دي بريين بهذه الحملة ، وهو شيخ قد ناهز الستين ، كان بتحريض البابا هونوريوس الثالث Honorius III (١٢١٦ – ١٢٢٧م) .

وقد وصلت الحملة إلى شواطىء مصر في [2] ١٢١٨/٦١٨ ، فألقت الحصار حول دمياط ، حيث استمر مدة تسعة أشهر أو سنة ، ثم تمكنوا من دخولها عنوة في شعبان ٦١٩ / نوفمبر ١٢١٩، بعد أن فني معظم أهلها . ويذكر المؤرخون أن أهلها قاوموا بشدة وأبلوا أحسن بلاء . فلما سمع الملك العادل بذلك توفي ، وجاء بعده ابنه الكامل ، الذي أراد أن يُبعد الصليبيين عن مصر ؛ فعرض عليهم رد بيت المقدس ، وجميع مـا كان صلاح الدين استرده من بلاد الساحل ، ما عدا الكرك والشوبك[3] لأهميتهما الاستراتيجية، وتسليم صليب الصلبوت ، الذي كان صلاح الدين أخذه لما استولى على بيت المقدس . وربما كان الكامل مدفوعاً إلى مثل هذا العرض ، بسبب عدم استتباب الأمن

---

(١) عن تفاصيل حملة الأطفال ، انظر . Runciman : A History of the Crusades. Cambridge, 1953, 3, pp. 139 — 144. ، Muir : The Lost Crusade. A Novel. London. Cf. ؛ وفي غيرهما من الأدب الإنجليزي.

(٢) العبر ، ٥ ص ٣٤٤ - ٣٤٥ ، ٣٤٩ ؛ ابن الأثير (R. H. C. or) ص ١١١ - ١٢٥ ؛ مفرج الكروب ، ٣ ص ٢٧٠ وما بعدها ؛ الخطط ، ١ ص ٣٤٨ وما بعدها ؛ معجم البلدان ، ٤ ص ٤٨٨ ؛ وأيضاً .

Scriptores minores Quinti Sacri. Belli., ed Rohricht, 1879.

انظر . Meyer (Paul) : La prise de Damiette en 1219.Relation, inédite en provençal. Paris, 1877.

(٣) الخطط ، ١ ص ٣٥٢ س ١٣ .

عنده ، وقيام مؤامرة ضده [١] . وقد رأى حنـّا دي بريين قبول مثل هـذا العرض السخي ، الذي يحقق غرض الحملة ، ولكن مندوب البابا رفضه .

فأعلن الكامل النفير العام، وهي كلمة تعني التعبئة العامة في ذلك الوقت. وبحسب النص الذي أورده المقريزي ؛ فإن المصريين أتوا من كل مكان من القاهرة ومصر ، وسائر النواحي ، بين أُسوان والقاهرة[٢] ، مما يؤكد دور المصريين في هذه الحروب الطاحنـــة بين الشرق والغرب . فيزحف الكامل بالمصريين ليعسكر بهم في قرية قرب دمياط ، ُسميت بالمنصورة لما يتفاءل بها من الإنتصار على الصليبيين ؛ حيث ُجعلت المنصورة خط الدفاع بين الفرنجة والمصريين . وقد استعد الكامل لحرب طويلة الأمد ، فبنى فيها الأسواق والدور . وكان أهـــل مصر كما لاحظ المقريزي ، يكرّون على الصليبيين ، أكثر مما تكرّ عليهم العساكر الكردية ، وهم الجند الخاص بسلاطين الأيوبيين.

ويظهر أن الصليبيين ظنوا أن الخوف سيطر على المصريين ، فامتنعوا من المهاجمة ؛ ولذا أمر الصليبيون بالزحف على القاهرة . ولكن المصريين فضلوا إغراق بلادهم على التسليم ، فقطّعوا السدود ، حتى أن الصليبيين وجـــدوا أنفسهم محاصرين بالمـــاء ، وقد أحاط بهم المصريون من كل جانب . وبذل الصليبيون محاولات يائسة للخروج من هذا المأزق ، وأقروا التقهقر ، فحرقوا خيامهم ، ودمروا عتادهم ، ثم طلبوا الصلح ، لكي ينجوا بجلودهم فصالحهم السلطان الكامل في رجب ١٢٢١/٦١٨ ، وأقر الهدنة بينه وبينهم لمدة ثماني سنين [٣] ، أي أن مدة نزول الفرنج على دمياط إلى أن أقلعوا عنهـا كانت أكثر من ثلاث سنين .

وعلى الرغم مما أرتكبه الصليبيون من مآثم في دميـــاط ، لدرجة أنهم

---

(١) يقال إنها من قبل عماد الدين أحمد بن المشطوب ، الذي كان أبوه قـــد دافع عن عكة . أنظر Meyer, p. 517 .

(٢) الخطط ، ١ ص ٣٥١ س ٢٤ ، ٢٦ .

(٣) نفسه ، ١ ص ٣٥٣ س ١٣ .

فجروا بالنساء في الجامع[1]،بعد ان استولوا عليها ؛ فإن الكامل أظهر الرحمة نحو أسراهم ، متبعاً في ذلك سنّة جدّه صلاح الدين . كما سمح لفرنشسكو داسيسي[2] Francesco d'Assisi (١١٨٢—١٢٢٦ م) ، وهو الكاهن المشهور، ومؤسس جماعة الرهبان الفرنشسكان أو الأخوان الفقراء ، بالمجيء إلى القاهرة للوعظ فيها ، وسمح له أيضاً بزيارة بيت المقدس . وشخصية هذا الكاهن المسيحي على شيء من الطرافة ؛ فهو لم يكن يهمه حرب المسلمين ، ولا يحقد عليهم ويتمنى حرقهم ، مثلما كانت حال غيره من رجال الدين في وقته ، وإنما يريد مصالحتهم ، ويسميهم أخوته ، ويرى أن له رسالة نحو المسلمين هي أن يدعوهم إلى التنصر فدعاه السلطان الكامل إلى وعظه،واستمع إليه بشغف ، وطلب منه أن يبقى في مصر . ولكن فرنسوا رد قائلاً : إذا أردت أن تتنصر ويتنصر شعبك ، فلأجل حبه ، أي حب المسيح ، أبقى بينكم . كذلك عرض على السلطان أن يقوم أمامه بما يُعرف إصطلاحاً بالمباهلة،وهو أن يدخل في نار مشتعلة ؛ فإذا خرج منها سليماً ، تحوّل السلطان وشعبه إلى المسيحية؛ أما إذا إحترق ؛ فإن ذلك يكون د بب خطاياه . ولكن السلطان رأفة به، رفض هذا العرض ، الذي كان يعرف نتيجته مقدماً ، كما حاول أن يغريه بالمال والهدايا ، ولكنه رفض قبولها ؛ فكان هذا موقفاً نادراً بالنسبة للمسيحيين في ذلك الوقت .

وبذلك فشلت هذه الحملة ، ولم تحقق هدفها . وبعد إنسحابها وصلت نجدة من ألف مركب ، فلما علمت بعقد الهدنة أقفلت راجعة . ولولا أن الأقدار جعلت الصلح يحدث قبل وصولها ، لكان حدث ما لم يكن في الحسبان . وكذلك ذهب حنا دي بريين بعد الصلح إلى القسطنطينية ، حيث عيّن وصياً على ملكها الصغير الذي لم يلبث أن توفي ، فتولى مكانه . إلا أن البُلغار

---

(١) ابن العماد ، شذرات الذهب ، ه ص ٦٦ .

(٢) أنظر . Guilio Bassetti : Mohammed et Saint, François . Ottowa, 1959, p. 37 s qq; p. 169 s qq . Encicl. Italiana, XV, p. 843 sqq.

واليونان حاربوه وحاصروه في القسطنطينية ، وأضطروه إلى الخروج منهـا ؛ وإن كان هو لم يلبث أن توفي ١٢٣٧ م ، وسقطت القسطنطينية بالتـــالي بين أيدي اليونان كما ذكرنا .

أمـــا الحملة الصليبية السادسة ، فهي حملة الإمبراطور فردريك الثاني Frederick II [١] (١١٩٤ – ١٢٥٠ م) ، ملك الألمان ، الذي يسميه العرب ملك الألمان الملقب إنبرور ، أي الإمبراطور [٢] . وكان المفروض أن يشترك في الحملة السابقة ، ولكنه كان يعتذر المرة تلو المرة . ولما كان البابا هونوريوس Honorius III (+ ١٢٢٧م) ، يريـــد أن يستحثه على الذهاب في حملة صليبية ؛ فقد رتب له الأمور بأن زوّجه بابنة الملك حنا دي بريين ، المسماة يولاندا Yolanda (وربما إيزابيلا Isabella) ؛ ممـــا جعل له الحق في عرش بيت المقدس . ومع ذلك ؛ فإن البابا الذي أتى بعد هونوريوس ، وهو جريجوري التاسع Gregory IX (١٢٢٧ – ١٢٤١ م) [٣] ، اعتبره عاصياً ، لانه لم يكن متحمساً للذهاب لقتال المسلمين ، وأعلن حرمانه أي قطعه من رحمة الكنيسة .

ولكن فردريك الثاني ، الذي عاش معظم الوقت في صقليّة المتـــأثرة بالروح العربية ، وكان وريثاً للنورمان فيها ، بالإضافة إلى عرش ألمانيا ، وراسل

(١) Biehringer : Kaiser Friedrich II. Berlin, 1912 ؛ Kington : History of Frederick II. 2 vols. London, 1862. ؛ Ency. Britannica 6, p. 832 - 833. ؛ Atiya : Crusade, p. 88 - 89.

(٢) أماري، المكتبة الصقلية، ص ٣٢٢ . نقلاً عن كتاب سيرة الآباء البطاركة . وأنظر . الكامل ، ٩ ص ٣٧٦ ، ٣٧٨ ؛ وغيرها .

(٣) أنظر . Balzani : The Popes and the Hohenstaufen. London, 1888.

– كملوك النورمان – علماء العرب مثل الفيلسوف ابن سبعين [1] ، وجاء للشرق ومعه معلمه من صقلـيّة يقرأ عليه المنطق [2] ؛ فإنه أوجد للمسألة الشرقية حلاً غير منتظر ؛ إذ بدلاً من أن يحارب المسلمين في الشام ، حاربهم قليلاً ، ودخل معهم في مفاوضات طويلة ؛ وربما كان السبب أيضاً أنه لم يجد تعاوناً من قبل الصليبيين في الشرق ، بسبب كونه محروماً . فتمكن من الوصول إلى عقد معاهدة مع السلطان الكامل لمدة عشر سنوات وخمسة أشهر وأربعين يومـاً ، وذلك في ٦٢٦ / ١٢٢٩ [3] ، بمقتضاها يأخذ المسيحيون الأوربيون إلى جانب ما في حوزتهم من المدن الساحلية ، الناصرة وبيت‌لحم ، وطريقاً يصل بين ميناء عكـّة وبيت‌المقدس ، وعلى الخصوص بيت المقدس ؛ مما جعل المسلمين يبكون لضياعه بهذه البساطة ؛ ويستنكرون إتفاق الكامل مع فردريك . ولقد بقي بيت المقدس في أيدي الصليبيين إلى عام ١٢٤٤/٦٤٢ [4] ؛ إلى أن تمكنت جماعة من ترك خُوارزم أثناء هروبها أمام هجوم المغول من أخذه ، وذلك بتحريض الأيوبيين في مصر .

ومع أن البابا لم يرض عن هذا الإتفاق في أول الأمر ؛ إلا أنه بعد ذلك قبله ؛ وإن كان لم يرض الرضاء الكافي عن ليونة فردريك ، فأعلنها حرباً شعواء ضد أسرته : هوهنشتاوفن Hohenstaufen (Staufen) ، التي ما لبثت أن سقطت في ١٢٦٨ م ؛ لأن أمراء من الفرنجـة في البحر الأبيض تطلعوا إلى وراثتها في صقلـيّة .

---

(١) نسخة من هذه المراسلات موجودة في مكتبة أكسفورد .

(٢) عقد الجمان ، ١/١٨ ، ورقات ٨٢ – ٨٣ ؛ السلوك ، ١ / ١ ص ٢٣٢ وهامش . عن أثره على الثقافة ، انظر . Haskins : Studies in Mediaeval Culture. New York, 1929, p. 124 - 47.

(٣) الكامل ، ٩ ص ٣٧٨ ؛ السلوك ، ١/١ ص ٢٣٠ – ٢٣١ . يذكر المقريزي أن الكامل هو الذي استدعاه بسبب عداء بينه وبين أخوته في الشام ؛ وإن لم يحدد اسم فردريك ، وقال ملك ملوك الفرنج . السلوك ، ١/١ ص ٢٢١ – ٢٢٣ .

(٤) السلوك ، ٢/١ ص ٣١٦ .

ولكن أوربا ، على خلاف فردريك[١] ، كانت ما تزال تمقت المسلمين مقتاً شديداً ، وتقدّر أن شوكة الإسلام ، لا تُكسر إلا باحتلال مصر ، زعيمة العالم الإسلامي ؛ فقامت بالحملة الصليبية السابعة ، ومعظمها من الفرنسيين . وقد تزعمها ملك فرنسا : لوي التاسع Louis IX ، الذي يسميه العرب لويس ابن لويس ، أو ري أو رواد الأفرنسي ، أي Roi ملكهم . ويُذكر أن ملك فرنسا قام بهذه الحملة وفاءً لنذر نذره ، إذا شُفي من مرضه ، وقد قام البابا أنسونت الرابع Innocent IV ، بالدعوة لها . ولدينا وصف مسهب عن هذه الحملة في ما كتبه عدد لا بأس به من المؤرخين المعاصرين ، وخصوصاً الفارس جوانفيل Joinville [٢] .

فترك ملك فرنسا شؤون مملكته في يد أمه بلانش القشتالية Blanche de Castille ، وذهب على رأس حملته إلى الشرق ماراً بقبرس ، التي كانت خاضعة لأسرة جي ؛ حيث شتى هناك . وقبل أن يهاجم دمياط ؛ كتب إلى السلطان يقول [٣] : إنه يسوق المسلمين في الأندلس سوق البقر ، ويقتل منهم الرجال، ويرمّل النساء، ويستأسر البنات والصبيان ، وأن عدد عساكره كمدد الحصى ، ويدعوه إلى الخضوع له . وقد رد عليه الملك الصالح أيوب مهدداً إياه بالفناء ، وواصفاً إياه بالغرور ، ومذكّراً إياه بالهزائم التي لحقت بالصليبيين في الشام .

---

(١) يقول القريزي إن الإمبراطور ملك الفرنجة الألمانية بجزيرة صقلـيّة ـ وفي يقيننا يقصد فردريك ـ أخبر السلطان نجم الدين عن طريق رسوله بعزم ملك فرنسا على المسير إلى أرض مصر وأخذها ؛ وهو ربما فعل ذلك حفظاً لوعده في احترام السلم . الخطط ، ١ ص ٣٥٣ .

(٢) أنظر . Joinville : Histoire de Saint Louis. Texte original, du XIVe siècle, accompagné d'une traduction en Français moderne, par Wailly. Paris, 1874.
عن الحملة ، انظر مصادر أخرى مثل: ابن واصل ، وابن العبري ، والمقريزي، وابن خلدون ؛ وأيضاً : جوزيف نسيم ، لويس التاسع في الشرق الأوسط ؛ زيادة ، حملة لويس التاسع على مصر .

(٣) مثلاً : الخطط ، ١ ص ٣٥٤ .

ولكن لما وصلت الحملة إلى دمياط في ١٢٤٩/٤٧١ ، لم تجد مقاومة تذكر من قبل حاميها ، التي كان أغلبها من مماليك الترك ؛ فقد هرب هؤلاء منهـــا جبناً ؛ على الرغم من أن الحامية كانت مشحونة بالمقاتلة ، والأزواد العظيمة ، وذلك خوفاً من أن يصيبها ما أصابها في أيام الكامل ، حيث كانت قلة الأقوات سبب تسليم المدينة ، التي قاومت مع ذلك حوالي السنة. وقد وبّخ السلطان ، الذي حضر من دمشق محمولاً على محفة ؛ عساكره وعاقب رؤساءهم ؛ فشنق منهم ما يزيد على خمسين أميراً ؛ وذلك بفتوى الفقهاء [١] .وفي الوقت عينه ، دُعي المصريون بالنفير العام ، فجاؤوا من كل مكان نحو المنصورة ، التي عمل السلطان على إصلاح سورها . ويذكر ابن إياس أن المصريين كانوا من العوام والفلاحين ، ومنهم من كانوا يحاربون بالمقاليع والحجارة ، ويقاتلون أكثر مما يقاتل جيش السلطان [٢] .

وما لبث السلطان أن توفي ؛ وكانت له جارية اسمها شجرة الدر ، وهي إمرأة ثقة يتركها زوجها تحكم في القاهرة باسمه أثناء غيابه ، فأخفت هـذه موت زوجها ؛ حتى لا تضعف المقاومـــة ضد الصليبيين . وكانت إذا سأل سائل عن السلطان ردت بأن السلطان مريض،ما يصل إليه أحد[٣].ثم عهدت بالقيادة إلى أحد المماليك واسمه بيبرس البندقداري ؛ وهو رجل اشتهر بالجرأة في القتال ، وسيقوم بدور مهم في القضاء على الصليبيين .

فلما علم الصليبيون بموت السلطان ،عقدوا مجلساً من البارونات ؛ للإستفادة من هذه الظروف.واقترح بعضهم مهاجمة الإسكندرية والإستيلاء على شواطىء مصر كلها.ولكن أخا الملك المسمى روبير أرتوا Robert comte d'Artoi،وهو فـارس متحمس ، أقر الهجوم على المنصورة ، ثم السير بعدئذ على القاهرة . ودهم الفرنسيون المنصورة ، وانتشروا في أزقتها ، واستخدموا النفط في حرق

---

(١) نفسه ، ١ ص ٣٥٥ س ٢١ .

(٢) ابن إياس ، ١ ص ٨٤ ، ٨٦ .

(٣) السلوك ، ٢/١ ص ٣٤٦ ؛ الخطط ، ١ ص ٣٥٨ .

المعابر [1] . ولكن سكانها صدوهم ، وأمطروهم وابلاً من الحجارة والطوب ، وقطعوا السدود لإغراقهم ، كما حدث في الحملة السابقة .

وكان قـــد وصل في ذلك الوقت وليّ العهد توران شاه ، الذي أبدى إقتراحات جديدة في مقاومة الصليبيين . ثم قام على رأس المصريـــين بهجوم فجائي ، بدأه من فارسكور [2] قرب المنصورة ؛ فتحول نصر الفرنسيين إلى كارثة : فقتل من الصليبيين أكثر من ثلاثين ألفاً ، من بينهم أخو الملك روبير ، وتبعه انسحابهم إلى دمياط وقد قام توران شاه بالهجوم على الملك بنفسه ، فأسره وعدداً كبيراً من البارونات والفرسان والجنود ، بلغ ما يناهز مائة ألف . وحينما وقـع ملك فرنسا أسيراً ، سُلم للطواشي صبيح المعظمي ، وحُبس في دار ابن لقمان [3] . ولدينا قصائد كثيرة عن هذا النصر العظيم .

وقد عقد توران شاه ، الذي أصبح لقبه : الملك المعظّم ، مع ملك فرنسا اتفاقاً يسلمه الملك بمقتضاه دمياط ، على أن يفك أسره وأسر كبار الأسرى بعد دفع دية عظيمة ، منها ٨٠٠ ألف قطعة ذهبية فداء للملك ، فضلاً عن أخذ كل مؤنهم وما أتوا به إلى دمياط ، وأن يُطلق سراح أسرى المسلمين . وكذلك أراد توران شاه أن يستفيد ، إلى أقصى حد ، من هذا النصر ، بأن يُخلي الفرنجة معاقلهم في الأراضى المقدسة ، أو تلك التي تتبع فرسان الداوية والإسبتارية . ولكن لويس تعلل بأنه ليس من حقه أن يتنازل عن بلاد ليست ملكاً له . فدفع الملك الفرنسي نصف الدية ؛ ولكنه لم يرجع إلى بـلاده ، وإنما التجأ إلى عكّـة ؛ ومن هناك كتب إلى الشعب الفرنسي يخبره بحقيقة ما

---

(١) أنظر . Ayalon : Gunpowder and Fire arms in the, Mamluk kingdom. London, 1926, p. 12 -13.

(٢) الخطط ، ١ ص ٣٥٩ س ١٤ ، ٣٥٨ س ٢٣ . تقول بعض المصادر إن أخا الملك ـ ولعله روبير ـ قد أسر ، وربـــا الذي أسر أخ آخر له ؛ كما أُختلف في عدد القتلى ، فقيل عشرة آلاف .

(٣) العبر ، ٥ ص ٣٦٠ .

حدث ، ويدعوه إلى المجيء لمحاربة المسلمين [1] .

وفي أثناء أسر الملك الفرنسي ، دبرت فرنسا حملة صليبية كانت في طريق التجمع . فقد زعم أحد الرهبان [2] ، أنه تلقى الأوامر من مريم العذراء لجمع الناس ، والذهاب لنجدة الملك. فكان أغلب من جمعهم من العبيد أو الفلاحين، الذين اتخذوا شارة الصليب شعاراً ،وعُرفت حملتهم : بصليبية الرعاة ولكن اللصوص وقطاع الطرق انضموا إليهم ، وأخذوا يُغيرون على القرى والبيوت؛ مما جعل الملكة بلانش التي تركها الملك مكانه ، تعمل على قمع حركتهم ؛ لأنه قيل عنهم إنهم مأجورون من قبل سلطان مصر، ولم تذهب الحملة إلى مصر . كذلك غرق المال الذي بُعث به إلى لويس ليعاود القتال في الطريق ؛ كل ذلك كان مما ثبط الهمم في معاودة الهجوم على مصر أو الشام .

ولكن الذي شجع الملك الفرنسي على البقاء في الشام ، وأبقى له الأمل في غزو المسلمين من جديد ، هو سوء أحوال المسلمين في الشرق الأوسط ؛ بسبب إنفصام وحدتهم . فقد وقعت مصر في يد عسكر الملك الصالح أيوب ، وهم الذين عُرفوا بالمماليك البحرية [3] ، وتزعمهم رجل اسمه أيبك ، دخل في حرب مع الأيوبيين في الشام . أما الشام ذاته ، فقد توزعته إمارات الأيوبيين المتعددة ، بزعامة واحد منهم هو الملك الناصر [4] ، وهؤلاء يحقدون على المماليك في مصر ، بسبب قضائهم على الدولة الأيوبية فيها . ثم هناك فرقة الإسماعيلية

---

(١) نص الخطاب يوجد مترجماً في : Michaud Hist. des, Croisades IV, 619 - 631.

(٢) أنظر . Mathew Paris : Transl, from Latin by Giles. London, 1852 - 3, 2 p. 451 - 6.
نسيم ، لويس التاسع في الشرق الأوسط ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ١٠٥ .

(٣) عنهم ، انظر . الخطط ، ٣ ص ٣٨٤ وما بعدها ؛
وأيضاً : Ency. de l'Isl, (art Mamlüks) t 3, p. 230 sqq; (art al-Bahriyya) 2éd, t1, p. 973-974; (art Rawda) t3, p. 1211 ؛
Ayalon : Le régiment Bahriyya, dans R. E. I., 1952, p. 133 sqq.

(٤) هو الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن العزيز صاحب حلب .

في الشام ، التي انتشرت بعد زوال الفاطميين من مصر ، وتزعمهم رجل اسمه شيخ الجبل [1] ، وكانوا يحاربون الأيوبيين ، الذين قضوا على الفاطميين ، كما يحاربون الصليبيين ، وهددوا باغتيال الملك الفرنسي ، وسماهم الصليبيون : Assacis ، وهو الاسم الذي أُطلق عليهم لكثرة قتلهم ، وتحول إلى لفظة : Assassins [2] .

فنجد الملك الفرنسي يعمل على إذكاء العداوة بين المصريين والشاميين ، ويستفيد من ذلك لتحسين مركز اللاتين في الشام . ولكننا نشك في أن المصريين اتفقوا معه ضد الأيوبيين في الشام ، كما تحاول مصادر الفرنجة أن تؤيد وجود إتفاق عسكري بينه وبين المماليك ، ولكنه لم يتم [3] . وربما كان هذا الإتفاق بشأن تصفية مسألة الأسرى ، والدليل على ذلك أنه لما صالح خليفة المسلمين الأيوبيين مع المماليك ، وأوقف نزاعهم ؛ حاربوه معاً ؛ مما جعله يقيم استحكامات حول مملكته .

كذلك أراد الملك الفرنسي الإستفادة من تحركات المغول (أو المغل أو حتى التتر) الفجائية في أقاصي آسيا ووسطها ، بزعامة جنكيزخان (جنجيزخان) ، وتوسعت على حساب الدول الأسيوية . فاتصل بهولاكو (هولاجو) حفيدجنكيزخان، الذي كان قد توجه لحرب المسلمين ؛ وكان هولاكو نفسه متزوجاً بمسيحية ، اسمها دوقوز خاتون ، وابنه أباقا (أبغا)

---

(١) عنهم بتفصيل ، انظر . الشهرستاني ، الملل والنحل ، تحقيق Cureton ، ص ١٥٠ وما بعدها ؛ Ency. de l'Isl, (art Ismailiya) t 2, p. 586.

(٢) أنظر . Joinville, 248 ; 250 ; 252 ; 332 . هـذه التسمية آتية من تسميتهم بالحشيشية أيضاً ، لأن مؤسس فرقتهم حسن بن الصباح (م ٥١١/١١٢٤) ، الذي زار مصر في سنة ٤٧١/١٠٧٨ ، وأفهمه الخليفة المستنصر بأن نزاراً - إمامهم الأول - سيكون وليّ عهده ، كان يعطي المستجيبين لدعوته الحشيش الذي اكتشفه في مصر ، ويوجههم لقتال أعدائه ؛ خصوصاً بعد أن استولى على قلعة ألموت في إيران سنة ٣٨٣/١٠٩٠ - ١٠٩١ . عن ذلك بتفصيل ، انظر . الكامل ، ٨ ص ١٧٢ - ١٧٣ ؛ Ency. de l'Isl, (art al - Hasan B. al - Sabbàh) t 2, p. 293.

(٣) أنظر . Joinville, 282 ; 284 ؛ نسيم ، ص ١٥٧ ، ١٦٠ .

متزوجاً بابنة ملك الروم ميشيل Michael ، التي سماها المغول دسبينا Despina .
ومن ناحية أخرى ، كانت البابوية مثل لويس ، تحلم بالتحالف مع المغول ، وتريد أن تستعين بهم في كسر شوكة المسلمين ، الذين لم يستطيعوا أن يقتلعوهم بأنفسهم. ولكي يحقق البابا أو لويس ذلك ، أرسل رسله من رهبان الفرنشسكان إلى المغول ، الذين كان معظمهم من الوثنيين ؛ وذلك حتى قبل أن يهاجم لويس مصر . فلقد أرسل إليهم وليم الروبروكي Guill. (William) de Rubruck [1] ؛ وإن كان روبرك لم يعد إلا بعد أن كان لويس رحل من الشام إلى بلاده ، بسبب موت أمه بلانش القشتالية .

★

وأمام هذا التهديد الصليبي ، بذل حكام مصر الجدد من المماليك ، مجهودهم في الشرق ، لتوحيد القوى فيه ضد الصليبيين ، ولا سيما أنه بات لا يُرجى من الأيوبيين في الشام أي خير للمسلمين؛ فقد اتخذوا سياسة التسامح مع الصليبيين، وتحالفوا معهم ضد حكام مصر الجدد . وبعكس الأيوبيين ، أظهر المماليك حماسة قوية للإسلام ؛ فأصبح همّ أيبك ، وهو أول سلاطينهم ، توحيد مصر والشام ، بقصد القضاء على الصليبيين فيها ؛ وفعلاً تم له إخضاع الأيوبيين ، وهزم الملك الناصر زعيمهم. ولكن المماليك فوجئوا بهجوم المغول، واستيلائهم على بغداد ، حيث قتلوا الخليفة العباسي فيها ، ثم هاجموا في الشام ، وإن كان المماليك انتصروا على المغول بقيادة قطز – الذي جاء بعد أيبك – انتصاراً هائلاً في موقعة عين جالوت ، مما ترتب على ذلك إتحاد مصر والشام من جديد، والعمل بعد ذلك، للقضاء على الصليبيين .

وفي ذلك الوقت ، ظهر من بين المماليك بيبرس ، الذي كان مملوكاً أعور، فارتقى إلى السلطنة بعد قطز ، وأظهر حماسة هائلة في حرب الصليبيين؛ مما

---

(١) أنظر . Rockhill : The Journey of William of Rubruck to, the eastern part of the World. London, 1900.
؛ نسيم ، لويس ، ص ٢٥٤ ؛ باركر ، الحروب الصليبية ، مترجم ، ص ١٦١ .

جعل القصص الشعبية تخلّد اسمه . فهاجمهم مرات عدة ، ودخل أنطاكية في ١٢٦٨/٦٦٦[١] ، أثناء غيبة حاكمها بيمند في طرابلس ، حيث كان اشترك مع المغول في مهاجمة الشام . فأعدم حاميتهامن الرجال ، وسبى كثـــيراً من أهلها ، إذ كان بها أكثر من مائة ألف باعهم في الأسواق ، كما أرسل رسالة تهكم ساخـرة إلى أميرها [٢] . وبذلــــك خلـّص بيبرس المسلمين من خطر إحدى الإمارات الصليبية القوية ؛ فكان بذلك لا يقل عن شخصيــة زنكى ، الذي خلـّصهم من إمارة الرّها ، وصلاح الدين الذي استولى على بيت المقــدس . ثم استولى بيبرس من الصليبيين على مدن متفرقة في الساحل ، وفي داخل البلاد ، وهادن صاحب عكـّة ؛ كما اضطرت إمارة طرابلس ـ وهي الباقية ـ إلى عقد الهدنة معه[٣] .

وأمام إنتصار بيبرس جاء إلى عكـّة الأمير إدوارد Edward ـ الذى صار فيما بعد إدوارد الأول ملك الإنجليز ـ فوصل إليها في ١٢٧١/٦٦٩[٤] ، ومعه أخوه ؛ إلا أن حملته ، مع أهميتها ، لم تأت بنتيجة بالنسبة للحركة الصليبية ؛ إذ انتظر ، دون جدوى ، معاونة المغول . ولما أصبح ملكاً ، كان يتصـل بأباقا (أبغا) بن هولاكو إيلخان المغول ؛ إلا أنه رد على أباقا في ٢٦ ينــــاير ١٢٧٤/١٦ رجب ٦٧٣ ، بكتاب اعتذر فيه بأن البابا لم يرتب الأمور بعد[٥] .

---

(١) السلوك ، ١/٢ ص ٥٦٧ .

(٢) نصه في : النويري ، نهاية الأرب ، مخطوط بـــدار الكتب برقم ٥٤٩ معارف عامة ، ٢٨ ورقة ٩٤ وما بعدها ، انظر . سرور ، دولة الظاهر بيبرس ، القاهره ١٩٦٠ ، ص ٧٩ .

(٣) السلوك ، ١/٢ ص ٥٧١ ، ٥٩٢ - ٥٩٣ . كان صاحب عكة أوك بن هيو ، وهو ابن أخت صاحب قبرس المسمى أيضاً أوك . العيني ، عقد الجمان في: R.H.C. or, 11, 1 ؛ ص ٢٣٦ .

(٤) السلوك ، ١/٢ ص ٥٩٢ ؛ انظر . Stevenson
The Crusaders in the East. Cambridge, 1907, p. 345.

(٥) أنظر . D'hsson : Hist. des Mongols. Amesterdam, 1852, t3, p. 543-4 ; طه بدر ، مغول إيران بين المسيحية والإسلام ، ص ٩ .

وكانت أشد الحملات الصليبية نحو الشرق ، حملة لويس الجديدة ، التي عُرفت بالحملة الثامنة . فبعد رجوعه إلى بلاده ، حيث استراح قليلاً ، عمل على إعداد حملة مؤلفة من عشرة آلاف شخص . وقد خاف المسلمون خوفاً شديداً من هذه الحملة ، بسبب أضطراب الأحوال في الشرق بمجيء المغول ، وسعى لويس إلى الإتفاق معهم . ولكن هذه الحملة بدلاً من أن تتجه نحو مصر أو الشام ، إتجهت نحو تونس [1] . ولعل لويس قدّر الفوز في تونس بعد إخفاقه في مصر ، ثم في الشام ، وخصوصاً أن حكام تونس من الحفصيين ، كانوا قد ضعفوا بسبب مقاومتهم الطويلة للموحدين .

فسارت الحملة إلى جنوة ، ومنها بمحاذاة الساحل الطلياني نحو تونس . ولكن شعب تونس مثل شعب مصر ، لقنّ لويس درساً قاسياً . وقد كانت الحملة في عهدالباي أبي عبدالله المستنصر بالله [2] ٦٤٧ -٦٧٥ / ١٢٤٩-١٢٧٧، الذي أخذ لقب أمير المؤمنين ، بعد أن استولى المغول على بغداد ، وأعتبر نفسه خليفة لخليفة بغداد . ويبدو أن هزيمة لويس تعود أيضاً إلى انتشار الطاعون بين جنده ؛ حتى أن الملك الفرنسي نفسه مات متأثراً بهذا الوباء أثناء الحصار .

ومع أن هذا الملك قد فشل في حربه ضد المسلمين في جميع الحملات التي قام بها ؛ إلا أن تحمسه للمسيحية ، أوجدت له نوعاً من النفوذ الروحي ،الذي يتعارض مع إنكساره ،حتى عُرف بالقديس Saint .وبفضل هذا الملك –على كل حال – ثبت اسم فرنسا في الأذهان ، أكثر مما حدث في كل الحملات الصليبية السابقة . ومنذ ذلك الوقت ، رُسمت أطماع الفرنسيين في شمال إفريقيا ، وأصبحوا يتربصون بالفرص ؛ للإنقضاض عليها .

---

(١) أنظر . Joinville : Op. cit, 396. ؛ السلوك ، ١ص ٦٠١ ؛ الخطط ١، ص ٣٦١ - ٦٢ .

(٢) بتفصيل ، انظر . زامباور ، معجم الأنساب ، ١ ص ١١٥؛
Ency. de l'Isl, (art Hafsides) t 2, p. 230.

وبعد ذلك ، حدثت فترة خمول من جانب المسلمين ، الذين قعدوا عن إسترداد البقية الباقية من مدن الصليبيين في ساحل الشام ، وربما كان ذلك بسبب إنقسام أبناء بيبرس ؛ وإن عاد قلاوون وأبناؤه فقضوا نهائياً على الصليبيين في الشام .

فقد وجه قلاوون همه نحو مهاجمة طرابُلس ، وهي الإمارة الأخيرة للصليبيين، فحاصرها مدة أربعة وثلاثين يوماً، واستولى عليها في١٢٨٩/٦٨٨ . وقد ساعده على ذلك ، سوء أحوال الفرنجة ، بسبب إنقسامهم من جهة ، ثم مصالحته للملك صقلّيّة من ناحية أخرى ، ولدينا نص الإتفاق . ولما استولى عليها بعد مقاومتها الشديدة ، ذبح أهلها جميعاً [١] ؛ بسبب حزنه على ولد مات له .

ثم يأتي السلطان الأشرف خليل ، ويقيم الحصار حول عكة ، بأكثر من مائة ألف ، ويستولي عليها في ١٢٩١/٦٩٠ [٢] ، وكانت هذه آخر معاقل الصليبيين في الشام . وهكذا انتهت مملكة الفرنجة في الشرق الإسلامي ؛ وإن تكن انتقلت بقاياهم إلى قبرس وردوس ومالطة . وقد قال الأبوصيري ناظم البردة ، في ذلك :

وقد أخذ المسلمون عكا	وأشبعوا الكافرين صكاً
وساق سلطاننا إليهم	خيلا تدك الجبال دكاً
وأقسم الترك منذ سارت	لن يتركوا للفرنج ملكاً [٣]

(١) السلوك ، ١/٣ ص ٧٤٧ ؛ النجوم، ٧ ص ٣٢١ ؛ العبر ، ٥ ص ٤٠١ - ٤٠٣ ؛ ابن حبيب ، درة الأسلاك في دولة الأتراك ، مخطوط (B. N) ، برقم ٤٦٨٠ ، ١ ورقات ١٥١ وما بعدها .

(٢) ابن إياس ، ط . بولاق ، ١ ص ١٢٣ ؛ ابن تغري بردى ، مورد اللطافة ، تحقيق Carlyle ، ط Cantabrigiae ، ١٧٩٢ ، ص ٤٥؛ابن حبيب ، ١ ورقات ١٦٣-١٦٤ ؛ انظر . Schlumberger : Prise de Saint Jean d'Acre en l'an, 1291, par l'armée de Soudan d'Egypte. Paris, 1914.

(٣) ابن إياس ، ١ ص ١٢٤ .

وحاولت أوربا أثناء حصار عكّة – آخر معاقل الصليبيين – أن تثير حرباً صليبية جديدة ، وذلك بالاتفاق مع المغول . فتواعد أرغون إيلخان المغول في إيران ، مع فيليب الجميل Philippe le Bel (١٢٨٥ –١٣٤٠م) ملك فرنسا، وإدوارد الأول Edward I ، ملك إنجلترا ، على غزو مصر . ولكن أرغون ما لبث أن توفي والأشرف يحاصر عكّة[1]، كما انشغل ملوك أوربا بمسائلهم الداخلية ؛ فكان ملك فرنسا يحارب في الأراضي الواطئة، وملك إنجلترا يقاتل في إسكتلندا، حتى أن البابا بونيفاس الثامن Boniface VIII (١٢٩٤ – ١٣٠٣ م) ، انشغل بنزاعهما .

ولدينا من ناحية أخرى ، مراسلات[2] بين ملوك ملوك المسيحية بإسبانيا مثل ملك أرغون خيمي (أو جاك) الثاني Jaime II (١٢٩١ -١٣٢٧م) ، وسلطان مصر الملك الناصر محمد ، تدل على وجود محاولات للوصول إلى اتفاق بخصوص الأماكن المقدسة . ومع أن البابا نيقولاس الرابع Nicolas IV (١٢٨٨ – ١٢٩٢م)[1]، حرم خيمي هذا ؛ إلا أنه استمر في اتصالاته. وحينما ألغى البابا بونيفاس[2] الثامن ، قرار الحرمان عنه ، وطلب منه حمل الصليب والذهاب إلى الأراضي المقدسة ؛ فإنه يذهب .

وبعد ذلك ، اقتصر نشاط الصليبيين في استعطاف المماليك كي يعاملوا المسيحيين في الشرق معاملة طيبة، وبخاصة الأسرى الصليبيين ؛ حسبما ظهر من المراسلات بين خيمي هذا والناصر[3] . ويبدو أن الناصر طمأن خيمي على

---

(١) الجزري ، جواهر السلوك في الخلفاء والملوك ، تكملة لمرآة الزمان لسبط الجوزي ، مخطوط (B. N.) ، برقم ٦٧٣٩ ، ورقة ١٠٤ (١٥٤) ؛ انظر . Cavaignac :
L'Empire. Mongal. 2ème phase. Paris, 1927, p. 2.

(٢) أنظر . Finke : Acta Aragonensia 3 vols. Berlin - Leipzig, 1908 - 22 ؛ Golubovich :
Biblioteca Bio - Bibliografica, della Terra Santa e dell'Oriente Francescano. 5 vols, Florence, 1906 - 27.

(٣) أنظر . Atiya : Egypt and Aragon. Leipzig, 1938, p. 20-25 ; 37 - 38 ; 48...

حالة المأسورين في البلاد الشامية أيام محاربة المسلمين لهم ، كما أبطل سجنهم ، وأسكنهم بأهاليهم خزانة البنود بالقاهرة[1]، التي أُنشئت في أيام الفاطميين ؛ حيث عاشوا فيها يتمتعون بحريتهم ؛ فكانوا يأكلون لحم الخنزير، ويعصرون الخمور ويتاجرون بها،على الرغم من تعارض ذلك مع تعاليم الإسلام ومشاعر المسلمين من سكـان العاصمة . كذلك طمأنـه على تمتع مسيحيي الشرق بحريتهم الدينية في ظل الشريعة الإسلامية السمحة . وعلى الرغم من أن خلف الناصر، وهو الملك الصالح ، نقل الأسرى بأهاليهم إلى أماكن متطرفة في كيان مصر بالفسطاط ، رعاية لمشاعر المسلمين ؛ إلا أنه تركهم يعيشون في سلام . كذلك كان ملوك أوربا يتصلون بالمماليك بخصوص بناء كنائس وأديرة في بيت المقدس أو ترميمها، ولدينا وثائق متبادلة بهذا الخصوص[2]. ولا ريب أن استجابة سلاطين المماليك إلى ذلك ، فيه مراعاة للسياسة التي اقتضاها حال مهادنة مـلوك الفرنج . وبفضل هذه السياسة السلمية ، قضى المماليـك على خطر شديد ، ربما كان يتجدد باتحاد النصارى ، وتكون عواقبه وخيمة النتائج .



كذلك عمل المماليك على تصفية الحروب الصليبية بتتبع بقايا الصليبيين ، الذين خرجوا من عكّة والتجأوا إلى قبرس ورودس ، ولا سيما أن معظمهم كانوا من فرسان الصليبيين ، الذين أخذوا يقطعون خطوط الملاحة، ويقومون

---

(١) الخطط ، ٢ ص ٢٨٠-٢٨١ . كانت خزانة البنود من جملة قصور الفاطميين، تحتوي على السلاح والرايات،فلما أحرقت في عهدهم ، تحولت إلى سجن للأعيان والأمراء في ٤٦١/١٠١٨، وقد بقيت إلى وقت النـاصر ، وأبطلت كسجن ؛ وإن هدمت بعـد إخراج الأسرى منها في ٧٤٤/ ١٣٤٣ . الخطط ،٣ص ٣٠٥ ؛ ماجد ، نظم الفاطميـين ، ١ ص ١٧٦؛ نظم دولة سلاطين المماليك ، ١ ص ١٣٥ - ١٣٦ .

(٢) مثلاً ، انظر . Risani : Documenti E Firmani : XVIII, Gerusalemme,1931. Documento, pp. 210 — 226. ، دراج، المماليك والفرنج، القاهرة ١٩٦١ ، ص ٤١ — ٤٢ . وهي بخصوص ترميم دير للرهبان الفرنشسكان في عهد جقمق ، إذ صدر المرسوم في ١٥ رجب / ١٢ يناير ١٤٣٨ .

بأعمال القراصنة على مراكب المسلمين ، ويغيرون على سواحل مصر والشام . ومع هذا ؛ فإن حروب المماليك ضد هذه الجزر ، لم تجر إلى اشتباك قوى الفرنجة معها ؛ وذلك لأن المصالح التجارية لبعضها مع المماليك [١] ، كانت تحول دون محاربتهم .

ونعرف عن قبرس ، أن ريتشارد أعطاهاالفرسان الداوية ، ثم لجي ملك بيت المقدس السابق ، حيث استمرت أسرته تحكمها مع عكـّة ، التي بقيت للفرنجة من بعد استيلاء صلاح الدين على بيت المقدس . فكانت تخرج حملات من قبرس ، لتغير على سواحل مصر وغيرها [٢]. وحينما غزا بيبرس الصليبيين في الشام ، وحاصر عكـّة ؛ عمـــل ملك قبرس ، هيو الثالث Hugh III (١٢٦٧ - ١٢٨٤ م) — المسمى أوك عند المسلمين — على إرسال سفن من قبرس لمساعدة صليبيي عكـّة [٣] . فسارت الشواني الإسلامية بقيادةابن حسون، الذي جعلها تشبه مراكب القبارسة ؛ فصبغها ووضع علامة الصليب عليها . ولكن عاصفـــة شديدة جعلت سفن المسلمين تتكسر على صخور الساحل القبرسي في دجى الليل ، ولما شعر بهم أهل قبرس ، أسروا جميع من كان فيها . ثم بعث صاحب قبرس كتاباً إلى السلطان يتشفى فيه بتحطيم الأسطول الإسلامي ، وأخذ رجـــاله أسرى ؛ فرد عليه بيبرس يفتخر بانتصاراته على الصليبيين ، ويقول : « أنتم خيولكم المراكب، ونحن مراكبنا الخيول [٤] » ، واعتبر ، وهو الذي خلـّص المسلمين من إمـــارة أنطاكية

---

(١) أنظر ، دراج المماليك والفرنج ، ص ٥٧ .

(٢) أبو شامـــة [R. H. C. or. t5] ، ص ١٥٩ ؛ انظر . عـــاشور ، قبرس ، والحروب الصليبية ، ص ٣٨ ؛ Ency. of l'Isl, (art Cyprus)2éd,t 1, p.883.

(٣) ابن أبي الفضائل ، كتاب النهج السديد (Pat. Or.) ، ص ١٩٧ وما بعدها .

(٤) العيني ، عقد الجمان [في R.H.C. or, t11 . I] ص ٢٣٩-٢٤٢ ؛النويري، نهاية الأرب ، مخطوط . دار الكتب برقم ٥٤٩ معارف عامة ، ٢٨ ورقات ٥٥ -٥٦ ؛ السلوك ، ٢/١ ص ٥٩٣ - ٥٩٤ والهوامش .

وغيرها، أن غرق أسطوله إصابة عين .

وفي أثناء حصار قلاوون لطرابُلس أرسل ملك قبرس وعكّة ، المسمى هنري الثاني Henri II (+ ١٣٢٤ م) – وهو أيضاً من أسرة جي – نجدة إلى أهل طرابلس[١]. وفي سبيل استنقاذ عكّة ، سعى إلى عقد هـــدنة مع قلاوون لمدة عشر سنوات؛ مما أخرّ سقوط عكّة، وإبعاد الخطر عن قبرس. ولكن لما جاء السلطان خليل ، وفتح عكّة ، حاول هنري الثاني إستنقاذها بالإمدادات ومجيئه اليها بنفسه [٢] ؛ ولكن دون جدوى ؛ مما أضطره نهائياً أن يفر من عكّة بفرسانه إلى قبرس ، التي أصبحت منذ ذلك الوقت قلعة الصليبيين المتقدمة نحو الشرق ، حتى ازدحمت بفرسانهم .

ولكن ملك قبرس المسمى بطرس الأول Peter I (١٣٥٩-١٣٦٩ م) ، قام بجولة استمرت ثلاث سنوات ، لإقناع ملوك أوربا بتجهيز حملة صليبية ، ولكن على غير جدوى . ويبـــدو أن البابا وحده أظهر له التأييد [٣] ؛ فتجمع له عدد كبير من فرسان الصليبيين ، حيث تألفت في ذلك الوقت جماعة فرسان السيف Ordre de l'Epée . وقد كان بطرس – مثل سلفه من ملوك الصليبيين – يعتقد أن استرجاع بيت المقدس ، لا يأتي إلا بالقضاء على القوة الحربية في مصر . ولكن هـــذه المرة لا يهاجم دمياط ، التي تعوّد الصليبيون الهجوم عليها ، وإنما هـــاجم الإسكندرية ، المدينة التي أنعشها نشاط التجارة بين المماليك ودول البحر الأبيض ، وإزدهـــار نسج القماش

---

(١) السلوك ، ١/٣ ص ٧٤٧ س ٣ ؛ انظر . عاشور ، قبرس ، ص ٥١ ؛ Grousset : Hist . des Croisades , 3 , p . 731 - 732.

(٢) ابن تغري بردى (ط . دار الكتب) ، ٨ ص ٦ ؛ انظر . عاشور ، قبرس والحروب الصليبية ، ص ٥٢ .

(٣) نص خطاب لدوق البندقية فيه هذا المعنى ، أنظر . Jorga : Notes et, extraits pour servir à l'histoire des croisades au xve siècle. Paris, 1899 - 1902, t 3, p. 184 - 185.

الفائق فيها ، وقد كانت بدأت تظهر قيمتها حتى قبل ذلك ، أي في عهد الأيوبيين [١] .

فتكتم بطرس خبر حملته عن المدن الطليانية ، وهي التي نشطت في المتاجرة مع المماليك ، حتى لا تنقل أخبار الحملة إلى مصر ؛ إذ كان قصده المباغتة . ومع أن أخبار الحملة واستعداداتها قد وصلت إلى مصر بطريق ما[٢] ؛ فإن المماليك بعد وفاة قلاوون ، كانوا مشغولين بمنازعاتهم الداخلية ؛ وكان يتولى سلطنة مصر ، سلطان صغير اسمه شعبان ووصيه يلبغا الخاصكي . فأتى بطرس إلى ثغر الاسكندرية في سبعين مركباً مشحونة بالمقاتلة[٣] في صفر ١٣٦٥/٧٦٧ ، وحينما رست السفن إلى ناحية السلسلة ، ظن أهل الإسكندرية ، أنها للبنادقة ؛ ولكن نائب السلطان في الإسكندرية ، ما لبث أن أدرك نيات الهجوم ، فأغلق أبواب المدينة ، واستدعى عربان البحيرة . ولكن بطرس تمكن من دخول الثغر بعد ساعتين من إقتحام أسواره ومحاربة العربان فيه ، وهم الذين استفادوا من الأحوال لنهب المدينة ، وإن هم اضطروا ، تحت ضغط جيش بطرس ، أن يطيروا من الإسكندرية طيران الحمام[٤] ، كما هرب نائب

---

١) أنظر . رحلة ابن جبير ؛ ورحلة ابن بطوطه ؛ وصبح الأعشى ، ٣ ص ٤٠٤ .

(٢) المقريزي ، السلوك ، مخطوط مصور بدار الكتب ، برقم ٣٣٣٧ ، ٤ ورقة ٤٦ ب ؛ نظر . عاشور ، قبرس ، ص ٦٠ .

(٣) عن ذلك بتفصيل ، انظر محمد بن قاسم النويري ، الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام في الأمور المقضية في واقعة الإسكندرية ، مخطوطة بدار الكتب المصرية ، برقم ١٤٤٩ تاريخ ، اورقات ٢٨٦ وما بعدها ؛ Combe : Le texte de Nuwairi, sur l'attaque d'Alexandrie par Pierre I de Lusignan. Bull. of the Fac. of Arts of Alex. vol 5, 1946, p. 99. ؛ Atiya : Crusade in the Later Middle Ages. 353 - 5 ; 361 - 2 ; 365 - 7.
وأيضاً : ابن إياس ، ١ ص ٢١٤ - ٢١٥ ؛ وسالم ، تاريخ الإسكندرية ، ط. ١٩٦١ ، ص ٨٥ وما بعدها .

(٤) الإلمام ، ١ ورقة ٢٩٨ . وبعامة ، انظر . Machaut : La Prise de l'Alaexandrie,ou Chronique de roi Pierre ler Lusignan. Publiée par Mas Latrie. Genève, 1877.

السلطان ، بعد أن أخذ معه فرنجة الثغر ، مقيدين في السلاسل .

وحينما دخل جيش بطرس المدينة ، لم يدخر وسعاً في نهب أسواقها ، واستلام الناس بالسيف ، فكانوا يقتلون المسلم والمسيحي دون تمييز، ثم أخذوا يحملون الأسرى والغنائم في مراكبهم ، ليرسلوها إلى قبرس ، فأتوا على كل ما في المدينة من « صامت وناطق » ، وكان من رأي بطرس الاستمرار في الغزو، ولكن أغلب جنده أقروا العودة ، لما سمعوا بأن الأمير يلبغا الخاصكي، يعد جيشاً من القاهرة . وفعلاً وصل جيش المماليك من الطريق الصحراوي ، ومراكب الفرنجة على وشك الإقلاع ، بعد أن أخذ الفرنجة خمسة آلاف أسير من الثغر ، وقال المؤرخون العرب عن هذا الملك : إنه جاء لصاً وخرج لصاً.

وقد ألفت عن هذه الحملة الكتب لما حدث فيها من امتهان لأهل الإسكندرية ، أشهرها ما ألفه محمد بن قاسم النويري بعنوان : الإلمام بالأعلام فيما جرت به الأحكام والأمور المقضية في وقعة الإسكندرية . ولقد انتقم السلطان من النصارى الإفرنج بأن أخذ أموال من وجد منهم في القدس وغيرها . وكان صداها بعيداً في بلاد المسلمين ، حتى أن ملوك بني الأحمر – وهم من ملوك الطوائف في غرناطة بالأندلس – كانوا يستحثون جنودهم المقاتلين ضد النصارى ، وهم ينادون بثأرات الإسكندرية [١] .

وعلى العكس ، هنأ البابا وملوك أوربا بطرس على ما قام به من تخريب للإسكندرية ، وبعدها تشجع على معاودة غزو السواحل الشامية [٢] .ولكن كانت لدى بطرس مشاغل في محاربة الجنويين ، الذين كانوا يطمعون في الجزيرة ؛ مما أدى إلى تراخيه في حرب المسلمين . بل سعى إلى الصلح مع السلطان شعبان ، بقصد رد أسرى الإسكندرية [٣] ، حيث عمّ الفرح أهل

---

(١) نفسه ، ١ ورقة ٥١٦ .

(٢) مخطوط برقم ١٥٩٨ بالمكتبة الأهلية (B. N.) ، ورقة ١٧٧ ا ، ١٨١ ب؛ ابن إياس ، ١ ص ٢٢٢ .

(٣) الإلمام ، ٢ ورقة ١٢٥ ؛ انظر . عاشور ، قبرس ، ص ٧٢ .

مصر برجوعهم ؛ وإن كان بطرس نفسه لم يلبث أن قُتل .

وعلى العموم فقد تأخر الإنتقام الأكبر لما أصاب الإسكندرية إلى عهـــد المماليك الچراكسة . حقاً إن شعبان أرسل بعض سفن من الأغربـة للثأر من الجزيرة ، واستطلاع غزوها [١]،وإن يبلغا وصيّه كان قد عمرّ سفناً للقصد[٢] ذاته ، ولكن لم يكن يتم شيء ، بسبب انشغال المماليك بمنافساتهم الداخلية . وعلى النقيض ؛ فإن برسباي ، وهو من الچراكسة ، قـــام بغزو الجزيرة في ثلاث حملات، تُعتبر من أهم الأحداث التي شهدت علاقات القرن الخامس عشر الميلادي . ولقد شعر چانوس Janus ، ملك الجزيرة ، بالخطر الذي سيحدق بجزيرته ، بسبب خطة برسباي ، فأرسل يستصرخ ملوك أوربا [٣] ؛ ولكن على غير جدوى .

وقد قامت الغزوة الأولى في ٨٢٧/١٤٢٤ — أو مـا يسمى أيضاً بالغزوة الصغرى—بقصدالإستكشاف، فنهبت ميناء ليماسول Limassol (Lemissos)،أو مايسميه العرب الثمسون أو اللمسون [٤] . فشجع ذلك السلطان،على أن يرسل حملة ثانية في ٨٢٨/١٤٢٥ ، جمع لها عدداً كبيراً من المماليـــك، بقيادة الأمير جرباش [٥] ، وكان ذلك على سفن من أنواع الأغربة والقراقير برسم الجند ، والجمالات برسم الخيل ، كما انضمت مراكب من بيروت ، كفلت قيادتهـــا لصالح بن يحيى — صاحب تاريخ بيروت — ومن الغريب ، أن الجنويين ، كانوا يشجعون السلطان على غزو قبرس . فكان سير الحملة من طرابلس، حيث اتجهت إلى فاماجوستا Famagusta أو ما يسميه العرب الماغوصة ، ثم نهبت

---

(١) نفسه ، ٢ ورقة ١٠٣ ؛ انظر . نفسه.

(٢) النجوم (P) ، ٥ ص ١٩٥ ؛ ابن إياس ، ١ ص ٢١٧ .

(٣) ابن شاهين، زبدة ، ص ١٤٢ .

(٤)نفسه، ١ ص ١٣٨ ؛ عقد الجمان، ٢٥/٣ ورقة ٥٧٢ ؛انظر .عاشور،قبرس، ص ٩١ .

(٥) زبدة ، ص ١٤٠-١٤١ ؛ صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، ص ٢٢٠-٢٢١ ؛ أبو المحاسن (P) ، ٦ ص ٥٨٨ .

لياسول من جديد، وهاجمت رأس العجوز . ولكن إرسال نجدة إلى الجزيرة من البندقية [1] ، جعلت الحملة تنسحب ، ومعها أسرى كثيرون .

أما الحملة الثالثة[2] ، وهي الكبرى ؛ فقد بدأت بأن جمع برسباي جموعاً كثيرة من المجاهدين في بولاق ، واشتدت رغبة الناس في الجهاد ، حتى أُضطر السلطان إلى الإعتذار بأن السفن لم يعد فيها متسع لأحد [3] . وكان أكثر المتطوعين لها من المصريين ، الذين عيّن لقيادتهم اثنان : أحدهما وهو تغري بردي على الجيش البري ، وإينال على الجيش البحري . ولم تكن القوات المصريّة وحدها ، بل أيضاً جاء المتطوعون من أنحاء الشام [4] أيضاً . وقد نزلت الحملة في لياسول ، واستولت على قلعتها ، وقتلت فيها كثيراً من الفرنج . وبعد ذلك ، انتشرت في داخل البلاد ، حتى تقابلوا مع چانوس Janus في معركة حاسمة ، هَزم فيها المسلمون القبارسة ، وحاول چانوس أن يهرب ، ولكنه ارتبك وسقط عن فرسه ، فهمّ أحد المسلمين بقتله ، بيد أنه صاح بالعربية : « أنا الملك » ؛ فاكتفى بأسره ، وأُودع أحد المراكب الإسلامية . وبعدها اتجه المسلمون إلى نيقوسيا Nikosia أو Leukosia – يسميها العرب الأفقسيّة – عاصمة الجزيرة ، وكان فيها أخو الملك ، فاستولوا عليها في ١٤٢٦/٨٢٩ [5] . وبذلك أصبحت قبرس جزءاً من دولة المماليك .

وكان رجوع هذه الحملة بالأسرى والغنائم ، ودخولها القاهرة ظافرة ، يوماً مشهوداً في تاريخ مصر ؛ فقد زينت القاهرة سبعة أيام . وسار موكب فرسان الغزاة ومشاتهم،ثم الغنائم ومن بينها تاج الملك ، ثم الأسرى من النساء والصغار ، ثم الملك چانوس الذي وُضع على بغل أعرج ، بين قائدي الحملة :

---

(١) العيني ، عقد الجمان ، ٣/٢٥ ورقة ٥٧٦ .

(٢) زبدة،ص١٤٢وما بعدها ؛ Ency. de l'Isl,(art Bahriyya), 2éd t1,p.974

(٣) أبو المحاسن (P) ، ٦ ص ٦٠٠ .

(٤) العيني ، عقد الجمان ، ٣/٢٥ ورقة ٥٧٨ .

(٥) زبدة ، ص ١٤٣ ؛ النجوم (P) ٦ ص ٦٠٧ - ٦٠٨ .

تغري بردى ، وإينال . وقد استقبل برسباي الأسرى ، ومعه رجال من تونس وآل عثمان وشريف مكة، ورجال دولته . وقد أُجبر جانوس على أن يقبّل الأرض أمام السلطان ، وهو عاري الرأس ؛ فقال جانوس : إنه لا يملك إلا حياته،التي يستطيع السلطان أن يفعل بها ما يشاء،ثم غُشي عليه[1].

وكان لا بد من محادثات كثيرة بين ملوك أوربا وبرسباي ؛ ليفك أسر جانوس . فتدخل قناصل الفرنجة ، ودفعوا مائتي ألف دينار دية للملك ، على شرط أن يكون نائباً عن السلطان في الجزيرة [2] ، ويدفع الجزية [3].وبفضل هذا الإنتصار ، حكم المماليك قبرس مباشرة ، وتدخلوا في شؤون الأسرة الحاكمة فيها ، أكثر من خمسين عاماً .

فلما خلف حنا الثاني (+ ١٤٥٨م) أباه جانوس Jean II (+ ١٤٣٢م)، بعث إليه السلطان جقمق بخلعة الولاية ، وحلف أمام القساوسة بالطاعة للسلطان [4] . ولما مات حنا خلفته ابنته شارلوت Charlotte ، فلم يعترف لها أخوها جيمس الثاني James II (١٤٦٠ – ١٤٧٣ م) وأخذ يناوئها . وأخيراً جاء جيمس إلى مصر ، هرباً من زوج أخته المسمى لوي دي ساڤوا Louis de Savoie ؛ حيث أرسل هذا الأخير أيضاً وفداً لمقابلة السلطان إينال . وقد مال إينال إلى تأييد جيمس ، ثم مال إلى تأييد شارلوت ، ثم رجع إلى تأييد جيمس ، وأرسل معه عدداً من المماليك ، فوطد مركزه في الجزيرة [5] . ولكن جيمس تزوج بإحدى شريفات البندقية ، وهي كاترينا كورنارو Caterina Cornaro ، وعمل على التخلص من المماليك بذبحهم ، ورفع عن قبرس حماية إينال . فتعهدت البندقية بسبب هذا الزواج ، بحمايته ضد أعدائه ، ما عدا سلطان مصر ، وذلك لأنه كان بين البندقية ومصر علاقات تجارية .

---

(١) النجوم (P) ، ٦ ص ٦١٤ .
(٢) زبدة ، ص ١٤٥ .
(٣) ابن إياس ، ٢ ص ١٨٥ س ١١ – ١٢ .
(٤) النجوم (P) ، ٦ ص ٦٨٠ ؛ المقريزي ، السلوك ، مخطوطة، ٤ ورقة ٤١١ .
(٥) النجوم (P) ، ٧ ص ٥٤٣ .

ثم لم يلبث أن توفي جيمس في ١٤٧٣م، فتجدد النزاع بين شارلوت أخته، وكاترين زوجته ، فراحت البندقية تؤازر كاترين ، وأرسلت إليها أسطولاً لحمايتها ، وأخذت تحكم الجزيرة باسمها (١) . ولما أخفقت شارلوت أمام كاترين، أبحرت إلى الإسكندرية طالبة مساعدة قايتباي ، ولكن كاترين لم تلبث أن تنازلت عن الجزيرة للبندقية في عام ١٤٨٩ م . وقـــد حاولت البندقية أن تأخذ موافقة قايتباي بخصوص حكم قبرس في ٩ مارس ١٤٩٠ م ، فأرسلت إليه سفيراً هو بييرو دييدو Piero Diedo(٢)، ووقع معاهدة التخلي لقاء جزية. وقد استمرت البندقية تدفع الجزية بانتظام حتى سنة ١٥١٧م ، حيث حولتها إلى السلطان العثماني . وكانت من الحوادث بين البنادقة والمسلمين بخصوص هذه الجزيرة ، أن جعلت شكسبير Shakespeare – الشاعر الإنجليزي المشهور – يخلّد قصة أوتللو Othello في عام ١٦٠٤ م ، وهو قائد مغربي مرتزق ، كان في خدمة البندقية .

كذلك حارب مماليك مصر بقايا الصليبيين في رودس ، التي كان فرسان الإسبتارية قد انتقلوا إليها من قبرس أيام قيام الدولة اللاتينية في بيزنطة ؛ ومنذ ذاك سُميت الإسبتارية باسم : فرسان رودس (٣) ، حيث بقوا فيها إلى عام ١٥٢٢ م . فاتخذها هؤلاء قاعدة لأعمال القرصنة ضد المسلمين ؛ فكانوا يهاجمون سواحلهم شتاءً وصيفاً ، ويأتون بأسرى المسلمين إليها لبيعهم . وكان يوجد في هذه الجزيرة الأجفان والطرائد الكثيرة(٤)، وفيها رباط يأتيه النصارى

---

(١) أنظر . Gonshoff : Histoire des relations Internationales. Le Moyen Age. Paris, 1935, p. 256.

(٢) أنظر . توفيق إسكندر ، سفارة بييرو ديدو ومعاهدة تنازل مصر عن قبرس عـــام ١٤٩٠ ، القاهرة ١٩٥٦ . (مأخوذة من أرشيف البندقية) .

(٣) أنظر . Ency. de l'Isl, (art Rhodes) t3 , p. 1225.

(٤) سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاســـع الهجري ، تحقيق عبد العزيز الأهواني، مجلة كلية الآداب، جامعة القاهرة ، المجلد ١٦ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٤، ص٩٩.

من أقاصي البلاد المسيحية لمحاربة المسلمين بل إن الدول المسيحية كانت توقف الأموال الكثيرة لفرسان هذه الجزيرة ، لكي يستطيعوا شن غاراتهم على المسلمين .

ويظهر أن السلطان برقوق [1] ، كان قد عقد معاهدة مع فرسان الجزيرة في ١٤٠٣/٨٠٦ ، ليكفوا عن قتال المسلمين . ولكن فتح برسباي لقبرس أخاف فرسان رودس من أن تؤخذ جزيرتهم أيضـــاً ، فعادوا إلى أعمال القرصنة ، كما كانت الحال قبلاً . ولم يستفد برسباي من نصره في قبرس ليهاجم رودس أيضاً ، وغزاها جقمق من قبرس مرات عدة ، حتى أن ملك قبرس حنّا أكرم وفادة الغزاة المسلمين [2] . ويذكر الرسول الغرناطي [3] ، الذي جاء إلى القاهرة عن طريق البحر ، أن جقمق جهز إليها أسطولاً مكوناً من الأغربة الكبار والأجفان الصغار . ولا يبدو أن جقمق أحرز نصراً كبيراً ضد رودس ، فقد صد صاحبها حمـــلات المماليك ، وأسر عدداً كبيراً من المسلمين ، ومع ذلك أشار هذا الرسول في مقالته إلى مركبين إسلاميين أظهرا إقداماً فائقاً ، وأذاقا المشركين الموت الأحمر . ويظهر أن فرسان الجزيرة ، بعد أن أطمأنوا إلى أن المماليك لن يعودوا لغزو جزيرتهم ، طلبوا الصلح ، الذي وافق المماليك على منحهم إياه .

★

كذلك عمل المسلمون على نقل الحروب الصليبية إلى أوربا ذاتها . فقام بذلك جمـــاعة من الترك العثمانيين ، كانوا منذ نشأتهم قد اندسوا في آسية الصغرى ، وتمكنوا من إقامة ملك لهم ، بعد إنحلال دولة الروم السلاجقة فيها ، وفي أثنـــاء الإضطرابات التي سادت نتيجة لتحركات المغول ، كانوا يقتطعون جميع ما يحيط ببيزنطة ، حتى لم يتبق منها غير القسطنطينية .

---

(١) بتفصيل ، انظر . زيادة ، المحاولات الحربية للإستيلاء على جزيرة رودس ، مجلة الجيش ١٩٤٦ ، ص ٢٠٢ .

(٢) العيني ، عقد الجمان ، ٤/٢٥ ورقة ٨٤٤ ؛ انظر . عاشور ، قبرس ، ص ١٢٣ .

(٣) سفارة سياسية ، ص ٩٩ .

وما لبثوا أن توسعوا أيضاً في أوربا ، وحاربوا البُلغار وهزموهم قُرب ورنة Varna في ١٣٨٨ م[١] ، حتى أصبحت بلادهم ولاية تركية في ١٤٤٤م، وورد خبر هـــذه الإنتصارات على البُلغار إلى سلاطين المماليك في مصر في ١٦ شوال من سنة ٢٦/٨٤٨ يناير ١٤٤٥ [٢] ، كما كانوا قد هزموا السرب (الصرب) ، الذين شاركوا البُلغار في البلقان عند كوسوڤو – پولجي Kossovo - Polje [٣] (أو Kosovo) هزيمة دموية في ١٣٨٩ م ، وهزموهم هزيمـــة أخرى ساحقة في ١٤٤٨ م ، وسيطروا على جزء كبير من النمسا ، ودقوا أبواب ڤينـّا Vienna ، وهددوا هنغاريا التي استغاثت بأوربا .

وكان هدف فرنجة أوربا منذ ظهور العثمانيين : هو حفظ وسط أوربا منهم ؛ فقاموا ضدهم بحملات عُرفت : بالحمـــلات الصليبية المتأخرة . وقد كان البنادقة أول الأمر أكثر المتحمسين في الدعوة اليها؛ ربما لقربهم من الخطر العثماني ، فهاجموا أزمير أو يزمير Smyrna [٤] ، من أملاك العثمانيين ، وذلك بمساعدة بقايا الصليبيين في قبرس ورودس؛ وإن كانت لم تبق في أيديهم وقتاً طويلاً . ولكن تحركت حملة قويـــة ، اشترك فيها فرسان من برغنديا وفرنسا وإنجلترا وألمانيا وإيطاليا وبولونيا – بولونية – وهنغاريا ، كان قصدها ليس فقط طرد العثمانيين من أوربا، وإنما الوصول إلى بيت المقدس؛ حيث مهّد لهذه الحملة البابا بونيفاس التاسع Boniface IX (١٣٨٩–١٤٠٤م)، وتقدم الجميع نحو بلدة نيكه پول Nikopol ، المساة أيضاً : نيكوپوليس Nikopolis [٥] ،

---

(١) عنها بتفصيل ، انظر .
Ency. de l'Isl, (art Warne) t4, p. 1129.

(٢) ابن تغرى بردى، منتخبات من حوادث الدهور، ص ١٥-١٦ ؛ السخاوي، التبر المسبوك، بولاق ١٢٩٦ هـ ، ص ٩٨-٩٩ .

(٣) نورمان بينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة مؤنس وزايد ، ط ٢ ، ص ٣٠٣ .

(٤) أنظر . Ency. de l'Isl, (art Izmir) t 2, p. 604

(٥) أنظر . : Crusade of Nicopolis ; crusade in the later Middle, Ages. London, 1934 ؛ Atiya.Ency.de l'Isl,(art Nikopolis) t3 , p. 977-8.
قد تكون هذه التسمية لمكان لآخر .

في شمال بلغاريا على الدانوب، بقيادة حنـّا النڤاري Jean de Nevers [١]، من برغنـــديا ، الذي أصبح يُعرف بحنا الشجاع Jean Sans Peur ، بسبب إقدامه ؛ ومعه ملك هنغاريا المسمى سيجسمند Sigismund . فدارت معركة شديدة في ٢٥ سبتمبر ١٣٩٦ م ، انتصر فيها الترك بقيادة بايزيد ، وأُسر قائد الحملة ، وعدد كبير من الفرسان ، وهرب ملك هنغاريا .

وكان من الممكن أن يمتد الترك العثمانيون أكـثر من ذلك في أوربا ، بعد نصرهم في نيكوبوليس ، حيث لم يكن الأوربيون يستطيعون أن يمنعوا تقدمهم . ولكن الذي حال دون تقدمهم ، هم جماعـة من المغول جديدة ، جاءت من الشرق ، بقيادة تيمورلنك ، ملك ما وراء النهر ، الذي هاجم في إيران وآسية الصغرى والشام ، وأخذ سلطان العثمانيين المنتصر بايزيد أسيراً في قفص [٢] . غير أن تركيا ما لبثت أن نهضت من جديد على يد سلطانهـا مراد الثاني ، بعد موت تيمور وإنقسام دولتـه . وعلى العكس لمـــا حدث للترك ، فالقبيلة الذهبيةHorde d'Or ، وهي دولة مغولية إسلامية، سيطرت على الروس ؛ ولما قضى تيمور عليها في توسعه أيضاً ، عاد الروس إلى قوتهم ، وخصوصاً أنهم كانوا تحولوا للمسيحية على مذهب بيزنطة ؛ ممـا جعلهم سنداً لبيزنطة في نزاعها الأخير مع الأتراك .

وقد قدّرت أوربا خطر عودة القوة العثمانية الفتية ، التي ما لبثت أن عملت حثيثاً على الإستيلاء على القسطنطينية [٣] ، من آخر ملوكها: قنسطنطين الحادي عشر دراجاسيس Cnstantinus XI Dragases (١٤٤٨-١٤٥٣م) . ويبدو أن مراد الثاني قد قبل عقد هدنة مع البيزنطيين ، وربما كان ذلك لأن أحوال العثمانيين لم تكن قد تحسنت بعد . ولكن العثمانيون ما لبثوا أن استولوا بقيادة محمد الفاتح ، الذي خلف مراد الثاني ، على القسطنطينية، آخر معاقل البيزنطيين في يوم الثلاثاء ٢٣ من جمادى الأولى سنة ٨٥٧ /يونيو١٤٥٣،

---

(١) أنظر . Les grands ducs de Bourgogne, Paris. Cf. : Calmette
(٢) عنه ، انظر . Ency. de l'Isl, (art Bâyazîd) 2éd t1, p. 1151-2.
(٣) أنظر . Ibid, (art Constantinople) t4, p. 889.

وهي التي سُميت في عهد الترك : أستامبول أو إسلامبول أو الأستانة أو أستانة السعادة ، وهي أسماء تركية . ولدينا رسائل [1] متبادلة لهذه المناسبة بين إينال سلطان المماليك في مصر ، ومحمد الفاتح ، وذكر تبادل رُسل أيضاً للتهنئة بهذا الفتح العظيم ، كما نودي في القاهرة بالزينة [2] . وقد تبع هذا الإنتصار انتصار ساحق آخر على ملك الصرب في عام ١٤٥٩ م ، انتهى بضم جزيرة المورة ؛ لدينا عنه خطابات متبادلة كذلك [3] ، وعبثاً حاولت البابوية الدعوة إلى حملات جديدة [4] ، حتى أن البابا بيوس الثاني Pius II (١٤٥٨–١٤٦٤ م)، أعلن أنه يشترك في الحملة التي تقوم. ولكن هذه الحملات لم تقم بسبب قوة العثمانيين ، وضعف الأوربيين .

كذلك استولى العثمانيون على جزر البحر الأبيض ، مثل : قبرس التي استولى عليها سليم الثاني العثماني في عام ١٥٧٠ م ، ورودس التي حاصرها العثمانيون بشدة في عهد سليمان الثاني في عام ١٥٢٢م ،وكريت التي كانت للبندقية منذ قيام الدولة اللاتينية ، إلى أن استولى عليها الترك العثمانيون في عام ١٦٦٧ م [5] ، وأخيراً مالطة ، التي بعد أن استولى عليها النورمان وأصيبوا بضعف، سكنتها جماعة صليبية جاءتها من عكّة ثم من رودس،وقد بقيت في يدها حتى مجيء نابليون بونابرت ، الذي طردهم منها ، وهو في طريقه إلى مصر .

وبذلك فشل الفرنجة ، بعد هزيمتهم في الشرق في الاحتفاظ ببلادهم أمام تجدد قوة المسلمين على يد دولة الترك العثمانيين . وللأسف لم يتماون العثمانيون

(١) أبو المحاسن ، منتخبات من حوادث الدهور ، ص ٢٥٧ - ٢٦٣ . ونص خطاب إينال ، نفسه ، ص ٢٦٧ - ٢٦٩ .

(٢) ابن إياس ، ٢ ص ٤٤ ؛ مخطوطة بالمكتبة الأهلية (B.N.) ، برقم ٤٤٤٠ ، ورقات ١٥٧ - ١٦٠ .

(٣) مخطوط ٤٤٤٠ ، ورقات ٧٨ ب - ٨٠ ب ، و ٨٠ ب - ٨٣ أ .

(٤) أنظر . Atiya : Crusade, Commerce and Culture, p. 117.

(٥) أنظر . Ency. de l'Isl, (art Crète) t 1, p. 900.

مع المماليك في عدائها للصليبيين ، بسبب التنافس بينهما على السيطرة في بلاد الإسلام ؛ وإلا لكان الموقف أكثر ملاءمة لمصلحة الإسلام . وعلى العكس ، كان الصليبيون يتخذون من العداء الذي بدأ يظهر بين العثمانيين والمماليك ، سبباً في إذكاء نار التنافس بينهما . فمثلاً لما هرب جم[1] بعد تولية أخيه بايزيد الثاني إلى مصر ، ثم إلى رودس ، ثم إلى إيطاليا ، حيث أبقاه البابا في يده ، ليساوم به قايتباي ، الذي كان يريد أن يحارب به تولية بايزيد ، حتى أن البابا كان يشجع قايتباي على ذلك ؛ مما مهد لقيام الحرب بين المماليك والعثمانيين ، وهي التي انتهت باحتلال العثمانيين للشرق الإسلامي .

من كل هذا يتبيّن أن الصليبيين ، الذين اتخذوا الدين ستاراً لمطامعهم الإستعمارية ؛ فشلوا بسبب مقاومة المسلمين الشديدة لهم . وقد اتضح أن انتصار المسلمين عليهم في كل مرة راجع على الخصوص إلى اتحادهم ؛ ولا سيما إتحاد الإقليمين مصر والشام . والملاحظ أن مصر شاركت في الجزء الأكبر من الصراع مع الصليبيين ، وذلك بفضل مواردها ومثابرتها . ولا ريب ، فإن الحروب الصليبية هي المظهر المبكر لما عُرف بالمسألة الشرقية Qnestion d'Orient ، وهو صراع انتهى بفشل الغرب فشلاً ذريعاً ، وغزوه في عقر داره .

*

غير أنه ، وإن كان الغرب قد هُزم في هذه الحروب ؛ إلا أنه استفاد من حضارة الشرق المتفوقة ؛ مما مهد لظهور حركة النهضة فيه : Renaissance ، وهي التي أدت إلى ظهور حضارة أوربا الحديثة ، ولا سيما أن الحروب بين المسلمين والأوربيين استمرت وقتاً طويلاً ، أي من القرن الخامس إلى التاسع الهجري ، وأنها كانت مع مراكز الإسلام الأصيلة ؛ مما جعل الغرب على اتصال

---

(١) أنظر . Ency. de l'Isl, (art Djem) t 1, p. 1064 — 1065. ؛
دراج ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، بحث مستخرج من مجلة الجمعية التاريخية، العدد الثامن ، ١٩٥٩ .

تام بجميع مظاهر حضارة الإسلام المتفوقة . ومع أن الحروب كانت مستمرة بشدة بين المسلمين والإفرنج ؛ إلا أن هؤلاء كانوا يغترفون من حضارة المسلمين عن طريقي المشاهدة والإندماج ؛ مما جعل عناصر الحضارة الإسلامية شديدة التأثير في الإفرنج. ولما كانت الممتلكات الإفرنجية في الشرق فرنسية في أغلبها[١]؛ فإن فرنسا قد تأثرت بحضارة المسلمين أكثر من أي بـــلد آخر من بلاد أوربا بعد الأندلس ، ثم لأنها قريبة من الأندلس أيضاً . وقد كانت فكرة الأوربيين غير سليمة عن الشرق قبل ذلك ؛ فكان الإتصـال الحربي الحضاري ؛ وسيلة للمعرفة السليمة .

ويبدو أثر الإنتقال الحضـاري عن طريق الحروب الصليبية ؛ واضحاً في وسائل الحرب على الخصوص ، في : القلعة المستديرة ، ذات الأسوار المتتالية ، بدلاً من البرج والفناء اللذين يجمعها سور واحد؛ فهذه القلعة نمت في الشرق[٢]، والمدفع والبارود ، وكلاهما كان المماليك أول من استعملوهما[٣] ، والرنوك وهي عـلامات الفرسان التي تبدو من أصل شرقي [٤] ، وتدريبات الفروسية [٥] ،

---

(١) أنظر . Longnon : Les Français d'Outremer au Moyen, Age. Paris, 1929, p. 103.

(٢) أنظر . باركر ، الحروب الصليبية ، ترجمة الباز ، ص ١٨٧ .

(٣) عن ذلك بتفصيل ، صبح ، ٢ ص ١٣٧ ؛ انظر . Ayalon : Gunpowder and Firearms in the Mamluk kingdom. London, 1958. ؛ Ency. de l'Isl, (art Barûd) t 1, p. 1087 sqq. ؛ Ency. Britannica. Gunpowder and Artillery ؛ ماجد ، نظم سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ، القـــاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٧٢ — ١٧٣ وهوامش .

(٤) هي كلمة فارسية الأصل « رنك » ، حُرفت في العربية ، ولعل منها الكلمة الأوربيـــة «Rang» ، بمعنى مرتبة أو درجة ، أو حتى باسم : الأشعرة جمع شعار . صبح ، ٤ ص ٦١ - ٦٢ ؛ حسن المحاضرة ، ٢ ص ٨٥ ؛ انظر . Artin : Contribution à l'étude du Blason en Orient. Londres, 1902. ؛ Mayer : New Material for, Mamluk Heraldry. Jerusalem, 1937.

(٥) التي بلغت أوجها في عهد المماليك . الخطط ، ٣ ص ٣٣٣ ، ٣٧١ ؛ انظر . Mercier : La chasse et les sports chez les Arabes. Paris, 1927, p. 205 - 223.

التي انتقلت تفاصيلها عن طريق الشرق ، كما في البحر عرفوا عند المسلمين أنواعاً جديدة من السفن : كالشواني[1] مثلاً : Chalands ، وهي مراكب حربية ذات قلاع عديدة أو للتجارة .

وأثرها في الزراعات ووسائلها واضح من استخدام الأوربيين : النواعير المائية والدواليب الهوائية ، واستنباتهم ثمار مثل : قصب السكر والذرة والليمون والسمسم والأرز والبطيخ والمشمش والخوخ والقطن .. الخ .. وفي الصناعات ، انتقلت إليهم صناعات شرقية، مثل : الزجاج والخزف والقيشاني والمرايا والحلى والمسابح والأوعية والمساحيق والأصباغ والعقاقير والسجاد والبسط وأنواع المنسوجات[2]... الخ . وفي المباني نقل الأوربيون استخدام الأحجار الضخمة لبناء الكنائس والقصور Castellum ،حيث بدأت تظهر كنائس أوربا وقصورها الكبيرة[3]،كما ظهر عندهم ما يُعرف بالأرابسك[4] Arabesque، الذي هو فن معماري عربي ، يميل إلى التكوينات الهندسية ، وهو جوهر الفن الإسلامي .

والمظهر الثقافي هو أوضح ما انتقل إلى الأوربيين عن طريق الحروب الصليبية . فقد كان الإفرنج يستشيرون العلماء العرب في قضايا تتعلق بالطب

---

(١) جمع «شيني» أو «شونة » أو «شينية» . عنها ، انظر. الخطط ، ٣ ص ٣١٥ س ٢٠ وما بعدها ؛ عبادة ، سفن الأسطول الإسلامي ، القاهرة ١٩١٣ ص ٢ - ٥ .

(٢) عن كل هذا ، انظر. زكي النقاش ، العلاقات الاجتماعية والثقافية والإقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية ، بيروت ١٩٥٨ ، ص ١٧٥ ، ١٧٧ ، ١٧٨ ، ١٨٠ ، ١٨٤ .

(٣) أنظر . Ency. Britannica, 5, p. 38 ; 6, p. 834

(٤) أنظر . ديماند ، كتاب الفنون الإسلامية ، ترجمة عيسى ، ص ٩١ ؛
Ency. de l'Isl, (art Arabesque) 1 éd, t 1, p. 368 sqq ; 2 éd, t 1, p. 558 sqq.

والفلسفة والرياضيات[١] . كما أن بعض الإفرنج تعلموا العربية [٢] ، وبدأت أوربا تهتم بالإستشراق في بلادها. كذلك استوحى الأوربيون الآداب العربية؛ فالصليبيون كانوا ، ولا بد، قد سمعوا في الشرق ؛ عن قصص ألف ليلة وليلة، وكليلة ودمنة ؛ مما كان له أثره في أدب عصر النهضة على الخصوص . فمما استرعى الانتباه هو توسع إفرنج العصور الوسطى في نظم الشعر والأغاني ؛ فظهرت قصائد أشبه بالملاحم عن هذه الحروب، مثل قصيدة أمبروز النورماني Ambrose ، التي تتألف من اثني عشر ألف بيت، وتصف الحروب الصليبية حتى سقوط عكّة. وأخيراً فإن الحروب الصليبية حملت على كتابة تاريخها من وجهتي النظر الغربية والشرقية ، بشكل لم يُعرف قبلاً بالنسبة لأي فترة في تاريخ أوربا ؛ مما جعل الغربيين الحديثين يجمعون ما كتب عنها في مجموعتهم الشهيرة المعروفة باسم: [٣] Recueil des Historiens des Croisades. Paris,1841-1906، وفي غيرها . فهذه المجموعة تضم معظم ما كُتب عن الحروب الصليبية ، من مؤرخين معاصرين غربيين وشرقيين ، وحتى من أرمن وروم . فيكفي أن نذكر من مؤرخي الغرب المعاصرين [٤] مثل: فوشيه دي شارتر Fulcher (Foucher) de Chartres ، ووليم الصوري (Guillaume de Tyr) Wille-romo Tyrensi ، وكلاري Clari ، وچوانفيل Joinville ، ومن الشرقيين المعاصرين ، مثل : ابن القلانسي ، وأسامة بن منقذ ، وابن الأثير ، وسبط ابن الجوزي ، وأبو شامة ، والمقريزي ، والعيني، وابن تغري بردي.

---

(١) النقاش ، ص ١٩٦ - ١٩٧ . ينقلها عن Rey في كتابه ؛
Colonies Franques. en Syrie. Paris, 1883, p. 173.

(٢) نفسه ، ص ١٩٨ ؛ Ibid, p. 172-173.

(٣) أنظر مجموعة : Recueil des Hist des Croisades. Cf.
Historiens grecs. 2 vols. ; Documents arméniens. 2 vols.
Historiens orientaux. 5 vols. ; Historiens occidentaux. 5 vols.

(٤) أنظر . الباز العريني ، مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢ .

ولعل أهم أثر حضاري للحروب الصليبية ، هو انتعاش التجارة بين الشرق والغرب ، بشكل لم يُعرف من قبل ، حتى أن الحروب الصليبية تُعتبر عند بعض المؤرخين المعاصرين ، حروباً إستعمارية إقتصادية [١] . حقاً ؛ كانت التجارة الأوربية قد وجدت قبلاً مع الفاطميين في مصر والشام ؛ إلا أن الإتصال الأوربي المباشر مع الشرق بقيام دويلاتهم فيه ، كان السبب في نمو المدن التجارية وظهورها في مناطق عديدة في أوربا [٢] ، امتدت في طولها وعرضها إلى بحر البلطيق ، حيث ظهرت مثلاً مدن الهانسا الألمانية [٣] Hansa ، ودخل معظمها في تجارة ما وراء البحار Outre - mer .

وكان من أثر تزايد التجارة في أوربا أن انتشر فيها تعليم الحساب الذي أخذت مبادئه من الشرق [٤] ، فذاعت الأرقام العربية في أوربا . كذلك ظهر نظام المصارف أو البنوك [٥] ، وهو نظام شرقي الأصل ؛ فكان بمقتضى إذن الصرف «شيك» — أو ما يسميه العرب : صك أو رقعة أو صفتاجة أو خط أو حوالة — يتسلم شخص في هامبورج مبلغاً أو بضاعة من شخص في قبرص .

كذلك كان من أثر الإشتغال بالتجارة في أوربا وتزايدها ، أن تغيّرت نظم أوربا السياسية ، واهتزت هزاً عنيفاً [٦] . فقبل هذه الحروب ، كانت

---

(١) أنظر . Atiya : Crusade, Commerce and Cultures, p. 18.

(٢) أنظر . Pernoud : Les Villes Marchandes aux XIVème, et XVème siècles. Paris. p. 26 sqq.

(٣) أنظر . Atiya : Op. cit., p. 171.

(٤) عن ذلك ، انظر . Woepcke : Mémoire sur la propagation, des chiffres indiens. J. A. Paris, 1863. ؛ ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٣ ، ص ٢٢٠ - ٢٢١ .

(٥) عن ذلك ، انظر . الجرجاني ، كتاب التعريفات ، مصر ١٢٨٣ هـ ؛ Fischel : The origin of Banking, in the mediaeval Islam. J.R.A.S. April, 1933 ؛ Massignon : L'Influence de l'Islam au Moyen Age sur la, fondation et l'essor des banques juives. B. E. O. Paris, 1931 ؛ ماجد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، ص ٤٤ - ٤٥ ؛ نظم سلاطين المماليك ، ١ ص ٨٥ .

(٦) أنظر . ماجد ، الحضارة الإسلامية ، ص ٢٩٠ .

أوربا تعرف عن التجارة ؛ حيث كان عندها في ظل النظام الإقطاعي القائم ما يشبه الإكتفاء الذاتي المحدود ؛ حتى أن نظامها الإقتصادي كان يقوم على أساس المقايضة ، وليس على الأساس النقدي باستخدام المال . ولكن هروب الرقيق إلى المدن التي انتعشت ؛ مهد لإنهيار النظام الإقطاعي ، وزاد في أهمية المدن ، التي أصبحت تتوقف حياتها على التجارة . فكان ظهور المدن التجارية في أوربا عاملاً على ظهور نظام جديد هو النظام الرأسمالي ، ولا سيما أن الملوك تعاونوا مع هذه المدن ؛ للقضاء على الإقطاع ، لمصلحة الطرفين .

ولقد رأينا أنه كان للتجارة أحياناً المكان الأول في الأهمية في العلاقات بين الشرق والغرب ، حتى أن البندقية غيّرت مجرى الحملة الرابعة ، ووجهتها إلى دولة مسيحية مثلها [١]؛ كيلا تتأثر تجارتها مع الشرق الإسلامي . كذلك وجدناأن الجنويين يتاجرون مع مصر ،مع صدورقرارات الحرمان البابوية[٢]، وأن مفكراً مثل ريموندس لولّوس Raymundus Lullus (١٢٣٥–١٣١٥م) القرن ١٤ م ، كان يرى أنه لو كان التجار المسيحيون إمتنعوا عن المتاجرة مع مصر ستة أشهر لدمرت بلاد المماليك . ولدينا ما يدل على هذه المعاملات التجارية بين الشرق والغرب من إرسال رسل وسفارات [٣] ، ولا سيما بين المدن الإيطالية [٤] وملوك المسيحية في أسبانيا من ناحية ، ومصر من ناحية أخرى . ففي رسالة بعث بهـا السلطان الناصر محمد بتاريخ ١٣ شوال

---

(١) أنظر . قبله .

(٢) أنظر . Pernoud : Op. cit, p. 66 — 67.
مثل البابا نيقولا الرابع Nicolas IV (١٢٨٨ - ١٢٩٢ م) ، الذي أمر بمنع المتاجرة مع مصر بعد سقوط عكّة ، في ١٢٩١ .

(٣) ابن إياس ، ٢ ص ١٨٥ س ١٠ - ١١ .

(٤) مثلاً ، انظر . Renaud : Traités de commerce entre la, republique de Venise et les derniers Sultans Mameloucs d'Egypte. J. A. 2ème Série. t 4, Paris, 1829 ؛ توفيق اسكندر ، نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية ، مجلة الجمعية التاريخية سنة ١٩٥٧ ؛ Heyd : Hist. du Commerce, du Levant au Moyen Age. Leipzig, 1885, 11, p. 488 ؛ وغير ذلك .

٦/٦٩٩ أبريل ١٣٠٠ [1] ، يطمئن فيها خيمي (أو جاك) الثاني ملك أرغون على تردد تجاره بأمان في مصر ، كما أن رسائل أخرى تبيّن نشاط شركة الكتلان [2] – قطالونية – الكبرى ، التابعة لأرغون في حوض البحر الأبيض ، وفي مصر والشام بالذات . وقد لعب الترجمان ، وهو الذي ينقل قول الرسل الأوربيين ، دوره في قيام هذه المعاهدات التجارية مع سلاطين المماليك ، وهم من كل صنف ولا سيما من اليهود ، الذين كانوا يتعلمون لغات الشرق .

ولا أدل على انتشار التبادل التجاري بين الشرق والغرب نتيجة هذه الحروب ؛ من ظهور كلمة فندق [3] ، التي دخلت في الطليانية أيضاً باسم : Fondachi ، وهي من أصل يوناني Fondacos – وتعني في الفارسية خانة – وهو بناء واسع من طوابق عدة، يتكون من غرف مختلفة ، ومخازن للبضائع، وفناء داخلي يحتوي على الدواب ، وبه كنيسة وحمام ومخبز ومقبرة ، ويُحاط بسور وحديقة . وكان يسكنه غالباً التجار الأجانب ، يرئسهم رسول المدينة التجاري الأوربي أو كبير الفرنجة من كل طائفة ، أو ما سُمي بالعربية والإفرنجية القنصل Consul [4] ، وبالفارسية قنصول، كما سماه الترك: شهبندر فكان له حق التجارة ، وحق محاكمة الذين ليسوا من رعايا المسلمين ؛ ووجدت معاهدات تنص على حقوقهم. وقد تعددت الفنادق في أنحاء البلاد الإسلامية ،

---

(١) أنظر . Atiya : Op. cit, p. 17 - 19. ؛ أنظر نص الرسالة وترجمتها .

(٢) أنظر . Schlumberger : Expéditions des « Almugavares », ou Routiers Catalans en Orient. Paris, 1924. ؛ Nicolau d'Olwer : Expansio de Catalunya en la Mediterrànea Oriental. Enciclopèdia Catalunya vol I. Barcelona, 1926.

(٣) الخطط ، ٣ ص ١٤٩ وما بعدها ؛ انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 284. ؛ Pernoud : Op. cit, p. 46 sqq. ؛ ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٢٤ ؛ النقاش ، العلاقات ، ص ١٩٢ .

(٤) زبدة ، ص ٤١ س ٧ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Consul) t 1, p. 898.

وأصبحت أشبه بقنصليات ، كفنادق : البندقية ، وجنوة ، وبيش « بيزة» ، ومارسيلية ، وأربونة « ناربون » ، وقطالونية « كتالونيا » ، وأقريطش « كريت » ، ونابُل « نابلي » ، وبلرم « بلرمو » . فقد وُجدت في مصر فنادق كثيرة ؛ وبالقاهرة وحدها أكثر من مائتي فندق .

كذلك ظهرت في الشرق القيسارية أو القيصارية [1] ، التي قد تكون مُحرفة من اللاتيني Caesarea ، حيث كان الرومان يقيمونها في المدن كمستودع لبضاعتهم ؛ ويذكر المقريزي قياسر كثيرة في القاهرة . فكانت إذا غابت الشمس ، مُنع الأجانب من السير في الشوارع ليلا ، أو التجول في أثناء صلاة المسلمين .

فكانت أوربا تستورد عن طريق بلاد المسلمين – وبخاصة من مصر – بضائع كثيرة منها التوابل [2] على الخصوص ، التي كانت بالنسبة لرجال العصور الوسطى أشبه بالشاي والقهوة في عصرنا ، مثل : الجنزبيل والقرفة والفلفل والبهار والسكر والشاي والقهوة والشب والعاج والمنسوجات وغير ذلك . ولذلك ظهرت في دولة المماليك جماعة من التجار تخصصت لبيع التوابل ، عُرفوا بتجار الكارم أو الكاريمي أو الأكارم أو الكارمية [3] ؛ وإن كان سلاطين المماليك أنفسهم احتكروا تجارة التوابل وغيرها من التجارات [4] . أما الشرق ، فإنه كان يستورد من الأوربيين : الفواكه

---

(١) الخطط ، ٣ ص ١٤٠ وما بعدها ؛ انظر . Dozy : Suppl, 2, p. 432. ؛ Ency. de l'Isl, (art Kaisâriya) t 2, p. 700 — 701 ؛ ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ، ١ ص ١٢٣ .

(٢) أنظر : Pernoud : Op. cit, p. 47 ; 48 ; 66.

(٣) صبح ، ٣ص ٤٦٨ ، ٤٦٩ ، ٤ص ٣٢ ، ٥ص ٢٨٠-٢٨١ ؛ انظر . Wiet : Les Marchands d'épices sous les Mamlouks. Le Caire, 1955. Cahiers. Hist. du, Série, VII. Fasc. 3, Juin, 1955, p. 85 sqq. ؛ Heyd, : Commerce, 2, p. 59. ؛ ماجد ، نظم المماليك ، ١ ص ١٢٥ .

(٤) السلوك ، مخطوط دار الكتب ، برقم ٣٣٣٧ ، ٤ ورقة ٥٩٢ .

واللوز والجوز والخشب والمعادن وطيور الصيد ، ولا سيما الرقيق ، الذي كان يُغذي دولة المماليك ، التي هي دولة رقيق .

ولذلك كثرت العملة الأجنبية في مصر ، مثل عملة البندقية : «Ducat» ، التي يسميها العرب: «دوكات» ، نسبة إلى الدوك أو الدوق ، وهو الـ Doge ، وعملة فرنسا والأراضي الواطئة : « Florin »، التي يسميها العرب «إفرنتية» جمع إفرنتي وقد عُرفت العملة الأجنبية في الشرق عموماً باسم: مشخصة[1] ، بسبب صور القديسين ، وملوك الفرنجة المنقوشة على وجهيها . وكانت عملة البندقية [2] ، تُعتبر أفضل عملة ، غلبت على أسواق العالم بما فيها مصر . والدليل على غنى دولة المماليك نتيجة للتجارة مع أوربا هو كثرة مبانيهم الفاخرة ، التي تركوها في مصر .

*

نستخلص أن الفرنج اعتدوا على مسلمي الشرق الأوسط ، فقابلهم هؤلاء بمقاومة شديدة ، وطردوهم ، وتتبعوهم في بلادهم ، فاستولوا على أجزاء منها ؛ بقيت في أيديهم إلى العصر الحديث ؛ ومع ذلك ؛ فإن الشرق الإسلامي قد نقل إلى الغرب الأوربي حضارته المتفوقة التي كانت لبنة في بناء الحضارة الحديثة .

---

(١) صبح ، ٣ ص ٤٤١ - ٢ ، ٥ ص ٤٠٤ - ٤٠٥ . الدوكات بالطليانية « ducato » والفلورين « florino » .

(٢) أنظر . Albert : La guerre monétaire au XIVè XVè, siècles. Annales d'Histoire Sociale. tII juill,1940.

الفصل الرابع

حركة الاسترداد المسيحيّة في الأندلس
أو ما سُمّي بالركونكوستا

مبدأ الركونكوستا – سقوط دولة بني أمية ، وظهور ملوك الطوائف – تزعم قشتالة حركة الركونكوستا – رد فعل المسلمين بظهور دولتي المرابطين والموحدين – ازدياد حركة الركونكوستا بقيام دولتي : البرتغال وأرغون – دولة بني نصر ومقاومتها ، ثم سقوطها – أثر الإسلام الحضاري .

على عكس الإنتصارات الإسلامية على الصليبيين وسكان شرقي أوربا ، فإن حالة المسلمين في الأندلس ، فهي في غاية السوء . فقد عرفنا أن العرب ، لما فتحوا الأندلس ، أهملوا فتح منطقة في أقصى الشمال الغربي ، عُرفت عندهم باسم : أرض جلّيقيّة [1] – وهي من التسمية الأصلية جاليسيا Galicia – بسبب كونها صخرية ، كثيرة الجبال الوعرة ، ولا سيا تلك الجبال المسماة : قنطابرية Cantabria . ومع أن العرب عبروا البرتات إلى أفرنجة العظمى ؛ إلا أنهم لم يعملوا جدياً على إحتلال هذه المنطقة النائية في الأندلس .

فقد التجأت إلى هذه المنطقة بقايا القوط ، الذين عرفهم العرب بسبب

---

(١) معجم البلدان ، ٣ ص ١٣١ .

إلتجائهم إليهـا : بالجلالقة [1] ؛ حيث تُنسب مقاومتهم الأولى إلى شخص اسمه . بلايُه [2] أو پلاي Pelayo ، الذي كان من أنصار روذريق ؛ فقاوم فيها في مكان صخري، اشتهر عند العرب باسم: الصخرة Picos de Europa فقد دخل پلاي في مغارة أو كهف (كابا) Cava – عُرف فيها بعد باسم كوبادونجا Covadonga – بثلاثمائة رجل وبعض النساء ، فلم يزل العرب يقاتلونه ، حتى مات أصحابه جوعاً ، ثم ظلوا يتناقصون ؛ حتي بقي منهم ثلاثون رجلاً ، ومعهم عشر نسوة ، أصروا على الإمتناع في هذا الكهف ، وجعلوا يقتاتون بالعسل ، الذي كان النحل يمجه في خروق الصخر . فاستخف بهم المسلمون وتركوهم ، وقالوا : « ثلاثون علجاً؛ما عسى أن يكون أمرهم.

ولكن هذه العصابة الصغيرة ، أخذت تنمو وتغلظ ، حتى صارت إمارة حقيقية ، ثم ممالك عملت على طرد العرب من أسبانيا ؛ حيث قامت بالحركة المعروفة باسم : الركونكوستا Reconquista ، أي إسترداد البـلاد من المسلمين ، وهي ما يمكن أن تسمى أيضاً : بالحروب الصليبية الداخلية Croisade à domicile [3] ؛ لأنها حروب صليبية في داخل الأندلس ذاتها . كذلك قوّى من شأن هذه العصابة منذ عهد مبكر ، أن الدولة الكارلونجية الفتية ، التي تأسست في أفرنجة العظمى ، آزرتها . فتدخل شارلمان في الأندلس ، ووصل حتى سَرَقُسطة ؛ وبعد انسحابه ، أقام على طول جبال البرتات (البرانس) المراكز أو الكونتيات الفرنسية ، التي توغل بعضها حتى مركيزية برشلونة كما ذكرنا ؛ بحيث غلب الفرنجة على نصف الأندلس .

*

---

(١) صبح ، ٥ ص ٤١٤ .

(٢) نفسه ، ٥ ص ٢٦٣ ؛ انظر . حسين مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٣٣٤ ؛
Pidal : Historia de Espana IV. L'Espana Musulmana, por Lévi - Provençal. Trad. Gomez, p. 39 sqq.
هلك بلاي في سنة ١٣٣ هـ .

(٣) أنظر . Grousset : Bilan de l'Hist. Paris, p. 48.

وقـــد كان مجيء عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس ، أن حد من توسع الفرنجة فيها ، ونظـّم المقـــاومة ضدهم ؛ وأصبح نهر دويرة حاجزاً بين المسلمين وبينهم ، بحيث نشأت على طوله سلسلة من الثغور الإسلامية ، كانت مواقع للدفاع والهجوم ضد الفرنجة – كما كانت الحال في الشام بين العرب والروم– : فالثغر الأعلى أصبح في سَرَقُسطة ، والثغر الأوسط أمام سمُورة ، والثغر الأدنى على المحيط أمام قُلـُمُرية [1] .

ولحسن حظ مسلمي الأندلس ؛ أن عبد الرحمن الداخل وخلفه – وهم من سلالة الأمويين في المشرق – كانوا ، كما لاحظ مؤرخو العصر ، مذعنين للحق ، مقيمين لشعائر الإسلام ، متحمسين في الجهاد ضد الفرنجة . فأصبحت دولتهم في الأندلس في أول أمرها – مثلما كانت في الشام – عربية ، أعادت إلى الأندلس التقاليد العربية الأولى . ولم يتخذ عبد الرحمن وخلفه لقب الخلفاء ، وإنما قنعوا بلقب الأمراء [2] أو أولاد الخلائف ، وربما كان ذلك لأن العقلية الإسلامية ، لم تكن تسمح بوجود أكثر من خليفة بقيام خلافة العباسيين في المشرق ، كما لم يسكنوا في القصور ، وإنما قنع كل أمير ببيته ، ولم يطلبوا من الناس أن يُظهروا لهم العبودية ، ولا أن يقبلوا الأرض أمامهم .

ولكن أمويي الأندلس ؛ خرجوا عـــلى تقاليدهم الأولى في عهد عبد الرحمن الثالث ، الذي اتخذ لقب خليفة في ٣١٦/٩٢٨ [3] ؛ لينافس خلافة الفاطميين في شمال افريقيا ، والعباسيين في المشرق . وبدلاً من أن يوجه

---

(١) لدينا رسالة غير مطبوعة من عفيف الترك ، عن الثغر الأعلى في القرن العاشر ، يتعرض فيها المؤلف للثغور في عهد إمارة الأمويين وما بعدها . انظر . La Marca Superior, en El Siglo X. Madrid, 1956.

(٢) نفح الطيب ، ١ ص ١٥٥ – ١٥٦ .

(٣) لدينا نص الكتاب الذي تلقب فيه عبد الرحمن بألقاب الخلافة . أنظر .
Una Cronica Anonima de Abd al - Rahman III al - Nasir. ed. Lèvi - Prov. y Gomez. Madrid - Cranada, 1950, p. 79.
؛ سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، ص ٣١٩ .

كل همه لحرب الفرنجة مثلما فعل سلفه ، دخل في نزاع مع الفاطميين ، ووجه أساطيله ضدهم نحو ساحل إفريقية في ٣٤٥/٩٥٦ [١] ، وتبادل عبد الرحمن الثالث سفارات مع ملك الروم قنسطنطين السابع بورفيروچنيتوس Constantinus VII Porphyrogenitus في ٣٣٨/٩٤٩ . وربما كان ذلك بقصد الإتفاق ضد الفاطميين ، الذين كانوا يعملون على الإنتقال إلى مصر والشام ، لوقف أطماع الروم فيها ؛ فضلاً عن حروب الفاطميين ضدهم في صقلية [٢].

وكان من تقرّب به من أعداء الإسلام التقليديين ؛ أن أضعف دولته ، أمام فرنجة الأندلس ، ولا سيما أن المجوس أو النورمان ، كانوا قد نزلوا من شمال أوربا [٣] ، وأخذوا يهاجمون جهات الأندلس الخصبة التي يقطنها المسلمون [٤]، أكثر مما يهاجمون الجهات التي يقطنها الفرنجة . يُضاف إلى ذلك أن إقتطاع الأندلس أصلاً عن بقية جسم الإسلام ، منع من توسيع دولة المسلمين فيها .

ثم ما لبثت هذه الدولة الأموية في الأندلس أن ابتُليت بفتن داخلية شديدة بين البربر والعرب ، وهي فتن ورثتها من قبل قيامها ؛ مما أفقدها ثقتها بالعنصرين . فسعت إلى الإستعانة بعنصر غريب عن البربر والعرب هو عنصر الصقالبة [٥] ؛ وهذه الكلمة كانت تُطلق على الأرقاء الذين يُشترون من أوربا ؛ وذلك لأن الجيوش الچرمانية كانت تغزو بلاد السلاف ، وتُكثر السبي فيها ، ثم تبيعهم للمسلمين . ولعل كلمة صقالبة من كلمة Slavi أو Escklavon أي سلاف ؛ فعرّبها العرب إلى أسقلابون ؛ ثم جمعوها إلى

---

(١) البيان (L) ، ٢ ص ٣١٨ .

(٢) أنظر . Dozy : Hist. des Musul. d'Esp. éd Lévi - Prov. t 2, 159.

(٣) أنظر . قبله .

(٤) نفح ، ١ ص ١٦١ .

(٥) الثعالبي ، يتيمة الدهر ، ٤ ص ١٨٤ ؛ انظر . مختار العبادي ، الصقالبة في أسبانيا ، معهد مدريد ، ١٩٥٣ ; Ency. de l'Isl, (art Sakàliba) t 4, p. 79-80 ; (art : Slaves) t4, p. 487 sqq. أخذت من هذه الكلمة الكلمات الأوربية التي تدل على الرقيق ، انظر . قبله .

صقالبة أو صقلب أو سقالب فكان معظمهم من العبيد الخصيان ؛ حيث كان يوجد معمل في فردون Verdun باللورين في فرنسا لخصيهم ؛ ثم تعلم الخصاء قوم من المسلمين ، فصاروا يخصونهم ، ويستحلون المثلة [١] . ولما وجد هؤلاء الصقالبة أنهم المقربون ، سعوا إلى السيطرة على الدولة ، كما أن إخلاصهم كان محدوداً ؛ بسبب أصلهم الأجنبي .

ولكن الخطر الأكبر على الدولة الأموية في الأندلس ، نتج على الخصوص من ضعف السلطة المركزية في عهد هشام بن الحكم –هشام الثاني– (٣٦٦–٣٩٩/ ٩٧٦–١٠٠٩) ، الذي سيطرت عليه لصغر سنه أمه ُصبح ، التي كانت من عنصر البشكنس في شمال الأندلس . فانتهز رجل قويّ اسمه : محمد ابن أبي عامر [٢] (م ٣٩٢/١٠٠٢) - وكان أشبه ببسمارك في ألمانيا في عصرنا الحديث - الفرصة كي يصل إلى حجابة هشام – أي كبير وزرائه – وذلك عن طريق أم هشام ، التي أصبحت حظية له . فادعى ابن أبي عامر أن هشاماً فوض إليه أمور دولته ، وتخلى له عن السلطة ؛ لتكريس حياته لعبادة ربه ؛ فكان ُيدعى له على المنابر مع الخليفة . وقد اتخذ ابن أبي عامر المدينة الزاهرة [٣] ، على نهر قرطبة ، قاعدة لحكمه ، بدلاً من قرطبة ذاتها .

حقاً إن ابن أبي عامر كان متحمساً لجهاد الفرنجة ؛ وكان يهاجمهم باستمرار ، حتى بلغت حملاته ضدهم أكثر من خمسين حملة ؛ فعُرف لذلك بالمنصور ، وعرفه الأوربيون باسم Almanzor . فهزم كل قوى الفرنجة مجتمعة ، ونهب برشلونة إحدى الكونتيات الفرنسية في شمال الأندلس ، ووصل إلى شنْت

---

(١) نفح الطيب ، تحقيق رفاعي ، ١ ص ٢٨٦ – ٢٨٧ .

(٢) عنه ، انظر . البيان (L) ، ٢ ص ٣٧٥ وما بعدها ؛ نفح ، ١ ص ١٨٥ وما بعدها ؛ ابن بسام ، كتاب الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، ١/٤ ص ٤٠ وما بعدها ؛ ابن الخطيب ، أعمال الأعلام ، تحقيق Levi - Prov ، ط. Leiden ، ١٩٣٤ ، ص ٦٧ وما بعدها ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art al-Mansûr Ibn ' Abî 'Amir) t3, p. 269 - 272.

(٣) عنها ، انظر . Ency. de l'Isl, (art Madînat al-Zâhira) t3, p. 95.

أو (صنت) ياقب أو (ياقوب) Santiago (Saint-Jacque)de Compostela[1]، عاصمة قديمة في جلّيقيّة، في أقصى شمال الأندلس الغربي، من بلاد أشتريس Asturias، التي يوجد فيها مزار لأحد القديسين. ولكن همّ هذا الدكتاتور إنحصر بالهجوم فقط، دون الفتح المنظم، الذي يقتلع العدو من أصوله؛ ولذلك لم تنته حركة الركونكوستا، التي ما لبثت أن استفاقت من ضرباته، كما أنه التفت إلى المغاربة، بدلاً من أن يلتفت إلى الفرنجة.

وقد ورّث المنصور أبناءه السلطة على خلفاء الأمويين بالأندلس[2]؛ حيث عمدوا إلى زيادة نفوذهم عليهم، واتخذوا القصور والخدم والحشم مثل الخلفاء. وبلغ الأمر بأحدهم، وهو عبد الرحمن بن المنصور، الملقب بشنجول Sanchuelo[3] – نسبة إلى أمه بنت شانجة، أحد ملوك النصرانية – أنه لم يقنع بلقب الحاجب، الذي كان كبير الوزراء الأندلسيّين يتسمّى به، وإنما أرغم هشاماً الثاني على أن يوليه ولاية العهد[4]، وتلقب بالناصر ثم بالمأمون؛ وكان ذلك عاملاً على إنفراط وحدة الدولة الأموية في الأندلس، بإثارة الولاة عليه. فأخذ كل واحد منهم، يستقل عن السلطة المركزية، تساعد على ذلك طبيعة البلاد الجبلية، بحيث ظهر ملوك الطوائف[5]: Reyes de Taïfas، الذين شُبهوا بملوك الفرس قبل مجيء الساسانيين، إذ أطلق العرب عليهم أيضاً. ملوك الطوائف[6].

ونستطيع أن نميّز من ملوك الطوائف: بني عباد في إشْبيلَيِة، وبني جهور في قَرطبُة، وبني الأفْطَس في بَطلْيوْس، وبني زيرى في غَرْناطة

---

(١) عنها، انظر. Ency. de l'Isl, (art Shant Yâkûb) t 4, p. 322.

(٢) مثلا: ابن بسام، ١/٤ ص ٥٩؛ سالم، تاريخ المسلمين، ص ٣٣٦.

(٣) البيان (L) ٣ ص ٣٨.

(٤) نفسه (L) ٣ ص ٤٤ – ٤٦.

(٥) صبح، ٥ ص ٢٤٨ وما بعدها.

(٦) عن هذه التسمية الأخيرة، انظر. بتفصيل: ماجد، التاريخ السياسي للدولة العربية، ١ ص ١٩٢.

وبني ذي النون في طُلَيْطلة ، وبني هُود في سَرَقُسْطَة ، ومجاهد وبنيه في دانية ومَيُورُقة ، وغيرهم. فكان هؤلاء في حروب مستمرة بعضهم مع بعض، وفي إنقسام ظاهر : ففريق منهم يخطب الأمويين وآخر يخطب للعباسيين ، ومنهم من يتبادل رسائل ودية مع الفاطميين ، وذلك لأن سقوط خلافة الأمويين في الأندلس مهدت لتحسين الصلات مع الفاطميين [1] ، وبعضهم لقّب نفسه بألقاب الخلفاء ، مثل : المعتضد والمعتمد .. ، وبعضهم يجعل لمملكته صبغة عربية ، أو بربرية ، وهنالك من تنصر منهم أيضاً .

★

في الوقت عينه، كانت حركة الإسترداد الأسبانية آخذة في الإشتداد . فظهرت حركة ديرّية ، وهي دير كلونى Cluny ، في مقاطعة الأكويتانيا في فرنسا ، وذلك في حوالى عام ٩١٠ م [2] ، نسبة إلى الأب كلونى الذي ترجم القرآن أول مرة باللاتينية بقصد العيب فيه ؛ حيث كان الدير يوجه المتطوعين الأوربيين، لحرب المسلمين ، في الأندلس. ثم زاد من روح العداء ضد مسلمي الأندلس ، قيام الحروب الصليبية ؛ فكان الأوربيون ؛ يأتون لقتال مسلمي الأندلس ، مثلما كانوا يذهبون إلى الأراضي المقدسة .

ونميّز من أركان المقاومة المبكرة في أسبانيا [3] : قَشْتَالة Castilla ، وليون Léon ، ونَبّرة Navarra ، وقَطَالِنَة Catalunya الفرنسية ؛ إذ أن الفرنسيين امتدوا على ساحل البحر الأبيض حتى برشلونة منذ أيام شارلمان ، حيث كان العرب يسمون برشلونة وما يحيط بها أحياناً ، باسم :

---

(١) مختار العبادي ، سياسة الفاطميين نحو المغرب ، صحيفة معهد الدراسات الإسلامية في مدريد ١٩٥٧ ، ص ١٩٣ وما بعدها . بلغ من تحسن هذه العلاقات أنهم أرسلوا إلى إخوانهم المصريين سفناً مملوءة بالطعام، لما حلت المجاعة بهم في عهد المستنصر الفاطمي (ابن الخطيب ، أعمال الأعمال ، ص ٢٥٣ - ٢٥٤) بل أعاد المصريون بدورهم السفن محملة بالذخائر الحربية كي، يستطيع أخوانهم الأندلسيون الإستعانة بها في كفاحهم ضد الأسبان (الحلل الموشية، نشر علوش، رباط ١٩٣٦، ص ٧٢) كذلك تبودلت رسائل ودية بين عليّ بن مجاهد العامري، صاحب دانية، والخليفة المستنصر بالله الفاطمي في سنة ٤٥٢/١٠٦٠ . ابن الأبار ، التكلة ، ص ٦٢٢ .

(٢) أنظر . Rebillion : L'Eglise, p. 41.

(٣) صبح ، ٥ ص ٢٧٠ – ٢٧١ .

مملكة برشلونة . فكل هذه الأسماء وغيرها ، لم تظهر فجـــأة ، فالنصارى كانوا يسمون بلادهم بها ؛ ولم يُدخلوها تحت تسمية الأندلس ، التي هي تسمية عربية [1] .

وفي أول الأمر ، أخذت نبرّة Navarra مركز الزعامة في مقاومة مسلمي الأندلس ، ولا سيما بعد اتحـــادها مع قشتالة وليون – التي هي أشتريس – وبرشلونـــة عن طريق المصاهرات ، وذلك على يد شانجـــه الكبير Sancho III el Mayor (١٠٠٠-١٠٣٥ م) ، الذي اتخذ لقب ملك أيبريا Rex Iberorum [2] . وربما يكون الملوك الذين من نسله قد اتخـــذوا لقب إمبراطور ، ولا سيما أنهم سيطروا على عـدد كبير من المدن المستردة ؛ وإن كان تقسيمه لأملاكه بين أبنائه ، جعل مملكته مفككة .

فبدأ الهجوم الشديد في عهد فردنند الأول Fernando I – ابن سانشو ، (١٠٣٣ – ١٠٦٥ م) ، ويسميه العرب فرذلند – الذي أصبح ملكاً لقشتالة وليون ونبرّة ؛ حيث فرض الجزية على ملوك سَرَقُسطة وطُليطـلة وغيرهما ، وأصبح ميدان هجومه عند نهر تاجُه ، بعد أن كان عند نهر دويرة . فخلفه على قشتالة الفونسو السادس Alfonso VI (١٠٦٥-١١٠٩ م) القوي ، – ويسميه العرب الأذفونش – الذي لم يكتف بالهجوم على إمارات المسلمين ومدنهم ، وإنمـــا أخذ يدس بين ملوكهم ، ويستفيد من انقسامهم . ولعل أهم ما قام به في حربهم ، هو الإستيلاء على طُليطلة [3] ؛ عاصمة القوط قبل مجيء العرب ، والمدينة المسيحية الأولى في أسبانيا ؛ وإن غلبت عليها الصفة العربية ، حتى أنه أصبح يُعرف أهلها الأسبان : بالمستعربين Mozarabes ، أي نصف العرب . وكان استأثر بطُليطلة الأمراء من أسرة بني ذي نون

(١) أنظر . Ency. de l'Isl, (art al - Andalus) t 1, p. 354.

(٢) أنظر . Legendre : Nouvelle Histoire d'Espagne, p. 98.

(٣) ابن بسام ، الذخيرة ، ٤/١ ص ١١٦ – ١٣٠ ؛ ابن الخطيب ، ص ٢٠٧ – ٢١٠ ؛ الكامل ، ٨ ص ١٣٨ ؛ انظر . ليڤي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة عبدالبديع وسالم ، ص ١٢٠ وما بعدها .

الهواري البربرية [١] ، الذين خدموا المنصور بن أبي‌عامر، وكانت لهم قيادات في جيشه ، وكان اسمهم في الأصل بني زنون ، فحولوه إلى الاسم العربي ذي النون . ولما سقطت خلافة قرطبة على يد أسرة ابن أبي عامر ، أرسل أهل طُليطلة إلى عبد الرحمن بن ذي النون ، يعرضون عليه حكم بلدهم ، لأهميتها في مجابهة الفرنجة . وكان الأذفونش قد التجأ إلى المأمون (أبو الحسن يحى)،من بني ذي النون في طُليطلة ، بعد نزاعه مع أخيه شانجة الثاني ؛ إذلم يكن من عادة العرب أن يستنكفوا في أي وقت من الأوقات عن إيواء المستجيرين بهم ، حتى ولو لم يكونوا من غير العرب . ولما قُتل شانجة ، مَلك الأذفونش أخوه البلاد، وقام بحركة الإسترداد، ونسى إجارة المأمون له ؛ فكان حفيد المأمون الملقب بالقادر يحيى ، يأتي بالمال إلى الأذفونش ؛ فيقول له الأذفونش : هذا لا يكفي ، فيدفع القادر المال بعد المال .

ثم إن الأذفونش ، حاصر طُليطلة سنوات عدة ، دون أن يتمكن من أخذها ، وقطع الميرة عنها ، وعاث في نواحيها ، واستولى على كل حصون شمال تاجُه مثل مدريد أو مجريط ، التي كانت تقف كقلعة في وجه قشتالة . ولم يكن القادر يحيى ذا كفاية ؛ ففاوض الأذفونش للتسليم ؛ وكان أهل طُليطلة قد استدعوا بني الأفطس لحكمهم ؛ مما اضطر القادر يحيى إلى الهرب ؛ ثم عاد مع الأذفونش ، ليسلّم طُليطلة . فمنح الأذفونش أهل طُليطلة الأمان، على أموالهم ودمائهم،وخيّرهم بين الهجرة والبقاء،ودخل طُليطلة في المحرم ٤٧٨/١٠٨٥؛بعد أن بقيت في أيدي العرب حوالي ثلاثمائة سنة فسمّي الأذفونش بالإمبراطور ذي الملتين – Imperatur totius hispaniae – أي ملك أسبانيا كلها بمسيحييها ومسلميها [٢] . ولكن ولم يكن الأذفونش يُخفى إحتقاره لأمراء الأندلس ، وهم يقدمون الخضوع إليه ، وكان يبيع الواحد من أسرى المسلمين بزق من

---

(١) عنهم ، انظر . زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة ، ترجمة زكي حسن وحسن محمود ، ١ ص ٨٩ ؛ وأيضاً : صبح ، ٥ ص ٢٥٢ ؛ العبر ، ٤ ص ١٦١ ؛

Ency. de l'Isl, (art Tolède) t 4, p. 852 sqq.

(٢) الحلل الموشية في الأخبار المراكشية ، ص ٢٥ ؛ شكيب ، خلاصة تاريخ الأندلس، ص ١٩٢ .

الخمر ؛ كما حوّل جامعها إلى كنيسة ، وجعل مطران طُليطلة أسقفاً لأسبانيا وقال الأذفونش بهذه المناسبة : إنه لن يهدأ له بال إلا وقد أخذ قرطبتهم ؛ وكان قد أعـــد لمسجدها الجامع ناقوساً تأنق في صنعه ، وتجاوز الحد في استنباطه وإختراعه [1] .

في ذلك الوقت ، ظهرت شخصية طريفة ، هي شخصية السيد Cid [2] ، وهو فارس قشتالي ، يشبه رولان Roland ، في جيش شارلمان ، دخل هذا الفارس في الأغاني الشعبية الأسبانية Romancero [3] ، التي كانت تصوره في صورة الصليبي المدافع عن المسيحية ؛ حيث بدأت به أوديسة جديدة ، حينما خلّده الكاتب الفرنسي : كورنييل Corneille (١٦٣٦ م) . وكان هذا الفارس من نسل القوط ، اسمه : روذريق دياز دي بيبار Rodrigo Diaz de Vivar ، وعرفه من حوله ، بسبب فروسيته ، بالبطل : القنبيطور Campeador ، وإن كان قد اشتهر باسم : السيد . وقد بدأ حياته يحارب بجانب شانجه ضد أخيه ألفونسو (الأذفونش) ؛ ولما انتصر ألفونسو على أخيه اضطهده ؛ وبذلك بدأ حياته كجندي مرتزق Condottiere ؛ فحارب في صفوف المسلمين — وكان يتكلم العربية — وراح يساعد أمير سَرَقُسطة المسلم ضد أعدائه المسيحيين . ومن هنا سماه المسلمون : السيد « سيدي » ، حيث تُرجمت إلى الأسبانية Mio Cid . وبعد ذلك تصالح مع ألفونسو ، وصار من أهم فرسانه ، واشترك في حصار طُليطلة ، ثم عمـــل لحسابه الخاص ؛ فاستولى على بَلَنْسية [4] Valencia ، وأحرق فيها قضيها ، كما استولى على غيرها .

★

---

(١) ابن بسام ، الذخيرة ، ص ١٣١ — ١٣٢ .

(٢) عنه ، انظر . Ency. de l'Isl, (art al Sîd) t 4, p. 416 - 418.
؛ Menéndez Pidal : Espana del Cid . Madrid, 1929.
؛ ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٢٧ ، ١٦٥ وما بعدها .

(٣) أنظر . Pomès : Le Romancero, trad. en Fran, p. 60 sqq.

(٤) عنها ، انظر . Ency. de l'Isl, (art Valence) t 4, p. 1128 - 9.

وخاف المسلمون في الأندلس على كيانهم ، وفكروا في وسيلة لوقف الخطر المسيحي ؛ فاستعانوا بدولة فتية ظهرت في المغرب ، تكونت من قبائل بربرية أشهرها لمتونة ، التي سكنت على حدود الصحراء في الجنوب ، وقامت بتحريض فقيه اسمه : عبدالله بن ياسين ، بنشر أحكام الشرع بين القبائل المجاورة ، فأنشأت لأتباعها ما عُرف بالرباط ، جمع ربط أو رابطة ، وهي أماكن للجهاد ؛ ولذا سُميت الدولة التي أنشأها زعيم لمتونة ، واسمه أبو بكر ابن عمر – ومن أتباع ابن ياسين – بدولة المرابطين [١] ، نسبة إلى الرباط ، أو بدولة الملثمين نسبة إلى اللثام الذي كانوا يلبسونه في الصحراء ، ليقيهم الحر أو البرد ، كما يفعل البدو في الصحاري . وكان ظهور دولة المرابطين في حوالي سنة ٤٤٨/١٠٥٦ ، قريباً من وقت ظهور دولة الأتراك السلاجقة في المشرق . ولما امتدت رقعة دولة المرابطين نحو المغرب الأقصى ، أنشأت لها عاصمة ، عُرفت بمراكش [٢] ، وذلك في حدود سنة ٤٧٠/١٠٧٧ .

وكان ملوك المرابطين يتلقبون بلقب : أمير المسلمين ؛ ولم يلقّبوا بلقب : أمير المؤمنين ، الذي كان قاصراً على خلفاء الإسلام ، حتى لا يزيدوا من إنقصام وحدة المسلمين . وإجابة لطلب المسلمين في الأندلس ، ورغبة في الجهاد الصادق ، وفي أن يسود الإصلاح أمة المسلمين ، عبرت جيوش المرابطين بقيادة يوسف بن تاشفين اللمتوني [٣] ، الذي تولى رئاسة البربر بعد موت ابن عمه أبي بكر بن عمر ، ومقتل ابن ياسين ؛ للجهاد مع ملوك طوائف الأندلس ضد الفرنجة . فاستطاع ابن تاشفين وقف تقدم الأذفونش –ألفونسو السادس– حيث هزمه في موقعة فحص الزّلاقة Zallaca [٤] في سنة ٤٧٩ / ١٠٨٦ ،

---

(١) الكامل ، ٨ ص ٧٤ – ٧٦ ؛ انظر . حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ ؛ Ency. de l'Isl, (art Almoravides) t 1, p. 322 sqq.

(٢) عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٨ ص ٧ .

(٣) المراكشي ، المعجب ، القاهرة ١٩٥٠، ص ٥ ؛ صبح ، ٥ ص ٢٥٨ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Tashfîn) t 4, p. 722.

(٤) الكامل ، ٨ ص ١٤١ – ١٤٣ ؛ الحلل الموشية ، ص ٤٦ . عنها ، انظر . معجم البلدان ، ٤ ص ٣٩٨ .

وأُضطر الأذفونش إلى الهرب في شرذمة قليلة من جنده ، تاركاً خلفه بضعة آلاف من القتلى والأسرى . كذلك حارب السيد وهزمه في بلنسية ، حتى مات مقهوراً في ٤٩٢/١٠٩٩ ؛ فأخذت زوجته شمينة Jimna (خيمنا) جسده ودفنته في بلده الأصلي برغش Burgos ؛ مع أن القمبيطور كان يُوصف بأنه لا يُهزم ، ولكنه هُزم على يد المرابطين .

ولكن عزّ على ملوك الطوائف أن يخضعوا لملك المرابطين البتري (البدوي) فنازعوه ، حتى أُضطر الملك إلى العودة إلى المغرب . ولكن ما لبث أن عاد إلى الأندلس ، وبدلاً من أن يحارب الأذفونش ، حارب ملوك الطوائف؛ فاستولى على الأندلس الإسلامية ؛ بما فيها إشبيلية من صاحبها المعتمد بن عباد، الذي طلب معونة الفرنجة ، ووهب ابنته المسماة زايدة إلى الأذفونش - فتنصرت - تعزيزاً لأواصر الصداقة بينهما [1] ؛ مما يرسم خيانة هؤلاء الملوك ، كما استولى على غرناطة وجزائر البليار . وقد أيّد موقفه الفتوى ، التي جاءت من أعلام فقهاء الشرق ، مثل الغزالي [2] (م ٥٠٥/١١١٢) ، بضرورة القضاء على هؤلاء الملوك المنفصلين . ومن ناحية أخرى ، كتب ابن تاشفين إلى الخليفة العباسي المستظهر بالله ينوه بدوره في الجهاد [3] ؛ مما حمل الخليفة على الإعتراف به ، ولدينا رسالة من الخليفة يشجعه فيها على الجهاد [4] .

ثم إن المسلمين في الأندلس ؛ غُذوا بدماء جديدة ؛ لما قامت دولة فتية أخرى في المغرب . فقد قام بين قبائل المصامدة المقيمة في جبال دَرن

---

(١) ابن أبي زرع ، الأنيس المطرب بروض القرطاس ، Upsala ، ١٨٤٣ ، ص ١٠٠ ؛ انظر . حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٠٤ ؛ ليفي بروفنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ص ١٥١ وما بعدها .

(٢) ابن خلكان ، وفيات ، ٢ ص ٣٧٠ .

(٣) النويري ، نهاية الأرب ، الجزء ٢٢ ، ط. غرناطة ، ١٩١٩ ، ص ١٨٥ ؛ انظر . حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، ص ٣٢٣ .

(٤) مخطوط برقم ٥٣٨ ، في مكتبة سان لورنزو بالأسكوريال ، انظر نصه في صحيفة المعهد المصري بمدريد ، عدد ١ - ٢ ، ١٩٥٤ ، المجلد الثاني ، ص ٦٦ - ٦٨ .

– أطلس – المحيطة بمراكش،مصلح ديني أو آمر بالمعروف اسمه ابن تومرت، الذي عُرف بالمهدي [١] ، وكان يدعو إلى التوحيد، وترك الفساد الذي وقعت فيه دولة المرابطين . فقد ترفت دولة المرابطين ، وأصبحت سيرتها تدل على حياة الكفر والإلحاد ، وكان لا همّ لملوكها غير شرب الخمر، ومصاحبة النساء؛ فلا يهتمون بالفرنجة ، بقدر اهتمامهم بحياتهم الخاصة ، بعد تذوقهم الحياة الأندلسية الرهيفة [٢] . وقام زعيم من المصامدة اسمه عبد المؤمن [٣] ، من أتباع ابن تومرت ، بإنشاء دولة قوية في ٥١٢/١١١٨ ، نُسبت إلى مبدأ التوحيد أي النقاء ؛ فعُرفوا بالموحدين ؛وقاموا على أنقاض المرابطين الضعاف في المغرب . وكان ملوك هذه الدولة على عكس ملوك دولة المرابطين ، يتسمى الواحد منهم بأمير المؤمنين ، كأي خليفة .

هذه الدولة البربرية كالمرابطين قامت بالجهاد . فطردت النورمان – الفرنج – من المهديّة التي استولوا عليها أثناء توسعهم في شمال افريقيا في ٥٥٤/١١٥٩ ، بعد أن كانوا سيطروا عليها اثنتي عشرة سنة [٤] . كذلك دخلت دولة الموحدين الأندلس ، بحكم وراثتها للمرابطين ، وهاجمت فرنجتها مرات عدة ، وتقابلت معهم في موقعة الأرك [٥] Alarcos، بجوار قرطبة ، في ٣ شعبان ٥٩١/١٤ يوليو ١١٩٥ ، حيث انتصر فيها يعقوب بن عبد المؤمن، المعروف بالمنصور ، على جيوش الفرنجة مجتمعة ، بزعامة ألفونسو الثامن Alfonso VIII . ويقول المؤرخون المسلمون إن عدد قتلى المسيحيين بلغ حوالي ستة وأربعين ومائة ألف ، والأسرى ثلاثين ألفاً ، ولكن يبدو أن في هذا العدد مبالغة .

---

(١) الكامل ، ٨ ص ٢٩٤ وما بعدها . عنه ، بالتفصيل ، انظر . وفيات ، ٢ ص ٤٢٦ وما بعدها .

(٢) المراكشي ، المعجب ، ص ١٧٧ .

(٣) عنه ، بالتفصيل : وفيات ، ١ ص ٥٥٦ – ٥٥٨ .

(٤) الكامل ، ٩ ص ٦٣ .

(٥) نفسه ، ٩ ص ٢٣٢ - ٢٣٣ ؛ Ency. de l'Isl, (art Alarcors) t1, p.253.

ومع ذلك ؛ فإن الموحدين ما لبثوا أن ضعفوا . فانتهزت قشتالة ، التي اتحدت مع غيرهـا ، الفرصة وأخذت بثأر الأرك : فانتصر ألفونسو الثامن على الناصر محمد بن يعقوب في موقعة العِقاب،المعروفة باسم: Las Navas de Tolosa في صفر ٦٠٩/ يوليو ١٢١٢ ؛ ممـا يتبيّن أن الانتصار في الأرك لم يكن بقوة انتصار الزلاقـة في أيام المرابطين ، التي أوقفت خطرهم إلى مدة طويلة ؛ ففي موقعة العقاب كان اصطحب ألفونسو جماعـة من التجار اليهود لشراء أسرى المسلمين . ولقد بعث ألفونسو بعَلَـمَ الخليفة المهزوم إلى البابا ، الذي بارك حملته ؛ فعلّقهالبابا في إحدى كنائس روما.وتبع هذا الإنتصار ؛ الاستيلاء على معظم مدن الأندلس التي بقيت في أيدي المسلمـين ، مثل : قـَرطبة عاصمة الأمويين السابقة، التي سقطت في ١٢٣٦م ، وحُوّل مسجدهـا إلى كتدرائية، ما تزال تحفظ اسمهـا القديم : المسجد Mazquita ، وإشبيلية عاصمة الموحدين في الأندلس في ١٢٤٤م، كما سقطت مدن أخرى الواحدة بعد الأخرى ، وحتى جزر البليار استولى عليهـا الجنويون [١] ؛ ولم يتبق غير غـَرناطة وبعض المدن المجاورة لها .

★

ولقد هيأ ضعف المسلمين في الأندلس ؛ لظهور ممالك قوية للفرنجة فيها ؛ ممـا قوّى من جبهة الفرنجة . فظهرت دولة البُرْتقال [٢] أو البرطقال Terra Portucalis (Lusitania) الفتية ، منفصلة عن قشتالة ، في المنطقة الغربية من أسبانيا ، على الأتلانتيك ؛ وساعد على قيامها الفرنسيون ، الذين كثيراً ما جاءوا للغزو في هـذه النواحي . وقد استدعى ألفونسو الأول هنريك Alfonso I Henrique (١١١٤ - ١١٨٥ م)—وهو من أصل فرنسي— الداوية والإسبتارية ، وهم من فرسان الصليبيين ، واستولى بهم على لشبُونة

(١) أنظر . Maunz : Op. cit, p. 34.

(٢) صبح ، ٥ ص ٢٧٠ ؛ انظر . Legendre : Nouvelle, p. 102 sqq.

أو أشْبُونة [1] Lisboa في ٥٤٦/١١٥١ ، ولما وجد في نفسه القوة ، اتخذ لقب ملك البرتغال Rex portugalensium . وهذه المملكة مع صغر حجمها، لعبت دوراً كبيراً في إضعاف المسلمين عامة ، فلم تكتف باقتطاع جزء من الأندلس ، وإنما سعت بملاحيها إلى حرب المماليك في المحيط الهندي ؛ مما يؤيد إرتباط الركونكوستا بالحروب الصليبية ؛ إذ هي نشأت منها . ولدينا نص خطاب أُرسل من أهل أشْبُونة (لشبونة) المسلمين في ربيع الآخر في عام ٨٥٨/١٤٥٤ [2] ، يطلبون فيه من السلطان الأشرف إينـال ، مساعدة نصارى كنيسة القيامة في ترميمها ، وبناء ما هُدم من كنائس النصارى ، حتى لا يحدث لهم على أيدي نصارى لشبونة سوء ، فتحول المساجد إلى كنائس .

كذلك هددت البرتغال – ويسميهم العرب الفرنج – المماليك ، بالتعاون مع الحبشة المسيحية في افريقيا ، في البحر الأحمر وساحل بحر الهند ، فهاجموا سواحل الحجاز ابتداءً من عام ٩١١/١٥٠٥ [3] ، وعبثوا بمراكب تجار الهند المسلمين ، وأخذوا ما معهم من البضائع ، حتى نقصت المؤن مثل الأرز وغيره من مصر ، ومن غيرها من البلاد . وقد أَضطر ولاة المماليك في الحجاز إلى بناء أبراج على ساحل جُدة ، وجُهزت المراكب لوقف خطر الفرنجة . فحاز المماليك بعض الإنتصارات في عام ٩١٤/١٥٠٨ [4] ؛ حتى أنه دُقت الكوسات – الطبول – في مصر مدة ثلاثة أيام متتالية . إلا أن هذا النصر كان مؤقتاً ، وكُسر المماليك كسرة فاحشة في العام التالي ٩١٥/١٥٠٩ [5] ، بحيث قُتل العسكر

---

(١) صبح ، ٥ ص ٢٢٢ .

(٢) مخطوطة بالمكتبة الأهلية (B. N.) ، برقم ٤٤٤٠ ، ورقـات ٥٩ – ٦٠ ؛ انظر . Colin : Contribution à l'étude des relations diplomatiques, p.20. ؛ دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٨٣ وملحق ١١ .

(٣) ابن إياس ، تحقيق محمد مصطفى ، القاهرة ١٩٦٠ ، ٤ ص ٨٢ س ١٣ – ١٤ ، ٩٥-٩٦ ، ١٠٩ ، ١٢٤ .

(٤) نفسه ، ٤ ص ١٤٢ س ٨ وما بعدها .

(٥) نفسه ، ٤ ص ١٥٦ س ٨ – ١٠ .

الموجه نحوهم عن آخرهم ، ونُهبت مراكبهم ، حتى تنكّد السلطان . ولعل هذه المعركة هي التي سماها الأوربيون ، بموقعة ديو البحرية .

كذلك قويت أرغون Aragon ، وأصبحت في قوة قشتالة ، وذلك في عهد ملكها خيمي (جاك أو جيمس) الأول Jaime I (١٢١٣–١٢٧٦م) ، المسمى بالمحارب al - Conquistedor ، الذي ضم قطالية إليه ، وتوسع على حساب الماركيات الفرنسية ؛ فاستولى على برشلونة ، ووصل في غزواته جنوباً حتى بلنسية [١] ، التي احتلها في عام ١٢٣٨ م ، كما استولى على جزائر البليار [٢] ، وذهب إلى الأراضي المقدسة في أيام بيبرس ، لتقوية الروح المعنوية لدى المقاومين الصليبيين فيها [٣] . وقد توسعت هذه الدولة بسبب التجارة التي قامت بينها وبين مصر في عهد المماليك ، ودول البحر الأبيض ، عن طريق شركة الكتيلان الكبرى . وعلى الرغم من أن البابا كان يصدر قرارات الحرمان ضد من يتاجرون مع المسلمين ؛ فإن هذه الدولة تاجرت مع مماليك مصر . ولدينا رسائل متبادلة بين خيمي (جاك) الثاني Jaime II (١٢٩١–١٣٢٧م) ، والملك الناصر خلال حكمه الثاني والثالث [٤] ؛ إذ كان هدف خيمي الثاني مثل فردريك الثاني ، أن يحصل على خير للصليبيين عن هذه الطريق الدبلوماسية ، وخصوصاً أن عكّة كانت قد سقطت في يد المسلمين ، ولم يبق هناك عداء صليبي مباشرة في الشرق مع ملوك الصليبيين . ويبدو أن أرغون في عهد هذا الملك كانت ما تزال قوية ؛ فقد كان من ألقابه المعروفة في مصر : صاحب أرغونة وبلنسية وجزيرة سردينية وقرسقة [٥] ، كما ضم إلى ملكه

---

(١) أنظر . Legendre : Op. cit, p. 112.

(٢) أنظر . Ency. de l'Isl, (art Baléares) t 1, p. 631.

(٣) أنظر . Legendre : Op. cit, p. 112.

(٤) أنظر . Atiya : The Crusade in the later Middle Ages, p.510-6. ؛ Egypt and Aragon Embassies and Diplomatic correspondence between 1300 and 1330 AD . Leipzig, 1938 ؛ Heyd : Hist du, Commerce, 2 p. 30 sqq.

(٥) أنظر . Legendre : Op. cit, p. 44.

صقلـيّة أيضاً [١] . ومع ذلك ؛ فإن هـــذه الدولة لم تستطع أن تكون كالبرتغال ، بسبب إنشغالها بحروب مع فرنسا ، بخصوص صقلـيّة وغيرها .

وجدير بالذكر أن قشتالة سعت للتقرب من مصر مع موقفها العدائي من مسلمي الأندلس وتزعمها حركة المقاومة ضدهم ، وذلك بسبب قوة مصر المرهوبة ، وانتصارها على الصليبيين والمغول ؛ ومن جهة أخرى كيلا تمد مصر يد المساعدة إلى دويلات الإسلام في الأندلس. ولدينا رسائل متبادلة بين سلطان المماليك الناصر محمد بن قلاوون ، وألفونسو العاشر Alfonso X ، في ٥ من رجب ٦٩٩/٢٧ مارس ١٣٠٠ [٢] ؛ وقد وردت فيها ألقاب ملك قشتالة ، وهي : صاحب قشتالة وطُليطلة وقَـرطبة وجيان ، وتدل عـــلى رغبة في توسيع شؤونه التجارية ، وزيارة وفد قشتالي لبيت المقدس .

وأكثر من ذلك ، فقد كثر مجيء قصاد الفرنج ، ولا سيا من أفرانسة [٣] – وهم مجاورون للأندلس – إلى بلاط سلطان المماليك في مصر ؛ حتى أنه بلغ عددهم في إحدى المرات نحو خمسين نفراً ، كلهم من رؤساء الفرنجة . فكان السلطان يستقبلهم بالترحاب، ويرسل إليهم الخيل ليركبوها من بولاق – ميناء القاهرة – ليطلعوا بها إلى القلعة ، ثم يُفرش لهم الإيوان بالرايات وآلات السلاح ؛ حيث يقفون بين يديه ، ويظهرون له التعاظم ببوس الأرض ويقدمون هدايا بلادهم ، التي تصلح للملوك .



---

(١) صبح ، ٥ ص ٢٧٠ .

(٢) ورد نص هذه الرسالة في كتاب : Los Documentos Arabes Diplomaticos del Archivo de la Corona de Aragon. Madrid, 1940.

انظر : Atiya : Egypt and Aragon. Cf.

(٣) ابن إياس ، تحقيق محمد مصطفى ، ٤ ص ٢٥٥ ، ٢٥٧ ، ٢٦٨ .

وقـــد سادت في غَرْناطة أو أغـَرْناطة (١) دولة بـني نصر أو بني الأحمر (٢) ، (٦٢٩ – ١٢٣٢/٨٩٧ – ١٤٩٢) ، التي عُرف مؤسسها محمد ابن يوسف بن نصر ، المعروف بابن الأحمر ، لقوة مراسه . وقدساعد على بقاء غـَرناطة وبعض المدن المضافة إليها ، مثل : مَالقة ، والمريّة ، وجبل الفتح ، ووادي آش ، وبَسْطـَة ، والجزيرة الخضراء ، وغيرها ؛ أنها كانت تقع في منطقة محصنة طبيعياً : فتقع في منطقة جبال السيرّا إلبيرَة (٢) Sierra d'Elvira ، التي هي جزء من السيرّا نڤادا Sierra Nevada ، التي سماها العرب جبال الثلج ، ولها نهر اسمه : سِنجِـل «Singlis» Génil (خنيل) . ثم لأنها كانت تشتمل على عدد كبير من العرب ؛ فضلاً عن البربر . يُضاف إلى ذلك ، أنها كانت تعتمد ، في بقائهـا على المعنويات التي تأتيها من دولة بني مرين (٣) (٦٦٨ – ١٢٦٩/٩٥٧ – ١٥٥٠) ، التي قامت بعد الموحدين في مراكش بشمال افريقيا ، واتخذت فاس عاصمة لها ؛ فكانت تحمي قواعد دولة غـَرناطة الجنوبية من ملوك الركونكوستا . وتحت شعار الجهاد كان جنود بني مرين ، يأتون إلى الأندلس باستمرار ، ولهم فرق من الغزاة ، يقودهم شيوخهم .

وفي أول قيام دولة بني نصر ، كان حكامها يدفعون الجزية للقشتاليين ، حتى اشتركوا معهم في الإستيلاء على إشبيلية من الموحدين . ولكن لمـــا اعتمد بنو نصر على بني مرين (٥) ، حاربهم الفرنجة بشدة ، وعمل القشتاليون

(١) معجم البلدان ، ٦ ص ٢٧٩ - ٢٨٠ ؛ صبح ، ٥ ص ٢١٤ وما بعدها ؛
; Ency. de l'Isl, (art Grenade) t 2, p. 186 — 7.
شكيب ، خلاصة تاريخ الأندلس ، ١٩٢٥ ، ص ٦٩ . معناها الرمانة ، وتسمى دمشق ، لأن جند دمشق نزلوها .

(٢) أنظر . زامباور ، معجم الأنساب ، ١ ص ٩٥ ؛ صبح ، ٥ ص ٢٦٠ وما بعدها ؛
Ency. de l'Isl, (art Nasirides) t 3, p. 938 sqq.

(٣) عنها : معجم البلدان ، ١ ص ٣٢٢ .

(٤) عنها : صبح ، ٥ ص ١٩٤ وما بعدها ؛ السلاوي ، الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، ط مصر ١٣١٢ هـ ، ٢ ص ٥ ؛ انظر . Ency. de l'Isl, (art Mérinides) t 3, p. 527 sqq.

(٥) نفح ، ٢ ص ٦٠٧ .

على تطويقها بالإستيلاء على طريف وما حولها ، في عهد ألفونسو الحادي عشر Alfonso XI (١٣١٢ - ١٣٥٠ م) ؛ إلا أنه لم يستفد من نصره في القضاء على دولة غَرناطة ، بسبب إنشغاله في حروب ضد دولة البرتقال ، كما انشغلت أرغون في مساندة فرنسا في حرب المائة عام . فكان ذلك داعياً إلى تأخير سقوط غَرناطة مدة قرن ونصف القرن .

وبعد إنتهاء خلافات الفرنجة ، يظهر الإذلال لهذه الدولة من وثيقة أندلسية قشتالية [١] ، في عهد الملك خوان الثاني Juan II (١٤٠٦ - ١٤٥٤ م) ، والأمير أبو الحجاج يوسف سلطان غَرناطة ومَالقة والمريّة وجبل الفتح ووادي آش وبسطة ، الذي وضع نفسه تحت حماية قشتالة ، في مقابل معاونتها له ضد أعدائه من الذين خرجوا عليه . ثم جاءت الطامة الكبرى على دولة غَرناطة من اتحاد قشتالية وأرغون ، بزواج إيزابلا Isabella (١٤٧٤ - ١٥٠٤م) ، وليّة عهد قشتالة بفرنندو الخامس Fernando V (١٤٧٩ - ١٥١٦ م) ، وريث أرغون . فهيأ هذا الزواج لحركة الإسترداد قوة غير منتظرة ؛ وإن كان لم ينتقل إليهما العرش إلا في عام ٨٧٩/١٤٧٤ . فضلاً عن أن الركونكوستا قويت بمجيء عناصر طليانية وفرنسية ، بقصد القيام بجهود أخير للقضاء على المسلمين في الأندلس .

ويظهر سوء حال غَرناطة وقتئذ من كتب الإستغاثة ، التي كان يبعث بها ملوكها إلى سلاطين المماليك في مصر . فيظهر أن دول المغرب الإسلامي كانت قد ضعفت ، فتوجهت إلى المماليك ، الذين كان من ألقاب سلاطينهم : هازم الفرنج ، وقاتل الكفرة والمشركين ، والمجاهد المنصور [٢] ، بحيث أصبحت دولتهم أمل المسلمين في كل مكان . فلقد أرسل ملك غرناطة محمد بن نصر

---

(١) يوجد نص الوثيقة ، منقولة من دار المحفوظات الأسبانية ، برقم عمومي ١٠٠٥ ، في صحيفة المعهد المصري بمدريد ، المجلد ٢ ، العدد ١ - ٢ ، ١٩٥٤ ، ص ٣٨ وما بعدها .

(٢) مخطوط (B. N.) ٤٤٤٠ ، ورقة ٤٠ ؛ انظر . ماجد ، نظم دولة سلاطين المماليك ، ١ ص ٢٩ - ٣٠ .

(الثاني) ، المعروف باسم : محمد الأيسر ، سفارة سياسية [1] ، إلى السلطان المملوكي أبي سعيد جقمق (٨٤٢-٨٥٧/١٤٣٨-١٤٥٣) ، يطلب منه نجدة . كذلك ورد كتاب إلى جقمق [2] ؛ من محمـــد الأحنف صاحب الأندلس ، يشتكي فيه مما أصابه من الإفرنج المجاورين ، ويطلب نجـدة مستعجلة ، حتى أنه أرسل مركباً لتحملها . وأرسل صاحب الأندلس سعدالمستعين بالله رسالة أيضاً في جمادى الأولى ٨٦٨/فبراير ١٤٦٤ [3] ، إلى السلطان المملوكي خوشقدم (خشقدم) ؛ ورد فيها : « فالدين هنا في خطب مهول ، واشتباك مـع الكافرين ، الذين عمّروا الحزون والسهول ، حتى أذهلوا مع قلتنا القلوب والعقول ، فنحن نستغيث بنصرتكم ، فنقول : يا ولي المسلمين.. » . ومن قوله أيضاً لهذا السلطان : « هذا العدو المشرك ، صاحب قشتالة ـ قصمه الله ـ يهجم في كل عام على بلادنا وثغورنا .. تملّك في العام الفارط مدينة جبل الفتح [جبل طارق] ، وأزال عنها كلمة الإسلام ، وعمّر مآذنـــه بالنواقيس ، ومساجده بالأصنام ، وملأه بقوم يعبدون أوثانهم » . ولكن المماليـــك ، على ما يبدو ، لم يكونوا يستطيعون المساعدة بالجند، لبعد بلاد الأندلس، وإنمـــا كانوا يرسلون الأموال والسلاح، أو حتى يعدون بارسالها، ويحرضون العثمانيين [4]، الذين انتصروا على الروم بأخذ القسطنطينية ، وعلى الفرنجة من أوربا في موقعة نيكوبوليس ، بمساعدة الأندلسيين .

وكان أهل غـَرناطة يقاتلون قتال الإستماتة ، حتى أنـه ورد في كتاب :

---

(١) نص السفارة ، تحقيق الأهواني ، بعنوان : سفارة سياسية من غرناطة إلى القـــاهرة في القرن التاسع الهجري ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، مايو ١٩٥٤ ، ص ٩٨ - ١١٠.

(٢) مخطوط ٤٤٤٠ (B. N.) ، ورقات ٨ ب ا - ٥٩ ا ؛ انظر . Colin : Cont. à l'étude des rel. dipl.,p. 200 ؛ دراج ، المماليك والفرنج ، ملحق ١٠ ص ١٨١ - ١٨٤ .

(٣) مخطوط ٤٤٤٠ (B. N.) ، ورقات ٦٢ وما بعدها ؛ انظر . Colin : Cont, p. 205 ؛ دراج ، المماليك والفرنج ، ص ٩٧ وملحق ١٢ .

(٤) سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة ، ص١٠٣. أنظر نص المقابلة بين السفير وجقمق.

مورد اللطافة لأبي المحاسن؛ أنه وقعت وقعة عظيمة بينهم وبين فرنجة قشتالة[1]؛ فخرجوا المائة ألف في خمسة آلاف ، واستولوا على مدن كانت ضاعت منهم ، وقتلوا خمسين ألفاً ، وكأنهم عادوا إلى سيرة العرب الأولى في أيام الفتوح . ولكن بعد ذلك، وجدنا قشتالة تستولي على مدن عديدة حول غَرناطة ، منها مَالقة[2] إحدى مدن غَرناطة الهامة، حتى أن إيزابيلا جاءت بنفسها لتشجع الرجال على القتال .

وحاولت مدينة غَرناطة مقاومة حصار الفرنجة لها ، إلا أنها أُضطرت إلى إلقاء السلاح ، بعد أن وجدت نفسها في وسط بحر من الفرنجة ، فضلاً عن أنها يئست من وصول النجدات من مماليك مصر أو سلاطين العثمانيين . فسلّمت بشروط عددها سبعة وستين شرطاً[4] ، على يد آخر ملوكها ، المسمى : أبو عبد الله محمد بن الأحمر ، الذي عرفه الاوربيون باسم : Boabdil ، في عام ١٤٩٢/٨٩٧ ؛ فتركها لاجئاً إلى المغرب عند الوطاسيين ، الذين هم فرقة من بني مرين ؛ حيث توفي في فاس عندهم سنة ١٥٢٣/٩٤٠[3] . ولعله يوجد في غَرناطة مكان اسمه : حوز الوداع[4] Suspiro del - moro ، أي زفرة العرب ، بكى عنده آخر ملوك العرب ، على موطن عزّ ومجد آبائه ؛ حيث قالت له أمه عائشة هذه العبارة : إبك الآن بكاء النساء ، المُلك الذي لم تُحسن المدافعة عنه دفاع الرجال[5] .

وتبع سقوط غَرناطة موجة من الكراهية ضد المسلمين؛ حتى أنهم خيّروا بين التحول للمسيحية ومغادرة البلاد[6] . فغادر البلاد منهم إلى المغرب أكثر

---

(١) مورد اللطافة ، ص ٦١ - ٦٢ . وذلك في سنة ١٣١٩/٧١٩ .

(٢) أنظر : Watts Spain, p. 296 - 297.

(٣) نفح ، ٢ ص ٦١٥ - ٦١٦ . منها : تأمين للنفس ، والمال ، والعقار ، والعقيدة ، وإقامة الشريعة ، وبقاء المساجد .

(٤) السلاوي ، الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، ٢ ص ١٦٨ .

(٥) أنظر . دو شاتوبريان ، آخر بني سراج ، ترجمة شكيب أرسلان ، ص ٤ .

(٦) السلاوي ، ٢ ص ١٥٣ - ١٥٤ ؛ نفح ، ٢ ص ٦١٦ ؛ انظر . شكيب أرسلان ، خلاصة تاريخ الأندلس ، ص ٣٥٠ وما بعدها .

من ثلاثة ملايين نسمة ؛ وبذلك أصبحت الهجرة عكسية من الأندلس إلى المغرب ، بعد أن كانت من المغرب للأندلس مدة ثمانية قرون. كذلك ظهرت حملة قوية ضد كل ما هو عربي، فأمر الكردينال مطران طُليطلة - التي عادت مركزاً للمسيحية الاسبانية - وعميد الكنيسة الأسبانية ؛ بجمع جميع الكتب في غَرناطة وإحراقها في ساحات المدينة ؛ بحيث أُتلفت على هذا النحو مائة ألف أو تزيد من الكتب العربية [١] .

وبذلك انتصر الفرنجة في هذه الرقعة على المسلمين؛ حيث ارتج لها الإسلام في كل مكان ، وما تزال أسبانيا إلى الآن في أيدي الفرنجة .

★

ومع أن العرب خرجوا من هذه المنطقة ؛ إلا أنهم تركوا فيها أثراً حضارياً لامعاً . فقد ازدهرت فيها الحضارة الإسلامية ، مثلما ازدهرت في الشرق : كالشام والعراق ومصر وغيرها . فأصبحت قُرطبة Cordûba (Cordoba) ، عاصمة أمويي الأندلس مدينة كُبْرى ، عدد سكانها نصف مليون نسمة ، ومساجدها ٣٨٧٧ ، وحماماتها ٩١١ ، وحوانيتها ٨٠٥٥٥ [٢] ، وفيها دار كتب مهمة [٣] ، تزود بالكتب من القاهرة وبغداد ؛ فإذا لم توجد نسخ منها ، أُرسل من يقوم بنسخها ، حتى أصبحت تحتوي على أكثر من ستمائة ألف كتاب [٤] . وبعد ضعف الخلافة الأموية في الأندلس وزوالها ،

---

(١) لسان الدين بن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق وتقديم عنان ، ص ٨ .

(٢) نفح الطيب ، تحقيق محمد محيي ، القاهرة ١٩٤٩ ، ٢ ص ٧٨ - ٧٩ ؛ انظر . سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس، ص ٢٩٦ ؛ Legendre : Nouvelle histoire,p.92. لدينا إحصاءات أخرى ، وهي : ١٨٣٦ مسجداً، و ٧٠٠ حمام ، ١٠٠١٣ بيت . عبد البديع، نص أندلسي جديد ، قطعة من كتاب نزهة الأنفس في تاريخ الأندلس ، ص ٢٧ .

(٣) ابن صاعد ، ص ٦٦ .

(٤) أنظر . Haskins : Studies in the History of Mediaeval Science. Cambridge, 1927, p. 6 ; Ribera : Bibliofilos bibliotecas, en la Espana musulmana. Sargosse, 1896.

وقيام ملوك الطوائف ، وغزوات المرابطين ومن بعدهم الموحدين؛ فإن الحضارة الإسلامية لم تخب في الأندلس ؛ فظهرت مراكز حضارية متعددة يانعـــة ، مثل : غَـرْناطـــة (Granada) ، وطُليْطـُـلة (Toledo) ، وإشبيلية (Sevilla) . وفوق ذلك ، فإن الحضـارة الإسلامية الزاهية في الأندلس ، كانت دائمة التغذية من دول الإسلام الكبرى في الشرق ، بفضل الرحلات التي لم تنقطع بين الأندلس ومراكز الشرق .

ومن ناحية أخرى ، انتشرت اللغة العربية بـين غالبية سكان الأندلس ، الذين هجروا لغتهم ، ليتكلموا العربية ، وعُرفوا بسبب ذلك بالموز آراب Mozàrabes [١]، أي المستعربـــين . فظهرت بينهم الرومانس Romance ، وتعني اللغة الشعبية ، التي كانت لغة تفاهم بين المسيحيين والمسلمين، واندمجت فيها العربية . ولقد أُضطر الأساقفــة من رجال الدين المسيحي ، أن يترجموا الإنجيل إلى العربية ، مثلما حدث في كثير من البلاد المفتوحة كمصر ، التي كان سكانها من القبط. كذلك ظهرت قواميس لاتينية عربية ـ Glossarium Latino Arabicum ؛ على إعتبار أن اللغة اللاتينية كانت لغة الحضاره قبل مجيء المسلمين. كما أن اليهود ، وهم قلة كبيرة في الأندلس، أُضطهدت في أيام القوط، استعربوا منذ زمن مبكر ، فأخذوا لغة العرب وملابسهم ، واندرجوا في غمارهم [٢] .

وعلى عكس هذا النور ، الذي كان يشع في الأندلس ، بفضل إزدهار حضارة المسلمين ، خيم الظلام على نواحي أوربا ، التي يصفهـــا ابن صاعد الأندلسي ؛ بأن سكانها أمم اختصت بالجهل والظلم ؛ فيما عدا بعض صوامع الرهبان ، الذين احتفظوا ببقايا حضارة اليونان . لذلك كان النابهون من أهل

---

(١) عنهم ، انظر . Ency. de l'Isl, (art Mozarabes) t 3, p. 652 - 3.

(٢) أنظر . Lévi-Prov : Hist. d'Esp. Musul. Paris, 1951, p. 80 - 81. ؛ مؤنس ، فجر الأندلس ، ص ٥٢٣.

أوربا يأتون إلى الأندلس ، ليغترفوا من معرفة المسلمين؛ حيث نذكر من أشهر من جاؤوها الراهب جربيرتو Gerberto [1] ، وهو أصبح ُيعرف باسم البابا سلفستر الثاني Silvestre II (بابا من ٩٩٩ — ١٠٠٣ م) ، الذي زار بلاط الخليفة الحاكم الثاني في ٩٧١ (٣٦١ م) ، وكان يدرس أشيـــاء كثيرة من معارف العرب .

ومن ناحية أخرى ، وعلى الرغم من قيام الركونكوستا ، فقد شجع ملوك الأسبان المسيحيين ، على بقاء مظاهر حضارة المسلمين ، كما فعل ملوك النورمان في صقلّيّة ؛ فهم لم يستطيعوا أن يقفوا سداً أمامها ؛ مع تعصبهم الشديد ضد المسلمين والإسلام . فنسمع أن الملك ألفونسو العاشر الملقب بالحكيم [2] Alfonso X el Sabio (١٢٥٢ — ١٢٨٤ م)، ترك الحروب، واهتم بالثقافة، وفتح في بلاده مدرسة لترجمة علوم المسلمين وآدابهم ، كما أمر بترجمة القرآن ، الذي كان ُترجم إلى اللاتينية في قرن سابق ، إلى اللغة القشتالية . وكان الذين ينقلون علوم العرب وآدابهم للأسبان هم : المدجنون Mudéjares [3] ، أو ما يسمون أيضاً : بالمهاجرين أو المداخلة أو المعاقدين أو المعاهدين ، وهم المسلمون الذين بقوا تحت حكم الأسبان المسيحيين ، وأيضاً المور Moros أو الموريسكيون Moriscos [4] ، وهم المسلمون الذين بقوا بعد زوال سلطانهم في أسبانيا ، كان بعضهم قد تنصر ، كما كان يقوم بذلك اليهود أيضاً . والنور الذي ُوجد في الأندلس ، كان يتسرب إلى ربوع أوربا ؛ حيث انتقلت

---

(١) عنه وغيره ، انظر. Haskins : Op. cit ؛ نجيب العقيقي، المستشرقون، دار المعارف ، القاهرة ؛ ماجد ، الحضارة الإسلامية ، ص ٢٨٣ .

(٢) أنظر . Jourdan : Recherches critiques sur l'âge et l'origine, des traductions latines. Paris, 1843, p. 149 - 150 .

(٣) من دجن بالمكان أي أقام فيه . تراث الإسلام ، ترجمة عربية ، ١ ص ٢١ ؛ شكيب ، خلاصة تاريخ الأندلس ، ص ١٦٦ .

(٤) عنهم ، انظر . Ency. de l'Isl, (art Maures) t 3, p. 47 sqq. ; (art Moriscos) t 3, p. 646 - 7.

حضارة العرب إليها عن طريق الأندلس [١] .

والدليل على أثر الإسلام الحضاري في الأندلس كتب العلوم الكثيرة من تأليف علمائها . منها كتب الفلسفة [٢] ، التي تعالج العقيدة . فقد نبغ في الأندلس فلاسفة عرب عظام ، مثلما نبغ فلاسفة عظام في الشرق الإسلامي ، منهم : ابن باجة (م ٥٣٣/١١٣٨) ، وهو من سَرقُسطة ، ويُعتبر من أكبر شُراح فلسفة أرسطو ، وقد عرفه الأوربيون باسم : Avempace [٣] ، وابن طُفيل [٤] (م ٥٨١/١١٨٥) ، المعروف للأوربيين باسم: أبي باسر Abu Bacer تحريفاً لأبي بكر ، وهو في كتبه أشبه بأفلوطين السكندري ، وابن رشد [٥] (م ٥٩٥/١١٩٨) ، الذي يُعتبر من أعظم شُرّاح فلسفة أرسطو، حتى أنه عُرف باسم الشارح ، فهو الذي ميّز بين تعاليم أرسطو وأفلاطون ، كما تميّز

(١) أنظر . ماجد ، الحضارة الإسلامية ، ص ٢٧٧ - ٢٧٨ .

(٢) أنظر . Bonilla : Historia de la filosofia espanola. Madrid, 1911.

(٣) له كتاب اسمه : تدبير المتوحد لم يصلنا ، وإن وصلتنا منه شروح فلسفية بالعبرية من عمل أبي بكر بن الصائغ (١٤م) نشره Herzog في : Die Abhandlungen des, Abû Bekr Ibn al - Sâïg. Berlin, 1896.

(٤) له كتاب مشهور ، باسم : حي بن يقظان ، ط ١٢٩٩ هـ . أنظر . أحمد أمين ، حي ابن يقظان لابن سينا وابن طفيل والسهروردي ، القاهرة. كذلك نشر وترجم في أوربا باللاتينية عام ١٦٧١ م ، على يد Pococke ، ثم نقل إلى معظم لغات أوربا مثل الهولندية عام ١٦٧٢م ، والفرنسية عام ١٩٠٠ ، والروسية ١٩٢٠ ، والأسبانية ١٩٣٤ . عن ابن طفيل ، انظر . Ency. de l'Isl, (art Ibn Tufaïl) t 2, p. 450.
؛ Carra de Vaux : Les penseurs de l'Islam. IV, p. 56 sqq.

(٥) من تآليفه : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، نشر بالقاهرة في ١٩١٣ م ، كما توجد له شروح فلسفية في ترجمات لاتينية وعبرية . أنظر . Bouyges : Inventaire des textes arabes d'Averroès. Beyrouth, 1932.
عن ابن رشد ، انظر . محمود قاسم ، الفيلسوف المفترى عليه ابن رشد ، القاهرة ؛ Ency. de l'Isl, (art Ibn Rushd) t 2, p. 435 — 438
؛ Ency. of Religion and Ethics, éd. Hastings (art Averroès)
؛ Renan : Averroès et l'averroisme. J. R. A. S., July, 1934.

بالتمحيص ، حتى أنه لم يرتض كثيراً من آراء أرسطو ، وقد بلغت شهرة ابن رشد كل أنحاء العالم المتنور ، واشتهر لدى الأوربيين باسم: Averroès، وموسى بن ميمون الإسرائيلي[1] (م ٦٠١/١٢٠٤) ، الذي سماه الأوربيون: Maimonide ، وهو ولد في قرطبة ثم هاجر إلى مصر . وقد ترجمت معظم كتب هؤلاء وغيرهم من علماء الأندلس إلى اللاتينية والعبرية ؛ كما أن بعضها لم يتبق منه إلا نتف في هذه الترجمات . وقد أتى الإهتمام بترجمة كتب الفلسفة الإسلامية في أوربا ، بسبب إنشغال العقلية الأوربية وقتئذ بالمشاكل الفلسفية، التي تعالج العقيدة، أو بمعنى آخر الفلسفة اللاهوتية، التي عُرفت باسم : الفلسفة المدرسية Scholasticism ، لأنها كانت تدور في المدارس ، ومن يقومون بها يسمون المدرسين Doctores Scholastici ، التي قامت على يد القديس أوغسطين St Augustin (٣٥٤ — ٤٣٠ م) . فكان معظم ما عُرف من الفلسفة في عهد اليونان والرومان ، عن طريق العرب[2].

ثم كانت أهم كتب علماء الأندلس بعد الفلسفة كتب علم الطب، الذي بلغ أوجه في الشرق الإسلامي ، وكان متقدماً لدرجة كبيرة في الأندلس[3] . اشتهر من أطبائهم أسرة بني زهر[4]، التي عرفها الأوربيون باسم : Avenzoar ،

---

(١) أشهر كتبه : دلالة الحائرين، الذي ترجم للاتينية باسم: Doctor Perplexorum ، نشر Munk ، بعنوان : Guide des Egarés. 3 vols. Paris, 1856 — 1866.
عنه ، انظر . Ency. de l'Isl, (art Ibn Maimûn) t 2, p. 424 — 5 ؛
The Jewish Ency. vol IX 73 — 86 ؛
ولفنسن ، موسى بن ميمون ، حياته ومصنفاته ، القاهرة ١٩٣٦ .

(٢) أنظر . Jourdan : Recherches critiques sur l'âge et l'origine, des traductions latines d'Aristote. Paris, 1843.

(٣) Gracia del Real : Historia de Medécine en Espana. Madrid, 1921.

(٤) عنهم ، انظر . مقالة Colin : Avenzor, sa vie et ses oeuvres. Paris, 1911 ؛ Ency. de l'Isl, (art Ibn Zuhr) t 2, p. 456.
ولبعضهم مؤلفات مثل أبي العلاء ـ وهو أشهرهم ـ تذكرة أبي العلاء ، نشر وتحقيق Colin ، ط. Paris ، ١٩١١ .

ونخص منها أبا القاسم الزهراوي (م ٥٠٠/١١٠٦) ، الذي نبغ في الجراحة ، واخترع كثيراً من آلاتها، واشتهر عند الأوربيين باسم : Abulcasis ،وتـُرجمت كتبه إلى اللاتينية[١]. والواقع أن كتب الطب الإسلامية أصبحت تُدرّس في جامعات أوربا إلى القرن الثامن عشر الميلادي[٢] . كما أن علم الصيدلة تقدم على يـــد صيادلة الأندلس أمثال ابن البيطار [٣] (م ٦٤٦/١٢٤٨)، الملقب بضياء الدين، وهو أسباني من مَالقة ، كان أبوه بيطريـــاً ، زار بلاد اليونان ، وعاش في مصر زمن الأيوبيين ، والتحق منها بوظيفة رئيس سائر العشابين أو كبـــير الصيادلة . وقد شرح ابن البيطار كتب الصيادلة قبـــله ، ولا سيما كتاب ديسقوريردس [٤] Dioskryrides ، الذي كان قنسطنطين السابع قد أرســل نسخة منه إلى عبد الرحمن الثالث .

ونذكر أثر مسلمي الأندلس في عـــلم الفلك ؛ حيث نذكر الزرقلي

---

(١) كتابه المشهور ، هو : التصريف لمن عجز عن التأليف ، وقد نشر بالعربية واللاتينية في Oxford ، ١٧٧٨ ، بعنوان : Liber Azaragui de Cirurgia ، وله ترجمة فرنسية من Leclerc ، بعنوان : La Chirurgie d'Abulcasis. Paris, 1861.

(٢) أنظر . Rashdall : The Universities of Europe in the, Middle Ages. Oxford, 1951, 1, p. 77 - 78.

(٣) عنه ، انظر . ابن أبي أصيبعة ، كتاب عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، ط . القاهرة ١٨٨٢ ، ٢ ص ١٣٣ ؛ انظر .

Ency. de l'Isl, (art Ibn al - Baïtar) t 2, p. 388 — 9.

أشهر كتبه : الجامع الكبير لقوى الأدوية والأغذية الشهير بمفردات أو جامع المفردات ، وقد نشر في أربعة أجزاء ، القاهرة ١٢٩١ ه ؛ وله ترجمة فرنسية من Leclerc ، بعنوان :

Traité des simples par Ibn al - Beithar. Paris, 1877 — 1882.

، كما له ترجمة ألمانية من Sontheimar ،وغيره.

(٤) أنظر . الشهابي ، تفسير كتاب ديسقوريردس لابن البيطار ، في مجلة المخطوطات العربية، مايو ١٩٥٧ ، ص ١٠٥ - ١١٢ .

(م ٤٨٠/١٢٨٧)، المعروف في أوربا باسم : Arzachel [1] (Azarquiel) ، الذي جمع في مؤلفاته ما بلغه علم الفلك في الأندلس من تقدم، ونبغ في صناعة الأسطرلاب أو الأصطرلاب ، الذي كان قد اخترعه الإغريق ، وهي كلمة يونانية معناها ميزان النجم أو مرآة النجم ، فأدخل عليه بعض التحسينات ، حتى نسب إليه صناعة اسطرلاب جديد سُمي باسمه : الصحيفة الزرقاء . ومن الطريف أن نذكر شخصية عباس بن فرناس ، الذي كان أول من احتال على تطيير نفسه ؛ بأن كسا جسمه بالريش ، ولكنه وقع على زمكه .

ورأينا الشعر في الأندلس ، يأخذ شكلاً خاصاً ؛ فقد ظهر فيها ما أُطلق عليه : فن الموشح [2] ، ومن يقول به يسمى : وشّاح ، وقصيدته تسمى : الموشحة جمعها موشحات ، كما ظهر الزجل أو الشعر الزجلي ، الذي هو بلغة دارجة [3] ؛ وربما يكون ظهورهما لضرورتها في الغناء، وحالة المسلمين الجديدة . ويبدو أثر الشعر الإسلامي في الأندلس واضحاً ، في الشعر الرومانتيكي الأسباني ، وهو الغزلي الرقيق ، إذ هو الحب العذري ، الذي

---

(١) له كتاب مشهور اسمه : الأزياج الطليطلية ، وهي لا توجد بالعربية ، وإنما باللاتينية ، ترجمها Zinner ، بعنوان : Die Taflen von Toledo. Osiris, 1, 1932 ؛ انظر . Casra de Vaux : Les penseurs 2, p. 227 sqq. ؛ Vallicrosa : Un Ejemplar De Azafea Arabe De Azar Quiel. al - Andalus, vol IX, 1944, Fasc 1, p. 111 - 119 .
؛ ماجد ، الحضارة الإسلامية ، ص ٢٢٦ ، ٢٢٩ .

(٢) تتألف الموشحة من نحو ستة أبيات تضم كل منها ثلاثة أبيات متفقة القوافي ، وتسمى الأسماط أو الأقفال ، وقوافي كل بيت تخالف قوافي البيت الآخر ، وتسمى الأغصان ؛ فهي بذلك ليس لها وزن واحد يلتزم ، ولكن يصح التصرف في حدود ، ويطلق ابن خلدون أسماء أخرى على فن الموشح ، ظهرت في المغرب وغيرها ، بعضه لا يخرج فيه عن الإعراب ، وبعضه لا يلتزم الإعراب . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٩١ وما بعدها ، انظر . Ency. de, l'Isl, (art Muwashshah) t 3, p. 849 - 851.

(٣) يكون بتكرار القافية ، دون الإلتزام بالإعراب . ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٤٩٧ . أشهر من قال فيه ابن قزمان وهو قرطبي الدار .

كان يتغنى به التروبادور [1] Troubadours ، وهي كلمة محرّفة عن الكلمة العربيـــة طرب أو طروب ؛ فهؤلاء الشعراء يوقعون أشعارهم على آلات موسيقية ، ويتجولون عند بيوت الخاصة .

وفي الواقع أن الأندلس كانت مصدر إيحاء بالنسبة للأدب الأوربي الرفيع، استمر إلى وقتنا الحديث . فمثلاأغنية رولان[2] Chanson de Roland, ،التي ظهرت في سنة ١٠٨٠ م ، وتـُعتبر إحدى دعائم الأدب الأوربي المبكر ، لم تقم إلا نتيجة الاتصال بالعالم الإسلامي عبر جبال البرتات . والكاتب ثرڤنتس Cerventes (١٥٤٧–١٦١٦ م) ، وهو أكبر كاتب أسباني ، يعـــترف بأن روايته الدون كخيوتة دي لامنشا Don Quijote de la Mancha ، أو دون كيشوت – كما تسمى في الفرنسية – مأخوذة من وثائق عربية أندلسية وغيرها، بل أنها مملوءة بتعابير وأمثال عربية كثـيرة . وشاتوبريان Chataubriand (١٧٦٨ – ١٨٤٨ م) ، يؤلف عن بني سراج[3] ، آخر عشيرة حـــاكمة من أعيان مسلمي الأندلس Les Aventures du dernier Abencérage . وحتى رواية Robinson Crusoé ، من تأليف Daniel Defo (١٧١٩م)، هي أشبه بقصة حيّ بن يقظان ، لابن طـُفيل ، الفيلسوف الأندلسي .

ويظهر أثر مسلمي الأندلس في تاريخ بلادهم خاصة والإسلام عامـة[4]. ولدينامن مؤرخي الأندلس أسماء طبقات عديدة ، نذكر منهم: ابن عبد ربه (م٣٢٨/٩٤٠) ، والرازي (أحمـد بن محمد) (٣٤٤/٩٥٥)، وابن القوطيـــة (م ٣٦٧/٩٧٧)،وابن حزم(حوالى ٤١٨/١٢٠٧)، وابن بسام(م٥٤٢/١١٤٧) ، وابن حيان (م ٤٦٩/١٠٧٦) ، وابن بشكوال (م ٥٧٨/١١٨٣) ، وابن دحية (م ٦٣٣/١٢٣٥) ، وابن الأبار (م٦٥٨/١٢٦٠) ، ولسان الدين بن الخطيب

---

(١) عن ذلك ، انظر . ليڤي برڤنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة سالم وحلمي ، ص ٢٨٠ وما بعدها (عن محاضرة ألقيت) ؛ انظر . ماجد ، الحضارة ، ص ٢٨٤–٢٨٥ .

(٢) أنظر . قبله .

(٣) ترجمة شكيب أرسلان ، مصر ١٣٤٣/١٩٢٥ . هم في غرناطة بمقـــام العشيرة الثانية

(٤) بعض أسماء كتبهم وردت في جدول المصادر .

(م ٧٧٦/١٣٧٤) ، وابن خلدون (م٨٠٨/١٤٠٦) ، الذي هو من أصل إشبيلي. يُضاف الى ذلك ، أن أثر المسلمين واضح في مدونات أسبانية مسيحية، تحتوي على أصول عربية ، مثل : المدونة العامة ، التي أمر بتأليفها ألفونسو العاشر الحكيم Alfonso X el Sabio، وهي المعروفـة باسم : Primera Cronica General de Espana.

وكذلك يظهر أثر المسلمين الحضاري في الأندلس في نواحٍ جمة ، ولا سيما الأسماء الكثيرة ، التي بقيت في اللغتين الأسبانية والبرتغالية . فمنها أسمـاء جغرافيـة لا زالت عربية ، مثل [١] : الوادي الكبير Guadalquivir ، والشط Jete ، والجزيرة الخضراء Algeciras ، وطريف Tarifa ، وقلعـة أيوب، Calatayuad. ومنها أسماء خاصة بالزراعة، مثل: الساقية La acequia ، والنورج Noria ، والبركة Alberca، والقطن Algodon ، والأرز el arroz ، والأزهار Azahar ، والبرقوق Albaricoque ، والزعفران Azafran . ومنها أسمـاء في الصناعات والحرف ، مثل : السكر Azucar، والصابون Jabon (خابون) ، وصناعة الجلود المنسوبة إلى قرطبة Cordoban ، وطاحونة Tahona ، والبناء Albanil. ومنها أسماء لبعض النظم ، مثل : القاضي Alcalde ، والتعريفة Tarifa . ومنها أسماء بعض الآلات الموسيقية ، مثل : الرباب Rabel ، والصنوج Sonajas ، والنفير Anafil ، والبوق Albogue ؛ فالموسيقى الأسبانية تُعتبر بحق موسيقى عربية [٢] ، أسهم فيها الموسيقيون الأندلسيون أمثال : زرياب وغيره من كبار الموسيقيين ، حيث أن هذه الموسيقى لم تقف عند أسبانيا وأوربا ، بل انتقلت إلى أمريكا الجنوبية . وأخيراً أسماء أخرى، مثل : إن شاء الله In Sha'lalah ، التي تُرجمت حرفياً

---

(١) مثلاً ، انظر. Dozy et Engelmann : Glossaire des mots, Espagnols, et Portugais, dérivés de l'Arabe. Leyde, 1869.
؛ تراث الإسلام ، ١ ص ٣١ - ٣٢ .

(٢) أنظر . Ribera : Historia de la musica arabe medievaly su, influencia en la espanola. Madrid, 1927.

أيضاً : Si Dios quiere ، وتحية السلام عليكم ، التي تُرجمت إلى : A la paz de Dios ، والإعجاب بكلمة الله : Olé .

أما الأثر المعماري الإسلامي ، فلا يزال يوجد تحت أعيننا إلى الآن ؛ ليمثل الفن المعماري العربي في أسبانيا ، التي كانت موطن الفن القوطي ، وهو الذي عُرف باسم : الأرابيسك [1] « Arabesque » ، وهو فن يميل إلى التكوينات الهندسية ، التي تُعتبر جوهر الفن الإسلامي . ومن أشهر آثار المسلمين الباقية : مسجد [2] قرطبة ، الذي يحتوي على ألف ومائتين وثلاثة وسبعون عموداً ، ومن ينظر إلى داخله يُخيل إليه أنه في غابة ، ومع أنه تحوّل إلى كتدرائية ، فإنه ما يزال يُعرف باسم : المسجد La Mezquita ، ومنها قصر الحمراء Alhmbra [3] بغرناطة ؛ وإن كانت تسميته ليست مشتقة من اسم بني الأحمر الذين أقاموا فيه ، وإنما من لون القصر نفسه ، المبني بنوع من الطوب الأحمر ، وفي الواقع كان أشبه بقصور ومزارع وزهور . وبالإضافة إلى هذه الآثار الإسلامية الصرف ، يوجد ما أنشأه المدجنون ، وفيها الطابع العربي ، وبخاصة القصر Alcazar في إشبيلية .

وأخيراً الاستكشافات الكبرى ، التي قامت في العصر الحديث على يد الأسبان أو البرتغاليين في أميركا وغيرها ، وهي مبنية على ما قام به مسلمو الأندلس والشرق . فيذكر الإدريسي [4] مغامرات عربية في محاولات

---

(١) أنظر . ديماند ، كتاب الفنون الإسلامية ، ترجمة عيسى ، ص ٩١ ؛ انظر .
Ency. de l'Isl, (art Arabesque) 1éd, tI, p. 368, sqq; 2 éd, tI, p. 558 sqq.

(٢) نص فرحة الأنفس في تاريخ الأندلس ، نشر لطفي عبد البديع ، ص ٢٥ .

(٣) أنظر . Ency. de l'Isl, (art Alhambra) tI, p. 280 sqq

(٤) عن ذلك : نزهة المشتاق ، ط . Dozy ، ص ١٨٤-١٨٥ ؛
انظر Hamidullah : L'Afrique dé couvre l'Amérique avant, Christophe Colomb. R. Culturelle du monde noir. Fev - Mai 1958, p. 174 sqq ؛ العقاد ، أثر العرب في الحضارة الأوربية ، دار المعارف ، ص ٤٧ وما بعدها .

لإستكشاف أمريكا ؛ فيتكلم عن شبان من لشبونة ، عُرفوا بالمغررّين ، وهم ثمانية رجال ، ساروا في بحر الظلمات إلى الغرب أحد عشر يوماً ، وأبحروا نحو الجنوب اثني عشر يوماً ، ثم اثني عشر يوماً أخرى ، حتى وصلوا إلى جزيرة ، وجدوا فيها أناساً قد زعّروا شعر رءوسهم ؛ ولا يستبعد أن يكون الشاطىء الذي رسوا فيه ، إحدى جزر أمريكا الجنوبية. كذلك استكشافات البرتغال في أفريقيا ؛ ووصول الأوربيين إلى الهند ، مبني على ما قام به العرب سابقاً .

من كل هذا يتبيّن أن المسلمين في الأندلس تركوا طابعاً إسلامياً لا يمحى ؛ وأنهم أسهموا بنصيب وافر في تقدم الإنسانية ، وأن الإسلام لم يكن مجرد موجة عابرة فيها ، وإنما حركة حضارية فعالية تقدمية .

الخاتمة

جمعت دراستنا لتاريخ العلاقات بين الشرق والغرب إلى جانب وجهة النظر الشرقية وجهة النظر الغربية ؛ وذلك على نقيض ما تضمنته المصادر الشرقية أو الأوربية في العصور الوسطى ، التي تنظر إلى هذه العلاقات من جانب واحد . فبذلك نكون قد رسمنا نهجاً جديداً بالنسبة لهذا الموضوع في عصرنا .

وفي الواقع أن الصراع الحربي بين الشرق والغرب ، لم يكن بين قوى مستهلكة ؛ وإنما كان على العكس بين قوى فتية جداً . ففي الشرق قامت دولة الإسلام ، على أنقاض دولتي الفرس والروم، اللتين أُستهلكتا في صراعهما ، إذ سهلّت الخصومة بينهما على دولة الإسلام محو الأولى من الوجود ، والتغلب على الثانية ، ونفيها في آسية الصغرى ، بعد أن كانت تملك معظم بلاد البحر الأبيض . وكذلك في الغرب ، فقد تلاشت دولة الرومان ؛ ونشأت دول أوربية فتية على أنقاضها . ولذلك كان الصراع بين الشرق والغرب صراع الجبابرة ، بشكل ، لم يظهر بينهما سابقاً ؛ بحيث أوجد طابعاً خاصاً للعصور الوسطى .

حقاً إن العصور الوسطى ، كانت عصور عداء حربي وتعصب ديني بين الشرق والغرب ، بشكل لم يعرف له مثيل في العصور القديمة أو الحديثة ؛ إلا أن التبادل الحضاري ، الذي هو مظهر للأخوة البشرية ، لم ينعدم في خلال

هذه الفترة . ولما كانت حضارة الإسلام هي المتفوقة؛ فإن الغرب كان يرتشف منها ؛ بحيث بقيت آثارها عالقة بحضارته في العصر الحديث .

ومن الغريب حقاً إن يؤكد تاريخ العلاقات بين الشرق والغرب من جديد أن الشعوب في حياتها تتبادل الفوز والإخفاق ، أو النصر والهزيمة وكأنهما من مستلزمات الحياة . ولكن من الملاحظ أن نجاح الشرق الإسلامي سببه راجع قبل كل شيء إلى وحدة سكانه دائماً ، وإخفاقه سببه التفكك دائماً . فمن تاريخ العلاقات في العصور الوسطى ؛ تخرج العظة لأهل الشرق الإسلامي بالدعوة إلى وحدته وترابطه .

الجـداول

(ا) كتب عربية مخطوطة ومطبوعة

إبراهيم العـدوي ، الأمويون والبيزنطيون ، البحر الأبيض المتوسط بحيرة إسلامية ، القاهرة ١٩٥٣ .

، السفارات الإسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة .

، الأساطيل العربية في البحر الأبيض المتوسط ، سلسلة من التاريخ ، رقم ٢ ، القاهرة ١٩٥٧ .

، الدولة الإسلامية وإمبراطورية الروم ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٨ .

، المسلمون والجرمان ، الإسلام في غرب البحر المتوسط ، القاهرة ١٩٦٠ .

، المجتمع الأوربي في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦١ .

ابن الأثـير ، الكامل في التاريخ ، تصحيح عبد الوهاب النجار ، مصر ١٣٤٨ وما بعدها .

، التاريخ الباهر في الدولة الأتابكيـة (بالموصل) ، تحقيق طليمات ، القاهرة ١٩٦٣ ، وأيضاً بعنوان : تاريخ الدولة الأتابكية ملوك الموصل ، في مجموعة : R. H. des Crois. Or tII, 1èr. Paris, 1869.

الإدريسي ، نزهة المشتاق في ذكر الأمصار والأقطار والبلدان والجزر والمدائن والآفاق ، في جامعة القـاهرة ،

بدون تاريخ، وتحقيق Dozy و de Goeje، ط. Leyde، ١٨٦١، وتحقيق Amari، رومية العظمى، ١٨٧٨.

إحسان عباس ، العرب في صقلية ، المعارف ١٩٥٩ .
، تاريخ الأدب الأندلسي ، بيروت ١٩٦٠ .

أخبار مجموعة في فتح الأندلس ، وذكر أمرائها رحمهم الله ، والحروب الواقعة بينهم، تحقيق Don. Lafuente Alcantra، ط. Madrid، ١٨٦٧ .

أسامة بن منقذ ، الأعتبار ، تحقيق Derenbourg ، ط. Paris، ١٨٨٩.

أسد رستم ، الروم في سياستهم وحضارتهم ، ودينهم ، وثقافتهم ، وصلاتهم بالعرب، في جزءين، بيروت ١٩٥٥-١٩٥٦ .
، حرب في الكنائس ، بيروت ١٩٥٨ .

إسماعيل سرهنك ، حقائق الأخبار عن دول البحار ، ١/٣ ، القاهرة ، ١٣٤١/١٩٢٣ .

الإصطخري ، المسالك والممالك ، تحقيق جابر الحيني ، القاهرة ١٩٦١ .

أماري ، مكتبة صقلية العربية ، في جزءين ، ط. Leipzig ، ١٨٨٧ .

أمير عليّ ، مختصر تاريخ العرب والتمدن الإسلامي ، ترجمة رياض رأفت ، القاهرة ١٩٣٨ .

أومان ، الإمبراطورية البيزنطية ، ترجمة طه بدر ، القاهرة ١٩٥٣ .

ابن إياس ، تاريخ مصر المشهور ببدائع الزهور في وقائع الدهور،

في ٣ أجزاء، بولاق ١٣١٦هـ ؛ وتحقيق محمدمصطفى، الجزء الرابع ، القاهرة ١٣٧٩/١٩٦٠ .

بارتولد ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، نقله من التركية إلى العربية حمزة طاهر ، ط ٢ ، القاهرة .

باركر (أرنست) ، الحروب الصليبية ، نقله إلى العربية الباز العريني ، القاهرة ١٩٦٠ .

البـــاز ، الدولة البيزنطية (٣٢٣-١٠٨١م) ، القاهرة ١٩٦٠ .
، مؤرخو الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٢ .
، الشرق الأوسط والحروب الصليبية، ١٠٥٠-١١٩٣،
، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٣ .

بـــدر الدين ، الدر الثمين في سيرة نور الدين ، مخطوط بمكتبة بلدية الإسكندرية ، برقم ١٣٣٦ ب .

بروكلمان ، تاريخ الشعوب الإسلامية ، نقـــله إلى العربية نبيه فارس والبعلبكي،في جزءين، بيروت ١٩٤٨/١٩٤٩.

ابن بطولة ، رحلة ، ط ٢ ، مصر ١٣٢٢ هـ.

البلاذري ، فتوح البلدان،تحقيق de Goeje ،ط Brill ، ١٨٦٦ .

بلنبثية ، تاريخ الفكر الأندلسي ، ترجمـــة مؤنس ، القاهرة ١٩٥٧ .

بلباس (Ballàs) ، الأبنية الأسبانية الإسلامية ، مجلة معهد مدريـــد ، ١٩٥٣ ، ص ١٩ وما بعدها .

ابن بهادر ، (٩/١٥) (محمد بن محمد) ، فتوح النصر في تاريخ ملوك مصر ، مخطوطة بـدار الكتب ، برقم ٤٩٧٧ تاريخ .

ابن تغري بردي (أبو المحاسن) ، مورد اللطافة ، تحقيق Carlyle ، ط Cantabrigiae ، ١٧٩٢ م .

، النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ، ط . دار الكتب ، وتحقيق Popper ، ط California .

، منتخبات من حوادث الدهور في مدى الأيام والشهور ، تحقيق Popper ، ط. California ، ١٩٣٠ .

توفيق إسكندر ، سفارة بيرو دبيدو ،معاهدة تنازل مصر عن قبرص، القاهرة ١٩٥٦ .

، نظام المقايضة في تجارة مصر الخارجية ، مجلة الجمعية التاريخية ، القاهرة ١٩٥٧ .

توماس أرنول والفريد جيوم ، تراث الإسلام ، قامت على ترجمته ونشره بالعربية لجنة الجامعيين ، في جزءين ، القاهرة١٩٣٦.

ابن جبير ، رحلة ، تحقيق حسين نصار ، مصر ١٩٥٥ .

جرونباوم ، حضارة الإسلام ، نقله توفيق جاويد ، راجعه العبادي ، مصر .

الخزري ، جواهر السلوك في الخلفاء والملوك، تكملة لمرآة الزمان لسبط الجوزي، مخطوط بالمكتبة الأهلية (B. N.)، برقم ٦٧٣٩ .

جمال الدين (٦٢٣ هـ) ، الدول المنقطعة ، مخطوطة بدار الكتب ، برقم ٨٩٠ تاريخ .

جمال سرور ، دولة الظاهر بيبرس في مصر ، القاهرة ١٩٦٠ .

جمعة ، تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب ، القاهرة ١٩٢٧/١٣٤٥ .

جميل نخله المدور ، كتاب حضارة الإسلام في دار السلام، القاهرة ١٨٦٧ .

جورج يعقوب ، أثر الشرق في الغرب ، ترجمه بتصرف فؤاد حسنين ، القاهرة ١٩٤٦ .

ابن الجوزي ، مرآة الزمان في تاريخ الأعيان ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٥٥١ .

جوزيف نسيم ، لويس التاسع في الشرق الأوسط، ط٢، القاهرة ١٩٥٩ .

، الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية ، مجلة كلية الآداب بالإسكندرية ، لسنة ١٩٦٢ – ١٩٦٣ ، ص ١٨٣ وما بعدها .

، العرب والروم واللاتين في الحروب الصليبية الأولى ، الاسكندرية ١٩٦٣ .

جوستاف لوبون ، حضارة العرب ، نقله عادل زعيتر، القاهرة ١٩٤٥ .

حتي ، العرب (تاريخ موجز) ، بيروت ١٩٤٦ .

أبو حديد ، صلاح الدين وعصره ، القاهرة ١٩٢٧ .

الحريري ، الأخبار السنية في الحروب الصليبية ، مصر ١٣١٧ – ١٨٩٩ .

حسن إبراهيم ، تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي ، الجزء الثالث ، القاهرة ١٩٤٧ .

، عبيدالله المهدي ، مؤسس الدولة الفاطمية ، بالإشتراك مع طه شرف ، القاهرة ١٩٤٧ .

حسن حبشي ، الحروب الصليبية الأولى ، القاهرة ١٩٤٧ .

، نور الدين والصليبيون ، حركة الإفاقة والتجمع الإسلامي في القرن السادس الهجري، القاهرة ١٩٤٨ .

، الشرق العربي بين شقي الرحى ، حملة القديس لويس على مصر والشام ، القاهرة ١٩٤٩ .

حسن عثمان ، أفريقيا في جحيم دانتي ، فصلة من مجلة كلية الآداب ، جامعة الإسكندرية ، ديسمبر ١٩٥٦ .

حسن محمود ، قيام دولة المرابطين ، القاهرة ١٩٥٧ .

حسين مؤنس ، المسلمون في حوض البحر الأبيض المتوسط إلى بدء الحروب الصليبية ، مجلة الجمعية التاريخية ، ١٩٤٤ .

، الثغر الأعلى الأندلسي في عصر المرابطين ، مجلة كلية الآداب ، ١١٠ ، ١٩٤٩ .

، غارات النورمانيين على الأندلس بين ١٢٩ و٢٤٥ هـ ، العدد ١ ، المجلد ٢ ، مجلة الجمعية المصرية للدراسات التاريخية ، ١٩٥٠ .

، السيد القمبيطور ، وعلاقاته بالمسلمين ، مجلة كلية الآداب ، المجلد الثالث ، ١٩٥٠ .

، أثر ظهور الإسلام في الأوضاع السياسية والإقتصادية في البحر الأبيض المتوسط ، مجلة الجمعية التاريخية المصرية ، مايو ١٩٥١ .

، نور الدين محمود ، سيرة مجاهد صادق ، القاهرة ١٣٨٧/١٩٥٩ .

، فجر الأندلس ، دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (٧١١–٧٥٦ م)، القاهرة ، ١٩٥٩ .

حفني ناصف ، الأسماء العربية لمحدثات الحضارة والمدينة ، القاهرة ١٩٥٦ .

حمزة ، صلاح الدين ، مصر ١٩٤٢ .

أبو حميد الغزناطي ، وصف لروما ، لعله كتاب تحفة الألباب ، تحقيق وترجمة إيطالية على يد Carlo Crispo Moncada ، ط Palermo ، ١٩٠٦ .

الحميري ، صفة جزيرة الأندلس ، منتخبة من كتاب الروض المعطار نشر Lévi - Provençal ، القاهرة ١٩٣٧ .

الحنبلي ، شفاء القلوب في مناقب بني أيوب ، مخطوط مصور بمكتبة جامعة القاهرة ، برقم ٢٤٠٣١ تاريخ .

ابن حوقل ، المسالك والممالك ، ط Leyden ، ١٨٧٣ .

حوليات كلية الآداب ، جامعة عين شمس .

خدوري ، الصلات الدبلوماطقية بين هرون الرشيد وشارلمان ، بغداد ١٩٣٩ .

الخربوطلي ، تاريخ الحضارة الإسلامية ، القاهرة ١٩٦٢ .

، البحر المتوسط ، بحيرة عربية ، في مجموعة إقرأ .

، العرب في أوربا ، المكتبة الثقافية ، أكتوبر ١٩٦٥ .

ابن الخطيب (لسان الدين)، كتاب أعمال الأعلام ،تحقيق Lévi - Provençal ، وهو القسم الثاني في أخبار جزيرة الأندلس ، الرباط ١٩٣٤ ، وبيروت ١٩٥٦ .

، كتاب الإحاطة في أخبار غرناطة ، تحقيق عنان ، مصر ١٣١٦ ه .

ابن خلدون ، المقدمة ، القاهرة ١٣٢٢ ه .

، العبر وديوان المبتدأ والخبر ، ٧ أجزاء ، القاهرة ١٢٨٤ ه .

خلف الله ، بحوث ودراسات إسلامية، جمع وتقديم، القاهرة ١٩٥٥ .
ابن خلكان ، وفيات الأعيان ، ٣ أجزاء ، القاهرة ، ١٢٩٩ هـ .
خير الدين التونسي ، كتاب أقوم المسالك في معرفة أحوال الممالك ، تونس ١٢٨٤ هـ .
دحلان ، الفتوحات الإسلامية ، الجزء الأول ، بدون تاريخ .
ابن دحية (م ٦٣٣ هـ) ، المطرب من أشعار أهل المغرب ، تحقيق الأبياري وغيره ، القاهرة ١٩٥٤ .
دراج ، جم سلطان والدبلوماسية الدولية ، مستخرج من مجلة الجمعية التاريخية ، العدد الثامن، ١٩٥٩، ص ٢٠١ وما بعدها .
، المماليك والفرنج في القرن التاسع الهجري / الخامس عشر الميلادي ، القاهرة ١٩٦١ .
دوزي ، تاريخ مسلمي أسبانيا ، ترجمة حبشي ، الجزء الأول، القاهرة ١٩٦٣ .
ديفز Davis ، شارلمان، نقله إلى العربية الباز العريني، القاهرة ١٩٥٩.
، أوربا في العصور الوسطى ، ترجمة عبد الحميد حمدي، الإسكندرية ١٩٥٨ .
ديماند ، الفنون الإسلامية ، ترجمة أحمد عيسى ، القاهرة .
الذهبي ، دول الإسلام ، وهو مختصر على ترتيب السنين ينتهي إلى سنة ٧١٥ هـ ، ط ٢ ، حيدر آباد ١٣٦٥ هـ ، الجزء الأول .
رباط أنطون ، العلاقات بين الشرق والغرب ، مجلة المشرق، العدد ٧، ١٩١١ ، ص ٥٤٨ — ٥٥٢ .

ريتسبتاتو (أمبرنو) ، العلاقات بين النورمنديين وبين بني زيري ، القاهرة .
ابن رستة ، الأعلاق النفيسة ، ط. Leyden ، ١٨٩١ .
روبرت كلاري ، فتح القسطنطينية على يد الصليبيين ، ترجمها من الفرنسية القديمة وقدم لها حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٤ .
رنسيمان ، الحضارة البيزنطية ، ترجمة عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦١
رينو ، تاريخ غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ، ترجمه وعلق عليه شكيب أرسلان ، القاهرة ١٣٥٢ هـ .
زامباور ، معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي ، في جزءين ، أخرجه زكي حسن وحسن محمود ، القاهرة ١٩٥١ .
الزركشي ، تاريخ الدولتين الموحدية والحفصية ، تونس ١٢٨٩ هـ .
زكي حسن ، مصر والحضارة الإسلامية ، محاضرة أُلقيت في الاتحاد المصري الإنجليزي ، أبريل ١٩٤٢ .
، فنون الإسلام ، القاهرة ١٩٤٨ .
زكي النقاش ، العلاقات الإجتماعية والثقافية والإقتصادية بين العرب والإفرنج خلال الحروب الصليبية ، بيروت ١٩٥٨ .
زيادة (مصطفى) ، المحاولات الحربية للإستيلاء على جزيرة رودس زمن سلاطين المماليك في القرن الخامس عشر الميلادي ، مجلة الجيش المصري ١٩٤٦ .
، مصر والحروب الصليبية ، من رسائل الثقافة الحربية رقم ٣٩ ، منشورات وزارة الدفاع الوطني .

، حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته في المنصورة ، القاهرة ١٩٦١ .

السخاوي ، التبر المبسول ، بولاق ١٨٩٦ .

سعداوي ، ثلاثة من مؤرخي الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ .

، التاريخ الحربي المصري في عهد صلاح الدين ، القاهرة ١٩٥٧ .

، تاريخ إنجلترا أو حضارتها في العصور القديمة والوسطى ، القاهرة ١٩٥٨ .

سعد زغلول ، العلاقة بين صلاح الدين وأبي يوسف يعقوب ، مستخرج من مجلة كلية الآداب بالإسكندرية ، عام ١٩٥٣ .

سفارة سياسية من غرناطة إلى القاهرة في القرن التاسع الهجري ، تحقيق عبد العزيز الأهواني ، مجلة كلية الآداب ، جامعة القاهرة ، المجلد ١٦ ، الجزء الأول ، مايو ١٩٥٤ .

السلاوي ، كتاب الإستقصاء لأخبار دول المغرب الأقصى ، الجزء الأول ، القاهرة ١٣١٠/١٨٩٢ .

السيوطي ، حسن المحاضرة في أخبار مصر والقاهرة ، في جزءين ، القاهرة ١٣٢٧/١٩٠٩ .

، غزوات قبرس ورودس ، تحقيق ، ١٨٨٤ م .

شاتو بريان ، آخر بني سراج إلى سقوط غرناطة ، ترجمة شكيب أرسلان ، يليها خلاصة تاريخ الأندلس ، مصر ١٩٢٥ .

أبو شامة ، الروضتين في أخبار الدولتين ، في جزءين ، القاهرة ١٢٨٨ هـ .

ابن شاهين ، زبدة كشف الممالك وبيان الطرق والمسالك ، تحقيق Ravaisse ، ط . Paris ، ١٨٩١ .

ابن الشحنة ، الدر المنتخب في تاريخ مملكة حلب، حققه سركيس، بيروت ١٩٠٩ .

ابن شداد (بهاء الدين)، كتاب سيرة صلاح الدين الأيوبي ، المسماة بالنوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية ، مصر ١٣١٧ هـ .

، الأعـــلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة ، تحقيق سامي الدهان ، دمشق ١٣٧٥/١٩٥٦ .

شكيب أرسلان ، الحلل السندسية في الأخبـــار والا ثار الأندلسية ، الجزء الأول ، مصر ١٣٥٥/١٩٣٦ .

الشيال ، مجمل تاريخ دمياط ، الإسكندرية ١٩٤٩ .

صالح بن يحيى ، تاريخ بيروت ، تحقيق شيخو ، بيروت ١٩٢٧ .

ابن صاعد الأندلس ، طبقات الأمم ، نشر شيخو ، بيروت ١٩١٢ .

صدر الدين ، أخبار الدولة السلجوقية ، صححه إقبـــال ، ط . لاهور ، ١٩٣٣ .

الضـــبي ، بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس ، ط Madrid ، ١٨٨٤ .

الطبري ، تاريخ الأمم والملوك ، ط . الحسينية .

طرخان ، دولة القوط الغربيين ، القاهرة ١٩٥٨ .

طـه بدر ، مغول إيران بين المسيحية والإسلام ، القاهرة ١٩٥٤ .

عاشور ، قبرس والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ .

، فضل العرب في الحضارة الأوربية ، القاهرة ١٩٥٧ .

، الجامعات الأوربية في العصور الوسطى، القاهرة ١٩٥٩ .

، أوربا والعصور الوسطى، ط٢ ، في جزءين ، القاهرة ١٩٦١ .

، الحركة الصليبية ، في جزءين ، القاهرة ١٩٦٣ .

عاشور وأنيس ، النهضات الأوربية فيالعصور الوسطى وبداية الحديثة، القاهرة ١٩٦٠ .

العبادي (عبد الحميد) ، صور وبحوث من التاريخ الإسلامي (العصر العربي)، الإسكندرية ١٩٤٨ ؛ (عصر الدولة العباسية ، القاهرة ١٩٥٣ .

، المجمل في تاريخ الأندلس ، القاهرة ١٩٥٨ .

(مختار) ، الصقالبة في أسبانيا ، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد ، ١٩٥٣ .

، سياسة الفاطميين نحو المغرب والأندلس ، مجلة المعهد المصري ، المجلده ، ١٩٥٧ .

ابن عبد الحكيم ، فتوح مصر والمغرب والأندلس ، تحقيق Torrey ، ط New.-Haven. ، ١٩٢٠ .

ابن عبد ربه ، العقد الفريد ، ٣ أجزاء ، القاهرة ١٢٩٣ ﻫ .

عبد الرحمن بدوي ، فلسفة العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٢ .

عبد الرحمن زكي ومحمود عيسى ، الحروب بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، مجلة الجيش ١٩٤٧ .

عبد العزيز سالم ، تاريخ المسلمين وآثارهم في الأندلس ، رمن الفتح العربي ، حتى سقوط خلافة قرطبة ، دار المعارف .

، تاريخ الإسكندرية وحضارتها في العصر الإسلامي ، القاهرة ١٩٦١ .

عبد الواحد المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب ، حققه سعيد العريان والعربي ، القاهرة ١٩٤٩ .

ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ، تحقيق صالحاني،بيروت ١٨٩٠.

ابن العديم ، زبدة الحلب من تاريخ حلب، في R. des Hist. des Crois. or. t III.

ابن عذارى ، البيان المغرب في أخبار الاندلس والمغرب ، نشر Lévi Provençal و Colin ، ١٩٤٨ — ١٩٥١ ، ط. Leyden و ط. بيروت ، في جزءين ، والجزء الثالث ، نشر Lévi- Provençal، القاهرة ١٩٣٠ .

العقـــاد ، أثر العرب في الحضارة الأوربية ، دار المعارف .

عماد الدين الاصفهاني ، كتاب تاريخ دولة آل سلجوق، مصر ١٣١٨/١٩٠٠.

، كتاب الفتح القسي في الفتح القدسي، مصر ١٣٢١هـ.

عمر أبو النصر ، الحضارة الأموية العربية في دمشق ، بيروت ١٩٤٨.

عمر كمال ، مملكة بيت المقدس ، القاهرة ١٩٥٨ .

، الإمبراطور نقفور فوقـــاس ، وإسترجاع الأراضي المقدسة ، فبراير ١٩٥٩ .

عليّ أدهم ، المعتمد بن عباد ، مجموعة أعلام العرب .

عنان ، دولة الإسلام في الأندلس من الفتح إلى نهاية مملـكة غرناطة ، القاهرة ١٩٤٣ .

العيني (م٨٥٥/١٤٥١)، عقد الجمان في تاريخ أهـل الزمان ، مخطوط مصور بدار الكتب ، برقم ١٥٨٤ تاريخ .

، تاريـخ دولة بني العباس والطولونيين والفاطميين ، مخطوط بالمكتبة الأهلية (B. N.) برقم ٥٧٦١ .

ڤازيليف ، العرب والروم ، ترجمة شعيرة ، القاهرة .

فارنجتون ، مدينة الإغريق والرومان ، ترجمة أمين تقلا، القاهرة ١٩٤٨ .

أبو الفدا ، المختصر في أخبار البشر ، ط الحسينية .

، تقويم البلدان ، تحقيق Reinaud و de Slane ،
ط Paris ، ١٨٤٠ .

ابن الفراء ، كتاب رسل الملوك ، ومن يصلح للرسالة والسفارة ،
تحقيق صلاح الدين المنجد ، القاهرة ١٩٤٧ .

فروخ ، العرب والإسلام في الحوض الشرقي من البحر الأبيض،
بيروت ١٩٥٨ .

، العرب والاسلام في الحوض الغربي من البحر الأبيض،
بيروت ١٩٥٩ .

، أثر الفلسفة الإسلامية في الفلسفة الأوربية ، بيروت.

فشر ، تاريخ أوربا في العصور الوسطى ، نقله إلى العربية
زيادة والباز والعدوي ، في جزءين ، القاهرة ١٩٥٠
— ١٩٥٧ .

ابن قتيبة ، الإمامة والسياسة ، صححه محمد محمود الرافعي ، في
جزءين ، القاهرة ١٣٢٢/١٩٠٤ .

القزويني ، آثار البلاد وأخبار العباد ، تحقيق Wust ، ط.
Gottingen ، ١٨٤٨ .

ابن القلانسي ، ذيل تاريخ دمشق ، تحقيق Amedroz ، بيروت
١٩٠٨ .

القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ١٤ جزءاً ، ط .
وزارة الثقافة ، القاهرة ١٩٦٥ .

ابن القوطية القرطبي ، تاريخ إفتتاح الأندلس ، تحقيق Ribera ، ط .
Madrid ، ١٨٦٨ .

كحالة ، معجم قبائل العرب القديمة والحديثة ، دمشق
١٣٦٨/١٩٤٩ .

كرد عليّ ، الإسلام والحضارة العربية ، في جزءين ، القاهرة
١٩٣٤ .

كريمر ، الحضارة الإسلامية ومدى تأثرها بالمؤثرات الأجنبية، تعريب مصطفى بدر ، الجيزة ١٩٢٧ ، (عن الترجمة الإنجليزية للمؤرخ الهندي خدابخش) .

كولتون ، عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة وتعليق جوزيف نسيم ، القاهرة ١٩٦١ .

لطفي عبد البديع ، الإسلام في أسبانيا ، القاهرة ١٩٥٨ .

ليڤي پروڤنسال ، الإسلام في المغرب والأندلس ، ترجمة سالم وحلمي ، القاهرة ١٩٥٦ .

لينبول ، سيرة القاهرة ، ترجمة حسن إبراهيم وغيره ، ط ٢ ، القاهرة .

ماجد ، الناصر صلاح الدين الأيوبي ، القاهرة ١٩٥٨ .

، الحاكم بأمر الله ،الخليفة المفترى عليه، القاهرة ١٩٥٩.

، الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى، تصنيف وتحقيق ، بالإشتراك مع عليّ البنا ، القاهرة ١٩٦٠ .

، الإمام المستنصر بالله الفاطمي ، القاهرة ١٩٦٠ .

، تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣ .

، التاريخ السياسي للدولة العربية ، ط ٣ ، في جزءين ، القاهرة — بيروت ١٩٦٦—١٩٦٦ .

مارتينو ماريو مورنيو ، المسلمون في صقلّيّة ، بيروت ١٩٥٧ .

متز ، الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري أو عصر النهضة في الإسلام Die Renaissances des Islams ، ترجمة أبي ريدة ، ط ٢ ، القاهرة .

محمد بن القاسم النويري ، (م ٧٧٥) ، الإلمام بالإعلام فيما جرت به الأحكام،

في الأمور المقضية في وقعة الاسكندرية ، الواقع بها سنة ٧٦٧ ﻫ ، في جزءين ، مخطوطة بدار الكتب ، برقم ١٤٤٩ تاريخ .
محمود قاسم ، الفيلسوف المفترى عليه ابن رشد ، القاهرة .
مخطوط بالمكتبة الأهلية ، (B.N.) ، من غير عنوان ، برقم ٤٤٤٠ ، وهو يشمل مكاتبات سلاطين المماليك .
المسعودي ، مروج الذهب ومعادن الجواهر (Les Prairies d'Or) ، ط. Paris ، وط مصر ١٢٨٣/١٨٦٦ .
، التنبيه والإشراف ، حققه de Goeje ، ط. Leiden ، (B. G. A.) ، ١٨٩٤ .
مصنف مجهول ، العيون والحدائق في أخبار الحقائق ، نسخة de Goeje ، ط. Brill ، ١٨٦٩ .
المقريزي ، كتاب السلوك لمعرفة دول الملوك ، تحقيق زيادة ، ومخطوطة دار الكتب ، الجزء الرابع ، برقم ٣٣٣٧.
الخطط المقريزية ، ٤ أجزاء ، القاهرة ١٣٢٦ ﻫ.
المقري ، نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ط. الأزهر ١٣٠٢ ﻫ ، وطبعات أخرى .
مكسيموس ، تاريخ الحروب المقدسة في المشرق المدعوة حرب الصليب ، جمعها من الفرنسية كيريو كيريو ، في مجلدين ، أورشليم ١٨٦٥ .
ابن منقذ ، الإعتبار ، تحقيق حتي ، Princeton ، ١٩٣٠ .
نص أندلسي جديد ، قطعة من كتاب فرحة الانفس في تاريخ الاندلس ، القاهرة ١٩٥٦ .
النصولي ، الدولة الأموية في قرطبة ، ١٩٢٦ .

النعمان بن حيون ، المجالس والمسايرات ، مخطوطة بجامعة القاهرة ، برقم ٢١٦٦ .

نقولا زيادة ، صور من التاريخ العربي مصر ١٩٤٦ .

نورمابينز ، الإمبراطورية البيزنطية ، مع فصلين من تاريخ الدولة البيزنطية لشارل ديل ، وفصل علاقة الإسلام لفزلييف ، وثبت بأسماء الأباطرة الرومان الشرقيين لستيفن رونسمان ، تعريب مؤنس وزايد ، ط ٢ ، القاهرة ١٩٥٧ .

النويري ، نهاية الأرب ، مخطوط بدار الكتب ، برقم ٥٤٩ معارف عامة .

هارتمان وباراكلاف ، الدولة والإمبراطورية في العصور الوسطى ، ترجمة جوزيف نسيم ، القاهرة ١٩٦٦ .

ابن واصل ، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ، ٣ أجزاء ، نشر الشيال ، القاهرة ١٩٥٣ وما بعدها .

ولسيم ميور ، تاريخ دولة المماليك في مصر ، ترجمة عابدين وسليم حسن ، القاهرة ١٩٤٤ .

وهيبة سمعان ، الثقافة والتربية في العصور الوسطى ،القاهرة١٩٦٢ .

ياقوت ، معجم البلدان ، تحقيق أمين خانجي ، ٨ أجزاء ، القاهرة ١٩٣٢ — ١٩٠٦ .

اليعقوبي ، كتاب البلدان ، تحقيق Houtsma ،ط Lug. Bat ، B.G.A. ،١٨٩٣ .

يحيى الانطاكي ، صلة تاريخ أوتيخا ، تحقيق وترجمة ، ١٩٢٤ ، بيروت ١٩٠٥ .

يوسف كرم ، تاريخ الفلسفة الأوربية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٧ .

(ب) مصادر ومراجع أوروبية

Abel : Un Hadît sur la prise de Rome dans la tradition eschatologique de l'Islam. Arabica, tv., jan. 1958, Fasc. I, Isqq.

Acta Innocentii, ed. Haluscyskyj. Vatican, 1944.

Albert Girard : La guerre monétaire au XIVe et XVe siècles. Annales d'Histoire sociale- t II, juillet, 1940.

Alfonso el Sabio : Cronica General (Neuve Biblioteca de Autores Espanoles. Madrid, 1906.

Alphandéry et Dupont : La chrétienté et l'idée de croisade. Les premières croisades. Paris, 1954.

Amari : Storia dei Musulmani di Sicilia, 3 vols. Firenze, 1854-1868. Seconda edizience. Catania, 1933-1939. لم تستعمل
: Biblioteca arabo — sicula. Lipsia, 1857.
: L'Italia descrita nel « Libro del re Ruggero », comp. de Edrisi Roma, 1883.

[وهو نص عربي من كتاب نزهة المشتاق للإدريسي ، يشتمل على مقدمة وصفة البلاد ، التي هي الآن : مملكة إيطاليا] .

Ambroise : The Crusade of Richard Lion-heart. Transl., from the old Frensh by Hubert. New York, 1940.

Angelo : Histoire de la Palestine. Paris, 1932.

Anna Comnena : The Alexiad. An English transl., by Dawes. London, 1928.

Annales Regni Francorum, ed Kurze. Hannover, 1895.

Archer : The Crusade of Richard. London, 1888.

Artin : Contribution à l'étude du Blason en Orient. Londres, 1902.

Atiya (Surial) : The Crusade of Nicopolis. London, 1934.

: The Crusade in the later middle ages. London, 1938.
: Egypt and Aragon. Embassies and Diplomatic correspondence between 1300 and 1330. Leipzig, 1938.
: Crusade, Commerce and Culture. Bloomington, 1962.

Bailly : Saint Louis. Paris, 1949.

Baldwin : The Mediaeval Church. New York, 1960.
: A History of the Crusades. The First Hundred years. Volume I, Philadelphia, 1955.

Baron de Delabre : Rhodes of the knights. Oxford, 1909.
Civtate Dei. London, 1962.

Barthold : Histoire des Turcs d'Asie centrale, adap. Franc., par Mme Donskis. Paris, 1945.

Bayle : Dictionnaire Historique et Critique.

Baynes : The Political Ideas of St. Augustine's «De Civitate Dei». London, 1962.

Bell : A Short History of the Papacy. London, 1921.

Bernhardi : Konrad III. 2 vols. Leipzig, 1883.

Biehringer : Kaiser Friedrich II. Berlin, 1912.

Blochet : Relations diplomatiques des Hohenstaufen avec les Sultans d'Egypte. 1902.

Bloy : Constantinople et Byzance. Paris, 1917.

Bohn H.G. : Chronicles of the Crusades. London, 1943.

Boissonade : Du nouveau sur la chanson de Roland. Paris, 1928.

Bonilla : Historia de la filosofia espanola Madrid, 1911.

Boulanger : La vie de Saint-Louis. Paris, 1929.

Bouquet : Recueil des Historiens des Gaules et de la France. Vol. 2. Paris, 1738 sqq

Bréhier : Histoire de la première Croisade, 1905.
Les origines des rapports entre la France et la Syrie : Le Protectorat de Charlemagne. Congrès Français de la Syrie. Fasc. 2. Vol XXI. Marseilles et Paris, 1919, pp. 67-75.
: Charlemagne et la Palestine. Revue Historique, Vol. CL VII, 1928, pp. 277-298.
: L'Eglise et l'Orient au Moyen Age : Les Croisades. 5e éd., Paris, 1928.
: Vie et mort de Byzance. Paris, 1928.

Brémond : Berbères et Arabes. Paris, 1942.

Bradley : The Story of the Goths to the End of the Gothic Dominion in Spain. New York, 1888.

Buchler : Harun'ul-Rachid and Charles the Great. Cambridge, 1931.

Byrne D. : Crusades. London, 1928.

Cahen **(Claude)** : Indigène et Croisés. Paris, 1954.
: La Syrie du Nord à l'époque des Croisades et la principauté franque d'Antioche. Paris- 1940.

Cahun : Introduction à l'histoire de l'Asie : Turcs et Mongols des origines à 1405. Paris, 1896.

Calmette : Charlemagne, sa vie, son œuvre,. Paris, 1945.
: Le Moyen-Age. Paris, 1948.

Cambridge. Med. Hist. 8 vols, Cambridge, 1913-36.

Canard : L'Impérialisme des Fatimides et leur propagande. Annales de l'Inst. d'Et. Or. 6, 1942.
: Une lettre du calife fâtimite al-Hâfiz (524-544/1130-1149) à Roger II, Palerme, 1955, p. 125-146, dans alti del convergno Internazionale di Studi Ruggeriani.

Cantor : The Medieval World, 300-1300. New York, 1963.

Cavaignac : L'Empire Mongol. 2è phase. Paris, 1927.

Cedrenus : Synopsis Historiae Corpus Scriptioum
Historiae byzantinae, ed Bekker (C.S. H.B.) 1838-9.

Chalandon : Histoire de la domination normande en Italie et en Sicile, 1009-1194, 2 vols, Paris, 1907.
: Jean II, Comène, Manuel Comène. 1912.
: Histoire de la première croisade jusqu'à l'élection de Godefroi de Bouillon. Paris, 1925.

Champdor : Saladin. Le plus Pur Héros de l'Islam. Paris, 1956.

Colin : Avenzoar. Paris, 1911.
Contribution à l'étude des relations diplomatiques entre les Musulmans d'Occident et l'Egypte au XVe siècle. Ext. des Mém. I.F. Le Caire, 1935.

Codera : Estudios criticos de historia arabe-espanoles. Vols. VII IX. Zaragoz, 1903. Madrid, 1917.

Collier : The Great Events of History. London, 1896.

Combe : Le texte de Nuwairi sur l'attaque d'Alexandrie par Pierre I de Lusignan. Bull. Fac. Alex. 1946.

Condé : Historia de la dominacion de los Arabes, en Espana, scada de vairos manuscritos y memorias. arabigas. 3 vols. Madrid, 1820-1821.
: Histoire de la domination des Arabes et des Maures en Espagne et en Portugal, depuis l'invasion de ces peuples jusqu'à leur expulsion définitive, Paris 1825.

Conder : The latin kingdom of Jerusalem, 1099-1291. London, 1897.

Coulson : Crusades, Commerce and Adventures. London, 1930.

Coy : The Crusades. London, 1884.

Crawford : The Rulers of the South, Sicily, Calabria, Malta, 2 vols. New York, 1901.

Creasy : History of the Ottoman Turks. London, 1878.
: The fifteen decisive battles of the World, from Marathon to Waterloo. London, 1883.

Crump : The Legacy of the Middle Ages. Oxford, 1951,

Cyaplicka : The Turks of Central Asia in History and the Present day. Oxford, 1912.

Darry : L'Egypte sous le règne de Barsbay. Beyrouth, 1961.

Delaruelle : Essai sur la formation de l'idée de Croisade. Bull. de Litt. écclés. 1941-1944.

Delaville : La France en Orient au XIVè siècle. 2 vols. Paris 1886.
: Les Hospitaliers en Terre Sainte et à Chypre. Paris, 1904.
: Les Hospitaliers à Rhodes jusqu'à la mort de Philibert de Naillac 1310-1421. Paris, 1913.

De Mas-Latrie : Histoire de l'île de Chypre sous les princes de la Maison de Lusignan. Paris, 1952-53.

Deschamps : Le Crac des Chevaliers. 2 vols. Paris, 1935.
: La défense du royaume de Jérusalem, étude historique, géographique et monumentale, Paris, 1939.
: Les Châteaux des croisés en Terre Sainte. Paris 1941.

Dezobry : Dictionnaire de Biographie et d'histoire. 2 vols. Paris, 1869.

D'hsson : Histoire des Mongoles, depuis Tchinguiz-khan jusqu'à Timour bey ou Tamerlan. 4 vols. Amsterdam, 1834-1853.

Diehl : **Byzance** : Grandeur et Décadence. Paris, 1919.
et Marçais : Le Monde Oriental de 395 à 1081, t. III.

Dodu : Histoire des institutions monarchiques dans le royaume latin de Jérusalem. Paris, 1894.
: Le royaume latin de Jérusalem. Paris, 1914.

Dölger : Regesten der Kaiserurkunden, des Ostromischen Reiches I, Berlin-Munich, 1924.

Dozy : Supplément aux Dictionnaires Arabes. 2 éd. Leyden, 1881.
: Recherches sur l'histoire et la littérature de l'Espagne. 2 vols. 1881.
: Histoire des Musulmans d'Espagne jusqu'à la conquête de l'Andalousie par les Almoravides. Nouv. Ed. par Lévi — Provençal. 3 vols. Leiden, 1932.

Du Cange : Histoire de l'Empire de Constantinople sous les Empereurs français, jusqu'à la conquête des Turcs. 2 vols. Nouv. Ed. Buchon, 1826.

Eginhard : Vita, trad. Halphen.

Enan : Decisive Moment in the History of Islam, 3 ed. Cairo, 1948.

Enciclopedia Italiana, 1929-7.

Encyclopaedia Britannica, 1965.

Encyclopédie de l'Islam 1 éd; 2éd.

Enlart : Les Monuments des Croisés dans le Royaume de Jérusalem. 2 vols. Paris, 1925-8.

Eusebius : The Ecclésiatical History. ed. Kirsopp Lake, 2 vols. London, 1949.

Fabricius : La première invasion des Normands dans l'Espagne musulmane en 844. Lisbonne 1892.

Faris N. : The Arab Heritage. Princeton, 1944.

Fichtenau : The Carolingian Empire. Oxford, 1957.

Foucher : Assises du royaume de Jérusalem (Texte franc et Ital.) 2 tomes. Rennes, 1839-41.

Gabrielli : La politique arabe des Normands de Sicile. Stvdi Islamica IX, Paris, 1958, p. 83 sqq.

Gaston Paris : La légende de Saladin. J. des Savants, mai, 1893, p. 284-299.

Gaud-Demombynes et Platonov : Le Monde musulman et byzantin, jusqu'aux croisades. Paris, 1931.

Gay : Les Papes du XIè siècle et la Chretienté. Paris, 1926.

Gayet (Albert) : L'itinéraire des expéditions de Jean de Brienne et de Saint Louis en Egypte et les traces qu'elles y ont laissées. Paris, 1906.

Gesta Dei per Francos, éd Bongars (XV siècle) 2 vols. Hanover, 1611-1612.

Gesta Francorum et Aliorum Hierosolymitanorum. Transl. into English for the first time by Somerset de Chair. England, 1945.

[ولها ترجمة عربية بعنوان : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي ، القاهرة ١٩٥٨] .

Gibb : The Damascus Chronicle of the Crusades. London, 1932.
: The Career of Nûr ad-Din, Pensylvania, 1955.
: The Rise of Saladin, 1169-1189, Pensy. 1955.
: Zengi and the fall of Edessa. Pensyl, 1955.

Gibbon : The History of the decline and fall of the Roman Empire, 1923.

Giulio Bassetti : Mahommed et Saint François. Ottawa, 1959.

Goitein : The Unity of the Mediterranean World in the Middle Ages. S.I. 1960- XII.

Gobulovich G. : Biblioteca Bio-Bibliographica della Terra Santa e dell' Oriente Francescano. 5 vols. Florence, 1906.27.

Gonshoff : Histoire des relations internationale. Le Moyen-Age. Paris, 1935.

Greenwood : The Empire and the Papacy in the Middle Ages. London, 1901.

Grousset : Histoire des Croisades et du Royaume Français de Jérusalem. 3 vols. Paris, 1934-1936.
: L'épopée des Croisades. Paris, 1939.
: Bilan de l'Histoire. Paris

Guibert de Nogent : Histoire des Croisades. 2 vols. Paris, 1825-1826.

Hagenmeyera : Le vrai et le faux sur Pierre l'hermite, trad, Raynaud. Paris, 1883.
: Chronologie du Royaume de Jérusalem. Paris, 1901.
Chronologie de la première croisade. Paris, 1902.

Halphen : Les Barbares des grandes invasions aux conquêtes turques du XIe siècle. 5 éd. Paris.
: L'essor de l'Europe (XI-XIII siècles) Paris, 1932.
: Vie de Charlemagne. Paris, 1947.

Haskins : The Normans in European History, Boston, 1915.
: Studies in the History of Mediaeval Science. 2 ed. Cambridge, 1927.
: Studies in Mediaeval Culture. New York, 1929.

Hatim, A : Les poèmes épiques des Croisades. Paris, 1932.

Heyd : Histoire du commerce du Levant au moyen-ages, trad., de l'Allemand. 2 vols. Leipzig, 1885-86.

Hill : A History of Cyprus. 3 vols. Cambridge, 1940-1948.

Hitti : History of Syria. London 1951.

Hodgkin : Charles the Great. London,1897.
: Italy and her invaders. Oxford, 1899. (في عدة مجلات)

Hodey : Godefroi de Bouillon et les rois latins de Jérusalem. 2 éd. Paris, 1859.

Hoogeweg : Der kreuzzug von Damiette, 1218-1221. Wien. s.d.

Hubert : Les Germains, 1952.

Huici : Las Cronicas latinas de la Reconquista. 2 vols. Valencia, 1913.

Hutton : Attila and his Huns. New York, 1915.

Iorga : Brève Histoire des Croisades et de leurs fondations en Terre Sainte. Paris, 1924.

Isidorus Pacensis : Ghronicon.
(يوجد في ملحق أخبار مجموعة) .

Jauna : Histoire générale des royaumes de Chypre et de Jérusalem. Paris, 1947.

Joinville : Histoire de Saint-Louis. Texte original du XIVe siècle, accompagné d'une traduction en français moderne, par Wailly. Paris, 1874.

Jones : Constantine and the Conversion of Europe. London, 1961.

José Miguel : Cultural Relations between Spain and the Arab World. Madrid, 1960.

Julien (Félix) : Note sur l'emplacement de l'ancienne Damiette. Le Caire, 1887.
: Papes et Sultans. Pairs, 1879.

Julien (Charles) : Histoire de l'Afrique du Nord. Paris, 1952

Kantorowicz : Fredrick the Second. London,1931.

Katz : The Decline of Rome and the Rise of Medieval Europe. New York, 1960.

King : The knights Hospitalliers in the Holly Land. London. 1931.

Krey : The first Crusade. The Account of Eyewitness and Participants, reprinted Gloucestor, 1958.

Kington : History of Frederick II. 2 vols. London, 1862.

Kleinclausz : Charlemagne sur la Terre Sainte. Syria, Vol. VII, 1926, pp. 211-233.
: Charlemagne. Paris, 1934.

Knight : Economic History of Europe to the End of the Middle Ages. Boston, 1926.

Kulger : Studien zur Geschichte des Zweiten Kreuzzugec. Stuttgart, **1866.**

Lamb : The Crusades (the flame of Islam). London, 1931.

Lambert : Art musulman et art chrétien dans la péninsule ibérique. Toulouse, 1958.

Lammens : La Syrie, Précis Historique. Vol. I. Beyrouth 1921.

La Monte : The World of the Middle Ages. New York, 1949.
: Feudal monarchy in the Latin kingdom of Jerusalem (1100-1291). Cambridge, 1932.

Lane - Poole : A History of Egypt in the Middle Ages. London, 1901.
: Saladin and the fall of the kingdom of Jerusalem. London, 1898.

Lang : Cyprus London, 1878.

Lauer : Le poème de la destruction de Rome. Mélange de l'Ecole de Rome XIV, 1899, pp. 307-91.
: Correspondances diplomatiques entre les sultans mamlouks d'Egypte et les puissances chrétiens. Rev. de l'Orient chrétien, IX, Paris, 1904.

Laurent : Les barbares et le catholicisme. Brussels, 1864.
: Des Grecs aux Croisés ; dans Byzantion, 1924, p. 367-449.

ᴮˀvoix : Catalogue des Monnaies Musulmanes de la Bibliothèque Nationale de Paris, 1891 - 1896.

Legendre : Nouvelle Histoire d'Espagne. Paris.

Le Febvre : Pierre l'Ermite et la Croisade. Paris, 1946.
Les Archives de l'Orient Latin. 2 vols. Paris, 1881-1884.

Lévi-Provençal : L'Espagne musulmane au Xe siècle : Institutions et vie sociale. Paris, 1932.
: La civilisation arabe en Espagne : Vue générale. Le Caire, 1938.
: Espana Musulmana Hasta la Caida del Califato de Cordoba. Trad Gomez, t IV. Madrid. 1950. (Menendez Pidal. (في مجموعة)

Lewis E. : Medieval Political iIdeas. 2 Vols. London, 1954.

Le Strange : Palestine under the Moslems. London, 1890.

Longnon : Les Français d'Outremer au Moyen Age, Paris, 1929.

Lot : The End of the Ancient World and the Beginnings of the Middle Ages. London, 1931.
: Les invasions barbares et le peuplement de l'Europe. Paris, 1937.

Lont : Essai d'intervention de Charles le Bel en faveur des chrétiens d'Orient. Bibliothèque de l'Ecole des Chartes, XXXVI, Paris, 1875.

Luchaire et Langlois : Histoire de France, depuis les origines jusqu'à la révolution, publiée sous la direction de Lavisse. t I - III, Paris, 1923.

Lugwig (Schmidt) : Geschiche der deutschen Stämme bis zum Ausgang der Völkerwanderung. 2 vols. Berlin, 1910-1918.

Machaut : La prise de l'Alexandrie ou Chronique de Roi Pierre 1er Lusignan. Publ. par Mas-Latrie. Genève, 1877.

Marin : Histoire de Saladin, 2 tomes. Paris, 1758.

Mas - Latrie : Histoire de l'île de Chypre, sous le règne des princes de la maison de Lusignan. 3 vols. Paris- 1851, 52, 54.

Mathieu d'Edesse : Chroinque, continuée par Grégoire le Prêtre, trad. Dulaurier. Paris, 1858.

Mathilde Pomès : Le Romancero : Introd et trad. Paris, 1947.

Mawer : The Vikings, 1930.

Meyer : La prise de Damiette en 1219, relation inédite en provençal. Paris, 1877.

Mercier et Séguin : Charles Martel et la bataille de Poitiers. Paris, 1944.

Menendez Pelayo : Historia de los Heterdoxos Espanoles. Madrid, 1946.

Michaud : Bibliographie des Croisades, 2 vols. Paris, 1822.
: Hist. des Croisades, 4 vols. Paris, 1853.

Michel Psellos : Chronographia, ed et trad. Reinaud. Paris, 1828.

Miguel Lafuente Alcantra : Historia de Granada, Granada, 1904.

Miller W. : The Latins in the Levant. London, 1908.

Mills (Charles) : The History of the Crusades. London- 1828.

Muller : The Latin Orient. London, 1920.

Nicolau d'Olwer : L'expansion de Catalunya en la Mediterrània Oriental. Enciclopedia Catalunya. vol. I. Barcelona, 1926.

Norgate : Richard the Lion Heart. London, 1924.

Noss : The Birth of the Middle Ages, 395-814. London, 1937.

Oman : The Art of War in the Middle Ages. A.D. 378-1515. New-York, 1960.

Ortega y Rubio : Los visigodos en Espana. Madrid, 1903.

Palencia : Los Mozzrabes de Toledo, en los siglos XII y XIII, 4 vols. 1928 - 30.
: Historia de la Espana Musulmana 2 ed. Barcelona, 1929.
: El-Islam y occidente. Madrid, 1931.

Paulin Panis : Guillaume de Tyr et ses continuateurs. Paris, 1879.

Pelliot : Les Mongols et la Papauté. Paris, 1923-4.

Pérez Pujal : Historia de la Instituciones sociales de la Espagna goda, 4 vols. Valencia, 1896.

Pernoud : Les Villes marchandes aux XIVème et XVème siècles. Paris.

Pidal : The Cid and his Spain. London- 1934.

Pierre André : L'Islam et les Races. 2 vols. Paris, 1932.

Pirenne : Mahomet et Charlemagne, Paris 1937.

: Medieval Cities. Trans, from the French by Halsey. Princeton, 1948.

Pirenne et autres : La Civilisation occidentale au Moyen Age du XIè au milieu du XVè siècle. Paris, 1941.

Prieto y Vives : Los Reyes de Taifas. Madrid, 1926.

Primera Cronica General de Espana ed Menendez Pidal, en Nieva Bibl. de Autores Espanoles. vol. V. Madrid, 1906.

Prou : La Gaule mérovingienne. Paris, 1897.

Quatremère : Histoire des Mongols de la Perse. Paris, 1838.

Rebillon : L'Egilse au Moyen Age. Papes, Moines et Conciles. Paris, 1904.

Recueil des Historiens des Croisades. 16 Vols. Paris, 1841-1906.

Reinaud : Invasions des Sarrazins en France. Paris, 1836.

له ترجمة عربية من شكيب ارسلان .

De l'Art Militaire chez les Arabes au Moyen Age. J.A.O. Sept. Paris, 1848.

Rey E. : Recherches géographiques et historiques sur la domination des Latins en Orient. Paris, 1877.

: Les Colonies Franques de Syrie aux XIIe et XIIIe siècles. Paris, 1883.

: Hist des Princes d'Antioch. Paris.

: Essai sur la domination française en Syrie pendant le Moyen Age. Paris, 1866.

Riant : Inventaire critique des Lettres Historiques des Croisades. A.O.L.I. 1 - 224. Paris, 1881.

Ribera : Bibliofilos y Bibliotecas en la Espana musulmana. Sarragossa- 1896.

Risiani : Documenti E Eirmanu XVIII Documento pp. 210-226. Gerusalemme, 1931.

Risler : La civilisation arabe. Paris, 1955.

Röhricht : Geschichte des Königreichs. Jerusalem. Innsbruck, 1898.

Romano : La dominazioni barbariche en Italia. 395-1024. Milan, 1903.

Roy : Histoire des Templiers. Tours, 1851.

Ruiz-Morales : Cultural Relations between Spain and the Arab World. Lecture. Madrid, 1960.

Runciman : A History of the Firist Bulgarian Empire. London, 1930.
: Byzantine civilization. London, 1948, trad. franc. par Lévy. aPris, 1952.
A History of the Crusades. 3 vols. London, 1953-8.

Saavedra : Estudio sobre la invasion de Los Arabes en Espagna. Madrid, 1882.

Schlumberger : Les principautés franques du Levant, d'après les plus récentes découvertes de la numismatiques. Rev. des Deux Mondes. Juin, 1876.
: Un empereur byzantin au Xème siècle, Nicephore Phocas. Paris, 1890.
: L'épopée byzantine à la fin du Dixième siècle. Paris, 1896 (Jean Tzimiscès).
: Les Campagnes du roi Amaury 1er de Jérusalem en Egypte au XIIe siècle. Paris 1906.
: Prise de Saint Jean d'Acre en l'an 1291, par l'armée de Soudan d'Egypte. Paris- 1914.
: Le Siège. La prise et le sac de Constantinople par les Turcs en 1453, 6 éd., Paris, 1922.
: Renaud de Châtillon, prince d'Antioche, seigneur de la terre d'outre-Jourdan. Paris, 1923.
: Expéditions des Almugavaris ou Routiers Catalans en Orient. Paris, 1924.
: Byzance et les Croisades, Paris, 1927.

Scriptores minores Quinti Sacri Beli, ed Röhricht, 1879.

Seignobos (ch) : L'Epigraphie Arabiche de Sicilia. Palermo, 1875.

Setton : A History of the Crusades. 2 vols. Pennsylvania, 1958.

Siragusa . Il regno di Guglielmo I in Sicilia. Palermo, 1885-86.

Stevenson : The Crusades in the East. Cambridge, 1907.

Stubbs : Germany in the Early Middle Ages. 476-1250. London, 1908.
: Germany in the later Middle Ages. 1200-1500. London, 1908.

Sullivan : Heirs of the Roman Empire. New-York, 1960.

Tamara Omar : Ombres et Rayons du Moyen Age. Le Caire, 1961î.

Taylor : The Mediaeval Mind. 2 vols. Cambridge- 1959.

Teorasse : Islam d'Espagne. Une rencontre de l'Orient et de l'Occident. Paris, 1958.

Tewfik Iskandar : La Mission de Piero Diedo et la cession de Chypre, 1490. Le Caire, 1956.

Thoumin : Histoire de Syrie. Paris, 1929.

Ulmann : Principles of Government and Politics in the Middle Ages. London, 1961.

Villari : Mediaeval Italy from Charlemagne to Henry VII. Transl by Hutton. London, 1910.

Wallon : Saint Louis et son temps. 2 vols. Paris, 1875.

Wiel : The Navy of Venice. London, 1910.

Wiet : Les Marchands d'épices sous les Mamelouks. Le Caire, 1955. Cahiers d'Eg. Série VII. Fasc. 3, Juin, 1955, p. 85 sqq.

Wilken : Geschichile der Kreuzzüge. 7 vols. Leipzig, 1807-32.

Yewdale : Bohemond 1er, prince of Antioch. Princeton, 1924.

Yonge (Charlotte) : The Story of the Christians and Moors of Spain. London, 1878.

Zananiri : L'Egypte et l'équilibre du Levant au Moyen-Age.

Ziegler : Church and State in Wisigothic Spain. Washington, 1930.

Zotenberg : Invasions des Sarrazines dans la Languedoc d'après les historiens musulmans. Toulouse, 1875.

: Invasions des Wisigoths et des Arabes en France. Toulouse. 1876.

(ح) جدول عام

— ب —

— خ —

— د —

— ر —

— ز —

– و –

– ي –

تصويب الخطأ

الصفحة	رقم السطر	الخطـــأ	الصواب
٦٦	هامش (٤)	kinsopdak	Kirsopp. Lake
٣٥	٤	Ménorca	Menorca
٤٥	١٥	أكوتانيا	أكويتانيا
٤٧	٥	a l'envers	à l'envers
٤٨	١	على رومية	رومية
٥٩	١٧	أوارها وأن	أوارها ، وأن
٨٥	هامش (١)	Cypre	Chypre
	هامش (٥)	عبد الحكيم ٢٠٠ (	عبد الحكيم (.
٩٠	هامش (٦)	—	270 : Finaly ...
١٠٥	٨	— روونة	ـــردونةـــ
١١٦	هامش (٣)	Paris, 1909	Paris, 1896
١٤٠	هامش (٢)	London	London, 1928
١٤٩	هامش (١)	kuds	؛ Kuds
١٥١	هامش (١)	الفر	الفرما
١٧٨	هامش	Huber	Huhert
٢٠٧	هامش (٤)	L'Alaexandrie	L'Alexandrie
٢١٥	هامش (٥)	أنظر . :	أنظر . 'Atiya :
٢٢٣	١٣	القرن ١٤ م ،	،
٢٥٨	٩	وإنهم	وأنهم

للمؤلف

* نظم الفاطميين ورسومهم في مصر . دراسة شاملة للنظم السياسية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٥٣ . (مكتبة الأنجلو المصرية).
* مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي . تعريف بمصادر التاريخ الإسلامي ومنهاجه الحديث ، القاهرة ١٩٥٣ . (مكتبة الأنجلو المصرية).
* السجلات المستنصرية . سجلات وتوقيعات وكتب لمولانا الإمام المستنصر بالله أمير المؤمنين ، صلوات الله عليه، إلى دعاة اليمن وغيرهم ، قدّس الله أرواح جميع المؤمنين ، تقديم وتحقيق ، القاهرة ١٩٥٤ . (مكتبة دار الفكر العربي).
* نظم الفاطميين ورسومهم في مصر . دراسة شاملة لنظم القصر الفاطمي ورسومه ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٥٥ . (مكتبة الأنجلو المصرية).
* التاريخ السياسي للدولة العربية ، في جزءين ، الطبعة الأولى ، القاهرة ١٩٥٦ — ١٩٥٧ . (مكتبة الأنجلو المصرية).
* الناصر صلاح الدين الأيوبي ، القاهرة ١٩٥٨ . (مكتبة الأنجلو المصرية).
* الحاكم بأمر الله ، الخليفة المفترى عليه، القاهرة ١٩٥٩. (مكتبة الأنجلو المصرية).
* التاريخ السياسي للدولة العربية ، في جزءين ، الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة ، القاهرة ١٩٦٠ . (مكتبة الأنجلو المصرية).
* الأطلس التاريخي للعالم الإسلامي في العصور الوسطى ، تصنيف وتحقيق، بالإشتراك مع عليّ البنا ، القاهرة ١٩٦٠ . (مكتبة دار الفكر العربي).
* الإمام المستنصر بالله الفاطمي ، القاهرة ١٩٦٠ . (مكتبة الأنجلو المصرية).
* تاريخ الحضارة الإسلامية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٣ . (مكتبة الأنجلو المصرية).
* مقدمة لدراسة التاريخ الإسلامي ، الطبعة الثانية ، مزيدة ومنقحة ، القاهرة ١٩٦٤ . (مكتبة الأنجلو المصرية).
* نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر . دراسة شاملة للنظم السياسية ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٦٥. (مكتبة الأنجلو المصرية)،
* التاريخ السياسي للدولة العربية ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ، النقحة ومزيدة ، القاهرة ١٩٦٥ . (مكتبة الأنجلو المصرية).
* التاريخ السياسي للدولة العربية ، الجزء الثاني ، الطبعة الثالثة ، منقحة ومزيدة ، بيروت ١٩٦٦ . (مكتبة الجامعة العربية).
* نظم دولة سلاطين المماليك ورسومهم في مصر ، دراسة شاملة لنظم بلاط المماليك ورسومه ، الجزء الثاني . [تحت الطبع].
* تاريخ الشام الإسلامي الوسيط ، من الفتح الإسلامي إلى العثمانيين ، في جزءين . [تحت الطبع].
* ظهور دولة الفاطميين وسقوطها في مصر . [تحت الطبع].

HISTOIRE
des Relations entre l'Orient et l'Occident au Moyen Age.

A. M. MAGUED

Professeur adjoint à L'Université Ain-Chams
et à L'Université Arabe de Beyrouth
Docteur ès-Lettres de la Sorbonne.

Librairie de l'Univ. Arabe

Beyrouth, 1966